حراثة
في الذاكرة التربوية

حراثة في الذاكرة التربوية

د/ عبد الغفور الهيتي

الطبعة الأولى: ٢٠١٥م

الدوحة، قطر

الناشر: وزارة الثقافة والفنون والتراث

إدارة البحوث والدراسات الثقافية

قسم الإصدارات الثقافية والنشر

هاتف: ٤٤٠٢٢٨٥٠ (+٩٧٤)

فاكس: ٤٤٠٢٢٢٣١ (+٩٧٤)

ص.ب: ٣٣٣٢

رقم الإيداع: ٣٠٣ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي (ردمك): ١ - ٩٦ - ١٠٤ - ٩٩٢٧ - ٩٧٨

المراجعة والمتابعة: خالد العودة الفضلي

تصميم وإخراج: أحمد محمد حنفي - مطابع الوراق

جميع الحقوق محفوظة

(لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر).

حراثة
في الذاكرة التربوية

نصف قرن في التربية والتعليم

تأليف
د/ عبد الغفور الهيتي

الدوحة - ٢٠١٥ م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

إن وزارة الثقافة والفنون والتراث، وهي تقدم الإصدار تلو الآخر، إنما تسعى دائما الى تحري الجدة والجودة والتميز، وتتنوع الإصدارات حتى تلامس كل مناحي الحياة.

يسعد قسم الإصدارات الثقافية والنشر بإدارة البحوث والدراسات الثقافة بوزارة الثقافة والفنون والتراث أن تعرف القاريء الكريم على تجربة ثرية وطويلة لرجل تربوي أمضى سنوات طويلة بهذا المجال الذي يهدف الى بناء المجتمع.

إن المؤلف وهو يدون تجربته بحلوها ومرها ويضعها بين يدي القارئ ليطلع عليها ويأخذ منها ما يجده مناسبا. إن كل قراءة إنما هي عمر يضاف إلى أعمارنا بتجاربه وتفاصيل حياته.

نأمل أن يجد هذا الكتاب (حراثة في الذاكرة التربوية – نصف قرن في التربية والتعليم) للدكتور عبد الغفور الهيتي أن يقدم بما يضمه بين دفتيه الفائدة والمعلومة والمتعة للقارئ.

إدارة البحوث والدراسات الثقافية

تقديم

الحمد للّه الذي خلق الإنسان، وعلّمه البيان، وجعل من البيان حكمةً وسحرًا، والصّلاة والسّلام على نبيه ورسوله محمد ﷺ، أسلمُ الناس قلبًا، وأصدقُهم لسانًا، وأفصحُهم لغةً، وأبلغُهم بيانًا.

أما بعد فقد قدّر اللّه عزّ وجلّ خلق الإنسان في بطن أُمّه أَطوارًا حيث يكون نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظامًا، ثم يكسو العظام لحمًا، ثم يُخرجه خلقًا آخر لا يعلم شيئًا، وجعل حياته أطوارًا أيضًا فيكون طفلاً، ثم يبلغ أشُدّه، وبعد ذلك يُردُّ إلى أرذل العمر؛ لكي لا يعلم من بعد علم شيئًا.

وها هو الشيخ الدكتور عبد الغفور الهيتي يُتحفنا ويضع بين أيدينا عُصارة تجاربه العلمية والتربوية والإجتماعية، وذلك بعد ما عاشها طورًا بعد طور، وركبها طبقًا بعد طبق بأفراحها وأتراحها، ومسرّاتها وأحزانها، طاف بها بين مختلف البلدان والمجتمعات.

ولا عجب فيما أتى على ذكره في مذكراته هذه، وما مرّ به من محطات فهو مسلم عراقيّ غيورٌ على دينه وبلده وأُمّته عانى ما عاناه شعبُهُ وبلدُه من حوادث ونكبات تشيب لها الولدان، ولو تحدثنا إلى الجيل الذي يلينا وقصصنا عليه حقائق هذه الحِقبة التي عاشها الدكتور الهيتي وغيره من أبناء أمته لكان حديثنا معهم أشبه بالخيال، كما ننظر نحن الآن إلى ما سطّره لنا بعضُ أجدادنا على أنه نسج الخيال.

وقد صوّر لنا الدكتور الهيتي من خلال مذكراته هذه الحِقب التي مرّ بها هذا البلد الصابر، وعلى حدّ علمنا لا نكاد نقف على أحد حاول أن يقوم بما قام به الدكتور الهيتي بهذه الطريقة من توثيق للحياة الإجتماعية، وقد استعان بقلم المسلم الصادق المنصف المتجرِّد - ولا نزّكي على اللّه أحدًا - وبأسلوب أدبيّ رشيق يرقُّ أحيانًا ويقسو أخرى، وما ذاك إلاّ انعكاس لما أتت عليه من حوادث بيَّنت لنا صدق المشاعر التي انتابته يوم مرّت عليه.

ولاشكَّ أنّ رؤية الإنسان وادراكه لكثير من الأمور عندما يعيش في ضمن دائرة بلده تختلف عنها حين ينتقل إلى بلد آخر تختلف عاداته وتقاليده عمّا ألِفه، فكيف به وقد تنقّل بين بلدان عدة ومجتمعات مختلفة، لا ريب أن التجربة ستكون أكبرَ والرأيُ أنضجَ، بل سيجد نفسه بها حاجة إلى إعادة النظر في كثير من الأشياء التي كان يراها صوابًا لا تقبل التغيير أو النقاش، وقد أُثِر عن النبيّ المعصوم ﷺ قوله:(لو استقبلت من أمري ما استدبرت لفعلت كذا وما فعلت كذا).

ولعلّ الدكتور الهيتي حاكا في مذكراته وتجاربه هذه كثيرًا مما يجول في عقولنا وقلوبنا، وما منا إلاّ وقد أتى عليه بعض ما أتى على الدكتور الهيتي، لكن ليس كلنا يستطيع أن يكتب ما كتبه، يُضاف إلى ذلك أنه من الجيل الذي شهد بعين الناقد المُتبصِر المُشفِق تحولات بلده الكبيرة وتقلباته السياسية والإجتماعية والإقتصادية خلال العقود الخمسة الماضية.

وكان لي الشرف أن أكون أول القارئين لهذه المذكرات ولاسيِّما أني ابن مدينته التي غادرها يوم كنت صغيرًا، وكان من قدر الله عزّ وجلّ أن نلتقي هنا في المحطة العاشرة من محطات حياته ولا أقول المحطة الأخيرة كما سمّها هو.

وختامًا نسأل الله تعالى للدكتور الهيتي طول العمر، وتمام العافية، ومزيد العطاء، وأن لا تكون هذه آخر محطاته.

الدكتور

فلاح إبراهيم نصيف الفهداوي

أيها القارئ الكريم وأنت أيتها القارءة الكريمة،

ألتمس منكم أن تكرموا أعينكم عن كل زلل،

وخطأ تجدونه في العمل الذي بين أيديكم فهو عمل إنسان

وقد حاول الكاتب

أن يكون كتابه بمثابة سيرته الذاتية

وسِفّرًا لخبراته وتجاربه التربوية

ولكن في إطار أدبي

وقد أخفق في كل ذلك

فهو الآن يعرف «مأزق الكلمات»

ويعرف «ورطة اللغة المحالة»

ولا يدري «كيف يبتدئ الرسالة»

وما من كاتبٍ إلاّ سيفنى

ويُبقي الدَّهرُ ما كتبت يداهُ

فلا تكتب بكفك غير شيء

يسرك في القيامة أن تراه

(الإمام الشافعي)

تمهيد

بُعيد فراغ البرفسور» توماس أنجلو» الأمريكي الأصل مدير إحدى الجامعات في نيوزليندا من إلقاء محاضرته التدريبية التي كانت بعنوان «التقويم للقادة الأكاديميين»، حيث تم الترتيب لها على عجل في الثاني والعشرين من شهر حزيران (يونيه) من عام ستة وألفين في لندن، وبعد يوم شاق متورِّم بأزمات العمل، ومزدحم بمحاولات دفع وسواس الفشل[1]، في وقت ترتفع فيه درجات الحرارة في لندن –عاصمة الضباب– إلى مستويات غير مألوفة عقب خط من الجفاف منذ الشتاء المنصرم، مما حدا بالسلطات البريطانية إلى التعميم بعدم استخدام خراطيم المياه من قبل المتنافسين على الاصطياف والسكن على ضفاف نهر «التيمز» الشهير، حينها سألت البرفسور «توماس» سؤالا كنت قد سُئلته من قِبَل طالب قبْلَ عقد من السنين، رغم أني فضلت عدم المشاركة في الحوار الهادئ الذي أدير من قبل «توماس» بعد أن قرأت الملل والضجر في عيون المتدربين، وأيديهم منهمكة بجمع الوثائق، وتهم برفع الحقائب، وكانت عقارب الساعات قد شارفت على تجاوز المدى المحدد، وبدأت أجهزة النقال تعزف أنغامًا تعكس أذواق حامليها، ولم يتحيَّر «توماس» في الجواب، بل ترنم يسألني مستفسرًا عن طبيعة إجابتي لطالبي، مُبديًا شديد إعجابه بمعالجتي الموقف، ثم أطرق مليًا كأنّ سِنَة من النوم قد غشيته، ثم استفاق قائلاً: (عليك يادكتور بوضع خبرتك في متناول الآخرين). وفهمت منه أنه يريد أن أبدأ مشروع كتابة ترجمة لخبرتي التربوية التي بدأتها منذ مارس عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف للميلاد.

ولم تكن هذه الدعوة هي الأولى، إذ ألح عليّ من قبل كُثُرٌ من الصحب الخلّص ومن رفاق العمل، وأنا لا أحرك ساكنًا لأسباب عدة أولاها: أن آلام ولادة الكتاب عسيرة وأنها تبدأ من النطفة الأولى والتي قطعًا ستعيدني للمعاناة من جديد عندما أمرّ مطأطئ الرأس

---

(١) أقيمت هذه الدورة للقادة التربويين في مبنى أكاديمية الملك فهد في لندن عندما كنت منسقا للتدريب (للمدة بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٨).

أمام كتل ضخام وهياكل جسام من الأخطاء السيِّئة والتصرفات السخيفة، ولست وحدي مَن يحتاج إلى دفع أو تشجيع، إذْ سبقني في هذه العلة كثيرٌ من الكتّاب، أذكر منهم أبا منصور بن إسماعيل الثعالبي حيث ألفّ كتابه «فقه اللغة» بعد أن أشار عليه الأمير عبيد الله بن أحمد الميكالي (صدّق الله قوله ولا أعدم الدنيا طَولَهُ، كما أذاق العدى بأسَه وَصَولَهُ) وهذا من كلام الثعالبي قائلاً: إنك إن أخذت فيه أَجَدتَ وأحسنت، وليس له إلاّ أنت»[١] حينها دلف الثعالبي لِطَيّته[٢]، وألمَ بمقصده، وتُركَ حيث الأدب والكتب، ينتقي منها وينتخب ويفصّل ويبوّب، ويقسّم، وينتجع من الأئمة كالخليل، والأصمعي، والشيباني، والكسائي، والفرّاء، وأبي زيد، وأبي عبيدة، وأبي عبيد، وابن الأعرابي، والنضر، وابن دريد، ونفطويه، وابن خالويه، والخارزنجي، والأزهري، ومن غيرهم من أصحاب الطُرف من الأدباء الذين جمعوا لنا فصاحة العرب البلغاء، إلى إتقان العلماء، يجتبي من أنوارهم، ويجتني من ثمارهم، ويقتفي آثار قوم قد أقفرت منهم البقاع، ويجمع في التأليف بين أبكار الأبواب والأوضاع، وعيون اللغات والألفاظ.

وهذا ابن حزم الأندلسي صاحب كتاب «طوق الحمامة في الألفة والألاف» يقول لصديقه: (وكلّفتني - أعزك الله - أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، ....، مُورِدا لما يحضرني على وجهِ وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكره، فبدرت إلى مرغوبك. ولولا الإيجاب لك لما تكلفته...)، ووضع ابن حزم فعلا رسالته - أعني كتابه - نزولا عند رغبة صديق محب زاره في «شاطبه».

وأرجع هنا لأقول: وستذكّرني هذه المحاولة الكتابية بالأيام التي كانت المؤسسة المدرسية أفضل حالاً وأعلى بنيانًا من البيت، وإني ما زلت مقتنعًا أن النظر إلى الوراء يورث ضعفًا في العزيمة وتصلبًا في الشرايين، ثم إنّي أخشى أن أُضطرّ إلى تبني الكذب أو صورة

---

(١) العلامة اللغوي والأديب أبو منصور بن إسماعيل الثعالبي: فقه اللغة، ص ٢٠ طبعة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، لبنان.

(٢) لطيّته: لوجهه الذي يريد ولنيته التي انتواها.

من صوره لتسويغ بعض التصرفات رغم محاولتي التجرد؛ لأن النفس أمارة بالسوء، أو ربما يأخذني العُجْبُ والزهو بموقف من المواقف التي وقفت مُنْبَريًا في الدفاع عنها والتي ما زلت أعاني الويلات منها، وأحسبني دائم التساؤل مع نفسي، هل كنت تعرضت لقوى ضغط وحرارة وتعرية تكفي لإنضاج تجربتي الحياتية وتجعلني مُمحصًا ومُحصنًا؟ وهل أن تلك القوى والضغوط أعطتني الفرصة الكافية كما فعلت البئر المعطلة عندما أُلقي فيها «السرخسي» فأخرج ثلاثين مجلدًا انتفع بها الناس في دينهم ودنياهم[1]. ومن الدواعي التي أخافتني وجعلتني أتردد كثيرا في الإقدام على الكتابة هي تلك الأبيات التي سبقت هذه المقدمة مباشرة[2]. هذه بعض الأسباب التي سوغت لي الإحجام عن تنفيذ مشروع الكتابة قبل اليوم.

أما دواعي الاستجابة للكتابة فهي كثيرة وربما قوية، فالكتابة فضلا عن معرفتي أنها محاولة ضد النسيان، وتسجيل للحظة التي تفنى، فإني بدأت الدخول في مرحلة من نسيان بعض الأحداث التي ما كنت أظن أني سوف أنساها، وتأكد لي ذلك من خلال شواهد عدة ربما آخرها أن أحد الخلص - أثناء زيارة خصّني بها في حزيران يونيه ٢٠٠٦ من وراء البحار بعد غياب زاد على العقد من الزمن - ما فتئ يذكّرني منذ وصوله بمواقف تربوية عديدة عندما رست بنا سفن الحياة موانئ لم يَدُرْ في خلدي ولا خلد عائلتي أن ترسو عندها[3]، ولي في ابن الجوزي البغدادي أسوة حسنة إذ قال مقدما لكتابه وهو يصطاد خواطره: (لمّا كانت الخواطر تجول في تصفّح أشياء تَعرِضُ لها، ثمّ تُعرِض عنها فتذهب،

(١) «فلقد طرد الرسول الكريم - ﷺ - من مكة فأسس في المدينة دولة، وسجن أحمد بن حنبل فأصبح إمام الأمة، وحبس ابن تيمية فصار علم الأمة، وأبعد ابن الأثير فصنف أربعين مصنفاً، وأصابت الحمى مالك ابن الريب فصار شاعر الدنيا، ومات أبناء أبي ذؤيب الهذلي فرثاهم في إلياذة أنصت لها الدهر»، انظر كتاب لا تحزن للدكتور عائض القرني.

(٢) البيتان اللذان وردا في الصفحة الخامسة من ديوان الإمام الشافعي.

(٣) حيث قضيت سنة أكاديمية (١٩٩٣ - ١٩٩٤) للتدريس في إحدى جامعات الشمال الإفريقي ولجمع المعلومات الضرورية لمتطلبات الزمالة في التربية Post Doctorate.

كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا يُنسى)[١]، ثم أردف معززًا ما ذهب إليه بإيراد الدليل من الحديث النبوي «قّيدوا العلم بالكتابة»[٢] بل أضاف: (وكم قد خطر لي شيء، فأتشاغل عن إثباته فيذهب، فأتأسف عليه، ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكّر، سنح له من عجائب الغيب، ما لم يكن في حسابه، فانثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه، فجعلت هذا الكتاب قيدًا لصيد الخاطر).

وتسطير الخواطر ربما يأتي – كما جاءت «أيام طه حسين» (لأتخلص بكتابتها من بعض الهموم الثقال التي كثيرًا ما تعتري الناس بين حين وحين، وقد تأتي في النهاية على كره مني)[٣].

وكنت قد راجعت أنا الآخر ما كتبته فوجدته في الواقع لا يصلح للنشر كما وجد ذلك طه حسين في «أيامه»، ولكن بعض الصديق ممن قرأ بعض فصوله وأبوابه ألح عليّ بنشره يضاف إلى ذلك ما كان من أهل بيتي وأخص منهم بنتيَّ «ميلاد ووثال». وتمنيت مثلما تمنى طه حسين (أن أكون شاعرا أتخلص من مقالتي وخواطري شعرا أحمّل الشيطان وزره)[٤].

ويضاف سبب آخر هو استشعاري أهمية الخبرة التربوية لبنتيَّ «ميلاد ووثال»، إذْ اختارتا مهنة التدريس في المدارس البريطانية وكانتا تتحلقان في مجلسي بعد صلاة المغرب، وتدفعاني دفعًا بين الفينة والفينة للتحدث لهما عن غزواتي الناجحة والفاشلة، وهما بهذا تمثلان عطشًا جامحًا لِتسقُّط أخباري، وتأكد ذلك لي من خلال حرصهما الشديد على مراقبتي عندما كانتا معي في زيارة قمت بها إلى تركيا لقضاء إجازة الصيف[٥].

(١) انظر «صيد الخاطر» للحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي المتوفى ٥٩٧ هجرية، طبعة دار الحديث، القاهرة.

(٢) حديث أخرجه الحاكم في «المستدرك» مرفوعا من حديث عبد الله بن عمرو، وسكت عنه الحاكم. وقال الذهبي: ابن المؤمل ضعيف. وفيه كلام كثير (المصدر السابق، ص١٢).

(٣) كتاب الأيام لطه حسين – المقدمة.

(٤) المصدر السابق.

(٥) لعلي أنوّه بسفرتي لعام ٢٠٠٠ إلى جنوب تركيا حيث اصطحبتهما لقضاء إجازة الصيف فبادرت إحداهما بوضع ألبوم مدعم بالصور دونت فيه بلغة رشيقة كل حركاتي وسكناتي، وإني دون مبالغة أعتقد أن عملها ليرقى إلى

وكنت أجد صعوبة في اختيار المقدمة التي أستطيع الاستناد إليها للانطلاق منها لإشباع فضولهما، كذلك كثرة المشاغل والالتزامات الحياتية، أو لأني أشعر أن حديثًا من هذا النوع يحتاج إلى التزامات ثقيلة أنا لست أهلاً لها؛ ثم لأن الصور من غير أطرها - أعني زمن الأخبار والحوادث - لن تبدو واضحة؛ لأن تجريد الحوادث من أزمنتها يفقدها الطعم أو النكهة وربما ألوانها كذلك. والجهل بمقدمات الأحداث والظروف المحيطة بها والتسلسل التاريخي لها ربما يؤثر سلباً على مصداقيتها وعلى دافعية المتحدث والسامع فتصبح وكأنها - أي القصة - شريط سينمائي لم يحسن مُقطّع الأفلام انتخاب الصور حسب السياق المطلوب.

ثم لِمَ الكتاب هذا؟ هل هو سيرة ذاتية؟ ومَن أنا من السبعة مليارات من البشر الذين يستعمرون أو إذا صح التعبير يستخربون الأرض؟ وهل هو كتاب تربوي ينقل فيه صاحبه أو كاتبه تجربته الحياتية أو تجاربه التربوية؟ وعلى فرض أنه كتاب ينقل فيه الكاتب تجربته في الحياة، فهل تستحق بذل مجهود الإعلان عنها؟ وماذا يقول الكاتب لنفسه ولزملائه عندما تُعرض فيما بعد على القراء ثم يكتشفون أن الكاتب قد سرق منهم وقتهم الثمين إضافة إلى ثمن الكتاب وإن كان زهيدًا؟ فكم من كتابٍ كُتِبَ لا تتعدى قيمته الحيّز الذي يشغله على رفوف المكتبات التي تئن من وطأة أحمالها لا من رجاحة نوعها... وكم من هؤلاء الذين يعشقون وجه الكتاب ويفضلونه على وجوه الحسان اللواتي تنافسن في الظهور لتقديم نشرات الأخبار على مدار الساعة على شاشات التلفاز في هذا العصر[1]؟

البحوث الإنسانية الجيدة على مستوى الدراسات العليا، ويأتي تقييمي لطول الخبرة في مجال الإشراف على عدد منها من العام ١٩٩١ وحتى العام ٢٠٠٠ (ولكني أعلنت التوبة في المدينة المنورة في بيت أخي الدكتور إبراهيم المحيسن رئيس قسم إعداد المدرسين بكلية التربية هناك، وهو السر وراء اختياري عنواناً للكتاب - خبرات تباع بالمجان - حيث ألجأت الظروف التي مرّ بها الكاتب أن يزاول بيع خبرته للآخرين ممن ألجأتهم قوانين العمل في بلدانهم لأن تضاف كلمة دكتور أمام أسمائهم أو ألقابهم أو لمن كان يشعر أن حرف الدال أمام اسمه يزيده شرفا وينقله إلى عالم الشهرة، وقد عرضت عمل ابنتي على السيدة Mrs C..Greensmith رئيس قسم اللغات في جامعة Hull University فأكدت تقريري في الموضوع وشجعت على طباعته.

(١) أشير بذلك للمقالة الساخرة والتي لا زال صدها الطيب في نفوس من أعرف من القراء العرب للأخ الدكتور حمد الماجد في مجلة «الثقافية» التي تصدر في لندن.

ثم أرجع إلى الخلّص من المعارف لأقول لهم إن محبتكم قد تحجب بصائركم عن زلاتي وهفواتي فلا تُهدى إليّ عيوبي فضلاً عن مكاييل من المديح جرت العادة على أن استلمها محنطة على بطاقات التهاني بالأعياد غيرالوطنية، وهدايا ثمينة من عبوات العطور والدهون الفاخرة والساعات السويسرية، وعلب التمورالملكية المصنوعة من أجل رجال الأعمال وربطات العنق الإيطالية التي ضاقت بها خزانات الملابس، وبهذا فإنكم سوف تساهمون في غش الآخرين من المتعطشين للارتواء من العيون الصافية ولو دون قصد.

ثم أسأل – وأعوذ بالله من التشاؤم – في أي لغة ستُكتب هذه التجربة إن كنت فعلاً قررت الكتابة؟ هل بالعربية التي انحسر عدد قرائها كما انحسرت أنهارنا حتى أصبح بعض زعمائنا ينادوننا بالهجرة إلى عمق الصحراء؛ لأنهم يخافون علينا من برودة أوروبا، فلم تعد شهية العربي لكتاب يهضمه، ولا لصحيفة يتصفحها بل لقنينة غاز يشوي عليها رغيف خبزه، أو لتر من البترول يسد بها رمق سيارته، أو قطعة قماش يستر بها عورته أو صفيحة من الأنقاض يستظل بها حرارة الشمس، بل أصبح العربي ينظر إلى الكتب نظرة أم الجاحظ حيث روت لنا الأخبار – إن صحت – أنها قطّعت بعض الكتب وقدمتها وجبة غداء لولدها؛ لتعلمه أدب الفقراء الذين يحرم عليهم أن يتعلموا أو أن يقربوا الكتاب؛ لأنها فاحشة يحاسب عليها العرف، وأتذكر تمامًا أن جيل والدي كان حلمهم الكبير أن يمسكوا بالقلم(١)، فهي عندهم مفخرة كمفخرة صاحب النقب – الذي كان في جيش مسلمة بن عبد الملك(٢).

وقد سجّلت سابقة ربما تخلّص منها ومن ويلاتها كثير من الكتّاب الذين تصدّروا للكتابة، إذ بدأت في كتابة هذه المقدمة التمهيدية، في حين يؤخر معظم من أعرف من

(١) أذكر مرة في صغري أني حاولت العبث برداء أحد الأقرباء من سن عمومتي، فرفعت قلمًا للحبر من الجيب الأمامي فإذا بالغطاء فقط دون أداة الكتابة يأتي بيدي، فسألته ما الحكاية أيها العم الجليل؟ فهمس بأذني أنه أمّي (لا يعرف القراءة ولا الكتابه)، وهو لا يريد غير الفخر أمام الآخرين (الله أعلم أمام مَن !!!)

(٢) قصة صاحب النقب من القصص الشهيرة في تاريخ العالم الإسلامي التي تعكس مدى تقوى الرعيل الأول وبُعدهم عن الرياء أصغره وأكبره.

الكتّاب والمؤلفين عملية هندسة المقدمة إلى حين الانتهاء من كتابة متون كتبهم، ثم تكون المقدمات تلخيصًا أو توصيفًا لما تضمنته دفات كتبهم من بناءات موضوعية ليس إلا، وربما تكون لهم أسباب أكثر وجاهة - تدل على ذكاء أولئك الكتاب - في عدم إلزام أنفسهم بما تعهدته رؤاهم التي كانت هي الحافز الأساس لبناء مشروع الكتابة، ولذا فإن سباحتي تأتي صعبة عكس التيار. وهذا التأويل يصدق على مشروعات كتابية دون غيرها.

وآخر ما أراه مناسبًا لأختم به هذه المقدّمة هو القول: إنّ أخشى ما أخشاه أن أضع كتابًا بين يدي القرّاء كالكتب التي كنا نتندر بها في عهود الصبا من ضحالة مستوى مؤلفيها، ولكنّي أتحلى بالشجاعة وأتجلد بالصبر؛ لأن الحقيقة القرآنية ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾[1] تؤكد لي وللجميع أن كل من سبق في ركوب بحر الكتابة ربما يقترف من الأخطاء ما شاء اللّه أن يقترف، وسوف أثبت بأخطائي وترهاتي للقرّاء عندما يقرأ صحبي كتابي أني واحد من بين أولئك الذين كنا نتندر عليهم من خلال كتاباتهم. عندها سيقول صحبي: يا سبحان اللّه «ما أشبه الليلة بالبارحة».!![2]

وقبل أن أودّعكم لتستقبلوا عثراتي من خلال خواطري التي تحملها إليكم محطات الكتاب، أحببت أن أستميح القرّاء عذرًا من أن بعضهم ربما يعيب عليّ استعمال كلمة «عاماً»[3] في عنوان الكتاب بدل كلمة «سنة» إذ لا يجد القارئ تناسبا بين مدلول الكلمة التي

---

(١) النساء آية ٨٢

(٢) حيث نقول لبعضنا ونحن فتية صغار: وماذا لو جمعنا أشتاتا من مختلف الصحف ونضعها تحت عنوان رنّان لراج في السوق؟ عندها سيقول صحبي يا سبحان اللّه ما أشبه الليلة بالبارحة.!!!

(٣) جاءت مفردة «عام» في القرآن لتدل على الخصب والخير والرخاء، واستعمل القرآن مفردة «سنة» مع الجدب والقحط والشدة. انظر سورة يوسف آيات ٤٦ - ٤٩ ﴿**يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون. قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون.**﴾ وورد في اللسان أن السنة: الأزمة، ويقال هذه بلادٌ سنينٌ أي جدبة. والسنة مطلقا: السنة المجدبة. والأصمعي يقول: أرض بني فلان سَنَةٌ إذا كانت مجدبة، ويقال أخذتهم السنةُ إذا أجدبوا وأقحطوا. وفي حديث الدعاء على قريش: أعنّي عليهم بسنين كسني يوسف.

استُخدمت والتي تدل على الخصب والنماء وسيرة الكاتب التي تميزت بالصعوبة والشدة، فهي سنوات أقل ما يقال عنها أنها عجاف، سار الكاتب فيها على جمر الغضا، وليست أعوامًا يُغاث فيها الكاتب وفيها يعصر من الأقاطيف والثمار. وعذري – إن قدّر الله للقارئ قبوله – أني أميل إلى تشجيع الزبائن، قرّائي، كما تعهدت طلابي طوال حياتي باستخدام كل مصطلح يشعرهم بالأمل ويحثهم على العطاء ويدل في الوقت نفسه على الخصب.

المحطة الأولى

المراحلُ المبكرةُ

هِيتٌ ويحسدها في القطر بلدانُ   بالغار لا بالقار تزدانُ

(رشاد الخطيب)

المحطة الأولى

المراحلُ المبكرةُ في نقل الخبرة

(ما قبل مدرسة المنصور الابتدائية)

الآن حقا أحسست بخيبة أمل – وأنا لست الوحيد في ذلك[١] – إذ فتشت في أدراج مكتباتي البيتيّة لعلي أعثر على دفاتر المذكرات اليومية لكن، للأسف، لم أعثر على شيء منها على الإطلاق، ولا أريد أن أغش أحدا فإن استعمالي لها كان قليلا نوعا ما؛ ذلك لأني لم أكلّف نفسي أن أسأل من يقوم على شؤوني ولا سيّما في العمل لتدوين جميع مواعيد المقابلات والاجتماعات الرسمية أوتوثيق أغلب أعمال اللجان التي شاركت فيها طوال حياتي، ولو – هذه «لو» التي لا أحب استعمالها – قمت بتدوين سطر أو سطرين في كل يوم لأغنتني عن تلك المراجعات[٢]، وإذ بدأت في ترجمة حياتي منذ الصغر فكل الذي أذكره في تلك الحقبة أني كنت أُحْمَل على صدر فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها أحد عشر ربيعًا، هي بنت جارتنا «جميلة» – أدعو الله تعالى لها ولوالدتها بالرحمة والمغفرة – حيث كانت تُصرّ على حملي رغم أنها كانت تتألم عندما أغرز مرفقي الحاد في صدرها أو ربما في عاتقها النحيل عند حملي، وعندما تعود بي إلى البيت تسلّمني لوالدتي التي كانت تعاني هي الأخرى الكثير للتخفيف مما أُعاني من زمانة مرض «رمد العيون» فما ألبث منكبا

---

(١) لست الوحيد في هذه الدنيا الذي أحس بذلك وربما ندمت كما ندم روبرت فسك حيث عانى من المشكل نفسه وقد ذكر في كتابه:

The Great War for Civilisation قائلاً: "... But as I prowled through the shelves of papers in my library, more than 350,000 documents and notebooks and files, some written under fire in my own hand, some punched onto telegram paper by tired Arab telecommunications operators, many pounded out on the clacking telex machines are used before the Internet was intended, I realised that this was going to be more than a chronology of eyewitness reports. See page XXIV Preface.

(٢) يقول الشوكاني: أوصاني بعض العلماء فقال: لا تنقطع عن التأليف ولو أن تكتب في اليوم سطرين. قال: فأخذت بوصيته، فوجدت ثمرتها. ويعقب الدكتور عائض القرني في كتابه «لا تحزن» قائلا: وقالوا: القطرة مع القطرة تجتمع سيلا عظيما.

أما ترى الحبل بطول المدى ... على صليب الصخر قد أثّرا

على وجهي في الكاروك[١]، حيث أحاول تخفيف الألم، ثم ما ألبث أن أهزّه لعلي استسلم للنوم ولو لسويعات قليلة، وعندما استيقظ أفتح عيني بصعوبة مبصرا وكأن الدنيا لبست حلة وردية من أثر الدواء الشعبي «الكبّلي» الذي كنت أعالج به، وكانت وسادتي تصطبغ باللون نفسه، وربما كنت أكره ذلك اللون ليس لعيب في اللون نفسه لكن لأنه اقترن بتلك الحقبة السحيقة من سني حياتي. وقد توحي هذه المقدمة للقارئ بأن المسرح ليس صحيا ولا مشجعا على الإطلاق ولكني أرى فيها غير ذلك إذ إنها زمن الإعداد والإنضاج الأولي الذي يقدمني للحياة بمناعة عالية.

أما مكان مولدي ففي مدينة من مدن العراق التاريخية يروّي عروقها نهر الفرات غرب العراق، وتلفُّها – على عهد الصبا – أحزمة من أشجار النخيل، وتغفو على أشجان النواعير، وتعطرها نسمات العين القيرية والكبريتية صباح مساء.

وتحدثنا جدّاتنا عن شيخوخة منارتها المنتصبة في طرف القلعة العالية حيث يرتقي إليها مؤذنها العجوز عدد صلوات اليوم، ويعانق صوته هدوء الفضاء ويتعشق بأنغام النواعير عابرا الجهة الأخرى من النهر حيث الحقول والسنابل. فما أروع أصحاب البساتين وقد فتحوا أبواب أسيجة بساتينهم الطينية لكل عابر سبيل ليتفيؤا ظلال العرائش ويتمتعوا بطعم الفاكهة ونكهات الأرطاب، دون هاجس من رقيب أو نباح كلب قد يفسد على أحد خلوته، اللهم إلا من صوت النواعير حيث يسهم صرير أخشابها في إهداء غفوة منعشة عند جدول من جداول المياه المنسابة وهي تداعب سيقان الأشجار وجذوع النخيل، وحسّاد المدينة كُثر ولا تُحسد قطعا إلا على شيء ثمين، ويبدو أن «هيت» تزدان بشيء أبهى ممّا بها من قار وكبريت، وجاء ابنها وشاعرها[٢] ليفصح عما ذهبت إليه:

هِيتٌ ويحسدها في القطرِ بلدانُ   بالغارِ لا بالقار تزدانُ[٣]

(١) «الكاروك» وهي كلمة دخيلة لم أجد أثرًا لها في لسان العرب تطلق في العراق على المهد الخاص بالأطفال الرُضّع (على شكل الأرجوحة سهل الاهتزاز).

(٢) الشاعر هو رشاد الخطيب الهيتي، وقد ألّف كتابا عن هيت.

(٣) تذكر المصادر التاريخية أن مدينة هيت كانت محطة البابليين لتجهيزهم بالقار الذي يحتاجون إليه في أسس أبنيتهم ورصف شوارعهم.

وهناك غير شاهد على أن المدينة تمتاز برقة مشاعر أهلها وتعاونهم ولاسيّما في المُلمات والشدائد، حيث تُرضع الأمهات أطفالهن حب الآخرين والغَيرة عليهم لا منهم رغم أن مستوى الحياة وفرص العمل والرخاء فيها بقى دون مثيلاتها من المدن ولاسيّما في السنوات التي أكتب عنها مما حدا بالهيتيين على الضرب بالشعاب والأودية والنحت على الحجر في بقاع يشدُّ إليها الرجال رحالهم حيث مصادر الرزق، وتبكي النساء هواجس الفراق وصعوبات الوحدة والوحشة.

ومن طريف الحديث أن نذكر هنا أن هذه المدينة تفردت - إن لم تكن آخر مدينة - بعدم الصلاة على من فارق الحياة من أهلها إلا في ساحتها العامة ليكون عنوان المشاركة والمشاطرة الجماعية، ولا يدري المفجوعون من الذي حفر القبر؟ ومن الذي رتب لدفن الميت؟ ومن غطى النفقات؟ يُضاف إلى ذلك أنَّ النار لا توقد في بيتهم لمدة سبعة أيام بلياليهن، حيث تتنادى العائلات وتتسابق في ضيافتهم وضيافة زوّارهم. وكنت أذكر لأعراسهم نظاما فريدا، حيث يُنتدب صديق العريس لمهمة شاقة ليكون كما يحلو لأهل المدينة تسميته «سردوجا»[١] يقوم على شؤون العُرس وينظم أمور العَريس، فهو - أي السردوج - الشخص الوحيد الذي له حق قبول أو رفض الدعوات وله حق اتخاذ القرار وهو الذي يحمل عن العَريس الهموم والمشاغل ليتفرغ الأخير متذوقا طعم العرس وكنا نحسبه ملكا بغير تاج طيلة أيام الأسبوع الأول.

وقد اتفق أهل مدينتي على تقليد شعبي سنوي يسمى «بالكَسلة»[٢] حيث يخرج الصغار والكبار والرجال والنساء إلى حَزن[٣] خارج المدينة وقد هيأت العائلات من أصناف الطعام التي تعكس أذواقهم وتعزّز كرمهم وتؤكّد محبتهم للآخرين. ولا أدري أصل هذا التقليد البلدي، وربما يذكّرنا بالتقليد الذي اعتاده قوم نبي الله إبراهيم (عليه السلام)، إذ كانت

(١) لقاء أجور معينة.Wedding Planner الأغنياء في الغرب يستخدمون ما يسمى.

(٢) الكسلة اسم مشتق من الكسل بمعنى الوقت والترتيبات الخاصة بالراحة والتعطل عن العمل.

(٣) الحزن ما ارتفع من الأرض.

الفرصة سانحة لتقديم دعوة التوحيد لقومه بعد أن نفّذ حكم الإعدام بأربابهم. ومع كل ذلك فإن الفقراء في مدينتي على ذلك العهد يزيد عددهم عن عدد متوسطي الدخل، والمرضى جلهم يحتشدون عند أبواب الأضرحة أو يحجون إلى من يعمل لهم الحجب والتمائم.

وإذا ما سألني سائل عن تاريخ ميلادي فلا جواب؛ لأني لا أعلم علم اليقين ولا أحد من أفراد عائلتي يعلم، فهو مجهول، وما أحمل من تاريخ إنما هو رجم بالغيب أو كذبة اصطلح عليها الناس في عصر ولادتنا - منذ أكثر من نصف قرن من الآن -، ويبدو أن الحرب وكذلك الفقر والأمية هي العوامل الأساسية في إشاعة تلك الكذبة والعنكبوت الذي نسج نسيجها. لذا فإن اليوم الأول من الشهر السابع هو موعد تاريخ ولادتي وولادة زوجتي وإخواني وأخواتي وولادة كل العراقيين الذين ولدوا من جِنْسَيّ الذكور والإناث من السنة التي يتفق عليها الوالد مع مسؤول دائرة الأحوال الشخصية.

والفقر والحرب كلاهما يدفعان بزيادة العمر سنة أو سنتين لتستطيع العائلة عندها الحصول على مزيد من الحصص التموينية التي توزعها الدولة في وقت الأزمات وما أكثر تلك الأزمات فهي قد سبقتنا وزاملتنا لمحبتها لنا وقد تبقى مع أولادنا إذا لم يتمثلوا شجاعة قوم موسى بعد ما أتموا أربعين سنة من الضياع ووصل جيل الأبناء من خلال السَنَن العام إلى مرحلة الرشد حيث كانوا في منأى وبُعد عن تجارب فرعون موسى الإذلالية، ويبدو أن الصينيين يختلفون في طريقة تقدير عمر الوليد حيث تعارفوا على تسجيل المواليد اعتمادا على فلسفتهم أن العمر الحقيقي للوليد يبدأ ساعة الحمل، بينما «البردوني»[١] خالف الجميع واحتسب أنه ولد عجوزا وعلينا أن لا نسأله:

أتعجب من شَيبي على صغري   إني ولدت عجوزا كيف تعتجبُ؟

(١) البردوني: شاعر يمني مفوّه ومعاصر والبيت من قصيدة طويلة ورائعة ألقيت في مؤتمر أبي تمام الشعري الذي انعقد في الموصل في العراق. ومطلع القصيدة:

أصدق السيف! إن لم ينضه الكذب   وأكذب السيف إن لم يصدق الغضب
بيض الصفائح حين تحملها   أيد إذا غلبت يعلو بها الغلب
وأقبح النصر .. نصر الأقوياء بلا   فهم .. سوى فهم كم باعوا .. وكم كسبوا

والآن أعود لعملية نقل الخبرة التي هي الأساس في تشكيل السلوك وهندسته، سلوكنا البشري الذي يترتب عليه نقل الخبرة من جيل إلى جيل.[١] أما وإني الآن معنيٌّ في الحديث عن تلك المدة من حياتي، والتي كانت تجري عملية نقل الخبرة فيها بطريقة غير مقصودة، وقد سلّمنا أنَّ العُرف الذي قبلنا التعارف عليه هو خبرة منقولة. فاصطحاب الأطفال لزيارة المعارف والأصدقاء كانت سُنّة متبعة في مجتمعاتنا أعني في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي وما قبله ومرافقة الأطفال للوالدين وللكبار من أفراد العائلة كانت معينا لا ينضب للفرص التعليمية التي ترفدنا في ذلك المجال، وهي تعطي الفرصة لنا لملاحظة فن التآلف والتعارف والاتصال. وكانت أمهاتنا يعملن ما بوسعهن لتهيئتنا نفسيًا وماديًا لتلك الزيارات قبل حدوثها، وكنا نستمتع لحديث الأهل عنها، وكنا نلح في التحقق من أمهاتنا وآبائنا مقدمًا عن تلك الزيارة التي ربما تساورنا خيالاتها في الليالي السابقات لتنفيذها. وتتعاون الأمّهات والأخوات - دون الآباء والإخوان - على حملنا على الأكتاف والصدور وهذه صور عملية لها رائحة المودة وطعم الحب، ثم ما تلبث الأم والأخت أن تمسح أنوفنا وتجفف عرقنا، وكانت عيون المارّة تشيّعنا بفضولها من كل حدب وصوب، مصوبة سهامها نحونا ونحن نجتاز تلك الأزقة الترابية، ثم ما نلبث أن نجد أنفسنا على عتبات الدار العالية والتي عزمت العائلة زيارتها، وقد أنزلت أختي الكبيرة - أدعو الله أن يشملها بواسع رحمته - من على رأسها سلة قد غُطّيت بكسوة لائقة اللون تحتها شيء من الحلوى.

فمن هو صاحب الحظ الذي يطرق الباب؟ وأدبًا ننظر إلى كبيرنا، فهي فرصة أخرى نتعلم منها أدب الاستئذان حيث نتحرك جميعًا إلى جانب الباب ننظر بعيون كريمة[٢]، وما إن تنفرج باب الدار حتى نُمطر بعبارات الترحيب ونتحسس حرارة اللقاء ونستشعر مودة المستقبلين وكأن عزيزًا مفقودًا منذ الحرب الماضية انقطعت أخباره وانطفأت شمعته

(١) كلمة الجيل كما جرى الاتفاق عليها هي المدة الزمنية التي تعادل أربعة عقود تقريبا. وعلل بعض العلماء أنها المدة الزمنية التي غيّر الله بها جيل بني إسرائيل الذي عاش في ظل الخضوع والذل زمن الفرعون، ولذا جعلهم يتيهون أربعين سنة في صحراء سيناء.

(٢) النظر بعيون كريمة كناية عن غض البصر.

وطوي قيده قد أهل عليهم بهلاله. ويبدأ فورًا العناق بين فوجين فوجنا الزائر وفوج من أهل البيت صغارًا وكبارًا.... فيالها من محبة قوية وشوق غامر وكرم ضيافة وحسن استقبال[(١)] . ويا لها من فرص تعليمية تقدّم فيها الخبرة إلينا على طبق من الحلوى تتقدم به العائلة المُضِّيفةُ، عندها نبدأ بقراءة العيون، ونتصفح الوجوه، وكلنا آذان صاغية، مسجلين في ذاكرتنا كل لفظة نضيفها إلى قاموس لغتنا المتنامي[(٢)] ، وعيوننا تتفحص الوجوه وتتفرس العيون وتراقب الأفواه في جو مشحون بحب المعرفة ومبتلاة بحب الفضول، وآذاننا أجهزة تنصت تنتبه لكل همسة في جو مشحون بالترقب، وسحابة من رائحة البخور تغادر المبخرة لتعلوا رؤوسنا. وعندها تُقدم التبريكات بطريقة عفوية لا تحتاج إلى بطاقات محبّرة يتكلف الناس اليوم باقتنائها ولا عبارات مصطنعة. والناس تقرأ في وجوههم دلائل الرضى، والقناعة تعمر القلوب، إذ بنى الوالد غرفة إضافية في البيت لتكون غرفتان يُحشر فيها الأولاد الخمسة حشرا بعد أن كانوا جميعا مع الوالدين في زنزانة عائلية واحدة.

ولنذهب الآن لنمرح في بساتين الفلاحين الطيبين على مشارف المدينة القديمة، فما عرفنا يوما سياجا طينيا من التي تُسَوَّر بها البساتين يمنعنا من الدخول فيها لننال من أرطابها ما نشاء، ومن أعنابها ما نرغب، ومن فواكهها ما يحلو لنا، متفيِّئين ظلال باسقات نخيلها وعرائش كرومها، مفتونين بعذوبة أنغام طيورها، وهدير مياه سواقيها، وأشجان صوت نواعيرها، دون مانع أو حارس إلا من الله إن فكّرنا أن نملأ جيوبنا، أو سلالنا لنذهب بها لبيوتنا. ولنذهب سوية في الطريق الترابي المتعرج حيث النساء بعباءاتهن السود عند قللهن يجمعن الملح وقد رسموا للناظرين من أمثالنا لوحة فنية ما أروعها وكأنك في القطب الجنوبي من الأرض وقد تداعت طيور البطريق لتمارس حقها في الحياة ولتنسج لنا سجادة

---

(١) هذا ما يفتقده أولادنا في الغرب حيث برودة اللقاء وقلة الترابط الأسري.

(٢) كنت أشك في أن بعض الكلمات المستعملة من قبل الجدات تقع خارج حدود القاموس العربي، ولكن بحمد الله وجدت أنهن يستعملن ألفاظا بُهرت بها عند رجوعي إلى قواميس اللغة.

جميلة تقتصر في ألوانها على الأسودين[١]. ثم أن العجب قد يأخذ بألباب الدارسين لعلوم الأرض[٢] أكثر من غيرهم في هذه الموائمة بين الخصوبة وهي على مرمى حجر من هذه الأرض السبخة، وفي كلٍّ خير ﴿**بلدة طيبة ورب غفور**﴾.[٣]

بهذه الصفحات القليلة عليّ أن أطوي صفحة من العمر مقدارها ثلاث سنوات فالعائلة تستعد لمغادرة مدينة الطفولة والانتقال إلى مدينة أخرى حيث تطلع الشمس، فقد تعثرت سفن الوالد وكذلك والده رحمهما الله، وسقطت تجارتهما ميتة في نهر الفرات، حيث أصبح النقل النهري فيه شيئًا من الماضي، وما على تجّاره والعاملين فيه إلا توديع الشرائع والمرافئ التي كانوا عندها يستريحون ويتبادلون أقداح الشاي، إذ أصبحت التجارة فيه غير مجدية، حيث بدأ الناس يفضلون نقل موادهم من صادرات محلية وواردات عبر الطرق البرّية، وقد يبدو هذا تطورٌ وإن كان كذلك فهي سنّة الحياة.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن مهنة الوالد تلك كانت وراء العادة في سرعتنا لتناول الطعام مقارنة بالآخرين ممن عرفناهم ولاسيما في أوربا، حيث تأتي تلك السرعة لتناسب إيقاع عمل الوالد وطبيعته التي كانت تلزمه في غالب الأحيان ليكون في مقدمة رجاله لرفع أشرعة المراكب التجارية عندما تهب العواصف في عرض الفرات بما لا تشتهي السَفِنُ، أو عندما يحاولون تغير اتجاه مراكبهم، في الوقت الذي نحن فيه الآن نُعلّم أولادنا وطلبتنا أهمية الهدوء والدعة أثناء تناول الطعام لما لها من تأثير على الصحة، بل تصبح مدة تناول الطعام هي وقت الراحة الحقيقية والعملية لكثير من الناس في شتى أصقاع الأرض. وهكذا فإن على الوالد أن يفكر في تأسيس عمل جديد في مجتمع أوسع وربما أغرب،

---

(١) أعني باللون الأسود (لون عباءات النساء) وباللون الأبيض (لون الأملاح التي تغطي الطبقة السطحية للأرض)، وقلنا الأسودين من باب التغليب، فتقول العرب الأصفرين للذهب والفضة، والأبيضان للبن والماء، والأبهران للوريد والشريان، والأحمران للذهب والزعفران والأزهران للشمس والقمر، والحدثان لليل والنهار، والأصغران للقلب واللسان، ومن هذا كثير.

(٢) حيث كانت الدرجة الجامعية الأولى للكاتب في تخصص التربة واستصلاح الأراضي عام ١٩٦٨ من جامعة بغداد.

(٣) سبأ الآية (١٥).

ولا بد أن يفكر في عمل حر آخر؛ لأنه اعتاد أن يكون سيد عمله، ولأنه لم يكن مؤهلا حيث تعوزه معرفة القراءة والكتابة. فهو أمي كما اصطلح عليه قاموس لغة العرب. وهنا لابد من التأكيد على أن الجَد كان أكثر حنكة وتدبيرا من ولده حيث لملم شعثه[١]، وسبق ولده في توفير سكن للعائلة بتمامها في المدينة الجديدة.

ولم أجد يومها شيئا أحمله معي أو أتركه لأترابي من لعب؛ لأني كغيري من الأطفال في ذلك الزمان لا نملك شيئا، فاللعب على الرمل أو الماء والطين عند ضفاف الفرات هو كل ما عهدنا، ويبدو أن الأمر هيّن وسهل حتى على والدي فليست هناك ثمة التزامات حضرية يقوم بها عند سفره، فلا فواتير للكهرباء يتطلب منه تسديدها ولا أخرى للغاز، ولا حاجة لتغيير عنوان سكنه؛ لأنه عاش وسوف يعيش بلا عنوان، أما مصرفه (البنك) فإنه فضلا عن أنه لم يسمع بهذا المصطلح من قبل فإن وسادته قد تحتوي على ما لا يسمن ولا يغني من جوع، فهو خالي الجيوب والحمد لله.

(١) شعثه: جاء في الدعاء لمَّ الله شَعثَه! أي جمع ما تفرق منه. وفي حديث الدعاء: أسألك رحمة تلمُّ بها شعثي أي تجمع بها ما تفرق من أمري، وقال النابغة:

ولست بمستبق أخا، لا تلمُّه على شعثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّب

أما الماء فكنا نشتريه أحيانا منقولا على الدواب من نهر الفرات، وكنا نحسب أن بيت خالي من الأغنياء؛ لأنهم كانوا على الدوام يشترون الماء من «رميّض» صاحب البغل الأبيض. فيما كانت والدتي وشقيقتي الكبرى مع زرافة من النساء يذهبن بأنفسهن يوميا إلى النهر ليجلبن بجرارهن النحاسية الثقيلة ماء الشرب وماء الأستعمالات الأخرى.

أما التدفئة فإن هناك أكثر من طريقة بدائية نلوذ بها من البرد: أُولاها - تلك التي تمتاز بشيء من الغرابة، فالراغبون في تلك الطريقة عليهم أن يحفروا وسط أرض «الليوان»[١] حفرة عميقة ثم يوضع فيها «تنور» تكون فوهته بمستوى أرض الليوان، ويتصل بمجرى هوائي طويل تؤدي نهايته إلى باحة الدار. أما طريقة استعماله فبعد أن تحرق الأخشاب فيه ويخمد لهيبها، يمدد فيه أصحاب الدار أرجلهم، وتشوى فيه اللحوم والأسماك، وتبدأ عنده الجدات بعد العشاء بقصصهن الخرافية وأساطيرهن الخيالية حتى ننام في أحضانهن الدافئة، ويبدو أن سلسلة «السُعلاة» سيدة القَصص لديهن، أما قصة «قطِر الندى» فتأتي بالدرجة الثانية فيما تأتي قصة «ليلى والذئب» لتنافس الاثنتين، ثم ما نلبث أن تأخذنا الأحلام بثوب «قطر الندى» الأبيض الذي تجره على الأرض وقد تطرّز بقطرات من دمها حين كانت تخيطه أم قطر الندى.

أما «الكانون»[٢] فهي طريقة أخرى للتدفئة. وثالث الطرق التي عهدنا رؤيتها في كل بيت فهي المنقلة المتحركة التي توضع في وسط غرفة الجلوس - إن كان ثمة غرفة للجلوس حيث إن غالب العائلات تكتفي بغرفة واحدة -، وعند المنقلة تُصفُّ أنواع من أباريق الشاي، ومجموعة من الأكواب والأقداح التي تنتظر متناوليها. فهذه بعض الصور من داخل البيت الهيتي، فهو على قلة ما يضمه من آثاث وسقط المتاع، تجدُ ما يقابله من زيادة في وشائج المحبة وأواصر الإلفة بين ساكنيه. وربما كانت زوجة معاوية ابن أبي سفيان تلك

(١) تسمية أخرى للإيوان الذي يفصل بين غرفتين مشكلا صالة مفتوحة.

(٢) طريقة بناء الكانون تشبه تماما ما يسمى حاليا بالمستوقد أوباللغة الإنجليزية (Chimney Corner).

البدوية[١] التي طلّقها حيث أنفت العيش معه في قصوره المنيفة ذات الآثاث والرياش، وفضّلت العيش في بيت متواضع فيه أرواح تخفق بالحركة والحب تنقل لنا الصورة بأدق عبارة وأرشق كلمة:

لبيتُ تخفق الأرواح فيه　　أحب إليّ من قصر منيفِ

ولبسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني　　أحب إليّ من لبس الشفوفِ

وأكل كسيرة من كسر بيتي　　أحب إليّ من أكل الرغيفِ

وخرق من بني عمّي نحيف　　أحب إليّ من علج عنيفِ

وكلب ينبح الطرّاق دوني　　أحب إليّ من نقر الدفوفِ

أما سوق المدينة فتوصلنا إليها طرق منحدرة من كلا الجانبين «القلقة»[٢] التي تتربع على التلال إلى يسار السوق و«الوْلاية»[٣] التي تشنفت على الجبل إلى يمينه، فلعلنا نقف عنده قليلا لأنه يمثل معظم جوانب الحياة سواء الاجتماعية أَمِ الاقتصادية أم السياسية للمدينة. فالطرق التي تفضي إلى تلك السوق تقسمها المجاري المفتوحة التي تصب في مجاري السوق المفتوحة على جانبيه. وماذا عساني أن أبدأ في وصف السوق التي لا تغادر عينك مقهى إلا وتقع على مقهى آخر وهو دليل كثرة البطالة في غالب الأحيان وقلة الأعمال. أما wall Street أعني «سوق هيت» فتُعد بمثابة نهر الحياة، وأصحاب الدكاكين فيه رغم أن معظمهم لا يحسن القراءة والكتابة إلا أن عليهم أن يفتحوا دفاتر خاصة لديون الزبائن؛

(١) واسمها ميسون، ويقال أن الأبيات التي تلي كانت سببا في طلاقها، فقد روي أن معاوية وجدها تنشد ذلك أمام وصيفاتها عندما دخل عليها، فقال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني علجا عنوفا. والواقع أن تلك الأبيات خير دليل على التفرقة بين الإيواء والتأهيل، وتؤسس الحادثة للكثير مما يجب قوله في مقومات الزواج وأهمية تقارب الثقافة كشرط من شروط الكفاءة في الزواج.

(٢) القلقة هي جزء المدينة الشرقي ويبدو أن اسمها مشتق من القلق الذي يعني في لغة القوم فضلات الأبنية القديمة من الأحجارة وما شاكلها.

(٣) الولاية بتسكين الواو هي جزء المدينة الغربي، وهي القسم التاريخي القديم وقد بنيت قبل الإسلام بزمن طويل.

لأن أغلب العائلات تستدين لحين عودة معيليها من أسفار العمل، فهذا بائع العلف الأخضر أمام ميزانه يقوم بوزن علف الحيوانات المنزلية حيث يستدر منها اللبن وتبيعه بعض العائلات. وعلى الراغبين أن يذهبوا صباحا للحصول على حاجتهم منه، وتصطف دكاكين القصابين مع بعضها ولكن غالبا ما يفتح أحدهم دكانه لقلة الزبائن، وهو يُنوع في سلعته فمرة ينحر[1] بعيرا، وأخرى يذبح[2] بقرة أو عجلا، أما لحم الضأن فهو المفضل لدى الأغنياء وإن غلا سعره، وفي نهاية الشارع المبلط الوحيد تنتصب دكاكين لبيع أنواع التبغ حيث ترتفع أسعار سجائر غازي عن مدخولاتهم إذا كانت هناك مداخيل فيعدلون إلى شراء أوراق التبغ المسحوق لتلف بأوراق رقيقة. وعند هبوطك نحو الفرات تجد الشريعة حيث ترسو عندها العبارة النهرية، ولِيَدي اليمنى معها أمرّ الذكريات، فلقد أمسكتُ بمسحبها الحديدي وقد كوته شمس الصيف عند قيلولة يوم حار حين خرجت بي ابنة جارتنا مع من خرج من النساء ليملأن جرارهن النحاسية ذوات الأشكال المخروطية بمختلف الأحجام، إلى جانب زرافة أخرى من النسوة اللواتي يحملن سلال الملابس المعدة للغسيل في نهر الفرات، فيما ترمق العينان - ليس بعيدًا عن صيادي الأسماك - مجموعة من الرجال والنساء الذين جاءوا ليشتروا من العبارة التي وصلت توا وهي تحمل الفواكه والخضراوات والبقول التي تورّدها الجهة الثانية من النهر. وظلت يدي مطبقة لا أستطيع فتحها لشهور، وتبيّن لوالدتي أنها حالة تستوجب الطبابة، وحاولت جاهدة عمل ما بوسعها في مراجعة المستوصف الوحيد الذي جرى افتتاحه منذ مدة قريبة.

أما المقاهي وهي مكتظة بزبائنها وتعلو رؤوسهم سحب من دخان المدخنين فيكفي لوصف عددها أنّ ما بين مقهى ومقهى هناك مقهى آخر، أما مدخّني النارجيلة الكسلى - التي تئن وتستعين - فهم ممن يحجزون مقاعد السعف التي تُصّف على جانبي الشارع حتى يخالج بعضهم شعورٌ بالخجل حين يعبرون الشارع نحو ضالتهم، وعيون جلّاس المقاهي تصوّب سهامها الحارة، وربما يبدأ الهمز واللمز.

(١) النحر للأبل.

(٢) والذبح للأبقار.

والصور لا تنتهي مع أن المدينة صغيرة، وإذا ما تابعت تسجيل المشاهد للنشاطات البشرية المتنوعة على الأطراف القصيّة للمدينة فإنك سوف تحفل بالكوّازين[١] - أهل القّواقة[٢] - الذين يصنّعون أواني الفخار لحفظ الماء وقلال الزيوت وخابيات الخل، وقد حجزت تلال العين القيرية بين مساكنهم والمدينة. فيما ترى هناك من بعيد زرافة من النساء وقد توجهت لزيارة قبور الصالحين تقدّم النذور، وتضيء الشموع وتشي جوانب تلك القباب بالخضاب، وما أكثر المباني التي تدل على مثل تلك الشواهد التي تعبر عن نكوص واضح في مفهوم التوحيد في دينهم الذين ينتسبون إليه. ففي المدينة على الأقل أربعون من الصحابة، وربما هناك خلط بين الصحابة والتابعين من بينهم عبدالله بن المبارك، وتابعيهم الذين اعتقد كثير من الناس أن قبورهم تستحق أن تُرفع شواهدها البنائية وقد شيدت بطريقة تُدخل إلى قلوب العامة من النّاس قدسيتها وتزيد في نفوسهم الرهبة.

ولم أكن أُريدُ أن أترك في سيرتي الذاتية كثيرًا من الذكر عن والديَّ لأسباب منها: أولا: لأني مهما كتبت عنهما فلن أفي ببعض حقوقهما، وثانيا: لأن ما أكتبه هنا هو سيرتي وليس سيرتهما، ومن يدري ربما ستكون سيرتي عبأ على سمعتهما الطيبة وذكرهما الحسن،

وثالثا: لأني أرغب أن أبتعد عن نوازع النفس في تضخيم مسائل لا يحتاج إليها قرّاء هذه الخواطر إلا نتفا لا تشبع فضولهم بل فضول أولادي بعد أن تتفرق بهم السبل، حيث تكون الحاجة عندها لأولادهم أكثر، وإن كنت أميل إلى الشك في أن أولادهم سيكلفون أنفسهم مهمة السؤال عنها؛ لأني لم أكلف نفسي سؤال والدي أو والدتي بالتدقيق والتفتيش في قبور أجدادي، فقد رأيت الجَدين والجَدتين وعشت في كنفهما ردحا من الزمن قبل أن يودعونا راحلين إلى قبورهم، بل كل ما كان يكفيني منها هو صحة النسب، وربما من باب الفضول أعترف أني اشتركت في البحث والحصول على شجرة العائلة التي لم تحظ باهتمام أحدٍ منا حتى في تعليقها على واحد من جدران منزل من منازلنا، ثم إنني مغمور

(١) الكوّازين أسم مشتق من الكوز.

(٢) القواقة لفظة محلية مفردها قوق، يتندر بعضهم على الهيتيين بها.

وما من أحد يسأل في هذه الدنيا عن أعمال المغمورين فضلا عن حياتهم، إذن فمن الذي سيكلف نفسه عناء السؤال عنه وعن أجداده؟ ولكني لا أخفيكم سرًا أنني أصبحت مرتاعا من الدراسات الناقدة[١] للمتنبي الشاعر الذي لم يخطر على باله على أرجح الاحتمالات أنه سيتعرض للأقلام الناقدة والحاقدة وللفؤوس النابشة في قبور والديه وأجداده، سواء من جهة «جعفيّ» أم «همدان»، وهما حيّان من أحياء اليمن ينتسب إليهما الشاعر. وكل جنايته أنه لم يتعرض لذكر أبيه أو لذكر أمه، وربما نجد تعليلا لذلك مفاده أن شهرته في عصره جعلت الحديث عنهما تقليلاً لمكانته الشعرية، وإن كنت لا أميل إلى ذلك. وأنا أشهد مع كُثر من الناس أن المتنبي لم يكن في حسبانه أن أبويه سيكونان يوما من الأيام مادة من مواد النقد تترصدها عيون الدارسين، وتتلقفها أقلام الناقدين وتحللها مختبرات المحلّلين ومشاغلهم، وهو بتلك القوة الشعرية أقدر من غيره على رفع شأن أبويه إن أراد ذلك، حتى إن افترضنا كما افترض بعض النقاد أنهما لم يكونا على خطر يمكن معه إذاعة أخبارهما أو التصريح بحبهما.

أما افتراض تناسيه لهما عمدا فمن الصعوبة أثبات ذلك أو تقريره أوإقامة الحجة عليه. وقبل هذا وذاك فلا يوجد مبرر لأن يعتقد بعضهم أن المتنبي كان ينظر إلى مهنة أبيه على أنها مهنة مهينة إلا إذا توفر الدليل القاطع. ولا أجد غضاضة على الإطلاق في القول: بعدم وجود فرق كبير بينه وبين أبيه، إذ كان الابن (الشاعر) يبيع ماء وجهه على الممدوحين، في حين كان الوالد يبيع الماء على الناس، وإني لا أجد وربما يشاركني كثير من الناس الرأي في بيع الماء مهنة مهينة كما كان يُنظر إليها. وإذا سلمّنا أن الناس قد تعارفوا على ذلك في عصرهم. إذن فهل يُنظر لمن يبيع الماء المعبأة وغير المعبأة في زماننا تلك النظرة نفسها؟ وكنت قد فصّلت هذه المسألة وبسطت فيها القول في بحثي المنشور في إحدى الدوريات البريطانية إذ عرّجت فيه على أسباب تردد العرب من تشجيع أولادهم على الانضمام للمساقات التعليمية المهنية، وذكرت كذلك استقباح العرب لبعض

(١) مع المتنبي لطه حسين ص١٥ الطبعة الثانية عشر دار المعارف.

المهن كبيع البيض والدجاج والخضروات، وكيف تركتْ تلك النظرة السلبية تأثيرا سلبيا على شريحة كبيرة من الناس، ولاسيّما في الجانب الاجتماعي في منطقة جنوب العراق ومعظم دول الخليج العربي.(١)

وأجدني أميل كثيرًا إلى الرأي الذي يرجح أن المتنبي نفسه جعل شعره حكما وعلما عليه وقد اكتفى بذلك. ثم لِمَ لا نكتفي بالقول إنه لم ير في أبويه مادة في شعره ترفع من شأنه وترد عنه كيد حساده، وهو أفضل من التجاوز بغير علم ولا دليل من أن المتنبي كان يزدري أباه ويُكبر شعره من أن يقف عنده في مدح أو هجاء أو رثاء ، ولكن هو مبدأ الشك الذي تبناه بعض الأدباء والذي كان الأصل في وصولهم إلى القمم.

أما المتنبي – في عيني – فيظل أعلى خُلقا مما فعل جرير بأبيه، إذْ ذكر صاحب الأغاني أن رجلا قال لجرير: من أشعر الناس؟ فقال له قم حتى أعرفّك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه «عطية» وكان قد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها، فصاح به: اخرج يا أبت، فخرج شيخ دميم الهيئة رث الثياب وقد سال لبن العنز على لحيته فقال: ألا ترى هذا؟ قال نعم: قال ألا تعرفه؟ قال لا. قال: هذا أبي، أفتدري لم كان يشرب من ضرع العنز؟ قال لا. قال مخافة أن يُسمع صوت الحلب فيُطلب منه لبن. ثم قال: أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم فغلبهم جميعا – يعني نفسه –.(٢) لكن الرأي الأكثر قبولا والذي قد تفوه به والحمد لله بعض المشككين حيث أشاروا إلى أن المتنبي «لا ينسب نفسه إلى رجل، لأنه لا يحفل أو لا يريد أن يحفل بالانتساب إلى الرجال، وإنما ينتسب غيره إلى الآباء والجدود ممنْ غلبه المفاخرون وقهره المنافرون، وقطعوا عليه السبل، وسدوا عليه أبواب الحيلة، فاتخذ الآباء والجدود تعلةً ومعذرة يلتمس عندهم ما لا يجد عند نفسه، ويستعير من أعمالهم ما لا يجد في أعماله»(٣). وقد نسوا كما نسينا: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**..﴾.

---

(1) Al Heeti, A. and Brock, C. (997) Vocational Education and Development: Key Issues, with Special Reference to the Arab World. International Journal of Educational Development, Vol.17, 4, pp.373389-.

(٢) الأغاني للأصفهاني، الجزء السابع /ص ٥٨ طبعة بولاق.

(٣) مع المتنبي لطه حسين ص١٥ الطبعة الثانية عشر دار المعارف.

وكذلك لا أذكر، تاريخا لانتقال الأسرة إلى مدينة تقترب من العاصمة بغداد؛ إلا أن التاريخ المرجّح لذلك كان سنة إحدى وخمسين وتسعمائة وألف، أي قبل ثلاث سنوات من دخولي مدرسة المنصور الابتدائية التي تذكّرنا بأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي صاحب مدينة السلام بغداد المدورة، وتزدوج المدرسة في دوامها مع مدرسة الأنبار التي هي الأخرى تحمل اسم عاصمة العباسيين الأولى حيث دُفن «أبوالعباس» أو«السفاح» كما يحلو لبعض المؤرخين إطلاقه والذي يقف هو وحده شاهدا على بقايا أطلالها على بُعد بضع كيلومترات، إذ كنا نزورالبساتين القريبة منها احتفالا بالعيد ولنركب على ظهر عربات تجرها البغال والحمير، وأمامنا وخلفنا أرتال من العربات الخشبية غير الآمنة بمساميرها الناتئة التي لا تكتفي بتمزيق ثياب العيد الجديدة التي كنا اشتريناها وكويناها وهيأناها وأبقيناها تحت رؤوسنا عددا من الليالي في انتظار فجر يوم العيد بل تعدى الأمر إلى اصطباغها بالدماء النازفة، وعلى أي حال فإن للعيد ثمنه وللفرحة ضريبة. أما قطارات الغبار التي تغطينا فكّنا نحسها كالزهور التي تلقى على أفواج الجنود العائدين بالنصر من جبهات القتال، ذلك النصر الذي ما ألفناه ولا عهدناه يومًا منذ أن قرأنا في الكتب الملقاة على رفوفها أننا أصبحنا خارج حدود الحضارة، وتعهدنا للعالم أننا قررنا أن لا نقرأ ولا نكتب بعد اليوم.

وجاء سن المدرسة، وأولى تلك العقبات كانت رفضي حلاقة رأسي بالشفرة لأني كنت أعتقد أن ذلك يمكن أن يكون واجبا على أولئك الذين وجد القمل في رؤسهم أفضل أماكن الاصطياف، ثم كأني أتذكر أني ربطت بين حلاقة الرأس على تلك الشاكلة وبين ما يُفرض على السجناء سواء منهم من ينتظر الإعدام أم أولئك الذين يقضون مدة الأشغال الشاقة المؤبدة، وجاءت موافقة أخي الأكبر بالاكتفاء بقص شعر الرأس بماكينة الحلاقة - كمن خفف عنه الحكم إلى السجن مع الأشغال الخفيفة لتضع حدا لوساوسي التي كادت تؤخرني عن التسجيل في المدرسة، حيث كان ذلك مطلبا من مطالب المدرسة وكأن المدارس ثكنة عسكرية تمتاز بالصرامة والشدة. وعلى أي حال (فمن يعشق الحسناء لا يغلها المهر)، ومن

رام وصول الشمس يجب عليه حياكة خيوطها؛ ولأن الحماس قد أخذ منا مأخذه للسماح لنا بدخول بناية أعني بناية المدرسة التي كنا نراها تطاول بشرفاتها عنان السماء، وتتقزم من حولها بيوتنا، وتشرف نوافذها الزجاجية المشرئبة على الساحات المحيطة بالمدرسة مقبّلة الشمس في شروقها ومودّعة لها عند غروبها، وتعكس للرائح وللغادي صورة منارة الجامع العتيق التي انحنت قامتها وكأنها تنوي الركوع أو تستعد للسجود ليل نهار، ونحن ندعو الله لها صباح مساء بالصمود ولو للحظة مرورنا بها، وقد تركت تلك المنارة في نفسي أثرًا كبيرًا حيث كنت أعمل القوالب المصغرة لها ثم أعرض نماذجا منها بألوان وتصاميم جذابة امتلأت بها جوانب غرفتي الصغيرة التي كانت تحسدني عليها جارتنا المعمرة «أم أمين»، ولا أدري سببا لذلك التعلق بتلك المنارة حتى هذه اللحظة، وربما كان السبب أني كنت أجدها من أعظم الشواهد البنائية وأغربها، وأظن أن القصص الغريب الذي طرق أسماعنا حول بناء منارة سوق الغزل(١) في بغداد ذات السلالم المزدوجة كان وراء ذلك الولع، وربما يأتي ولعي بالتصاميم المعمارية التي خصصت بها زملائي ممن يصعب عليهم دفع أجور المصممين لمنازلهم بسبب تلك الاهتمامات المبكرة.

وهكذا بقينا مع مئذنتنا إلى أن ودعتنا ونحن نيام – حيث فضلت أن تنام هي الأخرى على سطح المسجد الفسيح المطل على نهر الفرات – فحارسها الوحيد كان صوت غطيط النائمين، فقد ناموا غافلين عن معاناتها. وهي حرة في اختيارها، لكن ما نأسف له أننا نشك أنها كانت راضية عنا حيث لم يحاول أحد منّا مد يد العون لها في شدتها عندما أصيبت في وقت مبكر بمرض الشيخوخة. وعلى أي حال فقد تنادى الجميع إلى زيارتها، ولكن للأسف بعد أن فارقت الحياة، وأخذ يسأل بعضنا بعضنا الآخر: إذن، كيف لنا أن نرصد هلال رمضان ونحن على مقربة من العيد؟ حيث اعتاد جملة من الناس الصعود إلى حوضها عند غياب شمس يوم التاسع والعشرين من شعبان لإثبات غرة ذلك الشهر – رمضان – الذي ننتظر نوره وبشائره. والحال نفسه في التاسع والعشرين من شهر رمضان حيث نكون على موعد مع توديعه ولبس الثياب الجديدة، وحيث تكون الحلوى والأراجيح...

(١) منارة سوق الغزل سابقا (منارة جامع الخلفاء حاليا الواقع في سوق الشورجة).

المحطة الثانية

السفر نحو موطن السومريين

ألا ليتَ شعري هل أبيتنّ ليلةً بجنب الغَضا، أزجي القلاصَ النواجيا

أقول وقد حالت قرى الكُردبيننا: جزى اللّهُ عَمرًا خيرَ ما كان جازيا

صريعٌ على أيدي الرجال بقفرةٍ يسوّون لحدي حيثُ حم قضائيا

(مالك بن الريب)

المحطة الثانية

السفر نحو موطن السومريين

عليّ أن أحمل مساء يوم غدٍ الأحد الثالث من مارس عام ١٩٦٨ حقيبتي التي أعددتها ورتبتها شقيقتي - يرحمها الله - للسفر إلى جنوب العراق حيث محافظة ذي قار. إذ صدر الأمر الوزاري بتعييني مدرسا لمادة التربة واستصلاح الأراضي في مدرسة الشطرة الزراعية، وهي إحدى المدارس التابعة للمديرية العامة للتعليم المهني في وزارة التربية العراقية في بغداد عاصمة العراق.

وذي قار هذه تذكرني بأيام العرب والإسلام ومن قبلها ببيت إبراهيم جد الأنبياء، وتذكرني بمدينة «أور» السومريه و«زقورتها» العالية صاحبة المعابد الوثنية. فكم كنت أحلم أن يأتي اليوم الذي أرى بأم عيني المواقع الأثرية التي أشار إليها مدرس التأريخ في غير مرة حيث كان مجنونا بالحديث عن الملكات السومريات والأكديّات والبابليات ثم الأشوريات، وقد رسم لنا غير مرة مدخل المقبرة الملكية، وكأن المسكين قد وقع في مصيدة سحرهن، فانتهى مدرس التاريخ في آخر قصصه الغرامية معهن عندما أشار علينا ضرورة نبش قبورهن في «أور» وهو يتخيل الملكة «شبعاد» واقفة على شرفة من شرفات البهو الخارجي للبلاط الملكي السومري، الذي يطل على نهر الفرات بملابسها الملكية، وقد اجتمعت إليها وصيفاتها، وانشغل بعضهن برفع أذيال ثوبها الطويل الذي يدل على اتساع رقعة دولتها الفتية التي تجاور أكبر محمية طبيعية[١] للطيور في العالم القديم، حيث الأوزّ العراقي[٢]. بينما انشغل القسم الآخر منهن بتعطيرها ورفع الزهور وقناني العطور ودنان المشروبات التي تحتاج إليها الملكة الفتية، إذ أُجبرت على تناسي أيام الطفولة لتتعلم أفانين السياسة والحكم وهذا قدرها. كما أنها كتبت التأريخ لحفيدتها الملكة سميرأميس، التي لا تفصلها

---

(١) أقصد بها أهوار العراق الممتدة على أرض محافظات الجنوب الثلاث (البصرة وميسان والناصرية).

(٢) هذا النوع من الطيور مصنف عالميا بأنه نوع خاص بالعراق حيث موطنه الأصلي.

عنها سوى حقول القمح الذهبية، تلك الملكة التي اختلفت الرويات حول مولدها ثم حياتها، وجاء ذكرها في الأساطير التي تواردها الناس وألف بعضهم عنها القصص حتى صار في خلدهم أنها الرديف الأنثوي للبطل الذكوري «جلجامش». وهي الأخرى - أعني سمير أميس - لا تنفك تشعر بالسعادة الغامرة في رحلتها النهرية حيث اعتادت أن تقطع رحلتها شبه اليومية في مياه الفرات ذات الخمسة عشر منعرجًا مائيًا، والتي تنهيها عندما تذهب الشمس لتنام في مخدعها غرب الصحراء الرملية، وقد استنّت الملكة لنفسها سُنّة أن تودعها خلف غابات النخيل منذ نعومة أظفارها.

إذنْ سأكون على مقربة من مكان الإنسان الأول الذي أسس الحضارة الإنسانية، وابتكر الحروف المسمارية وابتدع الرموز الأولى للغة الإنسان الأول؛ ولذا فإن عليّ أن أترك أحضان العائلة ودلالها الزائد لاستعد لمرحلة الفطام الحقيقية في عمر الإنسان، إذن، فعليّ، القيام برحلتين في آن واحد، فالرحلة الأولى هي رحلة البعد والمسافة والاغتراب،

المقبرة الملكية السومرية

والرحلة الثانية هي رحلة التجربة والاختبار. ولابد من مقدمات لذلك الفطام الحقيقي. ومن تلك المقدمات أن خالي الكريم رتب لتشييعي إلى مكان العمل ترتيبا فاجأني به حقا، حيث وجدته بسيارة مستأجرة وهو يسابق السيّارة التي تقلّني مرة عن يميني وأخرى عن شمالي،حتى انعطفت السيارة التي تقلني نحو جهة الجنوب وهي على مبعدة تزيد على ثمانين ميلا ، وها كأني أراه وولده وأخي الأوسط وقد أخرجوا أيديهم من نافذة السيارة يلّوحون بالسلام مودعين وداعين.

ومن الترتيبات الأخرى التي لا أنساها أن ابن خالي اتصل على ما يبدو مسبقا بصديق له منذ زمن الطفولة لتأمين معرفة[1] قد أحتاج إلى إعانتها يومًا، فما أحلى محبة الستينيات وما أصدق العواطف وما أعرض الآمال وما أبلغ الدروس؟ ودون الحاجة إلى التوسع في الأمر، فإن الرحلة الثانية التي تعني الجهد والجهاد ثم النجاح أو الفشل هي مدار البحث.

والآن وقد ابتعدت تماما عن الأحبة صرت أذكر وأردد أبياتًا لمالك ابن الريب[2]، وأخذت اتمثلها وكأني أنا صاحبها - أثناء عودته من سوح الجهاد - وهو يودع صاحبيه في بطحاء العراق وقد لدغته أفعى بعدما همّ بلبس خفيه متذكرا أهله وأمه وأصحابه، وألفيتني أقول لنفسي: أشتهي أن أنام بين غضاهم وأتدثر حنينهم، وأرى سهيلا[3] ولكن من أرضهم

ألا ليتَ شعري هل أبيتنّ ليلةً   بجنب الغَضا، أزجي القلاصَ النواجيا

أقول وقد حالت قرى الكُرد بيننا: جزى اللهُ عَمرًا خيرَ ما كان جازيا

صريعٌ على أيدي الرجال بقفرةٍ   يسوّون لحدي حيثُ حم قضائيا[4]

---

(١) أعني صديق أو قريب قد يساعد عند الحاجة إلى المساعدة.

(٢) قصيدة مالك بن الريب فيها آراء عديدة، فمن يرى أن القصيدة البالغة ٦٢ بيتا كلها له، ومن يرى مثل أبي عبيدة معمر بن المثنى أن ثلاثة عشر بيتا منها فقط لمالك وما فضل فمنحول عليه، وهناك رأي ثالث: وهو رأي يميل إلى الأسطورة يقول: بل مات في خان فرثته الجان لما رأت من غربته ووحدته، ووضعت الجن الصحيفة التي فيها القصيدة تحت رأسه. والقصة الأخيرة نسبت أيضاً لابن زريق البغدادي.

(٣) نجم يطلع من ناحية اليمن من جهة الجزيرة العربية.

(٤) أبيات من قصيدة مالك بن الريب.

ولقد أجبت الهوى بهذه الخيالات، وكأني أصبحت صريعا على أيدي الرجال بقفرة وهم يحفرون القبر ويسوّون اللحد. وها أنا ذا أقول على عادة الشاعر العربي في مخاطبة الصاحبين في عدم ملامتي فأردد قول الشاعر الأسير عبد يغوث بن صلاءة الحارثي[1]:

ألا لا تلوماني، كفى اللوم ما بيا وما لكما في اللوم نفعٌ ولا ليا

ألم تعلما أن الملامة نفعها قليلٌ، وما لومي أخي من شماليا

وما لبثت أن انتقلت بي أحلام اليقظة إلى قصة ذلك الفتى البغدادي «ابن زريق» حال توديعه زوجه التي أحبها وركِب الأهوال من أجل إسعادها، إذ أضناه الفقر ونأت به بغداد رغم غناها، وما لبث من أجل مطلبه أن قطع الفيافي والقفار ليجد نفسه يصارع الموت في إحدى مرابط خيل الأندلسيين، وقد توسد قصيدته التي تنادى الأدباء والكتاب إلى شرحها ونسج القصص حولها، فقد رحل «الهيتي» كما رحل «ابن زريق البغدادي»، فكلاهما رحل طلبا للرزق، ولكن الثاني عاش فقيرا، ومات غريبا وحيدا مهموما، وإن كنت أشك في أن مثل ابن زريق يهرب من الفقر الذي عانى منه على أغلب ظن القصاصين والمؤلفين، فهل يُعقل أن تضيق بغداد به ذرعا يوم كانت عاصمة الدنيا؟ والأصح أنه رحل حالمًا في أن يكون من أكابر الأغنياء. وإذا لم أكن مخطئا فهو على الأرجح انطبق عليه قول القائل: «مغنية الحي لا تُطرب» فدار في خَلَده أنه ربما سيكتشف الكنوز، وما عليه ألاّ يفكر في تأمين الطريق للعودة بها إلى الكرخ حيث فلك الأزرار.

ثم تجدني أحدّث نفسي: ولكنّي كنت مجبرا على السفر نحو الجنوب، فهي بداية لا بد منها، فعلى كل شاب أن يمشي في مقتبل العمر، لكني أرجع لأقول: وكذلك ابن زريق كان مجبرا، فإنه اعتقد أن عليه أن يسير في طريق مغاير لطريق الحرير الذي يربط حاضرة

(١) الشاعر عبد يغوث بن صلاءة الحارثي، المتوفى ٤٠ قبل الهجرة (٦٨٠ للميلاد). قصته عجيبة. قاد قومه يوم الكُلاب الثاني، وقُتِل في تلك المعركة النعمان بن جساس زعيم بني تميم، وفي اليوم الثاني دارت الدوائر على عبد يغوث وقومه وأُسر في اليوم الثالث بعد معارك طاحنة، وقتل شر قتله، بعد أن ربطوا لسانه بنسعة خوفا من هجائه لهم. وقد كانت القصيدة الرائعة رغم كل محاولاتهم والتي أهداها لحبيبته (زوجته) مليكة.

العالم بغداد بالصين ليبلغ هدفه ويصيب مرماه. وكلما حاولت فكاكا من هذه الهواجس صرت أزيد عمقا في السقوط والغرق في بحيرتها وقد تجاذبتني الأوهام والمقارنات، كما أني الساعة لا أريد أن أرحل في قطار الأدب كما فعل «عبدالله الناصر»[١] عندما طالعنا في أنابيشه الثقافية بمقارنة بين شخصيتين وصفهما بالإنسانيتين، حيث اشتركتا في الإبداع وإن اختلف نوعه، فأحدهما شاعر يرسم أحزانه وهمومه بالكلمة، والآخر فنان عظيم يرسم همومه وآلامه بالريشة، فالأول: هو ابن زريق البغدادي (الكوفي المولد) والثاني: هو الرسام الفرنسي «فان غوخ» (الهولندي الأصل)، وأنا لا أدري كيف أوافق «الناصر» في وصفه «لفان غوخ» بالعظيم – مع أني في داخلي أرجو أن أجد له عذرا في منحه ذلك اللقب ولا سيما بعد أن قطع «فان غوخ» أذنه ليقدمها لوالهته كأغرب مهر عرفته البشرية، ولم يكتفِ فان غوخ بذلك الفعل عندما ضاق ذرعا بالناس وعانى من غرف الاغتراب والجحود بل أطلق النار على رأسه. نعم أعترف أن أعمال الشخصيتين مميزة فقد بيعت قطعة من قطع «فان غوخ» بعد سنين من انتحاره بمائة مليون من الدولارات، ويبدو أنها القطعة الفنية نفسها – على عهدة «الناصر» – التي دفع بها «فان غوخ» لصاحب مطعم باريسي متوسلا إليه أن يقدم له مقابلها وجبة عشاء ليست بالضرورة أن تكون فاخرة لتدفئ معدته الخاوية، ومع ذلك لم يحصل «فان غوخ» على غير الطرد والاستهجان من صاحب المطعم. وإزاء ذلك وجدت نفسي مترنما ببيت من شعر الجواهري[٢]:

أهزّ بك الجيل الذي لا تهزّه   نوائبه حتى تزور المقابرا

ثم إذا ما عدت للحديث عن والهة «ابن زريق» وهي متشبثة به تذكرت حرارة دموع الوالدة لحظات توديعي نحو الجنوب، وهي تربت على كتفي، مع أني وجدتها مترددة بين

---

(١) الأستاذ عبد الله الناصر أديب سعودي شغل منصب الملحق الثقافي السعودي في لندن له مقالات عديدة منشورة في المجلة الثقافية.

(٢) الجواهري محمد مهدي شاعر عراقي من فحول الشعراء العرب المعاصرين، سمعته ملأت الآفاق، له دواوين عديدة. والبيت يعبر تعبيرا صادقا عن حال الأمة التي لا تذكر بنيها الموهوبين والمجيدين إلا بعد مغادرتهم الدنيا.

أن تتركني لسبيلي لما فيه من بناء لمستقبلي أو تمنعني إن كان في الأمر ضرورة. وأجدني مضطرا لاقتباس أبيات يسيرة من عَينيةِ «ابن زريق البغدادي»[1] إذ تعبر عن معنى الأسى الذي كان يحتلني، وتوضح لمن غابت عنه القصيدة حقيقة الأسف:

لا تعذِليهِ فإن العذل يُولِعُهُ ... قد قلتِ حقًا ولكنْ ليس يسمعهُ

جاوزتِ في لومهِ حدًا أضرَّ به ... من حيث قدرّتِ أن اللوم ينفعهُ

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا ... من عذله فهو مُضنى القلبَ مُوجعهُ

إلى أن قال:

استودعُ اللّهَ في بغدادَ لي قمرًا ... بالكرخ من فلكِ الأزرار مطلعُهُ

ودعتُهُ وبودي لو يودعني ... صفوُ الحياة وأني لا أودّعُهُ

وكم تشبّث بي يومَ الرحيل ضحًى ... وأدمعي مُستهلاتٌ وأدمعُهُ

ولا أدري هل أتفق أم أختلف مع الشاعر الدكتور «غازي القصيبي» عندما أسس قائلا في كتابه «صوت من الخليج: (العرب لأسباب يطول شرحها، يحبون الوداع، ومواقف الوداع، وكلمات الوداع. وهناك أسباب يطول شرحها في هوى الشعراء بالوداع، وبِلَيْلة الوداع، وبفجر الوداع)،[2] وربما قصد «القصيبي» أنهم أبدعوا في فنهم في تلك المجالات ولا يعني أنهم يحبون الوداع.

وأعود فأقول: كدت أغرق بين أمواج تلك الخلجات التي كانت تأخذني كل مأخذ، وما أدراني أنها لم تأخذ من الوقت إلا دقائق معدودات لأستيقظ منها على عجل، وقد حملقت

---

(١) ابن زريق الكوفي البغدادي شاعر صادق العاطفة، قتله طموحه. يعرفه دارسو الأدب ومحبوه، لكنهم لا يعرفون له غير هذا الأثر الشعري الفريد الذي تناقله الرواة. قصة ابن زريق قصة غريبة، توفي سنة ٤٢٠ للهجرة.

(٢) صوت من الخليج للشاعر الدكتور غازي القصيبي، طبعة ٢٠٠٦ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت. والدكتور غازي عرفناه سفيرا للمملكة العربية السعودية وقد استوزر مرات عديدة.

متفرسا في وجوه من حولي وبي من الهواجس المرتابة أن القوم أو بعضهم قد استقرأ خلجاتي.

وحقٌّ عليّ الآن أن أستفيق من هذه الأحلام المزعجة والكوابيس التي تطعن في الرجولة، فكما أنّ عليّ أن أكون رجلا كذلك عليّ أن أتابع الطريق وأتحقق من صحة ذلك التقرير الذي قدمته قبل ستة أشهر كجزء من متطلبات الدرجة الجامعية الذي أثبتّ فيه تفنيد أربع من المسلّمات التي كان يراهن على صحتها وثبوتها كثير من أصحاب القلم والتجربة في الحقل الزراعي ممن أعرف. إذ أشرت فيه إلى أربع ملاحظات في ميدان الفلاحة

أولاها: أن معظم الأراضي العراقية الزراعية أصيبت بالآفة الملحية مما يعني أنها غير صالحة للزراعة الاقتصادية،

وثانيها: أن المياه العراقية - حينذاك - لا تكفي لعمليات الاستصلاح والاستزراع المطلوبة (أعني في آن واحد).

أما ثالثها: فهي أن كوادر جهاز الإرشاد الزراعي عاجزة تماما عن القيام بمهمة مساعدة المزارعين،

فيما كانت آخر الملاحظات: أن التخصيصات المالية دون الكفاية. فالطريق إذن، إلى ذي قار سيحقق لي على الأقل فرصة التحقق من مزاعمي العلمية. وكان أول شيء عملته لتحقيق ذلك هو جلوسي في المقعد الأول حيث سيحقق لي موقعا استراتيجيا، وقد وجدت طيبة هؤلاء الناس وكرمهم عندما طلبت ذلك منهم، وقد آثروني على أنفسهم بالمقعد الذي طلبت. وبدأت أسأل نفسي: هل أملاح الشورة البيضاء[١] التي درست وحللت ومسحت وصنفت فعلا تستقر في مواطي الأرض، وأملاح الصبخ[٢] بلونها الداكن تصبغ

(١) أملاح الشورة: الأملاح التي تسببها الكبريتات ولثقلها نسبيا فإنها تحتل بطون المنخفضات.

(٢) أملاح الصبخ: الأملاح المسببة لها هي الكلوريدات ولخفتها نسبيا فإنها تعتلي قمم المروز وما على من وجه الأرض.

معاليها؟ وهل ثمة للقلوية[1] من أثر في رفع مستوى الماء الأرضي ليكون قريبا من سطحها؟ وهل شكلت تلك الأمراض في تربة المنطقة السبب الرئيس لهجرة المزارعين أراضيهم؟ وأصبحت المقاهي ومطاعم الكباب تستقطبهم في المدائن ومراكز القرى.

وخلال مدة كتابتي الصفحات الأولى من هذه المذكرات - الثلاثاء ٢٠٠٦/١١/١٤ - اتصل بي أخي الأكبرمن العراق وأنا أقود سيارتي في لندن متوجها إلى البيت بعد يوم مرير وعسير من العمل وكأن هاتفا يهتف بي أن المكالمة هذه سوف تنقل خبرا لم أكن لأتمناه يوما ولا سيّماِ وأنا في تلك الديار النائية، ولا أرغب في أن أعيش ساعاته، وكأني خشيت أن يقع الخبر من نفسي موقعا صعبا، وأنا ما بلغت رصيدا من الإيمان يمنعني من مواجهة المواقف الصعبة، ويُعلي مستوى السيطرة وتملك النفس، وما قد يترتب على ذلك من خطورة قد تقع على أرواح الناس الذين تحملهم السيارات التي كانت تسابقني في طرقات محكومة بمنظومة من أجهزة المراقبة وإن كانت لا تدفع قدرا بل ولا تمنع متهورا من حادث، وكان ساعتها إلى جانبي رجل ممن آثر السفر معي. وأعود فأقول: إن ذلك الهاتف دفعني لأخبر أخي دون شعور أني وراء مقود سيارتي، وربما لا أستطيع أن أملك نفسي، ولكنّ أخي لم يفهم إشارتي أو إلماحتي، وربما رداءة الإرسال في أيام الحصار والحرب على مدينتي أو من أثر ازدحام المكان الذي هو فيه. وإذا بصوته المتهدج ينهي إلى مسامعي نهاية أحب الناس إليّ بعد رسول الله ﷺ بعد رحلة طويلة من العفاف والإيمان والحب والحنان ينتحر أمامها كل عفاف وإيمان وحب وحنان أعرفه في هذا العصر. إذ رحل جثمان والدتي البارحة إلى حيث يدفن والدي، وكأن عُرسا جديدا يتم في مقبرة المدينة القديمة بعد فراق بينهما يربو على سبعة عشر عامًا. مباركٌ عليك أيها الوالد الجليل القدر الحسن السمعة، إذ فارقتنا وأنا على مبعدة منك، ولسوف تسأل عروسك عنّي ولا أدري ماذا سيكون جوابها، إلا أنها يقينًا لن تزعجك بجواب، وأنا أعرفها تمامًا فقد كانت دوما حكيمة في أجوبتها، بصيرة في معالجاتها، رغم أنها لا تحسن القراءة والكتابة.

---

(١) القلوية: الأملاح المسببة لها هي الكربونات وهي من الصعوبة بمكان عند محاولة التخلص منها.

الآن وقد تيقنت الخبر صرت بين عبرة أحاول جاهدا إخفاءها وبين ترديد من ذكر وتهليل[١] واستغفار[٢] وحوقلة[٣] يرفع بها رفيقي[٤] صوته، وفي الواقع كانت البلسم الشافي على القلب، تبّرد حرارة قلب مشتعل، وتهدِّيء من نفس مروعة، وتقرَب إلى الرب نفسا لوامة، فما أجملها من مواساة، وما أحسنها من عظات، تجعلني فيها على الجادة، والحمد للّه الذي هيأ إلى جانبي صديقا صدوقا - وقتها - ليجعلني بعيدا عن الجو الذي عاشه الشريف الرضي[٥] مع أعداءه عند وفاة والدته حيث تجلّد لهم، وأخفى عنهم تململه:

أبدي التجلد للعدو ولو درى   بتململي لقد اشتفى أعدائي

وليبعدني عن تصنّع معاوية وهو على فراش موته حين طلب أن توضع عمامته على رأسه ويُجلس لزوّاره (عوّاده) مرددًا:[٦]

وتجلدي للشامتين أُريهمُ   أني لريب الدهر لا أتضعضع

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

---

(١) و(٢) و(٣) والنحت في العربية وارد: فالبسملة نحتا من بسم الله الرحمن الرحيم، والحمدلة من الحمد لله، والحوقلة من لا حول ولا قوة إلا بالله، والسبحلة من سبحان الله، والحسبلة من حسبي الله، والمشألة من ما شاء الله، والسمعلة من سلام عليكم، والطلبقة من أطال الله بقاءك، والدمعزة من أدام الله عزك، والجعفدة من جعلت فداك، والتكبير من الله أكبر. وهنا تجدر الإشارة إلا أن عمر بن أبي ربيعة اختصر لقاءه بليلى

لقد بسملت ليلى غداة لقيتها   فيا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

راجع مقالة عبد الحي «النحت في العربية المعاصرة - كلية اللغة العربية (جامعة القرويين/ المغرب).

(٤) وهو الأخ الفاضل الأستاذ عادل الضويحي وقت كان مديرا للمنهج السعودي في أكاديمية الملك فهد في لندن.

(٥) الشريف الرضي: هو محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن الرضي العلوي. أشعر الطالبيين على كثرة المجيدين فيهم. مولده ووفاته في بغداد، انتهت إليه نقابة الأشراف.

(٦) روى الحافظ بن كثير قال:لما ثقل معاوية وتحدث الناس بموته قال لأهله: احشوا عيني إثمدا، وأوسعوا رأسي دهنا، ففعلوا وغرقوا وجهه بالدهن، ثم مُهد له مجلس وقال: اسندوني، ثم قال: إئذنوا للناس فليسلموا علي قياما ولا يجلس أحد، فجعل الرجل يدخل فيسلم قائما فيراه مكتحلا متدهنا فيقول متقول الناس إن أمير المؤمنين لما به وهو أصح الناس، فلما خرجوا من عنده ردد معاوية البيتان وهما لأبي ذؤيب الهذلي.

وكان صاحبي يمد بيده بين الفينة والأخرى إلى مقود السيارة محاولا تعديل مسار السيارة، كلّما أدرك ترنحا في المسير، ثم ما لبث يقول: هل لي أن أساعدك في قيادة السيارة؟ ولكنّها الحشرجة لا غير التي تجيب بالرفض وتعلن عن المصابرة، فهو قدر اللّه وقد استرد أمانته، فله ما أعطى، وله ما أخذ، وإنا إليه جميعا رجوع، ولا حول ولا قوة إلا باللّه. لكن ماذا أقول لصاحبي وقد اتسعت الدموع عن مساحة الأجفان؟ ولكن يا أخي هي الرحمة أليس كذلك؟ إذ تناثرت من عيني الرسول الحبيب الدموع على إبراهيم فلذة كبده. ويسأله سائل: أوَ تبكي أنت يا رسول اللّه على ولدك؟ فبماذا يجيب الرسول السائلَ صاحبَ القلبِ القاسي؟. وأخذني التجوال بين ذكرياتي معها ابحث في الملفات العتيقة فلا أجد سوى الشواهد والدلائل والبراهين التي تزيد من محبتي للفقيدة، فلا مأخذ ألتمس به العذر لنفسي لأخفف به الحزن، وأقلل بسببه الدمع. ففي ذلك المسح السريع للملفات السابقات أجد نفسي أمام محطات ضخمة تولد الحب، ومحطات أخرى تنتج السماحة، وأخرى تغذي احترام الآخرين، وأخرى... وأخرى. ولنقف يا أخي معا نتصفح ملفا من ملفات الحب على سبيل المثال لا الحصر، فهل تستطيع تفسير موقف من مواقفها ذاك الذي حصل لي عندما وصف لي الطبيب دواءً قويا في تأثيراته الجانبية، ومن باب الاحتياط أخبرت والدتي وقتها لئلا يقترب منه أحد، وربما بدون شعور منّي كنت أيضا أُريد أن أذكر لها أن الدواء غالي الثمن بعض الشيء، وعندما باشرت في تناول الدواء وجدت بعد أيام قلائل أن العبوة الدوائية تشرف على النفاد! فجُن جنوني وطار لها صوابي واندفعت أبحث عن والدتي لأسألها والعجب يأخذني كل مأخذ والغضب يهزني لا أملك نفسي معه، فأجابت بهدوء كعادتها مظهرة لي سهولة الحدث، ومحاولة تهدئة روعي، ومعتذرة لي من أنها باشرت تناول الدواء وربما بجرعات أعلى مما قرره لي الطبيب لتجرّبه على نفسها أولا، فإذا ثبتت للدواء آثار جانبية خطيرة فستخبرني بتجربتها وتوقفني فورا عن تعاطيه، يا سبحان اللّه العظيم «ومن الحب ما قتل» فبماذا تريدني وأنا أحدث نفسي كالمجنون أن أجيبها؟ فقد قتلتني بسيف حبها، ولا زلت أذكر لها ذلك القتل الرحيم، إنه على التحقيق

حب نادر قد لا يكون له وجود في هذه الأيام، بل لا أتردد بإضافته إلى المستحيلات العربية الثلاث، ففي الأدبيات المتوفرة لدينا أن العرب يعتقدون أن هناك مستحيلات ثلاثا[١]: الغول والعنقاء والخِلّ الوفي[٢]. وقد خالفت أمي أم «مصطفى العقاد» حين كذبت على ولدها مصطفى ثمان كذبات، إذ كانت كذبتها الأولى عندما قالت لولدها أنها ليست جائعة وقد مسّها الجوع، وادعت أنها لا تحب السمك وهي تموت فيه، وأخبرته بأنها ليست مرهقة وقد أضرّ بها التعب، وقالت له إنها ليست عطشة وكانت في الحقيقة كذلك حتى لا تشاركه شَربتُه، ورفضت الزواج مدّعية أنها ليست بحاجة إلى الحب بعد وفاة زوجها وتلك كانت كذبتها الخامسة، ورفضت أن تأخذ من مال ولدها مصطفى قائلة: أن معها من المال ما يكفيها، ثم رفضت دعوة ابنها للإقامة معه في ألمانيا مدعية أنها لسيت معتادة على المعيشة المترفة وكانت تلك كذبتها السابعة، ثم عندما أصيبت بالسرطان وكان مصطفى

(١) زعموا بأنّ المستحيل ثلاثة: الغول والعنقاء والخِلّ الوفي، وتتردد كلمة (من رابع المستحيلات) على ألسنة كثير من الناس، فما هي تلك المستحيلات الثلاث عند العرب التي تأتي قبل المستحيل الرابع؟ أول تلك المستحيلات هي الغول وثانيها: العنقاء وثالثها: الخل الوفي. ويعتقد بعضهم أن الغول كائن خرافي ليس له وجود ولهذا دخل هذا الكائن في تلك المستحيلات. وذهب آخرون إلى وجوده اعتمادا على الحديث الذي رواه أبو أيوب الأَنْصَارِيّ: «أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ سَهْوَةٌ فِيهَا تَمْرٌ، فَكَانَتْ تَجِيءُ الغُولُ، فَتَأْخُذ مِنْهُ، فَشَكَى ذَلِكَ إِلَى النبيّ ﷺ، فَقَالَ: «اذْهَبْ فإِذَا رَأَيْتَهَا» فقلْ: بِسْمِ الله أَجِيبِي رَسُولَ الله ﷺ، قالَ: فَأَخَذَهَا فَحَلَفَتْ أَنْ لاَ تَعُودَ فَأَرْسَلَهَا، فَجَاءَ إِلَى النبيّ ﷺ فَقَالَ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ»؟ قَالَ: حَلَفَتْ أَنْ لاَ تَعُودَ قالَ: كَذَبَتْ وَهِيَ مُعَاوِدَةٌ للكذب، قَالَ: فَأَخَذَهَا مَرَّةً أُخْرَى، فَحَلَفَتْ أَنْ لاَ تَعُودَ، فَأَرْسَلَهَا فَجَاءَ إِلَى النبيّ ﷺ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ قَالَ: حَلَفَتْ أَنْ لاَ تَعُودَ، فَقَالَ: «كَذَبَتْ، وَهِيَ مُعَاوِدَةٌ لِلْكَذِبِ». فَأَخَذَهَا فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِك، حَتّى أَذْهَبَ بِكِ إِلَى النبيّ ﷺ، فَقَالَتْ إِنّي ذَاكِرَةٌ لَكَ شَيْئًا. آيَةَ الكُرْسِيّ اقْرَأْهَا فِي بَيْتِكَ، فَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ، وَلاَ غَيْرُهُ، قال فَجَاءَ إِلَى النبيّ ﷺ فَقَالَ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» قال: فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَتْ. قالَ: صَدَقَتْ وَهِيَ كَذُوبٌ» وقيل السعلاة أخبث الغيلان وكذلك السِّعْلا يمد ويقصر والجمع سَعالى سَعالٍ وسِعْلَياتٌ وقيل هي الأُنثى من الغيلان. وقد قال الشعراء العرب الكثير من الأبيات في الغول.

أما العنقاء: فهي طائر أسطوري صوره التراث العربي على أنه طائر عملاق يسمع ضرب جناحيه حين يحلق طائرا وأن الرياح الصادرة من جناحها تكاد تغرق السفن، وقصص العنقاء توجد في كثير من الثقافات البشرية ومنها الثقافة الصينية، أما العرب فكان بعضهم يعتقد أن ذلك الطائر يحوم فوق جثة القتيل حتى يعثر على قاتله.

(٢) يعتقد كثير من الناس أن الخلة هي الصداقة، والخلة: صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار، ولهذا قال بعضهم: الخليل من لا يتسع قلبه لسواه، لهذا كان أبو بكر رضي الله عنه صديق وحبيب رسول الله من الرجال ولم يكن خليله. فلقد جاءت الآثار الصحيحة أن النبي ﷺ – قال: لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر.

إلى جانبها يمرّضها فقد رأته يبكي فقالت مواسية له لا تبكي ياولدي فأنا لا أشعر بالألم وعند قولتها تلك «أغلقت عينيها، فلم تفتحها بعدها أبدًا»[١].

وعلى كل حال فإني لم أستشعر طعم ذلك الحب ولا حقيقته تماما إلا بعد قرابة ثلاثين عاما عندها هبطتُ في عمّان – عاصمة الأردن – وسقطت على الأرض مقبلا قدميها حيث أبواب الجنة[٢]. فإني أسألكِ السماح، فربما كانت حياتكِ فديةً لحياتي ... فيا لها من لحظات تذكّر!! ودقائق تفكّر وتأمل!! ولا يدرك كنهها إلا العارفون ليتني أكون واحدًا منهم.

وربما يسأل سائل على سبيل العلم أو على سبيل التعجب أو الاستنكار أوالاستهجان فيما إذا كان مثل هذا المثال من الحب الذي قدمته والدتي على طبق من السرية والإخلاص يقره الشرع أو يرحب به العُرف أو يقبله المنطق. وسأترك موضوع قبوله أو رفضه شرعا للعلماء المتخصصين حيث المهابة من الجرأة على النار (أجرأكم على الفتوى أجرأكم على النار)، أما إذا قلّبنا دفاتر العُرف التي أزعم أنها أكبر من مساحة الأوراق، فإن المثال الذي ضرَبَتْه والدتي يتضاءل أمام أمثلة ضربتها الأم العربية على طول الصحراء وعرضها، وعلى امتداد التاريخ أينما وجدت الأم، وسيكون متضائلا أمام الأمثلة التي ضربتها الأمهات على اختلاف أجناسهن في مشارق الأرض ومغاربها[٣]. فيما تظل الإجابة

(١) راجع المقالة الرائعة لمصطفى العقاد «كذبات أمي الثمانية».

(٢) إشارة لما تعارف عليه الناس: الجنّة تحت أقدام الأمهات، فقد جاء الحديث: « الزم رجلها، فثم الجنة» وجاء «الزمها فإن الجنة تحت أقدامها يعني الوالدة» انظر صحيح الجامع من باب التيسير في رد اعتبار الجامع الصغير، تحت رقم ٢٩٦١ و ٢٩٦٢.

(٣) وللتأكيد على صحة ما ذهبت إليه، فإني أسوق القصة التالية، وبنفس اللغة التي وصلتني وهي قصة حديثة من حيث تأريخها ولا أدري مدى صحتها، تقول القصة: «كان لأمي عين واحدة .... وقد كرهتُها لأنها كانت تسبب لى الإحراج. وكانت تعمل طاهية في المدرسة التي أتعلم فيها، وذات يوم وأنا في المرحلة الابتدائية جاءت مرة لتطمئن عليّ، وقد أحسست بالإحراج الشديد. وقلت: كيف فعلتِ هذا بي؟! فلقد تجاهلتها ورميتها بنظرة مليئة بالكره. وفي اليوم التالي قال أحد التلامذة: أمك بعين واحدة، وأخذ يضحك بسخرية، حينها تمنيت أن أدفن نفسي وأن تختفي هي من حياتي إلى الأبد. في اليوم التالي واجهتها، وقلت ممتعضا: لقد جعلتِ مني أضحوكة. لم لا تموتين؟!! ولم أكن مترددا فيما قلت ولم أفكر بكلامي لأني كنت غاضبا جدا. ولم أبال بمشاعرها، وأردت مغادرة المكان. وبعد مدة درست بجد وحصلت على منحة للدراسة في سنغافورة، وفعلا ذهبت إلى هناك، ودرست، ثم تزوجت واشتريت بيتا، ورزقت أولادا، وكنت سعيدا ومرتاحا في حياتي الجديدة. وفي يوم من الأيام أتت أمي لزيارتي ولم تكن قد رأتني منذ سنوات ولم تر أحفادها أبدا!! وقفت على الباب وأخذ أولادي يضحكون.

في مجال استحسانها أو استهجانها منطقا أو عقلا، وأن المحاجة في هذه المجالات ستفتح أمامنا آفاقا واسعة من المزاوجة بين رأي الشرع ونظرة العرف وتوجيه العقل بصولاته وجولاته، لكن يقينًا - أعني المثال - لم يكن على الإطلاق عن هوى هويته أو مكر مكرته. ثم إن العقل الكامل، وإن كان محدودا، قد حكم بوجود الواجد، أي أن معرفة الله لا تحصل إلا به، ولذا فإن أحسن ما قيل: «إن العاقل يسير في الطريق بين الرفيقين: العلم والعقل». وكيف لنفسي تكذيب حب والدتي لي وهو من النوع الجارف وذاكرة السبعينيات من القرن الماضي تضعني على مقربة من الأحداث التي كانت السبب في تفجّر عينيها براكين من الضغط قذفت بتلك المياه السوداء لتكون ستارا بينها وبين النور إلى الأبد بُعيد دقائق معدودات من مغادرة أهل إبراهيم[١] الذين حملوا إلينا مصوغات أُختنا الكبيرة وحُليّها بعد وفاتها. إنها الماء الزرقاء كما يحلوا لأطباء العيون تسميتها، وهذا الحدث يذكّرني بنبيِّ الله يعقوب - عليه السلام - وقد ابيضت عيناه من الحزن وهو صاحب الصبر الجميل. ولا أريد أن تجرفني العواطف لأصف - لمن يحب قراءة هذه الخواطر - كيف كنت أحد الشهود وهي تسألنا وهي معنا تشاركنا الجلسة عما إذا كنا قد انتهينا من تناول طعام الغداء بكل هدوء ورباطة جأش، وكان جوابي: أوَ تسألين وأنت على أريكتك تنظرين إلينا؟ فإذا بها تقول بعد أن تأكدَتَ من أننا أنهينا طعامنا حين سمعت من يرفع السفرة: «أردتُ

صرختُ: بوجهها، وقلت لها: تجرأتِ وأتيتِ لتخيفي أطفالي؟ أخرجي حالاً.!!! فأجابت بهدوء: (آسفة، لقد أخطأتُ في العنوان على ما يبدو)، ثم اختفت. وذات يوم وصلتني رسالة من المدرسة التي كنت فيها، تدعوني لجمع الشمل العائلي، فكذبتُ على زوجتي وأخبرتها أنني سأذهب في رحلة عمل. بعد الاجتماع ذهبت إلى البيت القديم الذي كنت أعيش فيه مع أمي، للفضول فقط!!! وإذا بالجيران يخبرونني بأن أمي قد توفيت. ولم أذرف ولو دمعة واحدة في وقتها!! ثم قاموا بتسليمي رسالة من أمي، مفادها الآتي: ابني الحبيب: لطالما فكرتُ بكَ. آسفة لمجيئي إلى سنغافورة وإخافة أولادك، وكنت سعيدة جدا عندما سمعت أنك سوف تأتي للاجتماع، ولكني قد لا أستطيع مغادرة السرير لرؤيتك. آسفة لأنني سببت لك الإحراج مرات ومرات في حياتك. لكن هل تعلم يا ولدي أنك تعرضت لحادث عندما كنتَ صغيرا؟ وقد فقدتَ عينكَ. ومثلي مثل أي أم لم أستطع أن أتركك تكبر بعين واحدة، ولذا أعطيتكَ عيني لزراعتها، وكنت سعيدة وفخورة جدا لأن ابني يستطيع رؤية العالم بعيني. - مع حبي - والدتك».

(١) إبراهيم علي الحسين هو نسيب الكاتب.

أن لا أخبركم بأني قد فقدت بصري منذ مغادرة آل إبراهيم لنا». وما هي إلا ساعة وإذا بنا في مستشفى العيون – على بُعد أربعين ميلا من مدينتنا – أمام الطبيبة المختصة – التي لا يمكن أن أنسى اسمها الثلاثي: عفراء أمين خالص – وهي تأمر بإدخالها على الفور صالة العمليات لإجراء الجراحة اللازمة والتي بعدها لم تعد تبصر النور. وربما سهّل عليها العمى الابتعاد عن مواجهة شاشة التلفاز التي ما أحبتها يوما، وأن تكرم عينيها من أن ترى زلاّتنا وهي كثيرة وربما مهينة، «فيا أماه نامي بحفظ الله، أيتها الفضيلة، لا تتغيبي عنّي فإن الشمسَ بعدكِ لا تضيء على السواحل، والشِّعْر بعدك مستحيلٌ والأمومةُ مستحيلة، وتظل أجيالٌ من العشاق تقرأ عنكِ أيتها المعلمة الأصلية»(١) فأنتِ الكتابُ قبل أن كانت الكتابه وأنت الجزيرة والمنارة، والحمد لله أولا وآخرا. «فليس وسادة أنعم من حضنها ولا وردة أجمل من ثغرها» على ما يراه شكسبير، أما سقراط «فلم يطمئن إلا في حجرها» ولقد صدق المغاربة عندما قالوا: «إذا مات أبوك فحضن الأم وسادتك وإذا ماتت أمك فستنام على عتبة الدار»، فيما عبّر الروس في أمثالهم عن القيمة الحقيقة للأم فقالوا: «مهما كانت الأم فقيرة .... فإنها لا تحرم ابنها الثياب الدافئة».

وثمة أمرٌ أخير فقد كانت والدتي تكثر من الدعاء بُعَيد كل صلاة وبكل شجاعة أن يأخذ الله أمانته وهي واقفة، كناية عن طلبها الرحيل عن الدنيا هذه وهي في تمام الصحة

---

(١) جزء مستل من قصيدة الشاعر نزار قباني، قصيدة بعنوان «بلقيس» بيروت عام ١٩٨١ وبتصرف. نزار في غير قصيدة يقول:

عرفت نساء أوربا

عرفت عواطف الأسمنت والخشب

عرفت حضارة التعب

وطفت الهند، طفت السند، طفت العالم الأصفر. ولم أعثر على امرأة تمشّط شعري الأشقر

وتحمل في حقيبتها إليّ عرائس السكر

وتكسوني إذا أعرى

وتنشلني إذا أعثر

أيا أمي ... أيا أمي ...

والقوة، وكأنها أدركت معاناة طول الحياة التي عانى منها المستوغر بن ربيعة[١] الذي عاش ثلاثمائة وثلاثين عاما وهو أطول قبيلة مضر عمرا والذي قال:

ولقد سئمت من الحياة وطولها　　　وازددت من عدد السنيين مئينا

مئة أتت من بعدها مئتان لي　　　وازددت من عدد الشهور سنينا

هل ما بقى إلا كما قد فاتنا　　　يوم يكرّ وليلة تحدونا

أو لعلها قد أخذت بنصيحة زهير بن جناب الكلبي[٢] من أرجوزته الجميلة:

والموت خير للفتى　　　ولَيَهْلَكَنْ وبه بقية

وختاماً أقول وكما قد قيل «كلما أردت أن أكتب عن أُمي...أدركت أنني أُمَي».

---

(١) في ترجمة المرزباني في معجم الشعراء: المستوغر اسمه عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. قيل إنه مات في صدر الإسلام، ويقال أنه عاش إلى أول أيام معاوية، ولكن أبو حاتم السجستاني يقول عاش ثلاثاً و ثلاثين وثلاثمائة سنة، وقال آخرون أقل من ذلك. وذكر النسابون أنه عاش ثلاثمائة وعشرين سنة، فأدرك الإسلام أو كاد يدرك أوله، وقال ابن سلام: كان المستوغر قديماً، وبقي بقاء طويلا. أما ذويد بن فهد من قضاعة، وأبو نهد إليه ينسب الحي المعروفون من قضاعة: بنو نهد بن زيد. عاش ذويد أربعمائة عام - فيما ذكروا وكان له آثار في العرب ووقائع غارات، فلما جاء الموت قال:

اليوم يبنى لذويد بيته　　　ومغنم يوم الوغى حويته

ومعصم موشم لديته　　　لو كان للدهر بلى أبليته

(٢) كان زهير بن جناب الكلبي سيد قومه وشريفهم وعظيمهم وشاعرهم ووافدهم إلى الملوك وطبيبهم يوم كان الطب شرفا، وحازي قومه والحازي: الكاهن، وكان فارس قومه.

المحطة الثالثة

تجربتي الأولى في التربية والتعليم

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تُعطي الطعام من الملح

(البستي)

المحطة الثالثة

تجربتي الأولى في التربية والتعليم

يبدو أن تنفيذ الدرس الأول هنا في هذه المدرسة يحتاج إلى استعدادات خاصة، «ربما أنت صغير في الجسم والعمر»، هذا ما قاله لي عبد الله[1] - والقول ما قالت حَذام[2] - رغم إشارته أنه قد قرأ الثقة العالية في عينيّ ثم أردف يسألني: «هل لديك نظارات شمسية؟» ولم أتكلف الرد لأني فهمت هواجسه ومخاوفه وربما كان محقًا في ذلك لما له من خبرة سابقة مع زملاء جدد مروا في حياته التعليمية، عندها أيقنت أنه لم يقرأ تماما درجة الثقة التي أملكها، ولست أذكر أني قرأت في دفاتري القديمة أو كتبي التربوية الحديثة - طوال حياتي - زعمًا مفاده أنَّ على المدرس الجديد أن يخفي عينيه وراء نظارات شمسية عندما يقف أمام طلابه أول مرة. فهل العمل الذي أتوجه إليه هنا عمل استخباري أو أمني؟ فقد شاهدنا أفواجًا أنيقة من رجال الأمن من حليقي الرؤوس ببدلاتهم السود وهي تحيط بالزعامات العالمية والإقليمية، وقد أخفوا عيونهم وراء تلك النظارات التي عنها يسأل صاحبي. وعندما لا يجد كلاهما أعني الطالب والمدرس ما يبدءان الحديث به فإني على قناعة من أن لغة العيون هي التي ستذيب بلورات الثلج الباردة فنحن بهذا لا نحتاج

---

(١) هو الأستاذ عبد الأمير عبدالله الأمير مدرس مادة التربة واستصلاح الأراضي الذي سبقني لتدريس المادة.

(٢) جاء في قطر الندى ص٤٣: أن البيتين التاليين هما لدسيم بن طارق أحد شعراء الجاهلية، وقيل أنهما للجيم بن مصعب والد حنيفة وعجل، وحذام امرأته وفيها يقول:

فلولا المزعجات من الليالي ... لما ترك القطا طيب المنام

إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حذام

ويستشهد في البيت الثاني على الاسم المبني على الكسر، فكلمة حذام وقعت في البيت موقع الفاعل وحقها الرفع بالضم، ولكنها كُسرت لأنها مبنية وهذا مذهب أهل الحجاز. سميت حَذام لأن ضرتها حذمت يدها بشفرة، فصبت عليها حذام جمرا فبرشت، فسميت البرشاء (في لونها نُقط مختلفة) وهي حذام بنت الريان بن خسر بن تميم. وسببه: أن عاطس بن الجلاح الحميري صار إلى قومها في جموع فاقتتلوا، ثم رجع الحميري إلى معسكره وهرب قومُها، فساروا ليلتهم ويومهم إلى الغد، ونزلوا الليلة الثانية، فلما أصبح الحميري ورأى جلاءهم اتبعهم، فانتبه القطا من وقع دوابهم، فمرت على قوم حذام قِطَعا قِطعا، فخرجت حذامِ إلى قومها فقالت:

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا ... فَلَو ترك القطا ليلا لناما

ثم قال زوجها: إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حذامِ

لما تعارفوا عليه في الغرب بمذيب الثلج[١] عندها سَتُمد جسور التواصل، وتُفتح المعابر، ويتحقق الانسجام. أما وضع تلك النظارات السود فإنها ستحجب تلك اللغة الرشيقة، كما أني أؤمن أن ما يخرج من القلب فسيقع في قلوب السامعين، وسيشربون من قلبي النازف ما شاء الله لهم أن يشربوا حبا وحنانا وعطفا، ذاك الذي حُرموه.

وما زال عبد الله يراودني بهواجسه التي لم تكن، مشجعة، ولا مطمئنة على الإطلاق، رغم أني قرأت في عينيه الوفاء، حتى أسرَّ لي بشيء آخر ربما كان أكثر غرابة من كل دندناته السابقات حين همس في أذني قائلا: أتدري؟ إنَّ بعضهم هنا – في هذه المدرسة – قد يستعينون بجرعة من الخمر – من مختبر الكيمياء – وهم في الطريق إلى صفوفهم!!، عندها قلت بدون وعي يا سعادتي!! بهذا المجمع التربوي (المثالي!!!). ولكن عليّ الآن أن لا أطلق الأحكام، جزافا فربما يأتي اليوم الذي يتكشف لنا فيه أن على الجميع – أعني من يعنيهم الأمر في الدائرة التربوية المركزية أن يقدّموا الاعتذار لهذا الصنف من البشر. ولم يكن لديّ الوقت الكافي لتحليل تلك الصور المتسارعة، حيث كنت في طريقي إلى قاعة المحاضرة لألقي الدرس الأول في حياتي التعليمية.

دخلت الصالة التي يحتلها أصحاب السوابق[٢]، فالجميع هنا ممن لم يوفقوا منذ سنين لنقل خبر سار أو لرفع علم للنجاح، فهم ممن خفّت موازينهم في دنيا المدارس، ولا ندري عنها في الآخرة، وصغرت أحلامهم، وانكسرت نفوسهم. وعند دخولي اكتشفت على الفور أني لست أكبرهم سنا، لكنّي أنحفهم جسما، وأدقهم عودا، إذن هؤلاء هم من بسببهم قطعت الفيافي، وعبرت الجسور واخترقت المدن، وشربت ضيم الدروب، لأجد نفسي اليوم أمام هذه الثلة، ولكني لا أشك أنها تظل بها حاجة لجهود مخلصة وعواطف صادقة ومشاعر نبيلة وأن يستعمل المربي من الحكمة غايتها، ومن الخبرة أقصاها، فقد ضاعت

(١) وهو في لغة الإنجليز الـ Ice breaker – وهو مصطلح يطلق على مجموعة النشاطات التي يُبدأ بها من أجل كسر حاجز التردد والخجل قبل البدء بالدورات التدريبية وللتقريب بين المشاركين.

(٢) تندرا نقول أصحاب السوابق كناية عن الطلبة الذين قضوا سنوات طويلة في المدرسة بسبب رسوبهم المتكرر.

منهم الفرص، وقلّت لديهم الحِيل، وتبددت منهم الأحلام، وضاقت بهم السبل، وتأزمت عندهم الكُروب، واستوحشت بهم الدروب، إذن فهم المشروع الذي عليّ أن أُجرّب، ومادة البحث التي سأوظّف، والنفوس التي عليّ أن أُعلي وأشجع، والأفكار التي أبني، والخطط التي أصمم، فأمهاتهم مفجوعات، وآباؤهم تراودهم هواجس اليأس، وترهق وجوههم سحابات الخذلان، يشربون كؤوس الهوان ويتجرعون خيبة الأمل.

ولا أدري حتى اللحظة هل هؤلاء الذين دخلت عليهم هم ممن يخاف التعلم، وهذه إن ثبتت فهي مصيبة المصائب، ونهاية النهايات. أم أنهم ممن أخلد إلى الكسل وآثر الراحة، ونشر أحلامه على حبال الحظ، فإن كانت الثانية فهي مصيبة قد يكون لها فرجٌ، أو على الأقل مخرجٌ، ولا أخفي على أحد أنني وجدت في حياتي التدريسية من الطلاب من يجعل منهم أصابعه في أُذنيه وربما استغشى فوق ذلك ثيابه، فهم من الفئة التي تُعدُّ التعلم سُبّة مخلة بهم ولا سيِّما وأنهم قد قطعوا مع بعضهم الوعود وأخذوا على أنفسهم المواثيق في القرب من الكتاب. لكن كيف لي الوصول إلى ذاك المرام ولاسيما أن واجبي أن أدرّسهم مادة التربة واستصلاح الأراضي؟ وهو مقرر يُعَدّ في الواقع من أعقد المقررات، وأكثرها جفافا وأكاديمية. ثم من يضمن لي عدم مساءلتي إنْ تركت الواجب ذاك الذي إليه انتُدبت؟ فالحلّ فيما يبدو هو عوانٌ بين ذلك. إذ عليَّ أن أقوم بالأمرين معا أعني التربية والتعليم؛ ولتلازم الأمرين أعني: التربية من جهة، والتعليم من جهة أخرى، فقد عدّلتْ معظم الدول مسمى وزارة المعارف إلى وزارة التربية والتعليم لتخدم الأمرين. ودخول هذا المجال ليس بالأمر الهّين، ولا بالصعب المستحيل.

ولأني قد عزمت على صعود هذا الجبل فإن أولى المطالب التي يجب أن أحققها هو أن أُدخل إلى قلوب عيّنتي الدعة والسكينة، وأغسل قلوبهم بالشجاعة، وأكحّل عيونهم بالبصيرة، فهو الطريق والمعبر لكسب ثقتهم ولأحظى بحبهم، وخلاف ذلك فإن الطرق كلها ستكون مسدودة . فمجتمع المدرسة قد أصابه الإهمال والظلم وإن كان غير مقصود،

ولابد أن يُعنى به ويُؤخذ له الحق، مع أني لا أنكر أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم عندما تقاعسوا عن الأخذ بمبدأ السنن العام من حيث الأخذ بالأسباب ولو بحدها الأدنى، ولاسيما أن الآخرين قد قطعوا شوطا كبيرا في اجتهادهم طلبا للتغيير، إذ لاحظت من خلال خبرتي معهم - أعني من زملائي أعضاء هيئة التدريس - أن نظرتهم كانت سلبية نحو التغيير، وربما هي كذلك حتى من ناحية القبول بفكرة التغيير. إذن، فكيف نبدأ بتغيير الطلبة إذا لم تكن أداة التغيير نفسها مؤمنة بذلك التغيير؟ أما عيِّنتنا هذه فقد اكتفى معظم أعضائها بوشم عتبات قباب مزاراتهم بالخضاب، وأوصدوا الأبواب أمام نسمات الحضارة، فلا صحيفة يقرؤون ولا مجلة علم يراجعون، ولا كتاب أدب يطالعون، وآثروا أن يظلوا رقودا في الظل يتغنون بالشعر النبطي، فلا شمسًا يشاهدون ولا قمرًا يرون وكأنهم أمسكوا بعقارب الساعة من أن تتحرك، إذن فالناس الذين يؤلّفون مجتمع المدرسة كانوا في نظرنا أقرب إلى الأميين منهم إلى من يفك الخط قراءة وكتابة.

وعلى أية حال فإن عدسة الكاتب التقطت في هذه المدرسة وفي نادي الموظفين صورًا تستحق منّا الوقوف عندها للتحليل، إذ تجمع في المكانين ما يلفت حقا النظر، فقد وُلعوا بالخمرة إلى أبعد الحدود، ووجدتهم مرة يولولون وكأن هزيمة نكراء قد لحقت بهم في معركة أم المعارك أو بنت عمها، ويئنون وكأن بهم جراحا أعيت الأطباء عن مداواتها، حين ترامت الأنباء إليهم أن شاحنة «المشروبات الروحية»[1] التي أفرغت حمولتها قبل ثلاث ليال لن تأتي إلى ناديهم في الأسبوع القادم، إذن فما العمل؟ إزاء حدث جلل تهتز له الأبدان، وتقشعر منه الجلود؟ في وقت نفدت خابياتهم من النبيذ، وجفّت زقاقهم ودنانهم من الخمر. وإلى إي شطر سيُيمّمون وجوههم؟ وأصبح من يملك منها القطرة أو القطرتين كمن يملك الدنيا بحذافيرها، وتركت الرفاق وقد هام كل واحد منهم في واد من الوديان أو شِعب من الشعاب للبحث عنها.

(١) هذه تسمية ربما جاءت على هذه الشاكلة لتقديم الخمرة والمشروبات الكحولية بتعبير أكثر قبولا لدى الناس.

وكم سجلت آلة التصوير من نوادر؟ ونقلت من لوحات بائسة، فهذه صورة التقطتها الساعة الحادية عشر ليلا ، إذ بكّر ّأبو النصر على غير عادته للرجوع من نادي الموظفين بعد أن نزف عقله، وتوردت وجنتاه، واحمرّت عيناه، إلى غرفته المجاورة لغرفتي في فندق النجمة الواحدة والمؤلف من طابق واحد، الذي ترتعد عند سلّمه الفرائص، وتهتز من فوقه الأبدان خوفا واشفاقا؛ لأن المتلسق له يجد نفسه بعد ارتقائه كأنه على رأس مئذنة قد سقطت أسيجة الأمان عن حوضها، ولم يبق شيئ يحفظه من السقوط إلى الشارع المحاذي لنهر الغراف، حيث تنتشر المقاهي، ويأكل الناس الوقت على جانبيه. وكلما ذكرت السلامة وقواعدها في ذلك الفندق تذكرت الجسر العثماني، الذي أُنشئ على البسفور في تركيا ليربط بين شاطئيه، ولكنّنا - والحمد لله - لم نشتك من فندقنا كما اشتكى السوس شدة الجوع في أخشاب ذلك الجسر العتيد، وكذلك لم نخلف أحذيتنا كما خلفت الحيوانات العابرة حوافرها بين أخشاب ذلك الجسر القديم، ولم نعبّر لصاحب ذلك الفندق عن الأسى كما رفع أمير الشعراء «شوقي» آساه لأمير المؤمنين من سلاطين بني عثمان حيث قال[1] :

أمير المؤمنين رأيت جسرا	أَمرُّ على الصراط ولا عليه
ولا يتكلف المنشار فيه	سوى مر الفطيم بعارضيه
له خشب يجوع السوس فيه	وتمضي الفأر لا تأوي إليه
وكم قد جاهد الحيوان فيه	وخلّف في الهزيمة حافريه
ومن عجب هو الجسر المعلّى	على البسفور يجمع شاطئيه

وبينما أنا مضطجع على فراشي إذ أيقظتني ضربات «أبو النصر» العنيفة على باب غرفته الحديدي، فقمت من فراشي على جناح السرعة لتقصّي الخبر، والتحقق من

(١) الشوقيات للشاعر أحمد شوقي.

الحدث، وإن كنت لا أهتم بالأخبار التي لا تقدم ولا تؤخر في مدينة تموت عندها الأخبار وتتوقف فيها عقارب الساعات، فوجدت «أبا النصر» واقفا عند باب غرفته الحديدي يترنح، وكلما أراد أن يدخل مفتاح الباب انحرفت يده صوب اليمين أو الشمال ناهيك أنه أسقط المفتاح من يده مرات عديده وأنا ألحظ ذلك، وقد ملّ من تصرفات الباب السخيفة وظن ظن السوء بذلك الباب الذي لم يحسن التصرف مع المربي الجليل، بل تصرف تصرفات صبيانية فهو يحتاج للعقاب. وعندما ناديته ناصحا ومنجدا، لم يكن مكترثا بشيء، غير أنه سألني إن كان باستطاعتي أن أمسك له الباب وأمنعه من التمايل، وكان لسانه رغم ثقله يوجه السباب والشتائم للفندق وصاحبه وآله وأصحابه والصاحب بالجنب. وعندما اقتربت منه وهو مُصِرٌّ على أن يركل بقدميه الباب وجدت رائحة قوية تزكم الأنوف، وكأنه سَبَح بخابية من خمر، حيث نزفت الخمرة عقله. وبعد أن فتح الباب آوى «أبو النصر» إلى فراشه دون أن يكلف نفسه عناء تغيير ملابسه، فلا حركة تذكر عنه حتى أطلت عليه شمس عصر اليوم الثاني من شباك غرفته الذي تعرّى من كل زجاجاته. وكنت أسأل نفسي: إذا كان هذا حال «المربي الجليل» فما حال الجيل الزراعي الذي سينشأ على أيدي أمثاله؟ فهذا هو الكريم في نظر القوم ومثقفيهم. فالمثقف في قواميسهم الخاصة يُعرّف: بذلك الذي يعقّم معدته بالنبيذ في كل ليلة، ويتعطر برائحة المستكي(١)، ويستعين بـ «المزّات» من الموالح والحوامض مقبلات تشجعه على حنظلية(٢) الخمرة عند المعاقرة. ولم أذكر أني ترددت يوما في المناقشة حين تكون الفرصة مواتية في مجالسهم ولاسيما وقت تناول طعام العشاء في نادي المدينة، ذلك المكان الوحيد الذي يجمعنا حيث كنت دوما أستغل تلك الفرصة لأطنب في مناقشة أثر الخمرة في حاضرهم ومستقبلهم، وقد عرّجت مرة على ما قيل فيها: فهي تُذهب العقل، وتحسّن القبيح، وتقبّح الحسن، ونديمها مشتق من الندامة لأن معاقر الكأس إذا سكر تكلم بما يندم عليه(٣)، ثم أوردت لهم ما قد قيل لعثمان

---

(١) المستكي: مادة اللبان تضاف للخمرة لتعطيه الرائحة المميزة.

(٢) الحنظل نبات صحراوي طعمه بالغ المرارة.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه. دار الهلال، بيروت. بدون تاريخ، المجلد الثالث، ص ٣٢٨.

بن عفان – رضي الله عنه –: ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية ولا حرج عليك فيها؟ فقال: إني رأيتها تذهب العقل جملة، وما رأيت شيئا يذهب جملة ويعود جملة[1]، وقصصت عليهم: أن قوما سقوا أعرابية مسكرا فقالت: أيشرب نساؤكم مثل هذا؟ قالوا: نعم. قالت: فما يدري أحدكم من أبوه[2]. وكنت أخشى من الإسهاب في الوعظ والإرشاد لمعرفتي أمزجتهم، فاقتصرت في شواهدي على علم من أعلام معاقري الخمرة في العصر العباسي، حيث كان بعضهم يكثر من الاستشهاد ببيت شعر لأبي نواس[3]:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء　　　وداوني بالتي كانت هي الداء

وكأن بهم عمى عن أن يعودوا لشعر أبي نواس بعد أن ندم وتاب تحت سياط عصا هارون الرشيد التي لاحقته في غياهب السجون. فجاءت توبته بهجر أم الكبائر ولعن جدة الخبائث. وبعد سباحة شاقة بين رجاء وأمل جاء ردّ «أبي الخير» وهو من له السمع والطاعة بين الشلة، فإذا به رغم ما به من نشوة وثمالة يرد عليّ قائلا وموجها خطابه لزملائه، وهو يقرع الطاولة بسبابته، وعيناه قد صوبت سهامها ولحاظها نحوي، وآذان الجمع مصغية، ولمقالته متشوقة، ولقراراته مذعنة: (نحن أمة لا تشرب الخمر إلا في مناسبتين: إذا دُعيت إلى مناسبة أو إذا لم تُدع)، والجواب يأتي على الفور: (لا فُضَّ فُوكَ)[4] وعقّب الجمع بالتصفيق الحاد، والتأييد المطلق وبلا تردد. فما أحسنها من أمة! اقتصروا في حفظهم من قواميس اللغة على ما ينفعهم لتبادل النكات والمِلح، وانصرفت وأنا أقرب للإحباط مني إلى الأمل من مجلسهم بعد أن تخشّبوا رقودا على مقاعدهم يحلمون أنهم عقبان في الجو ونسور في السماء. فهذا «أبو العز» أصبح ينادي بأعلى صوته أنه سيهبط من أعلى السد العالي، ويجيبه «أبو المحاسن»: لكن بحيرة ناصر قد جف ماؤها وستموت!!

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٩

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٤

(٣) يروى أن الشافعي سأل أبا نواس عن عدته لملاقات ربه فأنشد:

تعاظمني ذنبي فلما قرنته　　　بعفوك ربي كان عفوك أعظما

(٤) لا فُضّ فُوك: وفي الدعاء: لا يفضُضنِ الله فاك أي لا يكسر أسنانك، والفم ههنا الأسنان. راجع لسان العرب.

أما «مطشر» فصار يحاول مع خيوط الفجر الأولى إيقاظهم، يركلهم بأقدامه ليغادروا نادي الموظفين (إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم)[١] غير مرحب بوجودهم بعد أن تركوا تواقيعهم على طاولة الدفع بالآجل. وكنت قد ألمحت ولو بشكل غير مباشر إلى أثر الولع الزائد بالخمرة على مسيرة المربين وخُلقهم، وأثره على طلبتهم، لكني وجدت أن ذلك الهوس بها قد ترك بصمات خطيرة على عائلات مدمنيها، إذ رأيت صباح اليوم التالي وأنا عند حضرة السيد مدير المدرسة أتجاذب أطراف الحديث معه عن جحيم الليلة الماضية، وإذا بامرأة عند فرجة الباب تقطع علينا الحديث وتحاول جاهدة فتح الباب، فرأيت حقًا صاحبة الرصافي[٢] (أعني الأرملة المرضعة)، يصطف خلفها نصف دزينة من الأولاد تظهر عليهم علامات الجوع والفقر، حفاة الأقدام، فيما راحت تحمل طفلها الرضيع وما إخاله يجد في صدرها ما يسكّن لوعة الجوع. طالعتنا بوجه شاحب وعينين غائرتين فقدتا نضارة الحياة تماما، وقد أثقل الطفل الشاحب ممشاها. خرّق الفقر بسهامه ثيابها، واحتلها التردد، واغتالها الحياء، فراعني حقًا منظرها حيث السقم والضمور والضعف والهزال والرعشة والجوع والخوف والتردد واليأس العميق والرجاء المضنون، وشعرت أن وراء تلك المرأة بحرًا من القصص وشواطئ من النكبات. وكدت من الخجل أن أختبئ داخل نفسي، وبدأت أقول لنفسي: إن عليّ أن أنسحب، فوجودي قد يزيد من ترددها، ويفاقم من غصصها بكلمات ترى أنها ستجرح كرامتها، وتقتل عزتها وتنال من كبريائها، عندها ضربت بيدي مسند المقعد محاولا إخلاء الجو مبتعدا عن مسرح الفضول الذي ما أحببته قط في حياتي، وإذا بها تصيح (أنا دخيلتكما) بصوت مخنوق، وذرفت عيناها دموعا أكاد أجزم أنها حارة تتساقط على وجه وليدها الذي نام على صدرها وقد دعمته بيد تشبه عرجون نخل قديم يابس، وكنت أقرأ في حركات عيني المدير المتسارعة أنه يلتمس وجودي إلى جانبه، وفعلا لبيت دعوته الصامتة. عندها تقدمت المرأة التي ما عادت تقوى

---

(١) تعبير يستعمل بمعنى إلى الجحيم وللمثل قصة تاريخية طويلة.

(٢) للرصافي قصيدة بعنوان الأرملة المرضعة والتي مطلعها:

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها   تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها

وهي أصدق وأدق تعبير للوحة التي شاهدتها (انظر ديوانه).

على الوقوف، فتشجع المدير بعد أن رمى قلما كان بيده ثم وقف هو الآخر قائلا لها: هل لك أن تفصحي هداك الله؟ فقالت: (جئت أناشدك الله وما لي غيرك حيال مِعَدٍ خاوية، وبطون طاوية، وجسوم عارية، فلا ماء ولا شجر)، وكانت تشير إلى أولادها الذين كانوا متشبثين بثيابها، وأصبحت أنظر إلى المدير ما عساه يفعل، ووجدت لساني يردد[1]:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وأردفت قائلة: (والحل عندكم يا سيدي، نعم عندكم يُختصر بموافقتك الكريمة باستقطاع جزء ولو بسيط من مرتب زوجي الذي تركته مخمورا الآن في البيت لا يقوى على المجيء إلى المدرسة، فلقد صرعته الخمرة، فهي إلهه وهواه، وسوف أظل وأولادي ممسكين بخيط الدعاء لكم). وزادت حيرة المدير فقال: وهل زوجك يعمل هنا؟ من هو؟ من هو؟ قالت: (مدرس اللغة)، وعلى الفور صاح المدير (أبو الشمائل)؟ فأجابت: نعم إنه أبو (الهوايل والمصائب) وهذا الرتل الذي ورائي هم أولاده، ولم يعد يتذكر أسماءهم، وفوق ذلك كله افترش الدائنون عتبة الدار يطالبون بحقوقهم المغتصبة. جاءت هذه القصة لتكون رغم آلامها المبرحة للضمير شاهدا حيًّا لما استوقفني من ليلة الأمس حيث كان «أبوالشمائل» واحدا من بين الذين ركلتهم أقدام عمال النظافة و«مطشر» يقودهم.

ولا يفوتني أن أعرّج على المدرسة التي هي مسرح أحداثنا لهذا الفصل فهي تقع على مبعدة من إحدى المدائن والتي أطلق عليها الزملاء متندرين مدينة التراب والذباب والشراب حيث ينتهي الطريق الترابي المحاذي لجدول الغرّاف، وترى الطريق بعد انبثاق خيوط الفجر وقد تكشف عما أرخى عليه الليل من سدول. وقد تناثرت على جانبيه قناني الخمر وعلب البيرة الفارغة، وتقف البنايات المعوجّة لعدد غير قليل من الأضرحة التي خلت من أسماء ساكنيها، على طول الطريق (على كتفي النهر) شاهدة ترقب وتصور معي

---

(١) والبيت للأعشى ميمون بن قيس البكري المولود في اليمامة سنة ٦٣٠ م، وهو من قصيدة له يهجو فيها علقمة، وقد جانب الأعشى الصواب في هجائه لأن علقمة كان من أجواد العرب، ولما بلغ علقمة ذلك قال وقد رفع يديه (لعنه الله أنحن نفعل هذا بجاراتنا). وقد أظفر الله علقمة بالأعشى وأكرمه بعد مقدرة على قتله.

تلك المشاهد، وكم من مرة شعرت بالخجل وأنا أقطع الطريق مستقرئًا في عيون الطلاب أسئلة كثيرة، أقلّها قولهم: نحن إلى أثمانها أضما.

وكلما اقتربتُ من تلك الصور البائسة التي كنت التقطتها لأقوم بتحليلها والتعرف على أبعادها وآثارها، شعرت بخيبة أمل، ذلك لأن النظام التربوي قد أخفقت مناهجه من غرس قيم الفضيلة في نفوس أبنائنا فضلا عن أنها لم تغرسها في نفوس مربينا، وإن كانت معظم الدراسات التي صدرت تركّز على الكم دون النوع. وعليّ أن لا استبق الأحداث للقول إن النظام التربوي وراء ذلك الظلم الذي قلما ينتبه إليه أحد، وهو بلا أدنى شك خلل خفى على الكثير ولاسيما أولئك الذين وكُلت إليهم مهمة التخطيط التربوي في العراق، والنظام المعني بلا شك جزء من منظومة الصناعة التربوية العربية، وخير من كتب في الموضوع وحلّل «الدكتور عبد الله عبد الدائم»، فعُقدت له راية الريادة في هذا المجال وللمدة نفسها التي عنها أكتب، ولها أحلّل، وهي ما بين عامي ١٩٥٠ إلى عام ٢٠٠٠.

والخلل في ذلك النظام أدى إلى ولادة آفة خطيرة يدفع ثمنها المجتمع. ومن نافلة القول أن نُثبت هنا: أنَّ التهم غالبا ما توجه إلى الجيل الجديد من الطلبة متعللين بالدوافع المتدنية والاتجاهات السلّبية نحو عملية التعلم، ثم تأتي شريحة المدرسين لينالوا قسطهم من تلك التهم، وما من أحد يُعلي صوته أو يجرد قلمه أو يطلق لسانه في ذلك الوقت ليقول: إن النظام مرآة لمصمميه، ولابد من التسليم لصحة ذلك، فمن جانب التلاميذ في القطاع المهني، قلنا لهم: أنتم ابتداءً خارج حدود التعليم الأكاديمي، فاستجابوا، ثم قلنا لهم: لا فرصة لكم في الدراسات الجامعية، وأنتم أنتم وليس سواكم من تقع عليهم عيون الأسواق الصناعية لتكونوا من زمرة أصحاب الياقات الزرق وليس البيض، ومع ذلك كله لبّوا النداء، فقطعانهم استؤنست، ورغباتهم بعد قهر عُدّلت، وآمالهم ضرورةً شُذِبت، أما المدرسون فهم بكل تأكيد نتاج طفولة ذلك النظام.

وممّا لا بدَّ منه هنا التأسيس للقول: إن النظام التربوي المعمول به بُني أساسا على مبدأ الانتقاء، والإقصاء، فهو بهذا يدفع بطائفة كبيرة من الطلاب ليطلّقوا التعليم طلاقا بائنا قبل تمتعهم بحق إصدار مثل ذلك القرار، كما أن نظام انتقال الطالب من مدرسة مهنية أو مركز تدريبي مهني إلى مدرسة أكاديمية ممنوع، والحال نفسه حيث لا يسمح للطلبة في الحقل المهني من مواصلة دراستهم الجامعية العليا، ولذلك فإننا ندفعهم دفعا بصورة غير مباشرة إلى سوق العمل دون أي مؤهل مما يوسّع قاعدة هرم العمالة غير الماهرة في عالمنا العربي(١).

أما فيما يتعلق بالمدرسين للمدة المذكورة فهم بكل تأكيد نتاج طفولة ذلك النظام. كما أن النظام التربوي في عالمنا العربي لم يوفر الوسائل الكفيلة لتقدير فاعلية النظام، سواء ما يتعلق بالكفاءة الداخلية أم الكفاءة الخارجية، وفي هذا المجال أرى لزاما عليّ أن أنوّه بجهود الأستاذ «واثق الدايني» مدير التعليم الزراعي زمن السبعينيات من القرن الماضي والذي كنت أعمل معه عن قرب حيث حاول جهده، وأطفأ عدة شموع من عمره، وهو ينافح في وضع المعادلات والأوزان من أجل احتساب الكفاءات، وتقدير التكاليف، حتى إذا كان قاب قوسين من النتائج وهي في طريقها إلى التعميم، رميت دفاتره وكتبه في سلال المهملات.

ولا بد من الاعتراف أني قد وجهت انتقادات شديدة للنظام التربوي في الغرب وفي بريطانيا تحديدًا ودون وجه حق في بداية الأمر، حيث أطلقت أحكاما دون تريث مني وطلبت إجراء مراجعة شاملة في فلسفة النظام التربوي، لكنني عندما اشتغلت في الحقل التعليمي في بريطانيا عقدا من الزمن أو يزيد اكتشفت أن النظام يؤمن بتوسيع المدى التعليمي للطالب وذلك بتشجيعه للبقاء بين جدران المؤسسة التعليمية إلى المرحلة التي يحصل عندها على الحدود الدنيا لتؤهله للمساهمة في بناء المجتمع الذي ينتمي إليه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مكث الطلاب في المدرسة رغم عدم استيعاب عدد منهم

---

(١) تمت الإشارة إلى دراستي المنشورة بهذا الصدد في المحطة الأولى.

للمقررات المطلوبة للتك السنة أو السنوات التي هم فيها، أفضل لهم ولمجتمعهم من أن يتسربوا؛ لأن عبورهم إلى المرحلة اللاحقة تعطي فرصة للطالب أن يستدرك، ولا أدري كغيري من التربويين اللحظة الحاسمة التي تأتي بالتغيير وعندها يوضع في المسار المؤمّل. ولا شك من حصول الفائدة عندما نحاول إطالة مدة وجود الطالب تحت عناية المؤسسة التعليمية وبين جدرانها، وركوب قطار التربية مهما كان وضع المسافرين مع اختلاف في المشارب وتعدد في الاتجاهات وتباين في وجهات النظر وتغاير في القدرات سوف يُسهم في تعزيز رؤاهم وتوسيع مدركاتهم وتقريب وجهات نظرهم.

ولا بأس أن أذكر أصحاب المبادئ في بعض إدارات التعليم الذين عاصرتهم عندما اشتغلت في تلك المنطقة، والذين رأيت من الخير الاقتداء بمنهجهم، إذ وجدت الأصالة في شخصية «خير الدين عبد الحميد القاضي» من أكراد الجبل الشمالي، وهو ينافح عن أحد المعلمين بعد زيارة أحد المفتشين الصيفية، وقد اكتشف الأخير تقصيرا في العمل، وإهمالا في الواجبات من قبل أحد المعلمين العاملين في المدرسة المهنية، ففى رأي المفتش أن أشجار المدرسة قد ذبلت، والمحاصيل قد تلفت، والحيوانات قد نفقت، وعليه فلا بد من عقوبة توجه إليه، وقرر على ما يبدو أن يلفت نظره ويحسم من راتبه، تعويضا عن الخسائر، وإذا به – أعني المفتش – أمام هبّة المسؤول الشريفة ودفاعه المخلص، فقد راعَ المديرَ ما سمع، وأرّقه ما قرأ، وإذا به يمزق التقرير، ويرمي بالأوراق في سلة المهملات، فاندهش المفتش، وأصابه العَجب، ووضع من هول الصدمة يده على رأسه، محاولة منه تكذيب ما يرى، فقام من مكانه، ثم عاد جالسا، لا يلوي على شيء... و«خير الدين» ظل رابط الجأش كأنه الأسد في عرينه، معتزا بما فعل، مفتخرا بما أسدى لزميله فقد حفظ غيبته. وبعد ذلك احتل الصمت المكان، وأخذ العرق يتصبب من المفتش، وهو في حيرة من الأمر، فلم يواجه قط مثل هذا الموقف منذ ولد مفتشا، وطوال حياته مدللاً. وأخيرا يراد الآن للجليد الذي تبلور أن يذوب، وللضباب أن يتبدد، فإذا بـ «خير الدين» يقول بنبرة تنم عن الثقة ممزوجة بالأسف: (إذا كان من رجل يُعاقب على تقصير حصل، أو خطأ

اُقترف، فأنا المسؤول، وأنا الذي يتحمل التبعات، وعليّ تغطية الخسائر، وهذا كله ثمن المسؤولية التي حمّلتموني، والسلسلة التي بها قيّدتموني). فما كان من المفتش إلاّ أن ابتعد خطوات عن مكتب المدير ثم عاد حيث كان. فالمفتش لا يذكر أن أحدًا فعل فعلته، أو وقف وقفته، فكم من مدير وقف أمامه متخاذلا؟ بل كم منهم من آثر أن يحمّل الآخرين تقصيره، ويدفع عنه أخطاءه، ويحمل عنه أوزاره.

وأخيرًا رحل المفتش قافلاً إلى بغداد ليحبّر تقريره، وكان الأحرى به أن يقيم للقيم التي تحلى بها المدير وزنًا، وأن يراعي الشجاعة التي تزيّن بها، وأن يحترمه لإثرته غيره رغم ما به من خصاصة، فراتب «خيرالدين» - وإن كان مديرا - محدود، والتزاماته كبيرة. وما هي إلا أيامٌ قلائل وإذا بساعي البريد على دراجته الهوائية، يحمل الخطاب الرسمي، بتوقيع أعلى المراجع التربوية، وأرفع الوظائف الإدارية، يوجه العقوبة لـ «خيرالدين عبد الحميد» المدير بالوكالة، وكانت درجة العقوبة (الإنذار من مغبة ما عمل، مع التوقيف لعلاوته السنوية). لكن من جانب المدرسين والعاملين فقد تلقى «خيرالدين» أنواط الشجاعة من الدرجة العليا، التي لم ينلها مدير من قبله، وربما من بعده، وزاد احترامه، وعلت سمعته، وأصبحت أخباره تسبق إلى موائد نواديهم الليلة.

وبالتأكيد فإن قسما ممن يقرأ هذه الخواطر، يظن أنني قد جانبت الصواب في تأييد المدير تأييدا مطلقا على موقفه الذي وقف، وطريقه الذي سلك، وهذا يعني أني أيدته في تمرده وفي خروجه على النظام، وربما يكون الحق مع من ذهب هذا المذهب، ولكن هذا ما وجدته من رأي؛ لأن المفتش لم يحرص على إعطاء مدير المدرسة فرصة لشرح عمل المعلم الذي اُتهم بالتقصير، وهو لا يدري ما الذي تعاني منه المدرسة، فكان الأحرى أن يعطي الفرصة لسماع وجهة نظر الذين يمارسون أعمال الحقل في الصيف اللاهب، ويعانون من مشاكل عدة في مدارس كالمدرسة الزراعية التي عنها نروي هذه الحوادث، أما أن يقوم المفتش الفاضل بتوجيه عقوبة بمثل هذه السرعة، وكأنه قد أمسك بصيد ثمين،

فهو ليس الحل الأمثل. وربما كان «خير الدين» مجانبا للصواب لكن على التحقيق يبدو أنه رد فعل على تصرفات أخرى سابقة، وأعتقد أن من يقرأ هذه القصة يشاركني الرأي بكل تأكيد أن المفتش[١] هذا هو ليس بذلك المفتش الذي يحسن أن يقال فيه[٢]:

في ناظريه صدى اليقين　　　يشّع إشراقا وظِلا

ويجود من أنفاسه　　　روحا مكللة وشملا

بين المدارس يومَهُ　　　يقضي يوجِّه حيث حلا

يبني النفوسَ منائرا　　　حينا وأحيانا جِبِلا

ويغوص يمنحها السموَّ　　　على سماحته تدلّى

وللتدليل على ما ذهبت إليه من رأي في المفتش المذكور فإن لديَّ عنه كثيرًا من القصص الحقيقي لكن أكتفي منه بالقصة التالية الظريفة، وأحمد الله أن أغلب شخوصها من الأحياء: إذ ترامت أنباء وصول المفتش «أبو العز» إلى أسماع المدرس «أبي الفوارس» في الليلة المنصرمة، فلم يغمض للأخير جفن، ولا نامت له عين، ولا استقر له قرار، ولم يهدأ له بال، وأصبحت الوساوس تعشعش في فؤاده، والأحلام المزعجة تأخذ منه كل مأخذ، تقضُّ مضجعه، وتصطك لها مسامعه، وترتجف منها عظامه، وتخور لها قواه، وازداد وهنًا على وهن، فبات مسهدًا، وأمه المسكينة تحاول تهدئة روعه، وتقرأ على رأسه التعاويذ، وتحيطه بالتمائم، وتنشّر له بالنُشر، أما فطوره الصباحي فلم يعد يذكره، فنادته أمه: فطورك يا بني؟ فلم يعد يصيخ لها سمعا، ولا يعير الطعام أهمية، فالخطب أكبر، والمسألة أعسر، والمعركة قادمة، والنصر فيها محسوم للعدو، ولم تسمع أمه غير همهمته بالدعاء

---

(١) لقد عملت مفتشا تربويا (مختصا) ما بين عامي ١٩٨٤ و١٩٨٦ في المدارس نفسها التي كان المفتش صاحب القصة يزور.

(٢) للشاعر الأخ سالم بن رزيق بن عوض:. من قصيدة طويلة منشورة له في مجلة المعرفة، العدد ١٢٨ ذو القعدة ١٤٢٦ ديسمبر ٢٠٠٥ م، وهي مجلة شهرية تصدر عن وزارة التربية والتعليم، جدة، المملكة العربية السعودية.

على الظالمين، والعتاة من المفتشين، ومن والاهم من الناس أجمعين، وقد أعلى صوته بكلمات ومقاطع لو جمعت لألفت بيت الشعر الذي صاغه الشاعر المخضرم والخائف من غضب الملك النعمان[١]:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ووالدته تُؤمِّن على دعائه، فهو وحيدها ومُعيلها، وكأنه شعر بعد ذلك بالراحة، وهدأ بعد تلك التعاويذ روعه، وطفق يستجمع قوته، ويستدرك أمره، وترك الدار على عجل، وأخذ يغلق أزرار ثوبه وسرواله وهو مسرع على وجهه في الطريق، وشرع يُعمِل فكره، ويستجمع أمره، إلى أن وجد الفكرة، واستحسن الخطة، فقد صمم على إغراق الحقل الذي يحيط بقسم تربية الحيوان، حيث تنعم الأبقار بالسكينة، وتنام الأغنام الوديعة، والكتاكيت تغادر بعد واحد وعشرين يومًا من سجنها في ماكنات التفريخ بيسر وسهولة.

فسارع يسابق الريح، ليصل مع الخيوط الأولى للفجر، مناديا أحد الحرّاس، وآمرا بفتح صنابير الماء على أقصى سرعة، وأعلى درجة، وتوجيه السواقي لتغذي الحقل المحيط بقسم تربية الحيوان، والمفتش لا زال يغط في نومه في نادي الموظفين، إذ أخذ منه شراب الليلة الماضية مأخذه، والعشاء الدسم ثقل على معدته، تراوده الأحلام الوردية، فهو على مقربة من صيده الثمين، وما هي إلا سويعات، عندها يكون أمام البوابة المفضية إلى قسم تربيه الحيوان، ويُقبل على الحبيب الذي لا يُنسى.

وفيما كان «أبو الفوارس» المذعور يعالج المياه، لترتفع ولتغرق فرعون وهامان، ومَنْ معه من المنافقين والمنتفعين. وأخيرا تحقق لـ «أبي الفوارس» الحلم، فقد غرق الحقل

(١) هذا البيت للنابغة الذبياني من قصيدة طويلة منها:

أتاني أبيت اللعن، أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع

حيث يمتدح النعمان ويعتذر إليه، ويهجو من وشى به، وكان النعمان غاضبا منه، ولم يكن يجهز إليه جيشا تعظم عليه النفقة، فشعر النابغة أن الجزيرة العربية على اتساعها وامتدادها أصبحت لا تسعه في الهرب منه، فوصفه بالليل الذي يغطي الأرض بظلامه فلا نجاة ولا مخلص. واستطاع أن يدس ثلاثة أبيات من هذه القصيدة لقينة النعمان وطلب إليها أن تغنيها له عند النوم، وفعلا فعلت، وقد أعجب بالأبيات وعفا عنه.

تماما، وأصبح من الصعوبة بمكان أن يفلح حتى الشيطان بالعبور، وهيهات هيهات له أن يفلح بعد اليوم، فإن المفتش - الشيطان - سوف لن يضحي بحذائه الأحمر الذي أُهدي إليه من خارج العراق، فضلا عن أن سنّه قد علت، وظهره قد احدودب، وتقوست رجلاه، وسقط شعر رأسه حيث انتصبت على جانبيه أذنان كبيرتان، أما أرنبة أنفه فقد غزتها كوة من الشعر، وقد أحاط عينيه بإطار عويناته الطبية الذي تناسب مع وجه أبيض قد تدّور بسبب النعمة.

أما الموقف في المدرسة فكشفت عنه أشعة الشمس عندما نشرت خيوطها الأولى على الحقل، وإذا بها أضحت بحيرة واسعة يلمع سطحها، وينم لونها عن عمقها، فهي تغطي الحقل تماما، وترعب السابح، أما المفتش الذي كان يقف عند بوابة الحقل المؤدية إلى قسم تربية الحيوان فقد وقف يجول ببصره، وقد قطّب جبينه عندما رأى نفسه أمام بحيرة انتصب وسطها قسم تربية الحيوان كقصر[١] حصين وسط تلك البحيرة. وأخذ المفتش يسأل نفسه: هل أنا أمام حقل «أبي الفوارس»؟ أم أني أخطأت الهدف؟ وما هي إلا لحظات وإذا بقرار العبور قد صدر، ولسان حال المفتش يقول: سيكون عبوري درسا لعدد من الجيوش العربية وفعلا عبر المصريون فيما بعد خط بارليف، وقد نجحوا، وهي المرة الأولى التي يفرح بها العرب المؤمنون[٢]، أما الإنجليز فسيصافحون الفرنسيين تحت البحر - في قناة الدوفر[٣] - بعد خصام ونزاع. وإذا به يخلع الحذاء الأحمر ويشده إلى حزامه بقوة، فهو عنده أثمن من المعبور إليه.

أما «أبو الفوارس» فلا زال يرقب تطور الأحداث من نافذة قسمه، وكأنه جندي من جنود المراقبة قد تحصن في قلعة من قلاع القرن السادس عشر، وإذا ببصره من خلف نظاراته الطبية السميكة يقع على صورة ذلك الشبح المخيف، وقد وقف على طرف الحقل الغارق، وهو بين مصدق لنفسه ومكذب، وبدأ أبو الفوارس بمسح نظارته التي تجمع عليها

---

(١) القصر يطلق على البيت الواسع إذا بُني في الأرض المنبسطة السهلة، أما إذا بُني على الجبل فهو البيت.

(٢) إشارة من الكاتب لما حدث في عام ١٩٧٢ على جبهة المواجهة المصرية الإسرائيلية.

(٣) إشارة من الكاتب للحدث التأريخي عندما أُنجز النفق بين الجزيرة البريطانية والقارة الأوربية عام ١٩٩٤.

الضباب بسبب زفيره المحموم لعله يرى غير الذي أبصر، وأخذ يتساءل: مَنْ ذلك الشبح المخيف؟ وهل هناك من معين له أو أعوان؟ و«أبو الفوارس» مصمم على الشك، قائلا لنفسه: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)، فالعيون خدّاعة، لكنه ظل حائرا مع يقينه أن الشك لا يُبنى عليه حكم، فقرر من باب الحيطة والحذر تغليق الأبواب والنوافذ، غير آبه بما يقال: (أن النعامة تخفي رأسها في التراب حالما يحدق بها خطر). وأخذ يسأل نفسة: تُرى هل استيقظ المفتش؟ ومتى أفطر؟ وكيف وصل إلى طرف هذه البحيرة؟ وبلع ريقه قائلا: والله إنّه لوغد من الأوغاد، فما الذي يريده مني بالضبط؟ والحارس الأمين في قسم تربية الحيوان يحاول التخفيف عن أبي الفوارس، ويواسيه، وينفذ له أوامره، ولكن لسان حال أبي الفوارس يردد(١):

وإذا المنية أنشبت أظفارها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ألفيت كل تميمة لا تنفع

وأخيرا فإن الترتيبات والتحصينات وكذلك الخطط التي أجهدت أبا الفوارس قد باءت كلها بالفشل، فالمفتش قد صمم على ملاحقته، وتصيّد عثراته، وتسقّط هفواته، مهما وضُعت أمامه من عراقيل، فخط «ماجينو» قد دُمر من قبل، ورجل السبعينيات من العمر قد شمّر عن ساعديه، وقد رفع سرواله إلى ركبتيه، وحمل على ظهره حقيبته وفيها نماذج من تقارير العقوبات، مستعينا ببعض الحجارة البارزة التي على ظهر المروز، يضع قدميه عليها، فقد عزم على الوصول إليه مهما كلف ذلك من تضحيات وأثمان، فهو في شوق إليه كبير، وحنين منقطع النظير، إذ طالت الغيبة، ومرّت الشهور ثقيلة ورتيبة، وهو ينتظر

---

(١) البيت من قصيدة طويلة لأبي ذؤيب الهذلي الشاعر الذي أفجعته المنون بأولاده الثمانية، وقيل الخمسة بمرض الطاعون، ففقدهم في عام واحد. كان أبو ذؤيب مسلما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يره، ولكنه شارك في الصلاة على النبي ودفنه. ولاخلاف أنه جاهلي إسلامي. وقال الأصمعي أن أبرع بيت قالته العرب هو لأبي ذؤيب:

والنفس راغبة إذا رغّبتها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وإذا ترد إلى قليل تقنع

وقد قدّم لقصيدته:

أمن المنون وريبها تتوجع ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ والدهر ليس بمعتب من يجزع

قالت أميمة ما لجسمك شاحبا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

هذه الفرصة، آملا اللقاء القريب، وليسطّر عندها بقلمه التقرير الرهيب، فهو يعشق رفع التقارير، وتوجيه العقوبات، ولا عجب فإن هناك من لا يهدأ باله، أو يستقر قراره إلا بعد أن يرفع تقريرا أو تقريرين أو أكثر من ذلك ينفث فيها سمومه ويعالج فيها مرضه، ويداوي بها الداء العضال، ولا تأخذه سنة من النوم إلا بعد تحبيرها.

وقبل أن نسدل على هذه المسرحية الستار وهي مسرحية وقعت على تراب تلك المدرسة حقيقة، وأغلب الممثلين والشهود العدول لا زالوا يشمّون الهواء، ولو بصعوبة بالغة؛ لأن النسمات هي الأخرى أصبحت لا تمرُّ إلا بمرسوم من السلطان فإن القصة انتهت حين أمسك المفتش بتلابيب أبي الفوارس، قائلا: وأخيرا وجدتك، وأصدقك القول أني لا أستطيع العيش بدونك، فأنت هلال الشهر الميلادي الذي عنده تُصرف المرتبات. أما أبو الفوارس فأصبح لا يلوي على شيء، أسنانه تصطك، وفرائصه ترتعد، وعيناه جاحظتان، أما نظارته فسقطت بين الحظائر، ورفع يديه إعلانا منه بالاستسلام، فقد وقع المسكين في الفخ الذي طالما حاول منه الفكاك، مستنفدا كل الحيل ليكون بعيدا عن قبضة حضرة المفتش، فوقع أجره على الله.

ولعلي لا أنسى أن ألتقط صورة أخرى حدثت في المدرسة، وهذه المرة بطلها أحد طلاب المدرسة، فقد استدعى مدير المدرسة في الأول من نيسان (أبريل) في زمن الستينيات الطالب «حسّان»، وكان شابا طويلا، وسيما ومحترما ومهيبا في عيون زملائه. كان يرأس الاتحاد الوطني لطلبة العراق في تلك المدرسة المهنية آنذاك، وقد لبّى «حسان» نداء المدير، حيث طلبه على عجل، والهموم الكثيرة جعلت المدير لا يجد حيّزا للجديد من الحادثات في رأسه، فهناك أكثر من مسألة ساخنة اعتاد على إلقائها في درج من أدراج الثلاجة لتبرد. فالمدير على ما يبدو لا يستطيع حسم الأمور عدا القليل منها، وعندما وصل إلى باب غرفة المدير بقامته الرشيقة، استأذن كعادته، ناقرا بأطراف أصابعه الباب، وكان بلا شك من المؤدبين حيث يجمع على ذلك المدرسون والعاملون كافة، فإذا

بمدير المدرسة يقف وراء منضدة عمله التي تبعثرت عليها مئات الأوراق، وتناثرت جداول الحصص، وتكدست الكراريس قائلا: في الواقع «يا حسان» لقد هاتفني قبل دقائق شخص من قريتكم يخبرني وفاة والدتكم، وهم ينتظرونك لدفنها، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وأنت يا حسان نحسبك من الواعين والمؤمنين، فهذا أمر الله حيث قضاؤه وقدره واقع لا محال، وعليك التسليم. و«حسان» ذلك الولد البار بأمه، يحبها وتحبه، تذكّر على الفور أنه على موعد مع والدته لتخطب له عروسه، وأن الأشهر القادمة حبلى بالمناسبات، فهناك أحلام كثيرة في طريقها للتحقيق، وهناك أمور تحتاج إلى ترتيب، وهناك تدابير لا يمكن دون الوالدة إتمامها، فيا له من خبر مؤلم، ويا له من حدث جلل، وخطب جسيم، فما كان من «حسان» إلا أن ألقى بنفسه على إحدى المقاعد القريبة منه، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، فما استطاع أن يحبس مشاعره، ولا أن يخفي عبرته، فانفجر بالبكاء وعلا صوت نحيبه، وتجمع من تجمع من الطلاب والمدرسين أمام غرفة المدير، فالكل يحب «حسان»، والكل يريد أن يعرف الخبر، أما سعادة المدير فعلى ما يبدو وجد في بكاء «حسان» سلوة، وفي نحيبه سعادة، وفي أنينه راحة، وفي تأوهه ترفيه، وهناك ما يبرر تلك الفرحة فقد أصبح الاحترام كله يتوجه إلى حسان دونه، وكل صغيرة وكبيرة في المدرسة يعرف عنها حسان قبل أن يعلم بها مديره .... و .... و .... ولذا فإن الوقت وقت شماتة، والفرصة أصبحت مواتية لأن يجعل زملاء حسان يرونه بهذه الحالة حيث يندر في ذلك المجتمع القبلي أن يبكي فيها الرجال.

وعندما حاول حسان النهوض وزملاؤه يتوافدون إليه زمرا، ليتيقنوا الخبر، إذا بهم يمسكون به متوجهين حيث مبنى القسم الداخلي ليأخذ بعضا من لوازم السفر، حيث عزم على مغادرة المدرسة ليحضر جنازة والدته، ويحظى بإلقاء نظرته الأخيرة عليها، فهو بعض الوفاء، وهو جزء من الواجب، وهو كل العرف ولاسيما أن «حسان» هو الأكبر سِنّا بين إخوانه وأخواته. أما المدير الذي بقي ملازما مكتبه، فلا يدري كيف ينهي مزحته التي مزح؟ ويستدرك خطأه، ولا سيما أن الأمر أخذ طريقه للجميع.

وبعد أن أدرك المدير الخطر إذا ما ذهب «حسان» إلى قريته، واتضح لحسان وآله وصحبه أن مزحة (كذبة) نيسان هي كل الأمر وخلاصته، وأن السيد المدير لعب بعواطفه، وهز أعصابه فستكون العواقب وخيمة، والنتائج خطيرة، وأصبح المدير يحدّث نفسه بأن العمل الذي أقدم عليه عمل صبياني، ولا يدري كيف زلت به القدم، وخانته الفِكَر، فقلّب الأفكار وقارن بين الحيل فوجد أنه في ضيق منها، وأصبح من الصعوبة أن يفك ما انعقد، ويحل ما أشكل.

وفي النهاية قرر المدير أن يتدارك الموقف مهما كانت التبعات، فنادى حاجبه وسأله أن يلحق بحسان قبل أن يستقل السيارة، وأن يخبره بأن المدير في انتظاره، وفعلا أسرع الحاجب وأخبر «حسان»، فتبادر لحسان أن المدير قد يرتب للمساعدة، وقد يرسل معه سيارة، أو يتبرع بشيء من المال ليستعين به في قضاء حاجته، وما درى أن الموضوع غير ذلك. وما كان من حسان إلا الاستجابة لمقابلة المدير، وإذا بالمدير ينتصب تمثالا باردا، وكتلة لا تلوي على شيء، فهمهم بكلمات كان يشحذها بصعوبة ليبدي أسفه، ويظهر عذره لما جرى، ولكنه في البداية أخفق في تأليف جملة مفيدة يفصح بها عن مراده، عندها استجمع قواه، ثم قال: يا حسان إن والدتك لا زالت على قيد الحياة، وهي بخير، وأن كل الذي حصل هي كذبة نيسان، فلعن الله كذبة نيسان، وأردف قائلا: وأنا آسف أشد الأسف، وأقدّم غاية الاعتذار. وأطرق حسان مليا ... ... كأنه لا يصدق أذنيه، ولما شعر حسان أن عليه أن يصدّق ما يقوله المدير، جلس على الأرض وكأنه لا يستطيع الوقوف، ثم أردف قائلا : وعليك أن تتحمل نتائج تلك المزحة، فلك عندي مِزح لا تنتهي، ولكن عليك أن تنصفني، ولا تستعمل السلطة التي بيدك، فأنا مجرد تلميذ وأنت مدير.

ومرت أيامٌ وليال وحسان يحوك خيوط المؤامرة، ويحبك حبال الخطة، وبعد رويَّة، قرر حسان أن يذهب إلى بيت المدير بعد أن تأكد من وجود المدير في المدرسة، فطرق الباب، وإذا بزوجة المدير تفتح الباب، وبكل جرأة – تلك التي عوّد حسان عليها الجميع – أخبرها

أن مدير المدرسة قد أرسله إليها على عجل، ليفيدها أن لدى المدير ضيوفا من العاصمة، وعددهم كبير، وشأنهم عظيم، لذا فإن المدير يشير عليها بذبح جميع الدجاج الذي في البيت، فما كان من زوجة المدير إلا أن قالت: لكن المدير يعتز بالدجاج لأنه من أصناف فاخرة ونماذج لسلالات معروفة، وفوق ذلك فإن أسعارها مرتفعة، وكان حسان على علم تام بذلك، ويعرف أنواعها فبعضها من نوع «الليكهورن»، ومجموعة من صنف «نيوهمشاير»، وثلاثة من سلالة «السسكس»، والباقي من مهجنات مصر «كالدقي»، والفيومي»، وحسان يتمثل قول البحتري[١]:

كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجد يتعسه الجد

فما كان من «حسان» إلا أن ردّ قائلا: (يا خالة إن المدير يعرف ذلك ولكنه التقدير والكرم لضيوف على مستوى عال من المكانة)، وواصل حسان قائلا: (والمدير يصرُّ على أن تكون المأدبة[٢] جاهزة عند الساعة الواحدة ظهرا، وإذا كنتِ بحاجة لمن يذبح تلك الطيور فأنا على أتم الاستعداد). فأخرجت المسكينة الدجاج ليقوم «حسان» بذبحه، وأسرع «حسان» في إنجاز المهمة، فهو أول الغيث، وصار على علم بعدد الدجاج الذي سيقدم، ثم طلب إليها أن تستعين بجارتها في الطهي إن تطلّب الأمر ذلك، وفعلا تم لحسان ما أراد، وهو يرقب الأحداث عن بُعد كالذئب ينام بإحدى مقلتيه. وما أن حطت عقارب الساعة عند

---

(١) البيت من قصيدة طويلة وهو يصف معركته مع ذئب جائع:

وأطلس ملء العين يحمل زوره وأضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجره ومتن كمتن القوس أعوج منأد
طواه الطوى حتى استمر مريره فما فيه إلا العظم والروح والجلد
يقضقض عصلا في أسرتها الردى كقضقضة المقرور أرعده البرد
سما لي وبي من شدة الجوع ما به ببيداء لم تحسس بها عيشة رغد

(٢) في الواقع استعملنا اللفظ مأدبة فهي طعام الدعوة، وللفائدة نذكر هنا ما ذهب إليه الثعالبي بهذا الخصوص: فالقِرى: طعام الضيف، والتحفة: طعام الزائر، والشُّندخِيّةُ: طعام الأملاك، والوليمة: طعام العرس، والخُرْسُ: طعام الولادة، والوضيمة: طعام المأتم، والنقيعة: طعام القادم من سفر، والعذيرة: طعام الختان، والعقيقة: عند حلق شعر المولود، والوكيرة: طعام البناء، والسلفة واللهنة: طعام المتعلل قبل الغداء، والعجالة: طعام المستعجل قبل إدراك الغداء، والقفيّ والزلة: طعام الكرامة. أنظر فقه اللغة للثعالبي صفحة: ٢٤٠.شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم/بيروت.

الواحدة إلا ربعا بعد الظهر إلا وحسان ينتخب من طلبة المدرسة من يشاء، فأخذ يدعوهم ويمنيهم، وفعلا لبى دعوته جمع غفير، وحسان يتقدمهم إلى مكان لم يعهدوه يوما، وهم بين مصدق ومكذب، فهم الآن أمام بيت المدير، فصاح جمع منهم: إلى أين يا «حسان»؟ فأجابهم بكل شجاعة ورباطة جأش: بيت السيد المدير، ألا تصدقون أن المدير قد دعاكم؟ ولكن صاح غير واحد منهم: وأين صاحب الدعوة؟ فيجيب حسان إن مدير المدرسة يريد أن يكرمكم، فهل من شك في كرمه وجوده؟ ولكنّه مشغول للغاية ونحن أبناؤه وأحباؤه. ومضى حسان يقدم زمرته حيث غرفة الضيوف، والمسكينة زوجة المدير مشغولة بإعداد المائدة وترتيبها. وبعد أن تمّ إعدادها تماما، أشار على زوجة المدير بأن تغادر صالة الطعام، لتسمح له بدعوة المدير وضيوفه، وفعلا نادى حسان رفاقه وهم ما عرفوا «للّحم مُذْ خُلقوا طعما»، وحسان يستحلفهم بأغلظ الإيمان أن لا يتركوا شيئا من الطعام، حتى شبعت البطون، وارتوت الجسوم، وانتعشت النفوس، و«حسان» يفقه أدب الطعام فقد جوّز لهم على مذهبه أن يتجاوزوا حدود الشبع.

وأخذت عقارب الساعة الآن تشير إلى الثانية والنصف بعد الظهر، وآن الأوان للانسحاب، فالمعركة الأولى قد انتهت، و«حسان» يعلم علم اليقين أن الحرب لم تضع أوزارها بعدُ، فأشار على الرفاق بأن يحترموا أنفسهم وينسحبوا بكل هدوء وسكينة ووقار، أما «حسان» فعليه أن يقنع زوجة المدير أن الضيوف مع السيد المدير قد غادروا المكان، وأن الضيوف التهموا الطعام التهاما تقديرا منهم لذوق مُعِدّة (طاهية) الطعام حيث النكهات المميزة، والمدير مسرور بالمأدبة وترتيباتها غاية السرور.

زوجة المدير: (لكن لماذا لم يأت المدير لأراه يا «حسان»؟)

حسان: (خالتي صدقيني أن الضيوف من الأهمية بمكان ولا يحسن له تركهم)،

وهكذا أسدل حسان الستارة على الفصل الأول من مسرحيته المثيرة.

حسّان الآن مع زملائه عند بوابة المدرسة، يمنيهم ويعظهم بعدم تسريب المعلومات لأي أحد كان، وأخبرهم أن عليه واجب تقديم الشكر بالنيابة عنهم وبالأصالة عن نفسه لحضرة السيد المدير، فقد كان الغداء حقا فخما ودسما وحافلا بأصناف لم يعهدها زملاؤه ولا آباؤهم من قبل. ودلف من بينهم نحو غرفة المدير، والمدير منهمك مع جملة من الزبائن. وعلى كل فلا مجال للانتظار، وعليه أن يخبره بشيء مهم، وضرب الباب مستأذنا:

المدير: (مَن؟ حسّان؟)

حسان: (نعم، هل لي بلحظة واحدة يا أستاذ؟)

المدير: (حسنا يا حسّان)، وخرج المدير ليقابل حسّان، واقترب منه،

حسان: (هل لي أن أخبرك بشيء ربما يزعجك؟)

المدير: (ما وراءك يا حسّان؟)

حسان: (أستاذي العزيز، في الحقيقة أنا في غاية الحرج في أن أخبرك بكل ما جرى في هذا اليوم. ولكن باختصار: أخبرت زوجتك هذا الصباح أن لديك ضيوفا مهمين من بغداد العاصمة، وقد طلبت من زوجتك أن تعد مأدبة تليق بهم، وأشرت عليها أن تذبح الدجاج الذي في مزرعة البيت جميعه. وقد أعدت خالتي طعام الغذاء بالتمام)،

وقبل أن يكمل حسّان قصته بالكامل شعر المدير بدوار شديد وصداع لا يطاق، وهو يهمهم بسؤال مفاده: (وهل ذبحت بيدك الدجاج؟)

حسان: (اللهم نعم).

المدير: (وهل تعرف ماذا يعني أن تذبح الدجاج؟ إنها نماذج، إنها أصناف محسنة، إنها أصناف مهجنة).

وقاطعة حسّان محاولا إقناعه بأن الأمر قد انتهى.

حسان: (والمهم أن تفكر في الحل؟)

المدير: (وما الحل يا حسّان؟ فلقد كسرت لي قلبي واغتلت أحلامي).

ويقاطعه حسّان بالقول: (لدي فكرة إن وجدتها مفيدة فلا تتردد في أخذها، وهي أن تدعو زملاءك المدرسين، وأنا على علم بطبيعة العلاقات المتوترة بينكم، وأنك لم تدع أحدا منهم منذ عرفتك، فلماذا لا تسدي لهم جميلا؟ وتعمل صنيعا كريما؟ وتصلح ما أفسد الزمان بينكم؟ إنها فرصة، أليس كذلك؟).

ولم ينتظر «حسان» رد المدير أو تعقيباته، بل غادر الموقف برمته، تاركا المدير مع هواجسه، مكابدا لخسائره، ومقلبا للأمور. لكن يبدو أن فكرة «حسان» مستحسنة، فالغداء جاهز، والأفضل أن يضع الطعام في بطون مدرسيه خيرٌ له من أن يرمي به للقطط والكلاب، وماذا لو جمّدته - يسأل نفسه - ولكن لا مكان في المجمدة أصلا، فهي صغيرة.

وذهب المدير بعد أن صرف زبائنه يطوف على أعضاء هيئة التدريس واحدا تلو الأخر، يسألهم تلبية دعوته لتناول الغداء، ويأسف للتأخر في دعوته لهم، وأخذ يبدي معاذيره؛ لأنه لم يُخبرهم بأمر الدعوة مبكرا، لكن هي الأخوّة، وإنها الأسرة الواحدة، وأغلب المدرسين ظلوا حيارى لماذا الدعوة؟ ولماذا الآن؟ وما المناسبة؟ ولأن المدير يعلم أن قسما من المدرسين سوف يقدّموا اعتذارهم عن الحضور، لأسباب عدة، فإنه حاول على عجل أن يسأل وساطة أحد المدرسين من الذين أبقوا على علاقاتهم الطيبة مع الجميع من أصحاب المروءة لإقناعهم، وأصبح معظم المدرسين يتغامزون ويتهامزون. وبعد جهد جهيد قَبِل رتل من المدرسين تلبية الدعوة لعل فيها إنهاء قطيعة سنوات، وشهور من الخلافات، ومع كل المحاولات فإن مجموعة صغيرة أبدت تحفظها ورأت عدم المشاركة.

النصف بعد الثالثة عصرا، المدير يتوسط المدرسين ممن لبّوا نداء الواجب، أو قطعهم سيف الحياء، أو ممن أقنع نفسه في الظن الحسن. وبعد برهة وجدوا أنفسهم

عند بوابة بيت المدير، (فحمدا لله سوف نرى لأول مرة بيت المدير) هذا ما تهامس به بعضهم، وسبقهم المدير خطوة أو خطوتين ليفتح لضيوفه باب منزله، ونادى على أصحابه أن ادخلوا بسلام غرفة الضيوف التي على شمائلكم، ورائحة الطعام لا زالت تفوح تزكم أنوف ذوي البطون الجائعة، فالصحون الفارغة لا زالت راقدة في المطبخ، أما المدير فراح يرحب بهم ويجلسهم حيث يشاء فهو رب الدار وصاحب الدعوة، ثم تركهم ليرى زوجته، فقد أجهدت نفسها، وشمّرت عن ساعديها، فإذا به أمام زوجته تسأله: (كيف كان الطعام؟)

المدير: (أي طعام؟ عملها حسّان؟ سوف لا أنسى له هذه المكيدة، على كل حال الضيوف ينتظرون في الصالة)،

الزوجة: (ماذا ينتظرون بعد أن مسحوا المائدة مسحا؟)

والمدير لا يفهم ماذا تقصد الزوجة التعبة، ولا هي الأخرى تفهم ماذا يعني حضرة المدير صاحب الكرم الحاتمي.

عندها قال المدير: (هيّا نبدأ بتقديم الطعام للضيوف؟ فالناس ينتظرون وقد أقنعتهم بجهد جهيد لتلبية الدعوة).

الزوجة: (وهل أنت جاد فيما تقول؟)

الزوج: (بالتأكيد .. ماذا حدث؟)

الزوجة: (ضيوفك جاءوا في الساعة الواحدة وتناولوا طعام الغداء ولم تكلف نفسك على الأقل لتراني، ولكن الضيوف من الشخصيات المهمة، أليس كذلك؟).

والآن فهم حضرة المدير اللغز المحيّر، أما الزوجة فإنها لم تعثر على الحل بعدُ، فماذا عساه يفعل؟ رجلاه لا تكادان تحملانه نحو غرفة الضيوف، والغضب يأكل منه القلب،

والشرر يتطاير من عينيه، مصعدا بيديه شعر رأسه، وهو ينادي بأعلى صوته: (عملها حسّان، فعلها حسّان، لا بارك الله فيك يا حسّان).

المدرسون ينظر بعضهم إلى بعض، متسائلين: ما الذي يجرى؟ ما الذي حدث؟ وليس من مجيب عن تلك التساؤلات، المدير وحده يعلم. وأخذ المدير يدفع بنفسه نحوهم بصعوبة، معتمدا على مقبض باب غرفة الضيوف، ثم جلس مسندا ظهره على الجدار الذي يليه، وباسطا رجليه على الأرض، وبدأ بفتح ربطة العنق وأزرار قميصه العليا، فهو يشعر بالاختناق والضيق، يفتش في جيوبه عن منديل يساعده في تجفيف العرق المتصبب من جبهته، وتحلى «أبو خلوق» بالشجاعة، فسأل المدير: (ما الذي حصل يا سعادة المدير؟)، فتردد المدير في الإجابة، ثم استأنف قائلا: (القصة بالغة التعقيد)، فتدخل بعض المدرسين مخففين عنه الألم قدر المستطاع، قائلين: (كل الأمور هيّنة، ونحن نقدر لك دعوتك لكن اخبرنا): (ما الذي حصل؟)،

وبصوت متهدج بدأ بسرد ما جرى، فانفض الضيوف بين مقدر وساخر كلا إلى وجهته. ومن ناحيتي قلت: لن أقطع على المدير خلوته في الليل، فقد بات مسهدا، وهو يصارع الظلم والظلام، ظلم «حسان» وظلام الليل، ولأن مصدرا إخباريا محايدا لم يكن ليأتيني بخبره لأرسم لكم بالكلمات لوحات فنية أخرى لتضاف لتلك التي لم أكن لأنساها طوال حياتي.

وفي صباح اليوم التالي دعا المدير مجلس المدرسين لجلسة طارئه، ولم يكن مجلس المدرسين يعني وجود ممثلين عن الآباء في ذلك العهد، وقرأ الجميع تبرّم المدير، وهو في الواقع أمام أكثر من قضية مخجلة، فما حصل له البارحة شيء لا يكاد يصدق، وأنه مقدم على مسألة يرى أنه خاسرها لا محالة، وجل المدرسين يتساءلون عن سبب الاجتماع، فلا برنامج كانوا قد استلموا، ولا أهداف قدمت لهم مسبقا، ودخل المدرسون غرفة الاجتماع، وإذا بالمدير يعلن على الملأ أنه قرر طرد حسّان من المدرسة! وفوجئ المدرسون بالقرار

وصوتوا بالإجماع ضد القرار، لا بل انسحب بعضهم محتجا، وحاول المدير تبرير فصله، معللا بأن حسّان أساء استخدام العلاقة التي منحت له بسبب كونه رئيسا لاتحاد الطلبة في المدرسة، وسخر الجميع من التعليل، ورفضوا التوقيع.

وقبل أن نقفل هذا الملف المثير للشاطر «حسّان»، ينبغي أن ننوه أن المدير قد تجاوز القيم التربوية بالتضليل وربما الكذب وإن لم يقصده، وأن اللوائح التربوية يجب أن تنص على تنظيم القيم، وتحديد العلاقة بين الطلبة أنفسهم وبينهم وبين أعضاء هيئة التدريس. أما المزح فله آدابه، وأهدافه، ولنتأسى بهدي المعلم الأول الرسول الكريم - ﷺ - والآثار في مشروعية المزاح كثيرة فقد كان الرسول يمزح ولكن لا يقول إلا حقا، إذ روي عن أنس رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - قال له: « **يا ذا الأذنين» وكذلك يروى أن رجلا أتى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله احملني، فقال: إني حاملك على ولد الناقة. قال يا رسول الله .... وما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله - ﷺ - : وهل تلد الإبل إلا النوق**» والملاحظ أن رسول الله - ﷺ - في هاتين الطرفتين يمزح بالحق، فقال لأنس يا ذا الأذنين وتلك حقيقة! والجمل مهما كبر فهو ابن الناقة وتلك حقيقة أيضا! فالأصل في الحياة الجد والاعتدال في كل شيء. وقد قال الحكماء: (من كثر مزاحه، زالت هيبته) أما بعض البلغاء فنصّوا: (من قل عقله، كثر هزله)، حتى قال أبو الفتح البستي[1]:

أفد طبعك المكدود بالجد راحة تجَمُّ وعلّله بشيء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تُعطي الطعام من الملح

وما دمنا نركّز على الجانب التربوي، فإن من مواعظ أبي حنيفة التربوية الواعية للمعلم: أن عليه أن يتعهد طلابه بين مدة وأخرى بالمؤانسة والممازحة ولا سيما إذا طال وقت الدرس واشتد الحرُّ.... لكي يستثير انتباههم، ويوقظ عقولهم وإدراكهم، وقال

(١) للزيادة في الأمثلة المتعلقة بالمزاح راجع: البحث المقدم من قبل نسيبة عبد العزيز المطوع والصادر عن اللجنة العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية/ المؤتمر النسائي التربوي، الكويت، ١٩٩٣

ما نصه: (وآنسهم ومازحهم أحيانا، وحادثهم فإن المودة تستديم مواظبة العلم) حتى صار الشافعي يقول: (الوقار في النزهة سخف[١]).

وثَمَّ نافذة أخرى أريد أن تظل مفتوحة ليطلَّ منها القارئ الكريم متى شاء ليرى من خلالها البشر الطيب الذي عاشرت خارج أسوار المدرسة، بشر يتميزون بالأريحية[٢]، والكرم عموما، مما يدل دلالة لا لبس فيها أن هؤلاء الناس هم أحفاد حاتم، ولا يفصلهم عنه سوى البعد الزمني. وأظن أن من العسير أن يجتمع البخل والإيمان في قلب رجل. فصفة الكرم في القوم طاغية، وربما لا أكون مجانبا الصواب عندما أقول: إن صفة التوكل على الله عندهم تكون أوضح عندما يُمتحن أحدهم بين أن يكرم ضيفه الليلة أو لا يكرمه لشكوكه أنه ربما لن يجد ما يكفي لغده، وهذه الصفة الأعم، رغم أني عاصرتهم في وقت كان جلّهم يعيش تحت خط الفقر. ففرص العمل على ذلك العهد شحيحة، والمشاريع ضئيلة، وسمات الجهل، وطابع الفقر، وأنياب المرض، علاماتها واضحة على الناس، ومحفورة على الأبواب الخشبية التي غادرتها حشرات السوس إلى الأبد جائعة، ولكن الصحة والغنى في قلوب ساكنيها التي تهلل للصديق وترحب بالغريب، فيحل فيها أهلا وينزل فيها سهلا.

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الأريحية: الأريحي هو الكريم الذي تغمره السعادة والبشاشة عندما يكرم.

المحطة الرابعة
غرب العراق

ومعلّمٍ لم يدرِ شاربُ كأسهِ   ماذا يقطّعُ من حشاه ويعصرُ

(مصطفى جمال الدين)

المحطة الرابعة

العمل غرب العراق

وأخيرًا صدر الأمر بالنقل إلى إعدادية زراعة الرمادي، بعد أن حاول مدير التعليم المهني بكل الوسائل الإدارية والفنية عرقلة مسألة نقلي من الفرات الجنوبي إلى أعالي الفرات، حيث تكون مضارب الخؤولة والعمومة، متعللاً بالنقص في الكوادر التدريسية، وهو محقٌّ بهذا لعلمي بما تعانيه المعاهد المهنية الواقعة في المناطق النائية من نقص في كوادرها، لأسباب لا تخفى على أحد في دول العالم الثالث. وقد غمرتني فرحة لصدور ذلك الأمر لم أشعر بمثلها منذ مدة، تلك الفرحة لم تكن بسبب انتصاري على خُلف الوعد فحسب حيث وُعدت بالنقل نهاية العام الدراسي ١٩٦٨ - ١٩٦٩ بل لأرق الوالدة التي ما انفكت تدعو بأن يجمع الله الشمل، وما برحت عن الصلاة ليقرّب لها الولد. فلوعة البعاد لم تَعُد قادرة على مواجهتها، أو الجلوس بالقرب من لظى نارها، ولم تكن للعلاقات الطيبة والسمعة الحسنة التي تركها ولدها في الجنوب لتخفف من آلامها، أو لتطفئَ فيها جذوة العطش لرؤية فلذة كبدها إلى جانبها.

أما الوالد فلم يهدأ له بال، ولم تقر له عين[١]، وأصبح لا يطيق رؤية أصدقائي الذين أصبحوا وأمسوا في محله التجاري في السوق القديمة يطّوفون، يتسقطون أخبار صديقهم،

(١) وقرار العين يحتمل المعنيين: فالأول ظاهر، والثاني تبينه قصة هارون الرشيد، عندما دخلت امرأة عليه وعنده جماعة من وجوه أصحابة، فقالت: يا أمير المؤمنين أقر الله عينيك، وفرّحك بما آتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت، فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك، ممن قتّلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم. فقال: أما الرجال فقد مضى أمرُ الله فيهم، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه، فقال بعد ذهاب المرأة: أتدرون ما قالت المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً! فقال: ما أظنّكم فهمتم ذلك. أما قولها: (أقر الله عينيك): أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت عن الحركة عميت. وأما قولها: (وفرّحك الله بما آتاك) فأخذته من قوله تعالى: ((حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً))، وأما قولها: (أتم الله سعدك) فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمّ شيءٌ بدا نقصه ترّقبْ زوالا إذا قيل تمّ

وأما قولها: (لقد حكمت فقسطت) فأخذته من قوله تعالى: ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾.

ويسألون الله قرب عودته، متمنين عودة المجالس الليلية تلك التي هُجرت منذ رحيله، وأبواب استراحاتها أوصدت، في وقت كانت شحة الأخبار سمة ذلك العصر[١]، فدرّاجة إبراهيم الموزع الوحيد للرسائل البريدية في المدينة ما عادت صالحة للاستعمال، وصحته أضحت معتلة لا يستطيع معها مزاولة مهنته، ولذا فإنه ما عاد قادرا على أن يقرّب بين قلوب الأحبة والعشاق، ولا أحد أجيال النقال - الهواتف المحمولة - زارت الأسواق أو لامست أيدي الرفاق بعدُ. وأما خطوط الهاتف فهي تشكو من وجودها في بيوت الأغنياء فقط، أما الفقراء فإن أولادهم قد يرون صورته في كتب القراءة، ثم إن القليل من الناس من كان يمارس عادة كتابة الرسائل، لأن الرسائل تصل دائما متأخرة عن زمن الأحداث، ثم كيف لساعي البريد غير العم إبراهيم أن يعرف العناوين؟ فقد ضاعت العناوين أصلاً عندما أحال العم إبراهيم نفسه على المعاش؛ لأن البيوت لا تعرف أبوابها غير أرقام آخر إحصاء سكاني قد كُتبت بطريقة همجية قبل عقد من السنين، ولا يستطيع أحد أن يفك رسمها أو يفسر طلاسمها.

وقبل أن أترك السوق القديمة التي جئت على ذكرها، فإنه يحتاج مني لوقفة ولو قصيرة إن وفقني الله لذلك، فالسوق آنذاك كانت تحتوي عدة أسواق، وكل سوق تضم عدة أذرعة وخانات وعلاوي، وكان يمثل مجتمعا متكاملا، أقضي فيه وقتا طويلا من كل يوم، أرصد فيه الأحداث، وأرسم اللوحات، ثم ما ألبث الذهاب إلى البيت محللا وناقدًا ببصيرة طفل يعوزه التوجيه، وتنقصه الأدوات التحليلية. فالسوق تختصر المجتمع الموسع الذي حوله، من مدينة أو قرية، وتعطي صورة ربما تكون صادقة عن مستوى الناس الاقتصادي والثقافي، وتعكس طبيعة المجتمع من عادات وتقاليد ومناسبات، وتؤشر إلى مدى تكافل الناس في سد حاجاتهم أو عدمه. فالسوق المسقوفة التي أحب أن أطلعك على صورتها، حفظك الله ورعاك، تفتح أبوابها على ترتيلات الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، مختلطة بصرير الأبواب الحديدية اللولبية حين تُرفع لفتحها، وأصحابها يرددون من كل ناحية

---

(١) أعني بالعصر القرن العشرين (القرن الماضي).

«يا فتّاح، يا رزاق، ياعليم» ومن لم يُوفّق منهم لتحضير جهاز الراديو فإن عليه أن يذهب للعم المختار «محمود الرجب» ليشتري جهازًا يشترط من سذاجته أن يكون فيه المقرئ الشيخ عبد الباسط، وإذاعة صوت العرب، وإلا فلا فائدة منه، ولا داعي لاقتنائه.

ولنا أن نتخيل أصوات تلك الأجهزة وهي تملأ فضاء المكان، تصدح بتلاوات الشيخ، التي ألفتها آذانهم وطربت لها نفوسهم، فيما راح آخرون هناك في طرف السوق يتجمعون على المذياع يتسقطون أخبار حرب السويس، وصوت المعلق أحمد سعيد(١) يهدر وكأنه مدفع من مدافع الحرب، ويتابع المذيع وصف جنود المظلات وهم من فصيلة «زرق العيون سود الضمائر» ينزلون كأسراب الجراد، والطائرات تنثر بهم غربانا لتغطي بهم الساحل والقناة، ثم ما يلبث أن يعلن: أن «جول جمال» قد أغار بطائرته، يجود بنفسه، ويصدم بطائرته أسطول الغزاة قبالة السواحل المصرية ويأتي بالكامل على هدفه العسكري، ثم تنتقل العدوى السياسة إلى جميع المحال، ليسمعوا أناشيد الحماسة التي كانت في أبهى عصورها الذهبية، لكنها جميعا «عنتريات ما قتلت ذبابة». أما الجانب الغربي من السوق فهو مكان لتجمع أصحاب الخضراوات يفرشون سلعهم الطازجة التي وردت توًّا من القرى المحيطة، وقد انتشر شذى رائحتها المميزة، وكأنك بسبب ذلك العطر الطبيعي الفوّاح تعيش في سوق المناخة الكويتي، مع الفارق أن سوقنا تُعطَّر بالعطور الفطرية وبالمجان، وسوق المناخة تُبخَّر بحرق مئات الآلاف من الدنانير لتعطر بالعود وبالشهرة، أما مطاعم الكباب التي في السوق، فقد بدأت، توًّا، بتهيئة النيران لأخذ طلبات الزبائن من أصحاب المحال التجارية قبل وصول الأعراب من خارج السوق ليتبضّعوا، وقد انبعثت رائحة الشواء والخبز العراقي التي لا يلام الناس بسببها في انفتاح شهياتهم، ولعاب أفواههم يتسايل، ومقاومة أصحاب الحِمْيات الغذائية منهم تتحطم، وعلى هدى من سحب الدخان وهي تهدي لهم الروائح، يبدأ الناس يشعرون بخواء مِعَدِهم، وما يلبث أصحاب المقاهي أن

(١) كان المعلق «أحمد سعيد» قد مثّل دور المهرج البارع في إذاعة صوت العرب زمن الخمسينيات وبداية الستينيات، حيث جعل من التخاذل شجاعة، ومن تقهقر الجيوش تقدما، ومن الهزيمة النكراء نصرا مؤزرا.

يحلّوا بالسكر أقداح الشاي المختلف النكهات، وكأنهم بتقليبهم السكر معا يشتركون في عزف سيمفونية نسي «بتهوفن» أن آذان الناس هنا أميل إليها من كل أعماله، فلا تذاكر تُحجز من أجل حضور حفلتها في موعدها الصباحي. أما «نجمة» - أم القيمر[١]- وأخواتها فقد بكّرن في خدمة زبائنهن، ورفعن قدورهن الفارغة منذ ساعة للعودة إلى بيوتهن مشيا على الأقدام، حيث مضاربهن خارج المدينة. وسوف تجد في طريقك الكثير ممن تثاقلت رؤوسهم بالنوم بعد آذان الفجر عن الحضور إلى مسرح «نجمة» وأخواتها، وقد رجعوا إلى البيوت فارغي الأيدي من «القيمر» اللذيذ، ويا ويلهم من تهكم الآباء فقد أخلفوا الوعد الذي قطعوه منذ المساء الماضي. وعند الضحى فإن الباعة المتجولين تراهم كلاً ينادي من جهته بجرائد الصباح التي تعهد بتوزيعها، فهذا ينادي بجريدة الشعب، وذاك بجريدة الجمهورية، يقاطعهم ثالث يرغّب الناس بشراء جريدة الأخبار والزمان، وكلها ما تحمل لنا غير أسمائها، «فجرائد الصباح ما تغيرت»، و«صورها النكراء» ما تبدلت، أما عِليَة القوم فإنهم يقرأون في الليل صحف الغد[٢] ولذا فإنهم ينامون بدون أحلام أو مفاجآت.

أما سوق البزّازين[٣] فالصورة مختلفة فيه، ففي فم كل محل من محاله يجلس أصحاب الشيبة يتسابقون في تلاوة مصحفية يبدؤون بها وردهم اليومي، وتشعر بالرهبة والخشوع عندما تقطع السوق، فمجموعة منهم خاشعة في سجودها قد لازمتهم سجدات التلاوة، والقسم الآخر قد استغرقوا في دعواتهم، واغرورقت مدامعهم، رافعين أَكف الضراعة، فقد استعدوا لمقابلة هادم اللذات الذي لم يفارق سوقهم متخطفا أرواح زملائهم، أما الذين سبقوا ليكونوا تحت أطباق الثرى فإنهم دُفنوا في المقبرة التي لم تكن على مبعدة من ذلك السوق، ونحسب أن أعمالهم الصالحات قد سبقتهم إليها بإذن الله تعالى. وما تلك الأبواب المقفلة لتلك المحال التجارية إلا شواهد حية تحكي للجميع قصة الحياة والموت.

---

(١) القيمر تسمية شعبية للقشطة المستخلصة من لبن الجاموس وهي فصيلة من الأبقار التي تتزايد في لبنها نسبة الدهون.

(٢) حيث يتم توزيع الصحف في وقت متأخر من الليل لقرب مدينتنا من بغداد.

(٣) سوق بيع الأقمشة.

أما أصحاب محلات صناعة المعجنات (الكعك والجرك) فالكل منهمك في إعداد وتعبئة السلال التي سيحملها الباعة من الأطفال على رؤوسهم، وعلى كل واحد منهم أن يجتهد في اختيار ناحية من نواحي السوق، ثم يعقبهم باعة اللبن وقد حمل كل منهم بيمينه جردل اللبن حيث تنام قِطَعُ الثلج تحت رغوة الزبدة، فيما راحت الشمائل ترفع جرادل الأقداح وقد أُغرقت بالماء. وبعد ذلك تأتي طوائف أخرى متنوعة من الباعة فهذا بائع المرطبات – الدوندرمة –[١] «شكري» يتقدمهم، يدفع بعربته وقد أحاط قِدْرَه العميق بالثلج والملح، أما «اعزيِّز» فقد أخذ يهز قِدْرَه بطريقة غريبة من أجل زيادة تجميد البوظات التي يعرضها بألوان زاهية تغري الصغار والكبارعلى حد سواء. أما الجانب الغربي من السوق فإنه ينتهي عند محل «كريم الأوتجي» وقد بدأ عمله وإن كان متأخرا بعض الشيء بوضع قطع الفحم في مكواته الحديدية الثقيلة رغم كل ما بدا على عينيه من آثار السهر وعلى وجهه من علامات التعب حيث أمسية الليلة الماضية التي خصصت «للمحيبس» اللعبة الشعبية لشباب الحارة خصوصا في ليالي شهر رمضان، وأضحى الآن على استعداد لاستقبال زبائنه.

أما «فاضل أبو البايسكلات»[٢] – الدراجات الهوائية – وكذلك «عدنان جدوع» فالتنافس بينهما جار على ساق بلا قدم في البيع والتصليح، وأما مرشح المدينة لمجلس الأعيان برغم قصر قامته فإنه يبدو مهيبا في عيون كثير من الناس، يمر محييا أصحاب الدكاكين على الجانبين وهو يَعِدُ هذا ويُمني ذاك، فهو النائب الأوحد الذي لا ينازعه منازع على عضوية مجلس الأمة (الأعيان) عن المنطقة، وهو منهمك في جولته المعتادة للدعاية لدورة نيابية جديدة ويهم بالجلوس في إحدى المقاهي التي غالبا ما تحتل ركنا من أركان السوق الممتد، عندها يرفع قبعته (سيدارته) التي وفدت إلينا زمن سلاطين الترك، ليكشف عن صلعته، وقد أخذ العرق منه كل مأخذ، وعانى الشيخ المهيب من المجاملة، وعندها يستلم

(١) البوظه أو الآيس كريم.

(٢) هكذا اتفق الناس على تلقيبه، حيث تسمى الدراجة الهوائية باسمها الأجنبي ثم يستعملون صيغة الجمع.

خطابات أصحاب المظالم، وعندما يبدأ بالتعليق عليها كثيرًا ما يسجل نداءات الباعة المتجولين لتختلط سهوا بما يكتب، وذات مرة وعند مراجعته لبعض خطابات المتظلمين بدأ يصرخ ببائع البوظات «الدوندرمة» فيقول له: (إخرس فلقد امتلأت أوراقي من الدوندرمة)، فيقهقه الجميع عندها يرد البائع: (والله يا عم لم أكن لأقترب منك، فكيف اتسخت أوراقك؟!). إنها حقا يوميات لا تكاد تعاد أو تشاهد بعد اليوم.

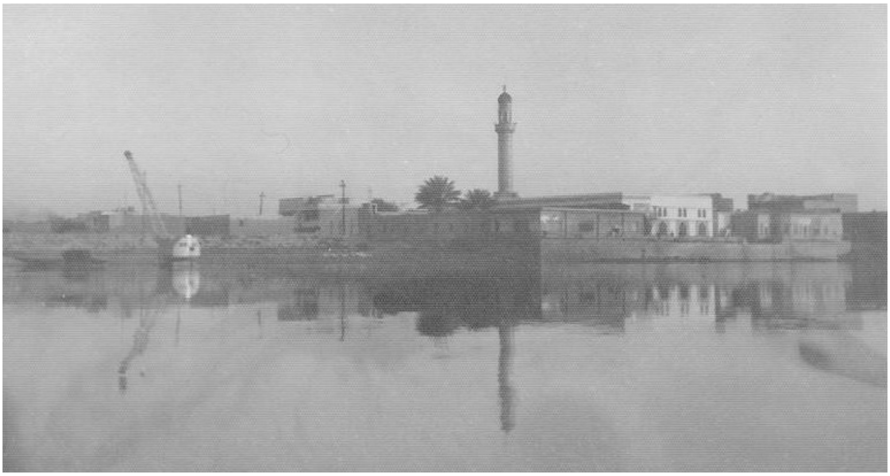

الفلوجة في الستينات من القرن العشرين

ولا يفوتني أن آتي على ذكر «فاضل أبو الفرفوري» هناك في منعطف الطريق الغربي تلتف عدد من النسوة حوله، فقد تخصص في تصليح أباريق الشاي أو الصحون الصينية وعليه أن يسلّحها بأشرطة معدنية لتبقى مدى حياتهن، فيما راح جاره «إبراهيم النذّاف» منشغلا مع أولاده في عمل وترتيب أغطية وأفرشة الأعراس، لكنه اعتاد على ترك العمل في أيام الجمع حيث خصص ذلك اليوم ليدرسني مع زرافات من الأطفال الصغار كتاب الله.

وها هو «الشرّاخ»[1] وصل إلى السوق حيث مهمته أن يبيع للناس خدمة حد السكاكين، والمقاصات، ونحن ننظر إليه وكأنه يعمل المعجزات، وكل ما يعمله هو أن يضع قدمه على بدّالة يصطحبها معه من العاصمة فإذا بقرص العتلة (السنّانة) يدور بسرعة عالية

(١) الشرّاخ: اسم يطلق على مهنة العامل المتخصص بحد السكاكين والمقصّات وأدوات تقطيع اللحوم.

ليشكل شريطا من النار أمامه، وتظل عيوننا تتابعه إلى أن يتغيب ظله بعد أن ملأ كيسه من الدراهم. أما النجارون «محمد السعد»، و«حميد اسّعيده» و«بدري السيد خلف» ورفاقهم فإن على الجميع أن يكسبوا ودّهم؛ لأن آثاث العرس من مسؤولياتهم، فقد تطورت صنعتهم، بقدر ما تخلفت عن الركب خطواتنا، وما نحن ببعيد عن الأيام التي كان فيها آثاث العرس لا يزيد على محمل خشبي للفراش فيه خزانتان. وفي أطراف السوق تجد بائعًا لم يبق لديه إلا قطعتان من الليف، فتأتي إليه امرأة لتشتريهما منه فينصحها بشراء واحدة؛ لأنه إذا باع الاثنتين معا فسوف لا يبقى عنده ما يبيعه للآخرين، إنها فعلا البساطة في منتهاها!!

أما المؤسسة الأكبر في المدينة التي تتربع بمسجدها على نهر الفرات فلم تأخذ نصيبها من هذه السيرة، حيث ينظر إليها صاحب هذه المذكرات على أنها قد ساهمت في تشكيل فكره وهندسة اتجاهاته، وقد اعتاد أن يقضي فيها الساعات الطوال منذ نعومة أظفاره، وظل زمنا لا يدرك معنى وجود محرابين في ذلك المسجد القديم، محراب للشافعية وإلى يساره محراب للأحناف، وكان يجد مشقة في أن يفهم: لماذا كان والده يصلي في حرم الشافعية بينما الأخ الأكبر يتابع صلاته خلف «الشيخ عبد العزيز» - رحمه الله - وهو إمام حنفي المذهب؟ كان ذلك على الأقل في صلاة الوتر، فيما كان الباب مفتوحا أمامي للصلاة حيث أشاء دون شرط أو قيد، وربما لأنني كنت دون سن التكليف، بل تعدى الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك، حينما كنت استمع إلى مناقشات حادة بين من يجوّز الزواج بين الشافعية والأحناف وبين من لايجوّزه. وألطف من ذلك ما حدث للشيخ عبد العزيز»- رحمه الله - عندما جاءه أحد الأعراب يسأله في إحدى المسائل الفقهيه؛ لأخذ الفتوى فيها، فسأله الشيخ عبد العزيز قبل أن يفتيه فيما إذا كان السائل حنفيًا أم شافعيًا ليفتيه في مسألة من مسائل الطلاق، فأنكر الأعرابي على الشيخ هذا السؤال، فأجابه وهو يهمهم بالسباب ويكيل بالشتائم على الشوافع والأحناف، مؤكدا ومفتخرا بأنه من رؤوس «المحامدة»، ظنا من الأعرابي أنّ ما ذكر الشيخ إنما هما من القبائل المغمورة التي لا ترقى شرفا إلى قبيلته التي ينتسب إليها ذلك الأعرابي، وأذكر للقراء أن «الشيخ عبد العزيز

السالم» – الذي كان معلما في مدينة «هيت» في الأربعينيات من القرن الماضي، ثم انتقل إلى مدينتنا لتأسيس المدرسة الآصفية الدينية – شاهدته غير مرة ممسكا بعصاه يؤدب تلامذة مدرسته بعد صلاة الفجر ممن لم يحفظ واجبه أو لم ينه مقررا من مقرراته، ولا يتركهم حتى تسقط العمائم عن رؤوسهم، عندها يتوقف عن تأديبهم احترامًا لذلك التاج الإسلامي. والحقَ أقول: إن الشيخ قد أسس لأشهر المدارس – على مذهب الأحناف – في العراق والتي خرّجت كبار علماء العراق، ولم تجد المدرسة الحنفية ما ينافسها إلى الآن، حيث لم تثمر كل المحاولات بعد رحيل الشيخ بتقديم البديل، إذ أصبحت سمعتها تطبق الآفاق، فقد جاءها كثير من طلبة العلم لتلقّي العلم الشرعي من كل أنحاء المعمورة أخص بالذكر منهم المجموعات الإفريقية، وكانت تأخذني الشفقة على «سليمان» وهو من إفريقيا الوسطى وقد بترت ساقه بمشورة طبية، وكنت أظن أنه سيغادر قافلا إلى بلده، لكنه أبى حتى حقق هدفه، ونال العلم الذي كان ظمئا إليه، وقد تقاطر الطلبة إلى المدرسة من كل حدب وصوب ينهلون من مناهل العلم حتى أصبحت المدينة مركزا إسلاميا يأتي – وفق ما روى على لسان «الشيخ أمجد الزهاوي» – رحمه الله – في المركز الثاني في العالم الإسلامي بعد المدينة المنورة. فمن الناحية الثقافية كانت «الفلوجة» تعيش عصرها الذهبي، فإنك تلمس حالة من التكافل الاجتماعي قل مثيلها، حيث كان يقود ذلك النَفَس الطيب ويغذي تلك الروح «الشيخ محمد الفياض» – رحمه الله – الذي نذر نفسه وأولاده لتأسيس العمل الخيري، وتفقد الأرامل واليتامى والمساكين. وأذكر مرة في طفولتي أني كنت إلى جانبه ذات مرة حين دخل عمّي أحمد للسلام عليه فإذا بالشيخ يأمرني بالنهوض له وترك مكاني له، فهي تربية لا نكاد نغادرها في كل حركاتنا وسكناتنا، وانبثقت في تلك الأثناء حركة حثيثة لبناء المساجد، حتى وصل عدد المساجد إلى ما يقرب من المائة. ولم تفتر هذه الروح العلمية والنفس الاجتماعي الطيب إلا عندما أطلت علينا العصبية القبلية برأسها فماتت الهمم، وفترت العزائم فتفرقوا شذر مذر، وكأن فئران سد مأرب عاودت نشاطها لترسل إلينا سيل العرم، ثم أُبدلنا بجنتين من خمط وأثل وشيء من سدر قليل. وها هي سنن الله في خلقه عند الحيادة عن الطريق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وعودًا على الفرحة التي أعقبت نقلي من الجنوب وكأني كنت قد أنهيت مهمة خطيرة فإنها جاءت في وقتها؛ لأنها تقرّبني من مدارج الطفولة، وملاعب الصبا، مع أني خيّبت آمال تلك المدارج واغتلت أحلام تلك الملاعب، حيث لم أحقق من المأمول إلا القليل؛ لأن الآمال كانت أعرض، وطموح المحبين كانت أكبر، فأيُّ هدية يمكنني أن أقدمها بعد أن رسمت خريطة جديدة لكنها صغيرة لدوري؟ وأي دور أستطيع أن ألعبه بعد أن أخفقت في حماية مرماي؟ فقد اهتزت شباكي، وسلّمت خطابًا بإعفائي من المنافسة، ومسحت كل مفردة لها علاقة بكلمة التحدي من قاموسي، إذ تم العدول عن الأحلام الطموحة التي لم تكن لتحدها حدود، والتي لا تحيط بها أشرطة القياس مجتمعة. لكن لابد من الاعتراف أن ثمة نازعًا جديدًا أكّد لي وجود مواطن أخرى بِكر في عالم الإبداع عليّ أن استكشفها، فقد وصلت إلى قناعات جديدة رغم القناعات السابقة، ذلك أني - بإذنه تعالى - سأكون دوما في طليعة زملائي في دائرة العمل الجديدة؛ لذا فإن جذوة التحدي التي كادت نيرانها تخمد عاودت الاشتعال، فالتحدي كان أحد لوازم شخصيتي، ومهمة هامة من مهماتي، رغم بينونة الطلاق الذي لا رجعة فيه بيني وبين قصور الأحلام العالية التي تم تشييدها على رمال الطفولة، وأن قصة «القائد المغلوب والنملة» من قصص القراءة في الصف الرابع الابتدائي التي لا يفصلني عنها سوى عقد ونصف من السنين شوّقتني لأن ألعب دور القائد المغلوب بعد أن آخذ الدرس من النملة صاحبة المحاولات المائة، وما يدريك لعلني ذلك القائد المغلوب الذي هوى سيفه أرضا في جولاته الأولى لكنه سيحيك يومًا خيوط الشمس سُلّماً يرتقي عليه نحو أهدافه.

وبهذا المعنى فإن أقل ما يقال عني هو أن التصميم يملأني، والعزيمة تؤازرني؛ لذا سلكت أكثر الطرق مشقة في رسم صور مسيرتي الحياتية التي حسدني عليها كثير ممن أعرف. ولا بد أن أعترف، هنا أمام قرائي، أن أكبر خطأ اقترفته في حياتي هو أنني لم أتبين اتجاهاتي الأدبية على حقيقتها، وجنحت إلى ركوب قطار الفرع العلمي دون تذكرة سفر، إرضاء لمن قرأت في عيونهم احترامهم نمطا معينا ومحددا من مهن المستقبل

ووظائفه، ثم إنّ النظام التربوي الذي لم يكن ليحسب لموضوع الخيارات وتوجيه الطلبة في تلك المرحلة أي حساب كان قاصرا عن تلبية مثل تلك المهمة، فما لبثت أن وجدت نفسي أسبح ضد التيار الجارف في بحار الفيزياء غارقا في دوارق الكيمياء وصولاً إلى نقطة العيارية[١]، فيما راحت يدي تتحسس نبضات قلب الأرنب المسكين ومدرس الأحياء يقوم بتشريحه لنا.

وهكذا خرجت من مرحلة الثانوية العامة بعد اجتيازي اختباراتها النهائية غير مسرور، وعند هذه النقطة يجب التعميم، مع أني لا أحبه؛ هو أن الاختبارات منذ ولادتها كانت - وباتفاق علماء التربية - لا تحقق حلم المعلمين في قياس ذكاء تلاميذهم ولا تقدر إمكاناتهم بدقة.

وقرر المدرس الجديد - الذي يكتب هذه الخواطر - أن يخوض غمار التأليف ويقدم نفسه لبلده كمؤلف لكتاب جديد في التربة واستصلاح الأراضي، على فترة من تلك الكتب المدرسية، والتي كان الطلبة بهم حاجة ماسة لها، ورغم بساطة الإمكانات المادية والتقنية، فإن الكتاب قد أبصر النور بغلافه الذي يحمل اسمه، وبين دفتيه أفكاره، وعلى صفحاته تجاربه الفتية، وهي أحسن هدية يمكن أن يقدمها لوالده العزيز، فالوالد رغم أنه لم يتذوق حلاوة معرفة القراءة والكتابة بل ذاق مرارتها، سوف يذوق طعم الفخار بين أصحابه رواد مقهى صالح، مع أنه تحسس ولده وقد حمل على كتفيه همومًا لا يعرف كيف يساعده في تخفيفها.

والأم ورغم فؤادها الذي كان فارغًا قبل تحقق عودته من الجنوب ستظل إلى جانبه محاولة التخفيف عنه وهو يعاني ارتفاعا حادا في مستوى الحموضة في قناته الهضمية، وربما يفاجئها بشيء مجهول لا تعرف كنهه، وهي بهذا تحقق دون قصد منها ما تعارف العرب عليه من أن: أُم الجبان لا تفرح ولا تحزن. وكانت تجربته في التأليف ناجحة، إذ ذاق طعم الأمانة العلمية، والعمل بأسلوب الاقتباس الجائز، وتعلم فن الترجيح بين الآراء، ومتى يمكن التعميم لمسألة من المسائل، ثم كيف له أن يتبسط في شرح معضلة من المعضلات.

(١) العيارية هي القطرة التي (عند إضافتها للمحلول) تغيّر لون ذلك المحلول.

ولم يقف المؤلف الشاب عند حدود كتابه، بل أخذ يبحث في المواطن البكر التي لم تطأها أقدام زملائه المعلمين بعدُ؛ ليبحث فيها عن البدائل وليحقق الذات، وليتيقن من كيانه، فقرر إقامة تجارب لم تشهدها مؤسسة تعليمية بهذا المستوى في العراق من قبل، فبادر إلى زيارتها الخبراء، وتنادت لها اللجان من داخل العراق وخارجه ومن المعنيِّين بمؤسسات التعليم المهني في العالم، إذ قام الباحث بتجارب تتعلق بتأثير الملوحة حسب مواقعها من التضاريس على المحاصيل الحقلية، فوضع على أرض الواقع خبراته، وصارت له الفرصة سانحة لنشر بحوثه حاملة اسمه التي كانت حكرا على النشرات المحلية، وأخذت رسائل الشكر تترى إلى المدرسة من جهات شتى، وكانت أوسمة تعلق على صدره، فقد حُرم الكاتب من أنواط الشجاعة العسكرية؛ لأنه زهد فيها، ورغب عنها عندما نأى بنفسه عن الانضمام للكلية العسكرية كما فعل معظم أقرانه، وعم النفع جميع العاملين من حيث لم يحتسبوا، مع أني أعلم أن الزملاء من المدرسين كانوا بين مرحب وهم من الذين تعمر السلامة قلوبهم، وبين منزعج وهم من الذين استولى الحسد على قلوبهم، حيث السمعة المرموقة التي احتلها بينهم زميلهم، أما القسم الثالث فهم من الذين لا يعنيهم كثيرا أن يعلموا، فقد اختصروا اهتماماتهم بمراقبة أسعار الخضراوات، وتواضعوا على أن النوم خير من اليقظة، وكأن أحدهم يخاف أن يقتبس من نور العلم. ولا بد لي هنا من القول: أن التجارب وسيلة من وسائل التربية، لذا فإني أحيي وأشجع كل من يساهم في اختراع وسيلة من الوسائل التعليمية، أو يبدع في قطعة من التجارب التربوية، أو يؤسس لبرنامج من البرامج الاجتماعية، والتي جميعها تعلي في المعلمين دوافعهم، وتعيد إليهم لياقتهم العلمية، وتعزز قدراتهم العملية، فهم للأسف الشريحة المنسية دائما في بلدان العالم النائم، والتي ما فتئت دولها على تخصيص كليات التربية لذوي الياقات المهزومة أكاديميا. وكم كان يودُ الكاتب أن تُعنى تلك الدول بجماعة المعلمين ومعاشر الطلاب عنايتها بالكليات العسكرية والحربية و... و... فصار الموهبون من الطلاب - ونسبتهم

عالميا ما بين ٢-٥٪ من البشر[١] - يحنِّطون عقولهم في مشاجب السلاح، وينامون بين ذخائر العتاد، ويقضون الساعات في تلميع أحذيتهم. ولم يَدُرْ في خلدي إلقاء اللوم على عواتقهم لكن اللائمة تقع على الرعاة الذين يبررون استنزاف تلك الفئة من الشباب من أجل المؤسسة العسكرية «فإن الذئاب لا تعدوا إلا على من لا كلاب له[٢]»، مما زرعت في نفوس الناس نوازعَ أفضت إلى تشجيع ولادة أمراض اجتماعية، ونمو اتجاهات أكثر خطورة، أقلها أن البنات صرن لا يفكرن في الاقتران إلا من المجموعة التي تحمل على أكتاف عناصرها كواكب[٣] الهزيمة ، وسيوف التخاذل، وتيجان الفشل. أما الطبقة التي تُعنى بالعلم وتجل أهله فعليها أن تأكل حين تجوع الأوراق التي عليها يكتبون، والكتب التي بين سطورها يحيون، فوجه الكتاب أشهى إليهم من الوجه الجميل[٤].

وقبل أن أباشر الحديث عن المدرسة وقبل أن أعمل فيها عليّ أن أقوم بمسح عناصر الساحة الجديدة التي ستكون مهدا لبذوري، ومحطة لرحلي، ومختبرا لنجاحي أو إخفاقي، وأن أمهد الطريق لقدومي، وإن كنت أعلم أن الخيارات التي أمامي محدودة للغاية، لذا فإني قمت بالاتصال بمجموعة من الأساتذة من معارفي من العاملين في المدرسة

---

(١) أثبتت البحوث والدراسات العلمية أن تلك النسبة تمثل المتفوقين والموهوبين، حيث يبرز من بينهم صفوة العلماء والمفكرين والمصلحين والقادة والمبتكرين والمخترعين الذين اعتمدت الإنسانية عليهم منذ أقدم العصور. راجع المقالة لعبد الله النافع «مدارس الموهوبين الثانوية « مجلة المعرفة/ العدد ١٢٧ نوفمبر ٢٠٠٥م، صفحة ٦١.

(٢) هذا شطر من بيت شعر للنابغة الذبياني وتمامه:

تعدوا الذئاب على من لا كلاب له وتتقي (صولة) المستنفر الحامي

ويروى مربض، ويروى (المستأسد الضّاري)

والمعنى واضح، حيث قيل ذل من لا سيف له. وروي أن البيت للزبرقان بن بدر، ومن رواه للزبرقان فتمامه:

إن الذئاب ترى من لا كلاب له (وتحتمي) مربض المستنفر الحامي ويروى: وتتقي

والظن الراجح أنه للنابغة وقد تمثله الزبرقان في شعره على طريقة العرب لا يريدون به السرقة. للمزيد انظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي/ موقع الوراق http//www.alwarraq.com

(٣) الكواكب والسيوف والتيجان إشارة للرتب العسكرية التي كانت ولا تزال تُمنح للضباط في الجيوش وقوات الشرطة في بلداننا بسبب أو بدون سبب.

(٤) إشارة لبيت من الشعر، وهو من قصيدة طويلة للشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري:

أشهى من الوجه الجميل إليهم وجه الكتاب ووده المخطوب

الجديدة، محاولا استبعادي عن تدريس الفصل الذي يضم أحد الطلبة ممن كان قبل عقد من السنين أحد زملاء الطفولة، وكنت أشاركه المقعد الخشبي في الفصل الدراسي، حيث أخفق لسنوات عدة؛ لأنه كان من ذوي الاحتياجات الخاصة، والسؤال هو: أين نحن من متطلبات ذوي الاحتياجات الخاصة؟ فالاستعدادات في مجال التربية كانت، للأسف، وما زالت لا تعير للمشكلة أذنا صاغية، ولا تجد يدًا سخية أو خبرات كافية للمباشرة بمساعدة آلاف من أمثال زميلي الذي خبت بالتدريج نار ذكائه، وتبلدت بطول الزمانة أفكاره، وأصبح مخذولا بين أقرانه، مكسورا بين إخوانه، ولكني أشهد له بأنه ظل ملتزما بالخلق القويم، ومتمسكا بالتواضع الذي يحببه إلى النفوس، ويقربه من قلوب الآخرين، ووجدت نفسي أمام تحد كبير بين نفس أمارة بالسوء، تشعر بفرحة غامرة، وفخر بأن الله جعل من صديقي في الطفولة تلميذ اليوم، ونفس لوّامة تعزّز الحياء، وتعلي الأخلاق، وتدعم النوازع الشريفة بعدم إيذاء الآخرين، وتدعو للإحسان إليهم، فكيف تراني أجد صديق الطفولة يقف في بداية كل حصة استعدادا للدرس واحتراما لي كمدرس؟ ثم صرت افترض أنه لو حدث ذلك فما الشعور الذي سينتابني؟ ويبدو إن محاولاتي ذهبت أدراج الرياح، وأنّ عليّ حسب البرنامج المقرر أن يكون زميلي بالأمس القريب أحد طلابي الجدد، وصرت مضطرًا لإلغاء قيام الطلبة عند قدومي احترامًا للقيم التي التزمها، والأخلاق التي أتمثلها.

عند كل صباح أذهب فيها للتدريس كان «أبو لطّيف» السائق وكذلك «بدّاع» وجملة من سائقي المنطقة غالبا ينتظروننا عند مدخل الجسر الحديدي الذي بُني من قبل الألمان في الحرب العالمية الأولى بطرازه الهندسي الغريب حيث يلزمنا عبور نهر الفرات نحو مدينة الرمادي، ونسائم الصباح التي تنقل لنا رائحة القداح من الضفة المقابلة تعطّرنا، و«أبو لطيف»، وهو ابن القرية، قرر أن يستبدل ملابسه التقليدية الملطخة بزيوت مكائن السيارات - فسيارته قديمة تحتاج منه إلى التصليح المستمر - بملابس الزي الغربي، لتتناسب وأذواق زبائنه الجدد من المعلمات، إذ اعتاد «أبو لطيف» أن يُقسِمُ لنا أن السعادة تغمره وأن الحياة تزوره فقط عندما تحمل سيارته القوارير، وعطرهن الفاخر يُنعش

المكان، وملابسهن ناعمة الملامس تعكس في عينيه المتقدتين أشعة الشمس. ويعقد لنا «أبو لطيف» – عندما نحظى بمقعد في سيارته – مقارنة بين الروائح التي تزكم الأنوف وهو يغادر البيت في قريته، وبين الروائح التي تفتح العقول، وتبهج النفوس، وتشرح الصدور، وهو بجانب النسوة اللواتي قطّعن فؤاده، ومزّقن أحشاءه، وسرقن دراهمه[1]، وأصبح لا يجد بُدّا من أن يحلق ذقنه في الصباح وربما في المساء من كل يوم، ويتركنا دوما نقرأ ما بين السطور، حيث يشدّه الحماس لرؤيتهن، ثم نتقصد في قراءة بعض السطور في دواوين الشعراء المحدثين لنصبّ الزيت على نيران «أبي لطيف» الملتهبة، ولقد شاركت مرة في قراءة قصيدة من الطراز الحديث يتساءل الشاعر فيها: كيف أن الشام عاصمة العواصم، وكيف أنها جميلة العينين، وكيف أنها فاتنة المدن، وحاضرة التاريخ، وإذا به يلتفت إليّ قائلا: ومن قال له أن قرية «البوعلوان» أفضل منها؟! ولكن سيارتي بما تحمل أجمل من الشام.

ومن القصص التربوية الذي أذكرها في المدرسة واحدة جرت أثناء الاختبارات النهائية، وأنا أحد أعضاء لجنة الامتحانات، حيث اكتشفنا حالة غريبة، إذ وجدنا طالبا بين الطلاب الممتحنين قد حصل في الاختبارات على درجات منخفضة جدًا يصل بعضها إلى ٣ – ٤٪ ، في أغلب المواد، بينما نجده قد حقق درجات عالية جدا في السعي السنوي للمواد نفسها وتتراوح بين ٩٧ – ٩٨٪ ، فأصابتنا الدهشة وأخذتنا الحيرة، ولكنّي صممت أن أتحقق من الأمر، وأكشف الخبر فذلك من واجبي، وتبادر إلى ذهني أن أبحث عن حالة مشابهة لكنها معاكسة، قبل أن أجري التحري أو التحقيق المباشر مع الطالب أو الطلاب المشتبه بهم، وفعلا وجدت بالرجوع إلى درجات السعي السنوي أن طالباً آخر قد أحرز درجات عالية جدا في الاختبارات النهائية، فصار علينا أن نحقق في الأمر، وصرت أرجو أن نمسك بالخيوط وأن نحقق العدل، وأول خطوة اتخذناها أن نطابق بين الدفاتر من حيث الخطوط، ثم ما لبثت أن فتحت تحقيقا أشرك به الطالبين وعلى انفراد، والأفضل أن نبدأ

---

(١) لفرط ما كان يبالغ ويكلف في هندامه.

بالطالب الذي حصل على درجات يائسة في الاختبارات النهائية، وبعد تردد منه في كشف خيوط القضية انفجر بالبكاء، واتضح لنا أنه كان مضطرا لفعل ذلك، ولا حيلة له إلا بأن ينفّذ، فإذا نفّذ فهناك مكافأة تنتظره وإن كانت محدودة، وكل ما على الطالب الذكي هو كتابة اسم صاحبه على دفاترالإجابة في الاختبارات النهائية، وقد وعده ومنّاه إذا أجاب عنه، وبالمقابل فإن زميله يكتب اسمه، وعلى هذا تم الاتفاق، شريطة أن يدفع الطالب الضعيف مبلغا من المال، وفي حالة عدم استجابة الطالب الذكي للفكرة، فسوف يعرِّض نفسه للقتل.

والآن بات علينا أن نجتهد في أن نقنع الطالب المهدد بالقتل أن بإمكاننا حمايته من ذلك التهديد، ونجنبه شرور ذلك الوعيد، حيث كان الخوف يحتلّه بالكامل وكان مَرَدّ خوفه لسببين: الأول التهديد والوعيد الذي قد ينفذّه زميله، والثاني ما قد تؤول إليه اللجنة التحقيقية من قرار غير محمود بحقه، وعلى هذا فقد صدر قرار لجنة التحقيق الذي جاء بعد التأكد من الاعترافات التي تمت بعيدة عن الضغط بطرد الطالب الجاني من المدارس العراقية كافة. أما المجني عليه فقد تم إصدار قرار بنقله إلى مدرسة أخرى.

وربّما يظن ظانٌّ أن اللجنة قد ألحقت ظلما بالطالب الذكي: والجواب أن اللجنة قد اعتمدت الأسس التربوية والنفسية في اتخاذها لذلك القرار، إذْ أُخذ بعين الاعتبار: أن الطالب إذا بقي في مدرسته فإنه لا يستطيع دفع الشعور بالخجل أمام رفاقه عند انكشاف الأمر، الأمر الذي قد يخدش رجولته، وهو بهذا سيتعرض لهزة خطيرة تؤثر عليه عاجلاً أو آجلاً، وعليه أن يثبت للآخرين أن استجابته ليست بسبب الخوف؛ لأن بعض الطلبة سيظل في خلده أن المجني عليه، رغم كل الأعذار، قد باع سمعته من أجل دراهم معدودات لشكوكهم في مصداقيته، وفوق ذاك يبقى لدى بعضهم محل شك أنه شارك في عملية من عمليات الغش، ثم إنّ العقوبة التي أصدرناها تأتي لحمايته من اعتداء قد يوقعه الطالب الجاني؛ لأن الأخير سوف يقتنع أن زميله هو الآخر قد دفع ثمنا غاليًا بترك المدرسة وزملاء

الدراسة مما قد تدفعه - أعني تلك القناعة - على الرأفة به، كما أن ذلك يأتي درسًا في التربية لكل الطلبة في المستقبل. أما فيما يتعلق بالطالب الثاني، فإن طرده من المدارس كافة وإن راءه بعض الناس مجحفا، فلأننا وجدنا أن فيه خطرا يهدد الجميع، فلا خير في وجوده ذئبا غادرا في مجتمع مدرسي؛ لأن في قسوة القرار حياة للآخرين، وسوف يكون بمثابة الوسيلة الاحتياطية لحماية الآخرين، كما أن من الواجب الإشارة هنا إلى أن الجاني كان بمستوى من الضعف الأكاديمي ما لا يحتمل أن يغير من مستواه، وأن يرفع من دوافعه أو يغيّر من اتجاهاته، فالأفضل له أن يشق طريقه من خلال القنوات الأخرى. وكم كنت أتمثل البيت التالي وأنا أعيد النظر في الأدلة، وأطلق لنفسي العنان لتتجول بين الأفكار، متحريا الدقة في المعلومة.

ووضعُ الندى في موضع السيف بالعلا   مُضِرٌ كوضعِ السيفِ في موضعِ العلا[1]

ولا أغفل القول: إن معايير اتخاذ القرار لابد أن تنبع من المحيط، ولذا فإن المثل الذي يردده أهل العلم بالزراعة (أن الزراعة تخصص بالمناطق وليس بالواجبات)[2] ربما يصح التعامل به في التربية، والمفتي في مجال الشريعة ربما يفتي مجوّزا مسألة من المسائل في مجتمع من المجتمعات لكنه لا يجوّزها في مجتمع آخر. وقد تشير تلك الأقصوصة إلى موطن من مواطن الخلل في النظام التربوي الذي طالما كنا نحلم في تطويره، وفتح النوافذ لنسائم التغيير الهادف مع إدراكنا أن ذلك يحتاج إلى نظرة فاحصة مع تحليل منطقي؛ لنقف عند الأسباب، فكم نحن بحاجة إلى دراسة جادة في الآثار السلبية

---

(١) البيت للمتنبي الذي أراد أن يقول فيه: أن إنزال العفو في موضع العقوبة، كإنزال العقوبة في موضع العفو، ولذا فإنه عقب مشيدا بممدوحه سيف الدولة بقوله:

ولكن تفوقُ الناسَ رأيا وحكمةً   كما فقتهم حالا ونفسا ومَحْتِدا
ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل أن السيف أمضى من العصا

(٢) مصطلح الزراعة تخصص بالمناطق وليس بالواجبات يعني أن المشاريع الزراعية النباتية والحيوانية عرضة للأمراض والأوبئة والحشرات وللتقلبات الجوية وتوفر المياه التي تتخصص بها منطقة دون غيرها مما يعرضها دوما للخطر، فهي تختلف باختلاف المنطقة وبذلك فهي تختلف عن المشاريع الصناعية غير الحيوية التي يمكن توفير مستلزماتها وحمايتها بشكل أسهل حيث يمكن خلق الظروف المماثلة المطلوبة وأينما كانت مواقعها الجغرافية.

التي تتركها السلسلة الطويلة والمعقدة للاختبارات المتواصلة على إنجاز الطلبة في جميع المراحل؟ وكم ساهمت في رفع أو خفض دوافعهم، وتغيير اتجاهاتهم نحو المواد الدراسية؟ في وقت صارت أغلب أنظمة العالم التربوية تنتهج منهجا مغايرا لا تعول فيه كثيرا على نتائج الاختبارات بمفردها، بل حاولت تخفيف قيوده وتسهيل صعوباته وتبسيط تعقيداته. فقد نسينا طرق الأولين، ولم نلحق بركب المتحضرين من المتأخرين. وأصبحنا نحسب في التعقيد إصابة الحق، وفي المشقة شجاعة الفرسان، وصار القلم الأحمر هو القلم الوحيد الذي تعتمده المؤسسة التربوية، ممّا يرهب الطلبة، حتى أصبح بعض المدرسين يعتقد أن صعوبة الأسئلة مفخرة من المفاخر، وغموضها مأثرة من المآثر، وما اليمين المغلّظة التي أقسم بها المدرس «ناصر» أمام مدير مدرسته عندما أثيرت مسألة تساهله مع طلبته إلا شاهد لما أقول، فقد أقسم أنه وضع أسئلة لطلابه غاية في الصعوبة، مؤكدا أنه نفسه - لصعوبتها - لا يعرف تقديم حلول لها!! وموضوع الخوف من التغيير موضوعٌ لا بد من طرحه والعمل على تهيئة النفوس والعقول له، ولذا تجدني أشاطر أخي الأستاذ علي الخشيبان[1] الرأي من أن كثيرًا من الناس مصابون بحساسية من مصطلح التغيير ويقدمون لنا عذرا من أن أفق التغيير غير واضح أمامهم، وهذه مسألة قابلة للمناقشة، لكني أخالفه فيما ذهب إليه من أن القدرات التربوية المحلية غير قادرة على إعداد رؤية مستقبلية للتعليم.

وعودا على موضوع الاختبارات فلي الحق، بسبب طول المشاهدة وعمق التجربة، أن أبسط القول: فحالات الطوارئ التي تُعلن في البيوتات وتدق في أروقتها نواقيس الخطر عندما تقترب من ساكنيها أيام الاختبارات حيث تُشد المآزر، وتُعلَّق الزيارات العائلية، وتطفأ أجهزة التلفاز استعدادا للأيام الصعبة وحيث تكتب تلك الأسر أيامها تلك بيد من الخوف والتحسس والتوتر والترقب والحذر، كل هذا يُعدُّ خير دليل على أن الامتحانات بصفتها الحالية تشكل مشكلة تحتاج إلى حل. وأضيف أن أشد الأسر ترصدا لتلك المدة

---

(١) انظر مجلة المعرفة العدد ١٥٥ ص ١٤٤-١٤٧ يناير/ ٢٠٠٨

العصيبة تلك التي لديها ابنٌ في المرحلة النهائية الثانوية، ولا غرابة إذا رأيت بعض تلك الأسر وقد علقت لوحات في بيوتاتها معلنة (عند الامتحان يكرم المرء أو يهان)، وتلك الوسائل المباشرة وغير المباشرة ترفع حدود درجات التوتر والتأزم إلى حدود السقوف العليا لها، وتدفع الطالب إلى الميل ولو بالإكراه لحفظ المواد الدراسية عن ظهر قلب، وبذلك تسببنا في قتل الإبداع فيه، وتجريده من كل مهارة يحتمل وجودها لديه. يضاف إلى ذلك أن نظام تحميل الطالب كافة المواد الدراسية ومرافقته لها طول حياته الدراسية دون اسقاط تلك التي لا يميل إليها أو يعاني من صعوبات فيها يؤثر تأثيرا سلبيا وبشكل مباشر على دوافعه واتجاهاته، وربما على مواهبه أيضا، مِمّا سيزيد من نسبة التسرب، ولن يكون في مقدورنا رفد سوق العمل التي غالبا ما تحتاج إلى الموهوبين دون غيرهم ممن لا يحسنون تخصصا. وما نشهده من زيادة حوادث التسرب وارتفاع نسبة المشاكل التي تقع بين المدرسين والطلاب، وكراهية الطلبة في مواصلة الدراسة قد يعزى معظمها إلى ثقل المواد التي لا يرغب الطلبة فيها. فهل من أذن تسمع؟ وعين تُبصر؟ وقلب يخفق لنواقيس الخطر؟ وقد أجاد الأخ «الدكتور نصار حميد الدين»[1] عندما ختم مقالته «مدرسة بلا رسوب» قائلا : الحل بكل بساطة هو أن تكون مدارسنا بلا رسوب، وهو بهذا يساير مناهج المدرسة الغربية إلى حد ما، ويضيف: أي بمعنى أن يدرس الطالب جميع المواد، ثم تزال عنه تدريجيا تلك المواد التي يخفق فيها، ويستمر في دراسة بقية المواد ولو لم يتبق إلا المادة التي يتخصص ويبدع فيها.

وعاودتني ضغوط الطموحات التي لم تعد تستوعبها كل دناني، وبعد أن طفحت قررت استعارة آوانٍ أخرى لكنني لم أجدها إلا في كلية الدراسات الإسلامية في بغداد، إذ أحسست بنوازع الرجوع إلى مرحلة المراهقة الطلابية، بعد أن وجدت أني لا أحسن استغلال ست ساعات في برنامجي اليومي، كنت فيها مع زملائي نجتر الأخبار، ونأكل الكلمات، ونتبادل أنخاب الشعر، ونقرأ صحف الغد، فجاء سيف العدل ليضع حدا لذلك الهدر في الوقت، وقد

(١) انظر المصدر السابق نفسه ص١٣٤-١٣٥.

استنكر من استنكر من الرفاق الذين كانوا يرون في مجلسنا الليلي في نقابة المعلمين أحد الصالونات الأدبية متعة كبيرة، حيث يتبادل الأخوة خبراتهم، وتنظم فيها ندواتهم، وتعقد ألوية سفراتهم، وتنطلق منها غزواتهم، وتحل فيها مشاكلهم، مع أنها لا تخلو أحيانا من حروب طاحنة، وهجمات دامية، تعلمنا فيها طرق الكر والفر، وأساليب الهجوم والانسحاب، وأدب الخلاف، وفن النقد، والحصيلة بلا شك نافعة، ولا مناص من دفع الثمن غاليا في العديد من المناسبات، فكم من ليلة أرّقنا فيها ظلام غزوة فاشلة، وكم من لحظة كِبْر خلّفت شهور ذل تجرّعنا كؤوسها، فمن جروح تجارب الفشل تكبر فتحات النوافذ المطلة على الأمل، ومن أرق الليالي المدلهمات بالخطوب تتولد صباحات المستقبل المشرق، ودون فشل لا يكون نجاح، ودون ظلمة ليل لا تشرق شمس. فالأشجار تنتظر الشمس لتلبس حلتها الربيعية، ونقابة المعلمين بأشجارها العالية، وبساطها الأخضر، والقناديل الليلية المختلفة الألوان تطرز أسيجتها تنقلنا إلى عالم مختلف عما يحيط بها من عوالم الغبار، والصخب، والأوحال، فهي الرئة التي يتنفس منها المعلمون. وقد اُستُنفدت قِواهم بعد يوم شاق قطّعوا فيه لتلاميذهم أمعاءهم، وعصروا لهم حشاشة قلوبهم، وسقوهم عصائر أفكارهم، ولربما اختصر الشاعر جمال الدين ذلك كله ببيت شعر[(١)]:

ومعلمٍ لم يدرِ شاربُ كأسهِ ماذا يقطّعُ من حشاه ويعصرُ

وتلاميذهم في اللهو منغمسون، وبالعناد والمكابرة زاخرون، وللكتاب كارهون، وعن طريق العلم ناكبون. والمعلمون فوق هذا وذاك على خطر من عين تتجسس، ومُخبر يتسقط، وحاسد يتربص، وتقرير إلى الحزب يُرفع، مما أدى بالجميع أن يستعينوا بالشعر وإن كان ماجنا لنزار، ويستغيثوا بالنثر وإن كان لعبد القدوس، وقد نفضوا أيديهم بعد دفنهم كتب الفقه، وشيعوا شيوخه بلا صلاة؛ لذا فإن الموقع الوحيد الذي ربما يتأخر قصفه من قبل السلطة هو كلية الدراسات، التي إليها يممت وجهي عام ١٩٧٢، وصارت

---

(١) هذا البيت من قصيدة رائعة للشاعر الدكتور مصطفى جمال الدين، ألقيت في المهرجان الشعري عام ١٩٦٢ تحية للمدينة الخالدة بغداد في عيدها الألفي وفيلسوفها العربي أبي يوسف الكندي، ومطلع القصيدة:

بغداد ما اشتبكت عليك الأعصرُ إلا ذوت ووريقُ عمرك أخضرُ

قبلتي، فجاء نبت الأمل من جديد، فها هو الفرج جمعني بضالتي بعد شدة، وكنت مسرورًا؛ لأني سألتقي بالزملاء على موائد أبي حنيفة النعمان، وأزور رياض تلاميذه: محمد وأبي يوسف وزفر، وارتع في حقول أستاذه الإمام جعفر الصادق، وأنشد شعر الشافعي وأتسقط أخبار مالك، وردود الحنابلة، وأتزهد بإيمانيات أبي العتاهية، وأقتفي شواهد ابن عقيل، ثم أدلف إلى رواقِ شوقي ضيف حيث خبر أصحاب المعلقات، وقصص الأدباء، ولا زلت أتذكر مجموعة الزملاء التي شاركتني مسيرة الطريق وقد تركوا لذائذهم وراءهم، وابتعدوا عن قرة أعينهم، وآثروا التعب على الراحة، والصعود رغم صعوبته على النزول مع سهولته. وكم كانت الزفرات تعلو عقب كل اختبار نجريه، وحسرات نطلقها على هفوة في إجابة مستعجلة، والخوف من رأي نبديه - لنا فيه مقالة - ولأستاذنا فيه رأي مغاير، حيث لا يحضى بتأييده، ولا ينال استحسانه، ونحن بين الخوف والرجاء، الخوف من أن تنزل درجاتنا عند ذلك الأستاذ، والرجاء في أن ترتفع عتباتنا، وهو شعور مجرد ليس له أساس. وأذكر فيما أذكر لبعض صحبي حين كانوا يتندرون عليّ عندما يقرؤون في عيوني الضجر بعد كل اختبار، ثم ما ألبث أن أصدم مسامعهم بعد مدة بالحصول على تقدير عال، فصاروا لا يصدقون شكواي ولا يعتدون بأناتي، وهو الحرص ليس غير؛ لأني كنت أجد في كل زلة أو هفوة في الاختبار مأخذا كبيرا ألوم نفسي عليه من حيث تأثيره على الإنجاز. والرحلة اليومية تنتهي عندما أعود إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل لأجد والدي ملازما لعتبة الدار لا يبرحها إلا بعد أن يسمع وقع أقدامي، ثم أدخل وإذا بالوالدة قد هيأت الطعام، وكثيرًا ما كنت أجد مشقة في تناوله لشدة التعب، وما هي إلا سويعات قلائل إلا والوالدة عند رأسي توقظني لرحلة اليوم الثاني حيث ينتظرني «أبو لطيف» السائق والمشوار الصباحي في مدرسة الزراعة.

وبعد سنتين وبدلا من أن أيمم وجهي نحو الغرب لعبور نهر الفرات حتى عام ١٩٧٤ صِرّتُ أتجه بسيارتي حيث مطلع الشمس نحو بغداد العاصمة لعبور نهر دجلة إذ طلبتني الدائرة الفنية في وزارة التربية في العاصمة للعمل في قسم المناهج، حيث تُعدُّ الخطة

للنهوض بواقع التعليم المهني، وهذا الطلب تقدير له ما بعده في تحديد مستقبلي، وبناء طريقي، وقد جاء ليكلّل جهودي الناجحة، وكان عليَّ أيضا تقديم برنامج تلفزيوني أسبوعي أقدّمه للمدرسين من شاشة القناة الثانية التربوية.

ومن نافلة القول أن أذكر هنا تركي لكلية الدراسات الإسلامية لسنة واحدة (١٩٧٥ - ١٩٧٦) بسبب الرحلة العلمية إلى ألمانيا - ألمانيا الغربية وقتها -، حيث ركبت الجو لأول مرة، وحطت بنا الطائرة في مطار «ساول» على منحدرات جبال الألب، ومنها هبطت في ميونخ، ووجدت من كان إلى جانبي من سويسرا كان ممن يطير يوميا إلى مهنته عبر الحدود، فعلمت أن ذلك أصعب من عبوري لنهري دجلة والفرات على مدار الأعوام المنصرمة. وتحقق لي لأول مرة أن لغة الإشارة هي اللغة الأولى للإنسان، فقد قضيت أكثر من ثلاث ساعات مع إحدى الموفدات من الأرجنتين لحضور المهمة العلمية نفسها حيث ساقتنا أقدامنا إلى أحد المطاعم، فهي تجيد الإسبانية والفرنسية، ولا تعرف الإنجليزية ولا العربية، وأنا على العكس منها، فلا لغة مشتركة بيننا إلا لغة الجوع والعيون والفضول، فبعد أن ملأنا البطون وكلانا يضحك من صاحبه، رجعنا إلى الفندق ننتظر صعوبات الغد، حيث دُعينا إلى مؤتمر حضره الموفدون من أكثر من خمس وعشرين دولة، كان الدكتور «بودا» من منظمة «الفلدافينك»[1] يشدد على ممثلي أمم الشرق وأمم أمريكا اللاتينية: أن الساعة هي الدستور المقدس الجديد لألمانيا، فقد قالها عن خبرة، وأن علينا أن نحترم الوقت، وعندما يقول المسلم «إن شاء الله» فعليه أن يُطلع الله على ما في قلبه - وهو مطّلع - فقد عانينا كثيرًا في بلداننا من الكذب الذي يُهدى إلينا تحت طائلة المشيئة الإلهية التي لم يكن لنعرفها إلا في هذا الموطن وبطريقة خاطئة، ولم يتكلف أحد أن يمسح بالناصية الكاذبة الخاطئة قبل أن يأتي فعل «لَنَسْفعنْ»، فلعل أحدنا لرشده يعود، وعن غفلاته يبتعد ويتوب.

وإذ أرجع إلى الفتاة الأرجنتينية عندما التقينا بها بعد قرابة السنة (في نهاية المهمة) أخذت تذكرني - هذه المرة بلغة الألمان - بتلك السويعات الخاليات عندما كانت عيوننا

(١) الفلدافينك اختصار لاسم منظمة ألمانية تهتم بالتطور الزراعي والتعاون الدولي.

وحدها هي التي تتحدث حيث خانتنا الألسن، وتغيبت عنا الحروف، وضاعت من أفواهنا الجمل، وكيف أننا أكلنا ما لم نطلب، وشربنا ما لم نتذوق، ودفعنا ما لم ندرك، مستغرقين في قهقهاتنا التي بدأت تتعالى لتلك المواقف حيث كنا نحاول أن يفهم بعضنا بعضا خارج سياقات اللغة.

ولم تلازمنا السعادة طويلا إذْ عليها أن تودعنا، فعلينا أن نذهب غدًا لتشيع جثمان أولنا سقوطًا، حيث مرت يوم أمس حافلة الترام - وهي إحدى وسائل النقل في ميونخ - على جسد زميلنا من كوريا عند محاولته عبور الشارع من مكان لا يسمح منه بالعبور، وربما كان ذهوله بما يشاهد في شوارع ميونخ سببا لغفلته، ودخلنا المكان الذي أعد للتشيع بعد أن فضّل ذووه أن يدفن في «دار الغرباء» وهو الاسم الذي يطلق على المقبرة باللغة الألمانية، وقد غُطّي نعشه بعلم بلاده وبباقات الورود، حتى أضحى كثير من الرفاق يتمنون أن يكونوا مكانه، هذا ما سمعته على الأقل من صاحبي «علي مهدي» وهو يهمس في أذني محاولاً استقراء إجابتي الصامتة.

الكاتب يصافح أثناء دعوة الاستقبال وزير التطور الألماني

وعلى كل فلابد من الاعتراف أنهم حقًا احترموا الضيف الميت، وتم استدعاء أعضاء سفارة بلاده، وودعنا زميلنا على أنه أصبح علامة تحذير «لأبي الفضائل» – أحد المبتعثين معنا – والذي على إثر ذلك الحادث أصابه مرض الحنين إلى الزوجة بدلا عن الوطن، فلا شراب بعد اليوم يَقربُ ولا طعام يستمرئ، فقد خاف «أبو الفضائل» أن يكون آخر عهده بالدنيا أن تلفه ورود الألمان كما لفّت زميلنا الكوري. وفضّل العودة من حيث أتى، وما إن تم تجهيز الميت ودفنه على الطريقة الغربية حتى كان لزاما علينا مغادرة ميونخ إلى قرية «كوخل أم زيه» حيث معهد اللغة لدراسة الألمانية.

وما إن وصلت الحافلة القرية التي تغفو على سفوح جبال الألب الشمالية، وترسو على بحيرتها الخلابة، وإذا بنا نفرك عيوننا خشية أن يكون الذي نراه إنما نراه ونحن في المنام، وأخذت الهمسات من الرفاق والرفيقات محلها في الآذان: هل إننا حقا غادرنا أسِرّة نومنا في فندق ميونخ؟ لكننا على يقين أننا تناولنا فطورنا قبل مغادرتنا، ونتذكر أننا سلّمنا المفاتيح أليس كذلك؟ وكنت أقول لمن يجلس إلى جانبي، على فرض أننا نعيش في حلم فعلينا ألا نستيقظ، فدعونا نحلم ما دام في الحلم خير.

والآن على ألسنتنا أن تتفتق بأبجدية الشاعرالألماني «غوته»، وأن نحبسها مدة وجودنا عن لغتنا العربية، وقد قُسّمنا إلى مجموعات عدة وكان أساس التقسيم حسب نوع اللغة الأصلية للموفدين واللغة الثانية التي تعتمدها دولهم في المدارس، فكان العرب من العراقيين والمصريين والأردنيين إلى جانب الإيرانيين يشكلون كتلة واحدة، وهكذا قُسم الآخرون من الموفدين إلى مجموعات حسب التصنيفات اللغوية. وبعد مضي شهر واحد تم استدعاؤنا لمصحة من المصحات وتم إجراء الفحوصات الطبية اللازمة للجميع، فكشفوا بأجهزتهم عما خفي على أطبائنا من صغائر وخبائث، واقتضى الفحص ترحيل طالب إيراني ليلحق بأهله قبل الموت، ولا ندري عنه شيئا منذ تلك الساعة، وربما أحبه الله فأراد به خيرًا، فكم اكتسب من بقي من إثم بسبب القصد أو الفضول؟! وهنا أودّ القول:

أني كنت أقول للزملاء أن مأثمًا سيصيب الجميع بشكل أو آخر شئنا أم أبينا، ثم ما لبث أن وظّفها أحد الأخوة ليطلق لنفسه الأمارة هواها فوجدوه في إحدى الحفلات الليلية وقد احتضن «جين»[1] باليمنى وأمسك كأسه في الشمال، وقد أنكر عليه أحدنا ذنبه الخطير، فكانت إجابته: ألم يقل لنا الهيتي أننا سوف نأثم؟ وما درى سر العبارة ولا أدرك معنى الاجتناب.

أما الكاتب فإن عليه أن يدخل المستشفى القريب من تلك القرية لاستئصال الزائدة الدودية حيث تم الكشف عن التهابات حادة فيها. حيث شارك كل الموفدين بتشيعي إلى المستشفى – وأنا أقْدَمهم – مما أشعرني، حقا، أن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، فقد غُص بهم قطار القرية وهم يمثّلون قرابة ربع دول الأمم المتحدة، وعندما وصلوا جميعا إلى ردهة استقبال المستشفى جن جنون إدارة المستشفى؛ لأنهم لم يعهدوا ذلك من قبل، فقد غزت المستشفى مخلوقات غريبة لم تُشاهد في القرية ولا في مشفاها من قبل، فهذا «روميرو» يرتدي زيا غريبا يمثل به ساكني جبال الأنديز، وهذه «شعلالا» تمثل في تقليعتها قبائل الأمازيغ، وهذا «خير السيد» يلتحف الزي الأفريقي، وذاك «عبيدات» ومجموعته يرفلون بلباس العرس العربي، وهلم جرا ... ... فكانت المجاميع على اختلاف ألوانها وأطيافها مجتمعة ترسم لوحة فسيفساء زاهية الألوان ونادرة الحجم، ونزلاء المستشفى هنا والناس خارجه هناك أخذتهم الدهشة، واستولى على قلوبهم الفزع. فكيف اجتمع هؤلاء؟ ولم جاءوا هذه الساعة؟ ولم احتلوا المستشفى؟ وأخذ بعضهم يتفرس في وجوهنا، وبعضهم الأخر يتفحص أشكالنا وألواننا، للتأكد من أننا مخلوقات ليست غريبة عن كوكبهم جاءت إلى إحدى الحفلات التنكرية كالتي يعملها شباب القرية وشاباتها في احتفال القرية السنوي! على عادة الشعب الألماني في كل مدينة.

(١) إشارة لأبيات الشاعر محمد مهدي الجواهري:

أعيا جمالك منطقي وسما خيالك عن خيالي ... يا «جين» لطف الخمر أنك كنت ماثلة حيالي
ما شاء فليكتب عليّ الدهر إني لا أبالي ... إذ كان خصرك في اليمين وكان كأسي في الشمال

وتعالى صوت المشيعين بمختلف اللغات، وربما رحيل زميلهم الكوري من قَبْلُ - الذي عجنته حافلة الترام على سكة قضبانه الحديدية - ألّف بين قلوبهم، ووَحدّ صفوفهم، فهم في المصير على ما يبدو واحد (وكل غريب للغريب نسيب)[1]، على إثرها جاء مدير المستشفى ليتفاوض مع الغزاة المحتلين الذين وطئوا بأقدامهم أرض المستشفى من كواكب العالم الثالث، وهو على ما يبدو من المؤمنين بسياسة الخطوة خطوة، وهو من الأمم التي تعلمت أن الاستماع للآخر أولى خطوات الحل قبل أن يتصل برجال الشرطة ونسائها، ثم أدرك كاتب هذه السطور أن عليه أن يتقدم زملاءه، ويبرّئ ساحته، ويخلي ذمته، وهو يفتش جيوبه عله يعثر على رسالة الدخول إلى المستشفى، وكأن مدير المستشفى قد قرأ في عيون المتقدم أنه لا يحمل السلاح بل يحمل مقترحات الحل بمطالب المجموعة الغازية، فاطمئن قلبه حينما رآني أحمل رسالة، فجاء نحوي بعد أن كان ينظر وراءه تأمينا لطريق الهروب إذا ما حصل له مكروه، وما إن استلم الرسالة ويداه ترتجفان إما من كِبَر سنِّه، أو لمرض أصيب به وقرأها حتى تهللت أسارير وجهه، وبدت على محياه علامات الرضا والحبور، فقد فهم الآن القصة كاملة، ثم أفصح بكلمة أشعرنا بها أنه يرحب بنا، وطلبنا على الفور من يُجيد الترجمة عبر أكثر من لغتين لعلنا نفهم المشكلة التي أثارت حفيظة المدير، وإذا به يرحب بنا أجمل ترحيب، وقد عَقّب قائلا: إن مريضكم «الهيتي» بعد أن تلكأ في قراءة الاسم حيث تعثر إلى درجة الاختناق سيلقى كل عناية، وسيحظى كل تقدير، وسوف تجرى له عملية جراحية صغرى، وعليكم أن تمتثلوا لتعليمات المستشفى، وتحترموا مواعيد الزيارات، وأن عدد الزائرين في المرة الواحدة لا يزيد عن اثنين، وعند سماع الخبر إذا «بعلي مهدي» يوزع الفاكهة والحلوى، وكأنه نَذر نَذرًا، أو أسس لسُنّة يعتقد أنها حسنة، فانفض الزائرون قافلين من حيث أتوا، يحملهم قطار القرية، وكنت أرجو أن أكون أحدهم.

---

(١) هذا شطر من البيت الثاني للشاعر الجاهلي امرئ القيس الكندي آكل المرار:

أيا جارتا إن المزار قريب   وإني مقيم ما أقام عسيب
أيا جارتا إنا غريبان هاهنا   وكل غريب للغريب نسيب

والآن، بعد أن تركني الأحبة والأصدقاء صرت ألحظ قافلتهم تغادر المستشفى من خلال النوافذ الزجاجية، والثلج قد غطى كل شيء حول المستشفى، عليّ أن أخلد للراحة ففي الغد ستجرى العملية الجراحية، لكني لم أتبين متى كانت إفاقتي منها؟ وكم عدد الليالي بعدها قضيت في المستشفى؟ إلى أن أخبرني «توني» الألماني الذي وجدت سريري إلى جانب سريره قائلا: أن معلمة اللغة الألمانية التي زارتك اليوم كانت رقيقة، إذ زارتك للمرة الثانية أليس كذلك؟ فسألته: هل أنت متأكد؟ فهذه أول مرة تزورني فيها معلمتي، فرد قائلا: بالتأكيد، ألا ترى إلى علب الشكولاته ومعها علبة «باميا» وهي إلى جانبك، أحضرتها لك أمس، ألا تذكر كيف رحبت بها بحرارة؟ فقد رحّبتَ بها خير ترحيب. ولم أجب عن تساؤلات «توني»؛ لأني بدأت أفهم أن هناك شيئا ما، ربما أكون استقبلتها وتحدثت إليها وأنا في غير وعي ولا إدراك، الأمر الذي جعلني أتحقق من الطبيب الجراح الذي أكد لي إن جرعة التخدير كانت على ما يبدو عالية ومؤثرة، الأمر الذي جعلنا نخشى عليك كثيرًا. على كل حال وبعد زيارات - تم ترتيبها حسب توصيات مدير المستشفى - مؤدبة من الزملاء لمدة يومين، خرجت من المشفى وقد دعاني «توني» لقضاء مدة النقاهة في بيته قبل ذهابي إلى مكان إقامتي، وفعلا لبيّت دعوته، وقد أعدّ ما بوسعه ووسع عائلته من حفاوة وكرم، رغم إعاقته البدنية، ولم يكتف بكل ما فعل فقد أصرّ على مرافقتي إلى قريتي التي تحتضن معهد اللغة.

وعدت إلى العراق وعليّ أن أباشر وظيفتي في دائرة الشؤون الفنية، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فمدير عام التعليم المهني «الأستاذ حمدان طوقان» عليه أن يترك منصبه دون لملمة لأوراقه، إذ كان في قائمة من تشملهم تطهيرات الدولة؛ لأن «حمدان» لم ينخرط في صفوف الحزب الحاكم، مع أنه قبل البارحة كان يجلس على كرسي وزير التربية حيث تنحى عنه الوزير «محمد محجوب» احتراما وتقديرا لشيبة «حمدان»، وكان أول عمل قمت به لحمدان بعد إحالته على التقاعد أن قمت بزيارته في بيته زيارة مفاجئة، وكنت قد أصطحبت هديتي وهي على ما أذكر كتاب «صحيح مسلم» وكتبت في إهدائه « أن هذا

الذي بين يديك خير رفيق بعد كتاب الله يرافقك في رحلة العمر الجديدة (التقاعد)» وما إن رآني على عتبة بابه حتى طار فرحا، وكأنه لم يصدق عينيه، وأذكر أنه صار ينظر إلى ما ورائي لعل أحدا من الزملاء قد بادر بمثل مبادرتي، عندها احتضنني وهمس في أذني وهو يقبلني قائلا: عودتّنا على مثل هذه الزيارة الشجاعة، فهي ليست نادرة في مفردات قاموسك العملي. فهو يدرك أن في تصرفي بعض الخطورة لفرط حساسية الموقف. لكنّي رأيته متأزما ومتبرما بعض الشيء، وعندما تجاذبنا أطراف الحديث فهمت سبب ذلك الامتعاض حيث لم يكلف أحد من زملاء العمل نفسه عناء الاتصال للاطمئنان عليه، بعد أن كان جُلُّهم يتحين الفرصة لأن يحصل له الشرف في رمقة عين رضًى منه. وزيارتي وإن كانت مفاجئة لكنها تذكّره بموقفي عندما استدعيت ذات مرة لعرافة حفل افتتاح مؤتمر التعليم المهني الأول لدول الخليج العربي في بغداد ومرافقتي لعالم التربة «الدكتور مصطفى الجبلي» وزير الزراعة المصري، وفي نهاية افتتاح أعمال المؤتمر كنت رافقت «الأستاذ حمدان طوقان» لتوديع «الدكتور أحمد عبد الستار الجواري» وزير التربية العراقي، ولم يكن سوانا مع الوزير، وكنت مترددا في فتح باب سيارة الوزير وانتابني شعور عالي بعزة في النفس، فهمس في أذني وهو يدنو من باب السيارة قائلا: «اللّه ه ه ه ما أكبر نفسك».، وشعرت بزعل شديد ليس على «حمدان» بل على نفسي الكبيرة الأمّارة. ولكن يشهد اللّه لو كان المُودَّعُ فقيرا أو صديقا من أقراني لفعلت، ولكن فرط حساسية من تربى في «الفلوجة» هي التي دفعتني إلى ذلك. أما ردّي العملي على مثل ذلك القرار - أعني قرار عزل «حمدان طوقان» - أن طلبت الرجوع للتدريس في المحافظة السابقة نفسها حيث إعدادية زراعة الرمادي، وارتاب «نزار الناصري» المدير العام الجديد من القرار الذي اتخذته في العودة للتدريس، وإذا صدق المدير العام الجديد في حدسه فسوف أتعرض لأشد الأذى، وربما احتسب قراري بمثابة احتجاج على قرار مجلس قيادة الثورة أو على الأقل عدم رغبتي في العمل معه، وفي الحالين ثمة أمر خطير، ولكن بحمد الله وتوفيقه استطعت أن أقنعه بحنيني للتدريس؛ ولأن المواصلات اليومية أصبحت ترهقني وتستنزف زمنا ثمينا من وقتي.

وهنا أحببت التأكيد على أنَّ فكرة تطهير الدولة من العناصر غير الحزبية (سياسة الإقصاء) فكرة غبية، تؤدي إلى خسارتها للكوادر النظيفة والمخلصة في كل حملة من حملاتها المتوالية، وقد أثبتت التجارب أن مسألة الولاء للوطن والمجتمع من خلال الخدمة المتميزة كان أعلى مع تلك النخب التي فضلت أن تكون بعيدة عن شبكات التنظيم وأذرعه المختلفة، حيث لمست ذلك من خلال العناصر التي كنت أرشحها للعمل معي والتي كنت بسببها مصدر شك وريبة في عيون الحزبيين وإن كان التعميم في مثل هذا الأمر وأشباهه لا يجوز على مستوى تجربتي الشخصية إلا أن جملة من المدراء وأرباب العمل على الأقل شاركوني الرأي في ذلك. إذ فشلت تلك الأنظمة سواء على مستوى بلدنا أم على مستوى العالم وهي التي تعتمد في الاستمرار والمطاولة في قيادة الدولة على زعامة الحزب الواحد واجتثاث كل ما عداه. فما حدث في الثلاثينات من القرن الماضي في روسيا من جراء حملات «استالين» التطهيرية أفضل شاهد لخسارته للملايين ومن بينهم مئات الآلاف من العلماء في شتى الاختصاصات، أخص منهم من يعمل في حقول الفيزياء الذين كانت روسيا وهي في طريقها إلى عالم صناعة القنابل النووية في أمس الحاجة إلى خدماتهم. وتكشّف لنا أن «كورجاتوف» عالم ومصنّع القنابل الذرّية الروسية كان مستقلا ولم يكن من زمرة «استالين» مما دعا الكتّاب الروس أن يؤكدوا في نثرهم وشعرهم أن «روسيا لا زالت أرض «السادة والعبيد» بسبب الأعداد الهائلة من المعتقلين خلف الأسلاك الشائكة. فالدول التي على تلك الشاكلة إنما تنظر أنظمتها بعين واحدة وضيقة، وسوف تغلق أمامها كل الطرق المساعدة وتحصر نفسها في دائرة ضيقة سواء في الرؤية أم في التطبيق. والدولة بسياسة التوسع القسري للحزب الواحد وأنواع المضايقات التي تطال كل من يقع خارج نطاق المؤسسة الحزبية بعلم أو دون علم سوف تقبل الفئات التي تحمل الحقد على النظام في صفوف ذلك الحزب وتطيح بالدولة من الداخل أو تسهل للانقلابات حيث تستغل أدنى هزة قد تصيب النظام. كما أن تلك النظرة القسرية تشجع من يُؤَمَّل مشاركته

في بناء المجتمع في تسرّبه ليكون في مكان آخر خارج حدود الدولة، وسوف يكون عنصر هدم من الخارج.

والحال ينطبق على التعليم فإن ما يسمى بالمعارضة قانون بشري يدل على سلامة مستوى مجتمع المدرسة الواحدة وصحته. فإذا فرضنا أن مجتمع المدرسة بجمعه يأتمر برأي المدير فإن قصورا سيتحقق، أقله عدم وجود عين تتحرى الخطأ ليُصار إلى تصحيح ذلك المسار، وهي حتمية إنسانية للعمل المشترك؛ ولذا فإني ما زلت أدعو لنوع من الشورى التي تتحقق بها المصلحة في العمل التربوي وفي سواه. ولا أجد أي مبرر للخوف من الديمقراطية أو (الشورى) ولكن الخوف كلّ الخوف من عدم وجودها. ويشترط أن تسبق ذلك وجود ثقافة ديمقراطية وأن عدم وجودها يتسبب في نشوء صراعات ومواجهات بين أفراد المجتمع نحن في غنًى عنها، فالديمقراطية مبدأ قبل أن تكون ثقافة. ووجهات النظر والأفكار المختلفة عندما تتصارع داخل المدرسة والمؤسسة الواحدة فإنها مظهر صحي لعيش الجميع. ودون شك فإنه يشترط لقبول وجهة النظر الأخيرة واعتبارها صحيحة أن يكون الجميع قد تخرج من «مدرسة قبول الآخر، أعني من متوسطة التعددية ومن ثانوية الواقعية الحقيقية ومن جامعة حقوق الإنسان، والأفضلية لمن هو حاصل على ماجستير في تخصص الديمقراطية أو دكتوراه في تخصص حرية الثقافات»[١].

---

(١) مجلة المعرفة العدد ١٥٥ فبراير ٢٠٠٨ وقد تمت الإشارة إليه – بتصرف –.

المحطة الخامسة

لا بدَّ أن تكون مديرًا

جاورت أعدائي وجاور ربه   شتان بين جواره وجواري

(أبو الحسن التهامي)

المحطة الخامسة

لا بدَّ أن تكون مديرًا

صَدَرَ الأمر ببناء ثمانٍ وعشرين مدرسة حديثة في العراق، واستُقدم لبنائها أشهر الشركات الألمانية، وعليّ أن أكون مديرا لأولها افتتاحًا، حيث تعهدت شركة «زِبْلِنْ» أن تبدأ ببناء «مدرسة زراعة الصقلاوية» التي تم اختياري لأكون مديرا لها، وربما ساعدت معرفتي مبادئ اللغة الألمانية في تشجيع الشركة المذكورة لتختار قرية الصقلاوية، وهي من نواحي مدينة الفلوجة لتكون أول موقع تبدأ فيه أعمالها، حيث صرّح لي مديرُ الشركةِ عندما التقيته في ديوان وزارة التربية: (أن لغتك الألمانية كانت عاملا مساعدا في اختيار الموقع المذكور). والموقع المخصص لها ليس بعيدًا عن قصور الراحة الرئاسية التي تصد أسيجتها أمواج أكبر بحيرة صناعية في العراق - بحيرة الثرثار - وربما اُختير لها هذا الاسم لما ذكِر من أن الناس كانت تقلقهم ثرثرة المياه المنسابة تحت الطبقات السطحية لتربة المنطقة. وأخيرا بدأت أعمال إنشاء المدرسة، وكنت قد شاركت بالتخطيط لحقولها الزراعية، ولا أشك أنها الآن غابة من أشجار الثمار تحيط بها أشجار الزيتون إلا إذا توجهت إليها آلة الحرب فشملها الدمار كما حصل في كل ناحية من نواحي العراق. وبعد مدة استحوذت وزارة التعليم العالي على المبنى بعد اكتماله لتحويله معهدا جامعيا تابعا لها، وعلى كل حال فإني أنقل الأحداث قبل اكتمال مبانيها، إذ كنت أدير المدرسة من مقرها المؤقت في مدينة الفلوجة، المدينة التي ما فتئت نشرات الأخبار تتحدث عنها منذ الاحتلال الأمريكي للعراق حتى ساعة كتابتي هذه الخواطر.

ولاحظت على غير العادة عام ١٩٨١ أن الزيارات لمكتبي في إعدادية الزراعة في مقرها المؤقت زادت عن الحد المألوف، وأصبح من حقي أن أتساءل عن مبرر معقول لتلك الظاهرة؛ لأن الزوار هم في الغالب ممن لايعنيهم أمر التربية والتعليم، ولا من الذين يهمهم القطاع المهني وتوفير الكوادر الوسطى في هرم العمالة التي هي إحدى أهم أهداف

المدرسة المهنية، ولا هم من أولياء الأمور، ولا ممن تربطني بهم علاقة حميمة يمكنني عندها تبرير تكرار تلك الزيارات وتواليها، فهذا طيار من قاعدة الحبانية العسكرية، وهذا عضو فرع أو شعبة في الشعبة الحزبية في المدينة، وذاك أحد المقاولين الكبار، وذاك صاحب معرض للسيارات وهلم جرا، يأتون لزيارتنا دون أحد من حراسهم أو رفاقهم كما اعتادوا عليه، يضاف إلى ذلك أن قسما منهم صار يتعمد نسيان بعض أشيائه لتكون سببًا للعودة إلينا، ومدرستي تلك التي كنت أصفها بخلية نحل تحط على بابها نحلاتها كل صباح، لكن الدبابير[1] أصبحت تترصدها وتتلقفها، وأخذت أحدّث نفسي عن الحكاية التي جعلت كل تلك الدبابير تتسقط أخبار نحلاتنا بهذا العدد الكبير!!! وأصبحت كالبعوض تتجمع وليس من مانع يمنعه ولا من حاجز يصده حتى صرت أتحاشى توديع أحد من أولئك الزوّار إلى الباب الرئيس كما هي عادتي مع ضيوفي، خشية أن يستغل أحد من المتربصين منهم تلك الفرصة ليلج إلى الداخل، وتذكرت مصطفى لطفي المنفلوطي الذي كنت مولعا بقراءة «نظراته» و«عبراته» في صباي يوم أخذه العَجَبُ عندما همّ بفتح النوافذ ليخرج ما كان داخلا من البعوض فدخل ما كان خارجًا. إذن عليّ أن أبدأ - بعد أن تيقنت من وجود مشكلة- بوضع الحلول لها كعادة الباحثين الذين يخوضون لجج الدراسات العليا، والذين عليهم أن يؤسسوا لبحوثهم فيحددوا مشكلة البحث أولا، ثم يبنوا أهدافهم التي من شأنها تذليل تلك المشاكل أو على الأقل تسهم في إزالتها. ففزعت إلى من أثق بنصيحته، ولجأت إلى رجحان عقله، ودقة حدسه، ممن هو أهل للمشاورة، ومحل للمناظرة، وموضع كتمان السر، وهو مَن أسندت إليه مساعدتي في هموم الإدارة، فأشار عليّ بأنه هو الآخر قد تحسس ذلك، وسهّده ما رأى، ولكنه على يقين أن هؤلاء الزوار هم ممن زاغت بهم الأبصار، وإن ادّعوا أنهم من محبي الجمال، ومن أصحاب الذوق، ولو جرّهم ذلك النظر إلى إثم أو أودى بهم إلى الجحيم، فعرفت مراميه، وفسّرت مقاصده، فقلت: إذن أنتَ توافقني أن بعض نحلاتنا أصبحت مصدر فتنة، وموطن ريبة، فقد شغفن القلوب، وأسرن

---

(١) الدبابير من أعداء النحل.

العيون، وفطرن الأكباد، وما علينا يا صاحبي، الآن، إلا أن نقمع الفتنة، ونقضي على الأزمة. ولكن كيف الوصول لتحقيق ذلك الهدف؟ وأنا على علم بمكامن الخطر، ومواطن الحذر، فالقرار يعني السباحة ضد التيار، ولكن يلزمني التمثل بالشجاعة، والتحلي بالصبر. فبدأت بحصر أسماء المدرسات اللواتي غالين في الإثارة، وتعبن في لفت الأنظار، وتسببن في وقوع أكثر من حادث سير، فبعثت إلى أولاهن أطلبها وما دَرَتْ أني سأسدي لها أفضل معروف، وأهدي لها أغلى العطايا، وبدأت الحديث معها كعادتي بصراحة متناهية، تحملها لغة شفافة، وعبارات رقيقة، تعبر عن هموم السمعة، وتنبع من قلب صادق في حل المشكلة، ووعد ناجز، يطمئن لها قلبها، مع الحذر في الحديث من الهذر؛ لأنه قد يجر إلى الويلات، ولذا فإني ابتعدت عن الخلوة وقد انتدبت إلى الجلسة المغلقة رجلا مسنًا لحضور المقابلة، والكادر كله يطمئن إلى أمانته، وكتمانه للسر، وبعد أن أبديت الأسف لها قلت: إن المحيط الذي أنت وصويحبات يوسف فيه ليس بالمحيط الملائم لكُنَّ، وما هو بالمثالي لأن تعيش فيه مثل هذه الطيور، إذ نزعتنَّ عنها الريش الذي يزينها، وعرِّيتُنَّ جسومها من جلد يقيها، فأصبحت تلك الطيور معرضة للخطر المحدق، وللأمراض السارية. وبعد أن قرأت في عينيها العسليتين – وقد ارتسمت على شفتيها بسمة خجولة – الموافقة على مقترحي بنقلها إلى حيث تسكن والدتها حيث في ذلك انفراج الأزمة، وزوال الغمة، عندها قررت الكتابة بالاستغناء عنها، وموافقتها تعني أن عليها أن تتحلى بالشجاعة، وتمنحني حرية الكتابة عنها وبكل التفاصيل التي أراها وإن كانت شخصية، وبالأحداث وإن كانت جارحة، وما إن أعددت الرسالة، وعليّ ككاتب لتلك الرسالة أن أفك التشابك بين الخواطر المزدحمة، وأن أقدّم الراجح على المرجوح، وأن أدفع مفسدة قبل أن أجلب مصلحة، والأمر لا يخلو من غبش، وربما إن فعلت ذلك فلا يخلو من ظلم وإن كان غير مقصود، وهو في الوقت نفسه ليس عدلا صريحا مفهوما، فإني على يقين أني سوف أُسأل من قبل صويحباتها من المدرسات حيث باشرن قبلها في الوظيفة وهن على رصيف قطار الانتظار – مع أن القطار الأول أعني قطار الزواج قد فات معظمهن – الذي تأخر عن الوصول لنقلهن حيث

رغباتهن!! وكذلك فإنهن أحق منها بالنقل إلى العاصمة، وإذا ما اضطررنا لتبيان السبب لهنَّ فقد نقع في مشكلة أكبر، حيث الخشية من أن يسلكن سلوكها، ويتبعن طريقها، وبذا فإننا زدنا من المشكلة تعقيدا، ثم إنني سأواجه بمعارضة السلطة المركزية إذ أوقفت من جانبها النقل إلى بغداد، ثم إن لتحقيق العدل ثمنًا لابد من سداد فواتيره، وخلق توازن بين الحرية والاستقرار أمر مهم، وقد قرأنا - إن صحت الرواية - أن عمر ﵁ قام بنفي نصر بن حجاج الشاب الذي فُتِنت بوسامته بعض نساء المدينة، فحاول قبل نفيه إلى العراق أن يضع العمامة على رأسه فزاد وسامة، ثم أمر بحلاقة شعره فزاد حُسنا، فدرء المفاسد كما هو معلوم مقدم على جلب المنافع أو المصالح. وفي صاحبتنا التي نحن بصدد الحديث عنها ما قد يؤلم الطابور الذي لو علم بحيلتي لوجهوا لي اللوم، وأكثروا العتاب:

أقلّي اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا(١)

وبعد أن استوثقت من موافقتها، شرعت في كتابة رسالتي إلى رئيس المؤسسة - تلك الرسالة التي لم أعثر على نسختها بسبب الاغتراب - وقد رسمت له بالكلمات لوحة المشكلة، وأطّرتها بأحسن الشواهد، وجملّتها بأبلغ العبارات، وعطرتها بأحسن الذكر، وختمتها بأفضل الوصايا، وذيّلتها بأتم الدعاء. وما إن وقعتْ رسالتي في يده حين فُضّ عنها ظرفها من قِبَل حاجبه (سكرتيره) الخاص الذي أخبرني بعَجَبه مما حصل للرئيس لحظة قراءته الرسالة وكأن الحاجب على رأسه الطير واقف في انتظار الأوامر حيث تعالى ضحك الرئيس، ولم يعد يتمالك نفسه، فكان كمن يقرأ مقالة في الأدب الساخر على حد تعبير الحاجب مع أن الموضوع الذي يقضي بنفي صاحبة الشأن بسبب جمالها وافتتان الناس بها ليس من الأمور السهلة، فالنقل كما أشرت في ذلك التاريخ إلى العاصمة صعب للغاية

(١) هذا بيت من الطويل لجرير بن عطية الخطفي، أحد الشعراء المجيدين، وثالث من ألقيت إليهم مقادة الشعر في عصر بني أمية، وأولهم الفرزدق، وثانيهم الأخطل. وهو أحد شواهد شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، حيث جيء بالتنوين لأجل الترنم (أي التغني) وهو تنوين يلحق القوافي المطلقة بحرف علة، واستعماله قليل. ومن قواعد التنوين أنه لا يجتمع مع «أل» لان التنوين يدل على التنكير و«أل» تدل على التعريف «العتابن» فبينهما تناقض فلا يجمع بينهما، وأيضا التنوين من خصائص الأسماء وهنا دخل على فعل ماض «أصاب» وسمَّى الثاني بالتنوين الغالي:وهو اقل استعمالا من الأول وهو من الغلو، ويأتي كثيرا في الشعر وفي غيره.

بسبب الرغبة الجامحة للكوادر التدريسية بالنقل حيث تعاني من ضعف في المرتبات، وصعوبة في وسائل التنقلات، ولذا فليس من العجب إن يتنادى الجميع ليكونوا من بين أولئك السعداء المنقولين، فهو أمر له ما يبرره. ويذكر لي الحاجب - حين هاتفني - بعدم تردد الرئيس في توقيع أمر نقلها قبل انفضاض مجلسه، وبهذا أسدلنا الستار على قضية كانت تؤرق الغيورين، وتزعج أولياء الأمور الذين ائتمنونا على ودائعهم، واستأمنونا على فلذات أكبادهم التي تمشي على الأرض.

وفي مساء يوم حرارته خانقة من صيف عام ١٩٨٠ وعلى رصيف من أرصفة المنصور ببغداد المزدحمة بأنماط الحمائم من الصبايا تترصدها الصقور من الشباب الهائم على وجهه، والمكان مزدحم بالأسر التي تتجمع عند واجهات محلات البوظه الجامدة والأشربة الباردة للتخفيف من حدة حرارة الصيف، والأصوات متداخلة من كل صوب، ضحكات، وقهقهات، وهمسات تكاد تتلاشى بين صخب موسيقى الغجر والألحان العربية التي لم تعرف يوما هزيمة من الهزائم، ثم ما تلبث أن تتبعثر في الأفق الواسع لتعبث بأسماعنا الأغنيات التعبة، التي تعلك مجد «قائد الضرورة ليل نهار بين أفواج البشر الذين تزدحم بهم الأرصفة، ورائحة الشواء التي تفتح نوافذ الجوع، رأيت المعاون الإداري «عبدالمنعم» يمشي نحوي على غير طبيعته من الهشاشة والبشاشة التي ألفتها منه، فقد تاهت في وجهه علامات الحيرة، وانتصبت أعلام الغضب، فوجهه متصلب، وخطواته صرتُ أرمقها نحوي مترددة، خائفة تائهة، كأن أمواج البحر الغاضبة تتكسر منسحبة عند أقدامه، وبدت قامته منحنية كأنه يحمل هموما لم يعد يطيقها، فقد وخزني بنظراته الخجولة أولا، ثم أنهى عند مسامعي أعنف الأخبار، وأدهى الدواهي، ظللت أسمع أنغامها الحزينة تتردد إلى لحظات التدوين هذه، وما زلت أريدها أن تتلاشى ولكنها ظلت عنيفة ولصيقة حارة، تكويني بجمرها، تتجدد في كل لحظة، أنسى نفسي فيها، تجعلني شاردا وتائها في أزقتها، تعتقلني حالة من الغثيان. وأخيرا اقترب مني ثم قبلني بشفاه مرتجفة، من خلال إضمامة حنونة مخلصة، فهو كما عهدته دائما، ثم دسَّ في جيبي جواز سفري الذي حصل لي فيه على

تأشيرة من سفارة الإتحاد السوفيتي حيث قررت أن أقضي إجازة الصيف، وقد أحسست بيد ترتعش كأنها يد ابن التسعين، ودنا من أذني قائلاً: إنّ (عليّا قد أهدته يداي ثرى مقبرة الشيخ معروف الكرخي في بغداد)، وظل يطاردني بقصته الوحشية وهو ممسك بي، فقد رأى بأمِّ عينيه آثار الرصاصات السبع التي اخترقت صدره، وقطّعت منه الأوردة والشرايين، وأوقفت ذلك القلب الطاهر، فلم نعد نرى رجلا يمارس زراعة رياض الحب في ساحات مدرستنا القفر، وانقطعت برحيل عليّ سلسلة رسائل العهد والوفاء، وغابت عنا شمس الأخلاق التي أدفأت بعد برودة، وألفَّت بعد فرقة، وربطت على القلوب.

ولنعد إلى القصة من أولها، إذ أنها بدأت عندما زارني ضابط أمن الفلوجة قبل ستة أشهرتقريبا من تاريخ تلك الأمسية، وأذكر أن اسمه «هانئ»، دخل المدرسة بسيارة الخوف[1] وليته ما فعل، ثم يمم وجهه صوب غرفتي، ففتح عليٌّ الباب قبل الدوام بدقائق معدودات، وطلب منى مقابلة المعاون الفني «علي حسين»، فأخبرته أنه من سكّان بغداد، وعليه أن يمسح، كل يوم، تلك الصحراء بين المدينتين، ويتعطر بغبارها الأحمر، وعجبت من طلبه؛ لأني لا أعلم عن علي هذا إلا الخير، وأن زيارة أحد ضباط الأمن لنا يعني – في الأقل – الموت لأحدنا، وعقّبت قائلا: هو حتما في طريقه إلينا. وفاتني تماما أن أصرف وجهته بكذبة لابدَّ منها، كأن أدّعي أن «عليا» مجاز هذا اليوم، ولكن ما قدر الله كان، فجلس هانئ في مكتبي وأخذ يراقب حركاتي بذكاء، وكان عليّ أن أتفقد المدرسين والطلبة في الدقائق الأولى من بدء الدوام، والتمس «هانئ» أن يرافقني في جولتي التفقدية، وصار من المستحيل أن أعمل شيئا ما لإيقاف ما رسمه ضابط الأمن – أعني، تغيير وجهة علي –، فالأجهزة الخلوية لم تكن معروفة في ذلك العهد، لذا فإرسال رسالة إليه مستحيلة. وقد عرفنا «عليا» من خيرة الشباب كرما ووفاء، وهو أخي ومساعدي وأحببت فيه المروءة، وأكبرت فيه الصدق، وعظّمت فيه تأليف قلوب الطلبة وردهم عن الزيغ، فكان مثالا للمدرسين، وقائدا للتلاميذ، وملاذا للهائمين منهم في الدروب الصعبة، ولم ألتق عليا بعد ذلك اليوم.

---

(١) كنا نطلق هذا الاسم على سيارة شرطة الأمن في وقتها.

والآن، وقد علمت برحيل علي عنّا، فيجب أن نأكل الصمت، ونشرب الصبر، فرحيله ليس لغيرنا أكثر من خبر لم ينشر في صحيفة، تلك الصحف التي يتم بها تنظيف زجاج النوافذ. فكيف لي أن أخطو ولو خطوة واحدة تجعلني أشعر أني قمت بأبسط الواجبات؟ لكن التعليمات الصارمة تقضي بعدم زيارة عائلات من نُفِّذ في أحد أفرادها حكم الإعدام؟ وكيف لي أن ألوذ بالصمت فإنه لا محالة قاتلي؟ فأمه تلك التي تنظر بقلب مكسور إلى من يواسيها في ريحانة عمرها، ونور بصرها، وعساها تعرف صرامة التعاليم، وهل لأخواته إدراك خطورة المتابعة؟ واستشرت كثيرًا من الصحب في زيارة والدته فوجدتهم لي ناصحين بعدم المغامرة، لا بل ذهب عدد منهم بالوعيد خوفا من مكروه يصيبهم إذا ما تجرأت على عمل أحمق كالذي أستشيرهم فيه، وعند تسجيل هذه الخواطر تذكرت سخريتي التي لم تكن في محلها عندما زرت في جولتي التفتيشية إحدى المدارس الصناعية عام ١٩٨٥ وكان معي وقتها المفتش الأقدم «غانم أيوب سرسم» الذي أخبرني مسبقا بقصة المدير الذي سنزوره، حيث قال لي غانم: هل تعلم أنك سوف تزور مديرا كان سببا في إعدام أخيه، على قاعدة: (انج سعد فقد هلك سعيد)؟؟ وأخذت أردد:

أرى كلُّنا يبغي الحياة لنفسه حريصا عليها مستهاما بها حبّا فحب

الجبان النفس أورثه التقى وحب الشجاع النفس أورثه الحربا[(١)]

وعندما كانت «أم علي» تهاتفني وتسألني عن مصير ولدها لَمْ أكن أعرف ما أصنع من مبادرة لتهدأتها، فصناعة قوارب مثل تلك المبادرة ورفع أشرعتها يحتاج إلى حيلة وشجاعة، فالهواتف تحت المراقبة. ثم تجدني أرجع لأقول: وما عساني أن أفعل للطلبة الذين أحبوا عليًا وأداموا السؤال عنه؟ والعيون مبثوثة، وما الحيلة التي بها أعلل النفس بالصمت وأجملّها بالصبر؟ ولعينيَّ اللتين ما انفكتا تمطران الدموع على آثاره التي

(١) البيتان للمتنبي من قصيدة مطولة يمدح بها سيف الدولة الحمداني، ويذكر بناء «مرعش» سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة مطلعها:

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسم من لم يدع لنا فؤادًا لعرفان الرسوم ولا لبّا

لم تتحرك عن أماكنها، فهي بانتظار قدومه لتمشي معه؟ وماذا أنا فاعل إزاء اتهامي من قبل الحزبيين أني أعتمد في عملي على رجل مثل «علي» وها هو قد أعدم؟ وهي شهادة أنه خائن للقائد. وابل من الأسئلة تمطرني سهامها، ثم ما ألبث أن أجد الكلمات تنتحر عند بوابات الإجابة، فهي ليست سهلة؛ لأننا أصبحنا نخاف أن نسأل أنفسنا عنها. وهكذا رحل «عليٌّ» بصمت رهيب، فجدران الصمت كانت عالية، وأبوابه موصدة، وأفواه الشهود مكممة، تتوجه صوب رؤوسهم البنادق إذا ما أومأت، أو تحركت، فالألسنة متيبسة، والقلوب واجفة، وكل شيء في المحيط متصلب أزرق لا حياة فيه، حتى تشييع الجنائز، أصبح هنا كما تُرمى علب التبغ الفارغة القديمة في أماكن القمامة، فهي مختصرة لا تتطلب الصلاة، فالصلاة ملغية في مذهب الدولة، أما المشي وراء جنازة «عليّ» فمعناه عصيان مسلح، فهو ممنوع وإن لم ينص عليه القانون.

وفي صباح يوم بعد عودتي من الاتحاد السوفيتي مباشرة اضطرتني بنت السماء[١] التي أحبتنا دون غيرنا ًأن أسدل الستائر التي عن يساري، وصورة «القائد الفذ» عن يميني تغطي كامل جدار الغرفة التي علينا أن نعتني بها، فهي أهم لازم في التربية والتعليم، وهي رمز الولاء، وضمان المعاش، والتعويذة التي تطرد الخبائث، وتجلب الحظ السعيد. وفي غفلة وجدت نفسي مطرقا في المصائب والنوائب التي من حبها لنا أصبحت مثل زائرة (حمى) المتنبي لا يحلو لها مفارقة عظامه:

وزائرتي كأن بها حياءً   فليس تزور إلا في الظلامِ
فرشت لها المطارف والحشايا   فعافتها ونامت في عظامي

(١) بنت السماء هي الشمس، وقد تعارف الناس على مثيل هذا التعبير فقالوا: بنات الصدر للهموم، وبنات العين للدموع، وبنات الماء: لكل ما يألف الماء من السمك والطير والضفادع، وبنات الفلا: للأبل، وبنات القفر: للوحش، وبنات وردان: للدويبات التي تلزم الكنف وتكون كريهة الرائحة، وبنات الخدور: للعذارى، وبنت اليمن: للقهوة، وبنت الشفة: للكلمة، وبنات الدهر: للمصائب والشدائد، وبنات رباط: للخيل، وبنات السحاب للبرد، وبنات شحاج: للبغال، وبنات صعدة: للحمر الأهلية، وبنات الليل: للأحلام والأهوال، وبنت الأرض: للحصاة، وبنت أدحية: للنعامة، وبنت الجبل: للصدى وقيل للحية التي لا تجيب الراقي، وبنت الحية: للأفعى، وبنت الفكرة: للرأي، وبنات الشفاه: للكلمات، وكنى أخرى كثيرة تنظوي تحت هذا الباب مما تعورف عليه. ارجع في ذلك إلى«فقه اللغة» للثعالبي.

والمتتبع لذلك الزمن يعلم أنني قد أنهيت، توًّا، سرد تجربة مقيتة، تلك التي أرّقتنا وأوصدت الأبواب بوجه سعادتنا، فها نحن لم ننفض عنّا بعدُ التراب الذي ووري به «عليّ» رحمه اللّه، وما إن أفقت من تلك الغفلة – حيث وجد الشيطان لوساوسه مكمنا– حتى آمنت أن عليا قد انتقل إلى خير جوار:

جاورت أعدائي وجاور ربه　　　　شتان بين جواره وجواري(١)

وبعد دقائق معدودات عدت لمراجعة بريدي الذي ينتظرني، وبنشاط كنت محسودا عليه، وإذا البوّاب يدخل عليّ، وقد فرغت يداه هذه المرة من كوب الشاي الصباحي الساخن الذي اعتاد على تقديمه لي كل صباح، مع ابتسامة الوالد عندما يرى صباحا آخر قد أنعم اللّه به ليلتقي ولده (هكذا كان يصفني أبو كريم)، فقد دخل هذه المرة بوجه الخائف المتردد. إذن ثمّة أمر خطير وربما شرٌّ مستطير لا يَسُر، وعلى الفور سألته: ما وراءك يا أبا كريم؟ فاقترب مني واجما ينظر، وألصق بأطراف أصابع يديه على حافة مكتبي، ثم أخذ يضغط عليها قَدْرَ استطاعة رجل الستين، حتى سمعت فرقعتها، ثم ما لبث يحدّق ويتفرّس في وجهي كأنه نسي وجهي، وحسبت أن حاجة مُلحة وصعبة المنال تتلجلج في صدره، إذ شهد أبو كريم ذلك الرجل الذي قام على خدمتي سنينا عدة عددا من الذين وقفوا أمامي وقد مستهم الضراء، وكشّرت بوجوههم البأساء، وأبو كريم يعرف أن المدير لم يكن في

---

(١) البيت من قصيدة طويلة لأبي الحسن التهامي قالها في رثاء ابنه، وقد عُدت من عيون قصائد الرثاء والحكمه. والشاعر أبو الحسن التهامي هوعلي بن محمد بن فهد، أبو الحسن التهامي الشاعر. وهو من الشعراء المجيدين. مولده ومنشؤه باليمن، وطرأ على الشام وسافر منها، إلى العراق وإلى الجبل، ولقي الصاحب بن عبَّاد، وقرأ عليه، وانتحل مذهب الاعتزال، وأقام ببغداد، وروى بها شعره، ثمَّ عاد إلى الشام، وتنقَّل في بلادها، وتقلَّد الخطابة بالرّملة، وتزوَّج بها. وكانت نفسه تحدّثه بمعالي الأمور، وكان يكتم نَسَبَه، فيقول تارةً إنَّه من الطالبيِّين، وتارةً من بني أميَّة. وكان متورِّعاً، صَلِفَ النفس، متقشِّفاً، يطلب الشيء من وجهه، ولا يريده إلاَّ من حِلِّه. نسخ شعر البحتري، فلما بلغ أبياتاً فيها هجوٌ امتنع من كتبها، وقال: لا أُسطِّر بخطِّي مثالبَ الناس. وكان قد وصل إلى الديار المصرية مستخفياً، ومعه كتبٌ كثيرة من حسَّان بن مفرّج بن دغفل البدوي، وهو متوجِّه إلى بني قُرَّة، فظفروا به، فقال: أنا من تميم؛ فلمَّا انكشف حاله عُلم أنه التهامي الشاعر، فاعتُقل بخزانة البنود بالقاهرة لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست عشرة وأربع مائة للهجرة. ثمَّ قُتل سرًّا في سجنه، تاسع جمادى الأولى من السنة المذكورة. وكان أصفر اللون. ومطلع القصيدة:

حكم المنيّة في البريّة جارِ　　　　ما هذه الدنيا بدار قرار

مقدوره تسهيلها أو تذليلها، ولكن لسان المدير لم يكن ليطاوع رد سائل منهم، فقاموسه لا يتضمن مفردة (آسف أشد الأسف، فطلبك فوق قدرتي أو خارج حدود إمكانيتي). إذن كيف وهذا أبو كريم الذي له تقديره الخاص في قلب مديره، فهو أمين سره، وموضع ثقته، ومكان عطفه وإحسانه؟ ولاسيما وأنه رجل قد عضّه ناب الزمن الناشب، واستحكم الفقر على ذات يده، وتخلّى عنه الولد والأهل، فهو لهذا وذاك ظل يعمل رغم كِبَر سنِّه، واشتداد مرضه، فقوانين بلداننا لا ترعى الشيب الذي علاه، أو تدفع الغائلة التي أنشبت فيه أظفارها، لكنه مع كل ذلك يعلم أن المدير قابل بالأمس رجلا من معارفه البسطاء، وقدّم خمسا من أولاده حطبًا لنار حرب الخليج الأولى التي يبدو أنها لم تعد تشبع؛ وتسأل العراقيين: هل من مزيد؟ لكنّ أبا كريم يحمل على ما يبدو خبرا يخشى منه على قلب المدير أن ينخلع، وعلى كبده أن تتفطّر، ولم ينبس أبو كريم بكلمة واحدة، فاستدار وكأنه أذعن لهواجسه، فسلامة المدير هي الأهم عنده، ثم التفت وراءه ليرى المدير يلحظه، ثم تمتم بكلمة: لكن يا أستاذ هذا المدرس الشاب «علاء» الذي أحببته أنت وأحبه الناس... فقلت: ما به يا عم؟ فإذا بدموعه تنسكب، وفرائصه ترتعش، ففهمت، على الفور، كل شيء. فقد أصيب علاء الضابط المجند في جبهات القتال، أليس كذلك؟ فقال محشرجا لا، بل إن جنازته في مدخل المدرسة، ووالده - الذي قرر أن يطوّف جنازته على قاعات الدرس التي غادرها قبل ثلاثة أشهر - واقف ينتظر الأذن بالدخول، ماذا تقول يا أبا كريم؟ «علاء فليّح» نفسه؟ (إنا لله وإنا إليه راجعون) و(لا حول ولا قوة إلا بالله). وما استفقت إلا ونفسي تتساقط على أيدي زملائي المدرسين وحشد من الطلبة المحبين، إذ تحلّق الجميع حولي، وتعالى نشيج بعضهم، وتماسك الآخرون، فيما راح جمع منهم التخفيف والتشجيع؛ لأكون محتسبا، وكأني نسيت كل تلك النصائح التي كنت ألقيها على مسامعهم، وحاولت أن أتمالك نفسي بعد أن رأيت والد علاء رغم فداحة المصاب وهول الموقف وصعوبة الفاجعة يقف هو الآخر إلى جانبهم يشجعني، ويُرّبِت على كتفي، ويرجوني الصبر مع أن نياط قلبه مقطعة، فحق لي أن أهتف (الله أكبر، هذه هي الشجاعة). وما هي إلا لحظات وإذا بنعش

علاء يدخل المدرسة، ويسجّى في وسط الساحة، وقد لُف بعلم العراق قبل أن تضاف إليه كلمة (الله أكبر) وقبل أن ترفع منه النجوم الثلاث، وإذا المدرسون والمدرسات يتقدمون صفوف فصولهم، وإذا العلم يُنكس حدادا، وإذا المذياع يُقرّب منيّ، ويتقدم المعاون الفني ليقدمني للنعي: وما دريت – وما عساني أدري – ماذا قلت في تلك الساعة، وقلبي أصبح لا يتوقف عن الخفقان، لكني شاهدت الجميع قد أمطروا أقدامهم دموعا، وأصبح نشيجهم ترنيمة حزن، وكنت أحس بالألم يعصر فؤادي، أما والد «علاء» فخشيت أن ينفجر فيتبدد حطاما يملأ المكان، فحِمام الموت تقصّد أوسط صبيته كما تقصّد وَلَدَ ابن الرومي الشاعر، وانتزع من العقد درته، فقد أنِسَ من فعال ابنه علاء كما أنسناها، وشممنا منه مخايل الرجولة، ولقد طواه الردى عنّا ولا يزال في ريعان الشباب، فالسنون ما بين مهده ولحده قليلة، وهو لم ينس بَعْدُ عهد المهد عندما ضمه اللحد، وآخر عهده في سوح القتال أن النزف قد ألح عليه حتى أحاله «إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد»، وظلت نفسه الطيبة تتساقط على أيدي إخوانه الجنود، وذوت كما «يذوي القضيب[١] من الرند[٢]»، فلقد أخلفت الآمال كل العهود التي قطعتْها لوالده، وقد طواه الردى فأضحى مزاره «بعيدا على قرب قريبا على بعد»، فيا لك من نفس تساقط أنفسا تساقط الدّر من عِقد بلا نظام، فسيذكرك والدك ياعلاء ما عاش، وسوف لا يلهيه يا علاء عنك كل أخوانك، فإن حنين الوالد أشد من حنين النوق[٣] إلى فقيدها. ووجدت نفسي وأنا أنثر درر قصيدة ابن الرومي على الحضور قد عملت مأتما عظيما أظن أني تجاوزت فيه حدود الشرع، إذ وقعت منهم – على ما يبدو – موقعا قاتلا، وأخشى ما أخشاه أن أكون النادبة التي نهانا الشرع عنها، ثم أنهيت كلمتي بمطالع القصيدة ولا أذكر إن كنت قرأتها على الترتيب:

---

(١) القضيب هو العود من القسي (لسان العرب لابن منظور).

(٢) الرند: قيل الآس وهو عود طيب الرائحة ويستاك به. وقال أبو عبيد: ربما سمّوا عود الطيب الذي يتبخر به رندا (لسان العرب لابن منظور).

(٣) مفردها ناقة: وهي الأنثى من الإبل، ولا تسمى ناقة حتى تجذع. ومن جموعها ناق، ونوق، ونياق، وأنوق، وأنيق.

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي فجودا فقد أودى نظيركما عندي

ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب على عمد

توخى حمام الموت أوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العِقد[١]

فالشهادة أصبحت طريق الجميع، فعليٌّ استشهد بطلب من النظام، وعلاءٌ اُستشهد بأمر النظام، وسيستشهد العراق كله، فالموت أصبح هدية للجميع. فهل، يا ترى، أذاقتنا هذه الدنيا من حلاوتها أو أرضعتنا من دُرّها كما يظن بعضهم؟ وإنْ كانت كذلك فهل دام لنا ظلها الوارف، وماؤها الفرات؟ أم أنها نفرت بنا جامحة، وأنكرتنا مولّية، ثم ما لبثت أن «انهالت علينا بسهامها مدبرة»[٢]، ولم تكتفي بذلك بل لفظت من ذكرتُ من الشباب، وستلفظنا كما تلفظ أمواج البحر أخشاب السفن المحطمة، لا بل قرصت عليهم وعلينا بأظفارها، وعضّت عليهم وعلينا بأنيابها، وباعدت بينا وبينهم، فغيّرت الوحدة فرقة، والأمن خوفا، والغنى فقرا، والحرية عبودية، والعز ذلا، والنفط نقمة.

وما زالت محرقة الخليج الأولى التي بدأ أوارها منذ عام ألف وتسعمائة وواحد وثمانين من القرن الماضي مستمرة، ولا يعوزها سوى المزيد من الوقود، وأصبح الشباب ينأون بالنفوس والمهج عن خطوط التماس المباشر، وخطوط الإمدادات من البشر بأمر الدولة يجب أن تظل عامرة باتجاه الجبهات، والحاويات التي تنقل جثث القتلى المنتشلة من ساحات القتال يجب أن تعود مليئة بالمقاتلين لنشرهم على جبهات القتال، والدولة تفرض على الجميع المشاركة، وشعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» يقضي على كاتب هذه السطور والطاقم الإداري من المساعدين له أن يثبتوا بشكل عملي ولاءهم للنظام، فلا توجد منطقة وسطى ما بين الجنة والنار[٣]، فإنك إن لم تكن مع النظام فأنت في خندق

---

(١) من قصيدة طويلة لابن الرومي الشاعر العباسي يرثي بها ابنه الأوسط.

(٢) من رسالة عبدالحميد الكاتب إلى أهله وكان متخفيا مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة (بتصرف).

(٣) توجد في الواقع منطقة وسطى بين الجنة والنار فيما سمّاها القران الكريم الأعراف، وسيقضي الله الأمر بمصير أصحابها، وفي الجملة إشارة لأبيات الشاعر نزار قباني من قصيدته «إني خيّرتك فاختاري....».

الضد. فالجبهات تحتاج إلى دماء جديدة، وأهل التربية دماؤهم أفضل الدماء مناعة، وأبخسها ثمنا، فالحزب الواحد يرى ضرورة دفعها إلى خطوط المواجهة قبل غيرها، عندها صارت الفرصة سانحة لدفع لجان التفتيش إلى المؤسسة التربوية التي تفانينا في خدمتها، فنزلوا كأسراب الجراد، لا يعرفون الكتابة ويجهلون القراءة، فصارت عندهم أعلى شهادة يحملونها: الولاء والطاعة للحزب القائد، مهمتها أن تأكل الأوراق التي كتبناها، وتمضغ الصور التي التقطناها، ولقد أتوا على أسلوب التمدن والحرية فمحوه، وقضوا بمعاولهم على بيئة التعاون والأُلفة التي اجتهدنا في خلقها. جاءوا ليفتشوا - صحبة مخبريهم وعيونهم - عن كلمة حب نقشناها في دفاتر أشعارنا، أو مفردة ودٍّ وإخلاص سطّرناها في سجل شرف أعمالنا، فهم يغارون على الوطن مِنْ أن يظل واحد فيه يعرف استعمال القاموس، ويعجبون ممن يستخرج معاني الكلمات، فهمّهم الأول أن نقرأ أبجدية الحزب، وأن نملأ جيوبنا من شعاراته، فهي الشعائر التي تعصم الدماء، وتُطعم الطعام، وتغفر الزّلات، وتُصرف بناءً عليها المعاشات، وبسبب ولادة القائد تغيّر المناخ، وما على الناس إلا أن تأكل الجُمَل الهمجية التي تحملها اللافتات عندما يشعرون بجوع البطون.

وفعلا ركبنا أمواجها بعد أن فوضنا الأمر لله، واتجهت بنا حافلات نقل الجنود نحو شمال العراق، إذ استلزم وجودنا هناك - هكذا قالوا لنا-، ولا أحد منا يعلم لماذا شمال العراق، ولكن يبدو أن الحزب صمم على أن نحفظ للحزب شعاره (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) ولقد أقسم الحزبيون على تعليقه ونشر لافتاته في كل زاوية وكل شارع، وقسَمهم لم يستثن القرى ورؤوس الجبال رغم أن معظم الناس هنا فضلا عن أنهم لا يتكلمون العربية فهم لا يحسنون قراءتها، كما أننا لا ندري أن «ربايانا»[1] قد لُغّمت جوانبها إلابعد ساعة من وصولنا حيث تفجرت قنابلها بقطيع يعود للفلاحين المساكين مخلفة ثلاثين من أبقارهم وقد تناثرت أشلاؤها، وكأن ما جرى تظاهرة بالذخيرة الحية للترحيب بنا، أو فعاليّة لتطعيمنا ضد الخوف تقوم بها عادة الدول لتطعيم سكانها قبل بدء المعارك.

(١) الربايا جمع ربيِّة وهو مصطلح يستعمل في جيش العراق يطلق على مقر الخلية من الجنود وفي الغالب تكون محصنة.

والمفارقة أن عددنا كان اثنى عشر مقاتلا ما يذكر أحدنا أنه قَتَل في حياته دجاجة ولا حمل سكينا، ولا عانق بندقية، وكان علينا أن نتشارك تلك «الربيِّة» الصغيرة مع سعداء الحظ من الذين أنهوا المهمة دون خسائر، فأشرت على من معي أن نصلي المغرب مع الفلاحين الكُرد مع أني كنت مأمورا ولست آمرًا، وعندما أنهينا الصلاة قرأت في عيون الفلاحين الطيبين الكثير، فقررت أن أقضي ليلتي معهم واستحسن الأخوَة أن يشاركوني تلك الرُغيبة[1]، وكنت والحمد لله مطمئنا من عدم خيانة الكرد لنا، فقد أكلنا سوية وجمعتنا أكثر من صلاة جماعة، وأغلب ظني أنهم عرفوا أننا مجبورون على أن نطأ جبلهم بأحذيتنا العسكرية.

وفي اليوم التالي دخلنا في الربيِّة المخصصة بعد انسحاب المجموعة القديمة، وبعد أن أرسلت الشمس أول خيوطها وإذا بالأخوة الأكراد ينادوننا أنهم قد جهّزوا فطورنا، وما علينا إلا استلامه، فشعرنا بالدعة، وأصبح الأخوة الأكراد يزودننا بالخبز الطازج واللبن الطبيعي، وصرنا نرسل لهم الأرزاق التي نستلمها من آمرية القاطع، ولم يمض غير أسبوع على وجودنا حتى قُدِّمنا للتحقيق من قبل آمرية قيادة الجيش الشعبي، والتهمة كلها أننا عرّضنا الوطن للخطر، فهم لا يرغبون بمثل هذه العلاقة الطيبة من أن تنمو وتزدهر، فلغة العنف والكراهية هي اللغة الوحيدة التي يفهمها العسكر في وقت لا يريدون الاعتراف أننا لسنا من طائفة العسكر، فهم لا يفقهون لغة الأُلفة والسلام، فكلمة الحب وأخواتها سقطت من قواميسهم. وكان جواب قيادة الكرد سريعا، إذْ اختطفوا معاون آمر القاطع، وصلموا أذنه[2]، ووجدناها ملصقة على باب سيارته، وبعد يومين تركوا جثته لهوام الطير والحيوانات المفترسة تنهشها، فما الذي يدور هنا بالضبط؟ إنها لعبة الموت، وهي لعبة ما عهدناها نحن من قبل.

---

(١) الرُغيبة تصغير رغْبة.

(٢) يقال: جَدَع أنفه وصلم أذنه.

وللأنصاف فسأقدم صورة أخرى قد تفيد في تبرئة قسم أو شريحة من شرائحهم، أعني الشريحة الحزبية، فهم ليسوا سواء، فمنهم البريء بل المظلوم، ومنهم من يستحق المساعدة، ذلك أن كثيرا منهم يخاف التراجع بعد أن غُرر به وأُجبر بعضهم ترغيبا أو ترهيبا، فهذا «أبو أحمد» كان أحد أعضاء شعبة في الحزب وهي درجة عالية في التنظيم الحزبي الحاكم، جاءني ذات مرة إلى مكتبي يحمل على ظهره هموم الفقر، ويكتم في صدره ألم الجور، جاءني يحمل معه بجانب الكلاشنكوف الروسية الصنع شهادة الدراسة الابتدائية، جاء والحياء يغطيه، فقد ربّاه والده على ذلك الخلق، وإن كانت تعليمات الوالد صارمة بعض الشيء فقسوته مشهودة لكنها غير معهودة، وشقيق، «أبي أحمد»، هذا هو أحد أعز أصدقائي. جاءني وهو غير متأكد من أنني سوف أقوم بحل مشكلته لكنه من باب طَرْق الأبواب، فهو بلا ريب على علم مسبق أني من الذين لم يأنسهم الحزب يوما ولم يكن الحزب ليؤنسني لحظة. أما هو فقد سئم الحزبيين ومواعيدهم في حل مشكلته، وبعد أن حييته، وشكرت له زيارته لي، ارتسمت على شفتيه رجفات سريعة وخفيفة، فهو متردد في طلب حاجته، خجلٌ حيث يتوقع اعتذاري، وعندها ربما يخسرني، وبعد أن بدأت الحديث معه بمزحتين خفيفتين تولدت عنده الشجاعة للإفصاح عن سر زيارته، فقد آن الأوان أن يتمتع بالشجاعة، وفعلا فعل، فأشار بأن لديه مظلمة في إحدى دوائر التأمين والضمان الاجتماعي، ويبدو أنها كانت عسيرة للغاية وقد انتظر لسنتين دون حل لها. ولأني أعرف تربية والده البيتية التي لا تسمح له في أن يغش، ومع أني مقتنع بضرورة مساعدته لكني أعلم أنني لن أنفعه كثيرا بقدر ما ربما أتسبب في زيادة تعقيد المسألة بسبب موقفي من الحزب أو موقف الحزب منّي، ولا سيما أنني - وقد تسربت الأخبار - رفضت الانتماء إليه وفي محفل عام. وذكّرته بتلك الحادثة التي كانت حديث الساعة يومها في عدة محافل، لكنّه قال لي أن مدير دائرة الضمان الاجتماعي يحترمك ويقدرك كثيرا، وقد شجعتني هذه المقولة؛ لكنّي قلت في نفسي ربما ظن ذلك الأخ أن مكانتي عالية في الحزب والدولة مستندا في ظنّه إلى المنصب الإداري الذي أشغله، إذن أنا في نظره صاحب حظوة ومكانة. فعليّ

الآن أن أدخل في مرحلة من العصف الذهني لعلي أجد مخرجا، فلم يعد الزمان يجود بمثل عمرو بن العاص، أو المغيرة بن شعبة أو معاوية بن أبي سفيان أو زياد ابن أبيه، وهم ممن أُطلق عليهم لقب دهاة العرب. فقلت له عليك أن تجهز نفسك غدا باكرا وأن ترتدي بزة الجيش الشعبي الرسمية، وأن تحمل الكلاشنكوف، وفعلا وجدته قد نفذ الأوامر، وأحسن الخطة، وجلب العدة. ومع الساعات الأولى اصطحبته معي نحو مدينة الرمادي حيث موقع الدائرة، وعند وصولنا وقبل ترجّلنا من السيارة طلبت إليه أن يدخل حاملا سلاحه ومتوشحا أوسمته، ماشيا خلفي، وقد أشرت عليه أن لا يجلس إلا بعد توجيه الإشارة إليه، وفعلا أحسن تنفيذ الخطة، وقام المدير مرحبا بمقدمي عند الدخول، والحمد لله وجدته يتذكر اسمي، وكنيتي وفوق ذلك لقبي، وأشار علينا بالجلوس، فبادرت مشيرا على صاحبي بالجلوس معقبا: إن المسألة مسألتك وأن الأخ المدير سوف لا يألو جهدا في أن يكلل زيارتنا بالنجاح. وعلى الفور ارتشفنا أقداحا من الشاي العراقي الثقيل ورغم أنه قد حُليّ بالسكر، فقد نزل على معدتي كأنه أحد الحوامض التي تستعمل في مخابر الكيمياء، وأخذت معدتي تحدثني معاتبة وعُودي بتركه حيث القرح والنُدب التي طرزت جدرانها، وشوهت قناتها. ويظهر أن المدير قد أدرك بحمد الله وتوفيقه وبعجالة أهمية الزائر، ولا ألومه في ذلك، إذ جاء الضيف يرافقه عضو شعبة الحزب، والأخير قد تنكب سلاحه، وأبدى اهتمامه. عندها تنحنح المدير قائلا: أستاذ سترجعون بالذي جئتم من أجله. فأجبته: وخير البر عاجله. وما هي إلا لحظات وملف القضية بغلافه الوردي بين يدي السيد المدير وهو يهمّ بالبحث عن قلم بين الأوراق التي ازدحمت على مكتبه، وبعد أن وجد الأمر عسيرا، أدخل يده في جيبه ليستل منه قلما قد ادخره لمثل هذه اللحظات، وما هي إلا دقيقة أو بعضها خصصها لمراجعة الملف وإذا بمداد قلمه يسيل على أصل المعاملة بالموافقة، ورجعنا قافلين - وقد حققنا بغيتنا - من حيث أتينا بفضل من الله وتوفيقه.

وعَودًا إلى عنوان المحطة «لابد أن تكون مديرًا»، وبعد هذه التوطئة وإن شطحت بنا ذكريات الماضي للإطالة والإسهاب فيها إلى حَدٍ ما، فلا بد أن أشير إلى موضوع اعتقده

مهما ويمكن وضعه تحت عنوان « دكتاتورية المدير» الذي أراه من أكبر العقبات التي ربما تتسبب في فشل التقدم في المجال التربوي، وقد أكون مضطرا لاختصار المقدمات والدخول في النتائج قائلا: إن أخوف ما أخاف منه أن تنتقل عدوى دكتاتورية المدير إلى زملائه المدرسين، إما حبا في التقليد – من باب تقليد المغلوب للغالب – أو رغبة في الثأر لما أصابهم من حيف وظلم من صاحبهم – أعني المدير –، على قاعدة من يقول:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد   ذا عفة فلعلة لا يظلم(١)

وهم بهذا يحاولون تبرئة ساحاتهم من كل علة، والمدير بهذا سيخلق أو سيزرع السلوك المتسلط «الدكتاتوري» ودون أدنى دراية منه في عشرين من مدرّسيه، والمدرسون بدورهم – وهنا المحذور الأكبر والخطر الأدهى – سينقلون مرضهم السلوكي إلى طلبتهم الذين ربما يتبادر إلى أذهانهم أن سلوك مدرسيهم هو السلوك المرغوب، أو على الأقل هو الاتجاه المطلوب، أو ذلك الاتجاه الذي لا منقصة فيه، عندها تكون الكارثة قد أزهقت أرواح أخلاق الجميع. ويأتي زعمي هذا وإن صرّح بعض زملائنا بأن الإدارة «الدكتاتورية» تلك التي تتميز بالحزم لها قائمة عريضة وطويلة من الفوائد وأن عيبها الوحيد – في نظر بعضهم – أنها تفتقد إلى الجانب الإنساني، مع أني لا زالت مقتنعا القناعة تمامها بأن ذلك الأسلوب غير الشوري قد جرّنا بويلاته إلى المهالك. وكنت لا أخفي ذلك على أحد ولا سيما زملائي التربويون. وأعتقد أن ذلك السلوك الذي يتنامى بالتدريج دون أن يشعر به صاحبه كان حكرا على الزملاء من مدراء المدارس والقطاعات التربوية في العالم الثالث حيث أفنيت نصف عمري التربوي فيه، لكني كشفت أنه مرض خُلقي لا تحده حدود، فهو لا يقتصر على دولة دون أخرى لكن كل ما في الأمر ربما يزيد عندنا لارتباط ذلك السلوك في غالب

---

(١) البيت من قصيدة هجاء للمتنبي يهجو بها إسحاق بن إبراهيم الأعور ابن كيغلغ ومطلع القصيدة:

لهوى النفوس سريرة لا تعلم   عرضا نظرت وخلت أني أسلم

وفيها من أبيات الحكمة الكثير ومنها:

والهم يخترم الجسيم نحافة   ويشيب ناحية الصبي ويهرم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

الأحيان بالكِبْر الذي يدب في ابن آدم دبيب النمل، أو لأن الوظيفة لبعضنا هي كل شيء في الحياة، فالحياة في منظورنا للوظيفة، بينما هي في ديار الغرب للحياة، ولعلي لا أصل في ذلك إلى درجة التعميم.

وأول «دكتاتور» وليس «دكتور» عملت معه - ليس«هتلر» بل خلت أنه المدير الذي عملت معه في نهاية الستينيات من القرن الماضي وهو أول مدير لي - مع أني لم أقض معه غير سنة دراسية، تلك السنة التي كانت بمثابة ضريبة يجب أن يدفعها كل موظف جديد يبدأ حياته الوظيفية التدريسية. وكنت لا أكاد أصدق أن ذلك المدير كان يعتقد أن هزة أرضية ستصيب المنطقة، إذا ما اضطره أحد المدرسين لإجراء تعديل بسيط في جدول دروسه الأسبوعي وهو طلب يمثل أبسط حق من حقوق المدرس على مديره، وإذا ما استجاب المدير فإنه سيريح آلة التدريس الأساسية - أعني المدرس -. وبعد أن طوى الزمن صفحات مساحاتها من السنين أكثر من ثلاثة عقود في العمل التربوي، تلك المدة التي تفصل بين يوم كنت في الإدارة مديرا إلى أن أصبحت في الإدارة مدارا، حين رجعت أدراجي إلى لندن لأصبح في الصف الثاني في الإدارة[1]، وكنت أحسب أني بعد تلك المدة قد نضجت تربويا وإداريا، وتوقعت أن موسم الحصاد للنضج التربوي قد حان، وتمنيت أن أشتغل مع أصحاب التجارب من الغربيين من أجل مزواجة الخبرات وتبادل المعلومات، وفعلا تم ذلك في لندن عندما قلدنا صاحب العينين الزرقاوين الإدارة، وقد جاءنا من وراء البحار حيث تغرب الشمس في الأرض الجديدة، وكنا نحسب أنه سيرينا من عجائبه - أعني تجاربه الكبرى - تلك التجارب التي حدثني عنها عندما جمع بيني وبينه مؤتمر دولي لأحدى المنظمات التربوية العالمية في أثينا، لكننا اكتشفنا أنه يتبنى المأساة نفسها التي تبناها زميلنا المدير العربي زمن الستينيات في معالجة التحديات المماثلة، والفارق أن الأول أعني العربي كان يقضم أضفار أصابعه عندما يبرّر رفضه طلب أحد مدرسيه خجلا،

(١) رغم محاولاتي الحثيثة للتخلص من ذلك القميص الذي أُلبِستُه دون رغبة مني، خشية عدم استطاعتي قيادة هوى نفسي والذي رمى كثيرًا من الزملاء في أحضان ذلك الداء العضال - أعني دكتاتورية المدير.

فيما يذهب الأخير – الأمريكي – للإجابة بغمزة عين رافضة، ولمزة لسان ساخرة. وقد كنا نتوسم فيه الخير بعد ما ضِقْنا ذرعا للفشل الإداري من قبل أبناء جلدتنا، لكن الأمريكي هذا جاء وقد نسي ديمقراطيته التي اشتهر أهله بها، لكنه لم ينس سروال «الجينز» الأزرق، الذي كنا نرى في ارتدائه داخل المبنى التربوي استهتارا بالأعراف والتقاليد المدرسية.

وحين استقدمنا ثلاثة أجيال منهم اكتشفنا أنهم جميعا من بلاد يجهل جُلّ أهلها مكاننا، ولا يعرفوننا إلا قوما «حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملةٍ وما عرفوا للبُرِّ مُذ خُلقوا طعما»[1]، وأننا – على ما يظنون – لا نزال في جيب من جيوب الربع الخالي نتمرغ على الرمال، نختنق إذا نمنا بين حيطان أربعة؛ لأن المكان المفضل لنا هو النوم على فوهات آبار البترول حراسا أمناء لشركاتهم، وهم مغرمون بنا؛ لأننا أكبر المودعين في مصارفهم، ولا نطلب مقابل ذلك غير كسرة خبز لأننا متقشفون، وما يجدون في التحدث إلينا من مشقة تُذكر لكثرة الوسطاء الذين يمكن لهم أن يفكوا رموز لغة القوم القديمة – أعني اللغة العربية –. ثم إنّ عدم الثقة بأنفسنا اضطرنا لأن نسلم مقاليد أمورنا لمن تجاوزت شجرته عمر العطاء من أصحاب زرق العيون سود الضمائر، فقد استقدمنا بعضهم مع أنه كان قد طلق العمل منذ ما يقرب عقدا من السنين حيث استكمل يومها الخدمة الكاملة، معترفا لبلده أن شجرته قد توقفت عن الإثمار، وأصبح خارج حدود الوفاء بمتطلبات العمل، لكنّ عقدة النقص مستحكمة في أبناء جلدتنا ولم تعد السيادة تروق لهم يوما من الأيام، فنحن صرنا نحب أن نكون مَسودين بعد أن كان أجدادنا البدو يعشقون الحرية ويأنفون الذل والخضوع، ونغرق حبا في بحر من يذلُنا. وزمن الأربعين عاما كافية لتغيير الجيل عند

(١) تصرفنا في بيت الشعر المشهور للحطيئة من قصيدته الرائعة التي تمثل فيها بكرم العربي الحاتمي ومطلع القصيدة:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل	ببيداء لم يعرف بها ساكن رسم
أخي جفوة فيه من الإنس وحشة	يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
وأفرد في شعب عجوزا إزاءها	ثلاثة أشباح تخالهم بهما
رأى شبحا وسط الظلام فراعه	فلما بدا ضيفا تسور واهتما
فقال ابنه لما رآه بحيرة	أيا أبت اذبحني ويسر له طعما
ولا تعتذر بالعدم عل الذي طرا	يظن لنا مالا فيوسعنا ذما

كل الأمم[1] إلا في أمتنا، فهي ملتزمة بأسمال الآباء الذين روضت طباعهم سنينُ القهر والحرمان في العصور المتأخرة.

وإذا رجعنا إلى البحوث التربوية التي أفرجت عن حقائق هامة تدعو إلى ضرورة العدول عن أسلوب الفوقية إلى نظام الإدارة «التشاركية» – إن جاز لى تسميتها أو ترجمتها كذلك –، فإنها رغم مصداقيتها لم تخل من تهكّم بعضهم عليها حيث وصفها الزميل التربوي «علي الخشيبان» عام ٢٠٠٨ قائلا: (أهم نجاحات البحوث التربوية لا تحققها مصانع إنتاج الورق فحسب بل تحققها البنوك أيضا فهي تستضيف أموالا من قيمة تكاليف أعمال ليست موجودة إلا في مصانع الورق) كناية عن عدم جدواها. فالبحوث التربوية ونتائجها في رأيه أكبر نكتة وإنه (يستطيع الضحك عليها عشرات المرات في اليوم والليلة)، وإني وإن كنت متفقاّ معه في بعضها إلا أن لي تحفظات على بعضها الآخر.

وفاتني أن أذكر لمن يهمه معرفة ذلك أني آثرت أن أكون بعيدا عن الصدارة في الإدارة ما أمكنني إلى ذلك سبيلا، فلم أتقدم في أي مؤسسة عملت بها لأتبوأ فيها كرسي إدارتها إلا في حال إجبار أصحاب الشأن لي، حيث يصير الأمر فوق طاقتي في الرفض أو القبول، أخذا بالقاعدة التي بُنيت عليها أحكام التولية في المناصب العامة، وهي قاعدة شرعية نستدل عليها بالقصة التي جرت لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه عندما سأل رسول الله – ﷺ – أن يوليه. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإني بحكم معرفتي فإني لم أسمع عن مدير حقيقي في قطاع التربية إلا عن الأستاذ «جعفر خياط» مدير عام التعليم المهني في الستينيات من القرن الماضي حين كان قراره نافذا وإن خالف فيه وزير التربية مرجعه الأعلى. فحال المدير حال من يكون بين نيران أطراف متعددة وسهامهم، والأمثلة كثيرة ولا حصر لها، ومن الأمثلة التي ما زالت تؤرقني هو طَلَبُ مسؤول الدائرة المركزية في العاصمة نقل إحدى المدرسات إلى بغداد، ولا أشك أنها من المدرسات المحظوظات؛ لأن في ذلك إخلاء مسؤوليتي من التوقيع على نقلها. وكان عليه لتنفيذ الخطة أن يرسل

(١) يخيل لي أن أوربا الحديثة هي الأخرى قد استفادت من تلك المدة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.

وفدًا من المفتشين إلينا، وكانوا طيلة زيارتهم يدندنون لنا حول موضوع نقل مدرسة من المدرسات التي لها أو لأحد معارفها كعب عال[١] في الدولة، فكان ردّي: أنني – وكما يعرف من يعرفني – لا أقف في طريق أحد من السعداء وهو متجه إلى بغيته، أو الأشقياء وهو يدفع عنه مظلمته، رغم أني كنت في أمَسّ الحاجة لتخصصها حيث سيترتب على نقلها ترك شاغر يدفع ثمنه الطلبة، وكنت كلما اقتربت من التوقيع على مذكرة تحمل معنى نقلها تذكرت الظلم وشرَّه، وكنت أرمي بالقلم جانبا، عندها أخذ المفتشون يقاسمونني[٢] إنهم لي لمن الناصحين، فاستعصمت من خططهم واستعذت من شر وسوستهم، مع أني لم استغش ثيابي، ولم أجعل أصابعي في أذنيّ، فكان قراري النهائي: عدم الموافقة، وقلت لنفسي المترددة: إنّ رئيس المؤسسة لا يزيد إن غضب عن أن يعفيني من إدارة المدرسة لمعرفته السابقة بمواقفي التي كان يذكرها لي، تلك الإدارة التي لم تثمر إلا عن الآلام، وأحسن زهراتها خضراء الدمن، وهي لا تغني ولا تسمن من جوع في نظري.

ورغم تلاحق الأحداث فإني أذكر هنا مختصرا ما أمكن ما وقع لي بعد مدة زادت على الثلاثين عاما من طلب – ربما – مماثل لمسؤول مماثل ملخصه: أنْ أوقّع على مذكرة ذات أثر رجعي شاء المدير أن يستعملها في الإضرار بزميل من زملاء العمل، وهو باب «تصفية الحسابات».

وتتزايد هموم المدير عندما يذهب مغاليا في دكتاتوريته ويتجرأ في عمل حلقات استخبارية يُشم من خلالها روائح العداء والكراهية. وعجبي يتعاظم حيال من ينضمّ إلى تلك الحلقات، أما دهشتي فتزداد لانضمام بعضهم طواعية متسابقين ليكونوا في الدائرة الأولى التي تحيط بالمدير، وأسوأ من كل ذلك أن يتغابى المدير عندما يعتقد أنه يستطيع شراء ضمائر العاملين بلا استثناء. إذ دخلت مرة – تعلوني شيبتي – فوجدت مدير دائرتي مرحبا فوق العادة، ولم يكن ليعرف حقيقتي، أو لأنه كان من السذاجة بمكان، إذ خرج

(١) كناية عن ما يسمى «الواسطة» أو الشفاعة الدنيوية غير النزيهة.

(٢) من القَسم أو اليمين والحلف، وجاء في القرآن: (وقاسمهما أني لكما من الناصحين).

ورائي بعد انتهاء الزيارة مودعا، ونادى حاجبته قائلا: (هذا «الهيتي» - وهو يريح يده على كتفي - من الأساتذة الذين لا يشملهم نظام الاستئذان، فهو يدخل عليّ متى شاء)، وكانت الخواطر والهواجس بعد تلك الحادثة تتجاذبني يمنة ويسرة، متسائلا في ريبة المرتاب: لم كل هذه الميزات التي يعتقد المدير تمتعي بها دون غيري من الزملاء والزميلات؟ ثم اكتشفت على إثر استدعائه لي بعد مدة وجيزة أنه يريد أن يستعملني عينا على زملائي، وكانت المواجهة التي شاء الله أن أكون فيها شجاعا، فقد قام محييا ومرحبا، وما إن أخذت مكاني عنده وكنت أشعر أن كِلَيْنا كان في هذه المرة حذرا من صاحبه حتى قرأت الكثير في طيات جبهته الأربع التي تبدو واضحة عندما يرفع حاجبيه من فوق نظارته الطبية، وكنت أراها تتراقص، مما دلني على أن واجبا خارج حدود السياقات المعتادة يريد أن يكلفني به، وأخذ يلعب بشعرات ذقنه بحركات لا إخال أنها لا إرادية تنم عن حيلة، فصرت أقرب إلى اليقين مني إلى الشك أنه يريد أن يبدأ بكلام لكنه يخشى عواقبه، فالذي أمامه طيات جبهته تدل على أنه ابن العقد السادس، وقد لعبت أخاديد السنين ما شاء لها أن تلعب في وجهه، لكن صاحبي قرر أخيرا أن يركب موج المغامرة، ولو بأشرعة مهلهلة، وأن يخوض في لجج البحر، معتقدا أنه لن يخسر، ولماذا يظن أنه يخسر هكذا يبدو أنه كان يحدث نفسه فظهره قد استند إلى ركن ظن أنه شديد، وبعد أن طلب لي قدحا من الشاي الذي ما اعتاد على تقديمه لمن هو مثلي، وقبل أن تتحسس شفتاي سخونة القدح، تحسس قلبي أن وراء الرجل مسألة مذاقها مر، وثمرة رائحتها كريهة، وإذا به يفصح عما يريد، قائلا وحنجرته صعدت وهبطت عدة مرات وكأن عطش المجازفة فعلت في فمه الكثير، فتيبس لها لسانه قائلا: في الواقع بودي أن أكلفك بأول عمل له أهميته في تطوير العمل في مؤسستنا التربوية هذه، وكل ما في الأمر أن تقوم بكتابة تقارير دورية عن أداء العاملين، وأن تعطى الأولوية عندما تشرع في الكتابة عن أداء واحد منهم وقد حدد لي بالاسم ذاك الذي كان يقلقه ويقضُّ مضجعه، مع أن ذلك العامل درجته الوظيفية كانت أعلى من تلك التي أشغل، ولما سلّمت التقرير، وقدمت له بالآتي: أمَّا تكليفكم لي حول أداء فلان فإن

الوقت ليس كافيا لنتعرف على إنجازه بعدُ... ويجب أن يُعطى الوقت الكافي.. ولما فضّ الرسالة وقرأ فحواها، شعر أني لا أريد أن أفهم ما يريد ولا أنفذ إلا ما أراه حقا، قال: أرجو عدم الإشارة في رسائلكم المستقبلية إلى أنني كلفتكم بمثل هذا العمل، فقلت مباشرة إذن هذا عمل أشبه ما يكون بعمل استخباري وليس تربويًا. !!!! «فجرائد الصباح» أيها الأستاذ المبجل ما تغيرت، و«الصور العارية النكراء» أيها الفاضل ما تبدلت... وحسبته فهم وأظنه فهم لكنه سأل ماذا تعني بجرائد الصباح؟ قلت: أبدًا، هذا نزار الشاعر كان يهذي مرة ثم أصبت بالهذيان مثله، ولكنه عجز أن يقرأ ما بين السطور، وكل هذا يأتي من عمل أيدينا التي صفقت لهم، فنحن ممجدون ومقدسون، وهو من الابتلاء. وكل الذي تركه هذا وأمثاله - أعني الحمقى - بسبب مواقفهم المرتجلة، أن نقف في المحاكم والمحافل الإعلامية حيث عربات من الملفات يسحبها المحامون، وصور نكراء يعرضها الإعلاميون لدفع ما وقع منهم.

وكلمة أخيرة (أو خلاصة مركزة) في هذه المحطة، وهي بكل تأكيد بها حاجة إلى مزيد من البسط؛ لأنها تأتي من باب التعاون - تعاون المأمورين به - وفاء للزملاء والزميلات مدراء المدارس في الانتصار على هموم الإدارة المدرسية للمراحل قبل الجامعية، والذين هم بهم حاجة ماسة لتنمية مهاراتهم في مجال **معايير الجودة** كجزء أشعر أنه من الواجب نحوهم ولاسيما الذين هم في بداية الطريق الشاق. إن معايير الجودة التي سوف نأتي على أهمها تُلزم الزملاء ببرامج محددة تجعلهم أمام حقيقة واقعة، تكشف لهم إمكانتهم، وعندها يكون لزاما عليهم أن يقرروا بعيدا عن الأنانية وبكل شجاعة المضي أو التخلي عن أحلامهم في الإدارة المدرسية وإن تطلب الأمر ترك أمكنتهم لغيرهم. والمطلب الأول في تلك المعايير هو أن يكون لكل واحد منهم **رؤية واضحة وأهداف** محددة وعلى مستويين: أهداف تختص بالمدى البعيد، وأهداف تختصُّ بالمدى القصير، على أن تكون جميعها قابلة للقياس والتقييم، كما أن على كل واحد منهم أن يكون همّه الأول وهمته مرتكزين على تحويل **نظام التعليم إلى نظام للتعلّم**، أي بمعنى: أن يحوّل مهارة إعطاء السمكة للطالب إلى مهارة كيف يصيد الطالب السمكة بنفسه، وأن يدرك أن عجلة التطور

الإنساني تسير خارج جدران المدرسة أعني أسواق العمل بسرعة أكبر بكثير من سيرها داخل تلك الأسوار. فالأسواق في تطور مطَّرد، وهي بحاجة ماسّة دوما لمهارات متطورة ومتغيرة ومعاصرة ومواكبة، كما إنّ أسواق العمل الحالية أصبحت متقاربة[١]، وأصبحت لا تكتفي الآن، بالشهادات الجامعية بل بالخبرة أيضا، والقدرة على العمل بروح الفريق، فسوق المنافسة أصبحت حادة جدا. هذا من جانب، ومن جانب آخر، أنّ تكون إحدى هموم المدير الكبرى الاستمرار بالإيمان **بنظرية عدم الاستقرار في المناهج الدراسية**؛ ولذا عليه أن يتعامل معها على أنها جسم حي ينمو بصورة مستمرة ويحتاج إلى عمليات جراحية بصورة دائمة ولا يكتفي بالعمليات التجميلية منها.

ومن الواجبات الملقاة على كاهل المدير، كذلك، أن يؤمن بتأسيس **قاعدة واسعة لحرية العمل اللامركزي** وإلاّ فإنه سيختنق نفسه في بحيرة عميقة من المسؤوليات والمشاكل المعقدة، إذن فعليه إن أراد النجاح أن يتخلص من الرتابة التعليمية ويكون مع الأسلوب الذي يخلص المدرسة من تلك الرتابة، ومن الخطأ كذلك أن تدار العملية التربوية – وهي عملية واسعة دون أدنى شك؛ لتعاملها مع الإنسان وفي صناعته – من قِبَل فرد بدلاً من نظام مؤسسي؛ لأن طرفا واحدا ليس بمقدوره القيام بالعملية تلك، لذا فإن البيت والمجتمع المحيط يُضاف إلى ذلك الكادرُ التدريسي والمتخصصون كلهم شركاء في تلك العملية. وقد لاحظت مسألة خطيرة حيث لا يُعوَّل غالبًا في عالمنا العربي على الأساس الذي تم تشييده من قبل المدير أو المدراء الذين سبقوه بل يعتقد في الغالب أن ما بُني من قبلُ فأساسه الخطأ، وأنّ عليه أن يؤسس لتجارب جديدة حتى في المُسَلّمات التربوية أحيانا. وما درى أنه سيعيد التجارب نفسها التي تم الانتهاء منها من قبل، وفي ذلك هدر يؤثر على اكتمال البنيان التربوي في يوم كنا نرقب أنه سيكون قريبا.

---

(١) يبدو أن التنبؤ بتلك الأسواق ورد في رواية أحمد أن رسول الله ﷺ قال «لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن، ويكثر الكذب، وتتقارب الأسواق، ويتقارب الزمان». فالأسواق أصبحت حقا متقاربة بسبب وسائل الاتصال الحديثة التي تربط بشبكاتها المتعددة العالم، ويمكن لكل واحد الآن أن يتبضع عبر القارات وبدون عناء السفر، ولذا فإن احتكار الأسواق قد تأثر للغاية، كما أن حرية التسوق والعمل أصبحتا على نطاق عالمي لم يكن للإنسان في السابق تصوره.

وليس من عيب في الاعتراف بأننا أثقلنا بمطالبنا كاهل المدير ولذا فإني أرى أن على النظام التعليمي أن يعطي له **الحرية في صناعة القرار** عندما تثبت كفاءته - حيث القرائن الخاصة بشعوره بالمسؤولية الكاملة أمام الطلبة وفلسفة النظام ثُمَّ يصبح من حقه أن يشارك مجموعة العمل الخاصة بمدرسته في اختيار المنهج والكتاب. إن هناك مساقات تؤشر إلى أنماط الحرية المطلوبة للمدير. وعلى النظام التربوي أن يشجع المدير على عدم التردد في السير فيها كقرار نقل الطالب من صف إلى صف أعلى بناء على كفاءة الطالب، أي أن يكون للمدير حق العمل بمفهوم **الصفوف المتحركة** التي تراها معظم الأنظمة التربوية والعربية أنها خطوةٌ شجاعة لا تناسب المختبر الساكن الذي تتصف به تلك الأنظمة. والصفوف المتحركة، بمعنى آخر، ثورة مدروسة على أسلوب الرتابة التعليمية التي تتصف به أنظمتنا التربوية للأسف.

ومن الخطأ أن يطلب من جميع الطلاب تناول البرنامج نفسه وبالدرجه نفسها، أي دون النظر إلى **الفروقات الفردية**؛ ولذا يحتاج المدير إلى معاودة النظر في البنية الداخلية للتأكد أن مدرسته تقوم فعلا بتقديم مختلف البرامج التي تناسب الطلبة على اختلاف قدارتهم واهتماماتهم.

كذلك فإن **استقلالا في ميزانية المدرسة** أمر جلي وواضح الفوائد، ولنا أن نقارن بين إمكانات المدرسة في التعليم الخاص وبين الصعوبات المالية التي تواجهها المدرسة في التعليم الحكومي شرط أن لا ينسى المدير أن يكون هناك توازنٌ في مخصصات المدرسة على العملية التعليمية ذاتها، وعدم المبالغة في الإنفاق على الأمور الإدارية، فهناك أولويات، كالحصول على المدرس الناجح مهما كانت التكاليف اللازمة لتطويره وتطوير المنهج، وعلى هذا فإن من حق المدرسة أن تكون مستقلة بكل ما تعنيه كلمة الاستقلال، ولا يكفي المدير أن يكون مؤمنا بعملية تنمية الكادر التدريسي بل أن يضع ذلك في مقدمة أولوياته على أرض الواقع. فالمدرسة دولة مصغرة أو مجتمع مصغر، وما ينطبق على الدولة

أو المجتمع من الحاجة إلى **الحرية والديمقراطية** ينطبق تماما على حاجة المدرسة إلى ذلك.

ولا يفوتني أن أعرج بالقول إلى أن **المهارات الشخصية** لمدير المدرسة وكذلك **مهاراته الإبداعية** مواصفات يجب عدم نسيانها من قبل المؤسسات التربوية قبل الشروع بتعينه.

المحطة السادسة

الفشل أو النجاح

كلانا بها ذئب يحدث نفسه   بصاحبه والجدُّ يُتعسه الجدُّ

(البحتري)

المحطة السادسة

الفشل أو النجاح

«بعثات» «بعثات» في دائرة البعثات في وزارة التعليم العالي، هذا هو الإعلان الذي طالعتنا به الصحف التي عَزفتُ عن مطالعتها منذ زمن؛ لأنها ما عادت تنقل لنا سوى الانتصارات الوهمية القومية!، وزيارات «قائد الضرورة» إلى بيوت العراقيين، فشاشة التلفاز تحتاج على الدوام لأفلام القائد لأن صوره التي تملأ الشوارع، والأزقة، والحارات، حتى البيوت ما عادت كافية لتذكر الناس بـ«المنقذ»[1]. ولا بد أن نعترف أنّ تلك الصور والأفلام والتقارير وإنْ ولّدت فينا الملل والضجر إلاّ إنها كانت تبعدنا عن الصور العارية النكراء، وتجنبنا صور الخناثة، وتحجبنا عن قراءة مقالات تمزيق النسيج الوطني العراقي الذي كان في يوم من الأيام موحدا والتي تطالعنا بها صحافة اليوم ووسائل الإعلام الأخرى، وهي من حسنات القائد إن كانت له من حسنات تذكر[2]. وكنت حينذاك أشغل منصب «مشرف تربوي مختص» في دائرة الإشراف التربوي، ذلك المنصب الذي لجأت إليه بعد معاناة طويلة حين كنت مديرا لإحدى المدارس الزراعية، وقت انفطر كبد أحد الحزبيين «الرفاق» لنجاحي، وأكل الحقد قلبه[3]، وهو ممن كان ينتحل صفة «معارفنا القدامى» -، فبعد إخفاقه وحصوله على عقوبات متتالية في إدارته لإحدى المدارس التابعة للتعليم الثانوي الأكاديمي التي طُرد منها، وحاول بنفوذه الحزبي أن ينتقل إلينا رسميا بصفة مدرس، وبعد لأي[4] حصل له ما أراد ليعمل بصفته الحزبية وليس بدرجته الوظيفية

(١) ولتشابه معاناة الشعوب من سلوك القادة، كان كل واحد منا في الوطن العربي يظن نزار قباني قد وجه نزاريته «هذي البلاد شقة مفروشة» للزعيم الحاكم في بلده. ومن تلك النزارية نقتطف: هذه البلاد شقة مفروشة.... يملكها شخص يسمى عنترة.... يسكر طول الليل عند بابها.... ويجمع الإيجار من سكانها.... ويطلب الزواج من نسوانها.... ويطلق النار على الأشجار، والأطفال والعيون، والضفائر المعطرة...

(٢) ومن حسناته أنه قد أبقى على وحدة البلاد.

(٣) سوف لا نذكر اسمه لأن ذلك مخالف لسلوك الكاتب.

(٤) اللأي: الجهد والمشقة.

تحت إدارتنا، جاء وهو يحمل نواقيس الحرب الغشوم في وقت لم تكن رغبتي في أن أترك مدينتي الغالية، ولا في ترك المجموعة التعليمية التي كنت أقودها، ولا البيت الجديد وإن كان كمفحص قطاة الذي شيدته بعد أن تخليت أنا وعروسي عن كثير من مقتنيات ما نملك، لكن (مكره أخاك لا بطل)[1]، ولم يكن يدور في خلدي أن أحصل على منصب تربوي أعلى من الذي أنا فيه، فالمسؤولية حملها ثقيل ونفعها لمن هو مثلي قليل، ولكن التقارير الحزبية أخذت تترى إلى الدائرة الحزبية في المنطقة، ولجان التحقيق الحزبية أخذت تتوالى على المدرسة، علّها تشبع فضول صاحبهم، وتطفئ ثورة حسده العارمة، والتي أكلت منه القلب، وأحرقت فيه الكبد، ولم يحالف النجاح تلك التحريات، فاقترح «الرفيق» - وهو حسب علمي لم يكن يوما رفيقا بأهله فكيف يكون رفيقا بالناس - على المنظمة الحزبية أن تبعث بي وبمن معي من الإداريين إلى أفواج الجيش الشعبي المتوجهة إلى ساحات القتال على خطوط التماس مع الإيرانيين بعد أن أخفق في حفر واد كوادي أصحاب الأخدود ليحرّقنا فيه ليخلو الجو له ويختلق دليلا ماديا لإدانتنا، أو لعل القتل أو الأسر سيكون حليفي أنا ومَنْ معي. وعندها كفاه الله شر القتال، عندها قد تُطفأ نيران معاناته إلى أمد، وتَقَر بها عينه، وإن كنت أشك في أن تقر عين صاحب النفس المقهورة بمرض الحسد، فهي عمياء لا تبصر وسيرشح آخرين ليلعب دور الحاسد لهم من جديد.

وعلى كل حال ورغم كل الصعاب فإن بابا قد انفتح أمامي عندما انتقلت إلى دائرة الإشراف التربوي. وبعد مدة أعلنت وزارة التعليم العالي عن حاجتها لابتعاث مجموعة من الكوادر العراقية، فتقدمتُ إلى دائرة البعثات، وأنا على يقين كامل أني وإن كنت أظن أني أفضل المتقدمين[2] إلا إنني أقلهم نصيبا في النجاح، وأقربهم مكانا من الفشل؛ ذلك

(١) ورد في مجمع الأمثال للإمام أبي الفضل الميداني أن قائل هذا المثل هو أبو حنش الفزاري حين دفعه ابن أخته الأحمق في غار فيه ستة رجال، وقال: ضربا أبا حنش....، فقال بعضهم إن أبا حنش لبطل، فقال أبو حنش مكره أخاك لا بطل ... وقد شاع لا بطر» والمعنى واضح ، وقيل مجبر أخاك لا بطل.

(٢) أفضل المتقدمين ليست من الناحية الخَلقية والخُلقية - والله أعلم - لكن من ناحية المؤهلات والخدمة والاختصاص.

لأنني لم أكن من بين الذين يؤمنون بأن (رسالتهم التي يدعون إليها خالدة)[١]. إذن ماذا يا ترى أنا فاعل؟ لكن من الخطأ الفادح أن يُشم من مقالتي رائحة اليأس، أو أنني أنسى أو أتجاهل قدرة الله - أعوذ بالله - في أي مسألة من المسائل، فلم يعد الوقت كافيا لكي أنسى ما نقله صاحب كتاب «الفرج بعد الشدة»[٢] من غرائب القصص، وفرائد الأخبار، وعجائب المحن، حيث انتهت جميعا بتفريج الكروب وبما يشتهي ويتمنى أصحابها بحمد الله. وقد توكلت على الله الذي سخر لي من يقف إلى جانبي ويؤازرني حيث سلك مسلكا حميدا، وانتصر لي أمام لجنة القبول بأحسن مقالة، وأبلغ عبارة، وأرشق إشارة، فلله جنود مجندة، فشكرت الله الواهب على نعمائه، ولملمت شعثي، وحزمت أمري، على السفر، تاركا الأهل والولد.

وما هي إلا سويعات قضاها «الهيتي» في الجو حتى وجد نفسه في أحد فنادق لندن يجول بخواطره، ويقلب أفكاره، تحسبًا لمقابلة الغد، فعليه أن يقابل الملحق الثقافي في سفارة جمهورية العراق، ليحدد وجهته النهائية، فهناك على ما يبدو جامعات وكليات قد تتحفظ عليها الدوائر التربوية في العراق. لكن قبل أن يقابله أسس في مجال اللغة الإنجليزية لأول مغامراته، تلك المغامرة التي لم يكن ليتقصدها ولا يحب تذوق مرارتها، فقد صمم على الإفطار وهو في طريقه إلى السفارة، حين دخل المطعم وهو يسحب بحقيبته التي جرى ترتيبها على مهل، واتخذ له موقعًا يسهّل عليه مراقبة حقيبته، وتقصي حركة الناس، فهو فضولي كما عهده خلانه، لكنه لم يكن فضوليًا في طلب فطوره الصباحي، ولم ينتظر طويلا وإذا بالنادل يسأله: ماذا يفضل سيدي أن يتناول في هذا الصباح المشمس؟ وما هي إلا ثوان وإذا بنادل آخر يسأله السؤال نفسه بعد أن قدم له التحية التي لم يكن ليسمعها في

(١) شعار الحزب الحاكم حزب البعث العربي الاشتراكي هو (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة).

(٢) مؤلف هذا الكتاب هو القاضي أبو علي، المحسن بن علي التنوخي، ووالده القاضي أبو القاسم على بن محمد، وقد اعتمد في تأليفه لهذا الكتاب النادر على ثلاثة كتب قد سبقته: الأول: صنفه أبو الحسن علي بن محمد المدائني بعنوان «كتاب الفرج بعد الشدة والضيقة». الثاني: كتاب ألفه أبو بكر عبدالله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا بعنوان«كتاب الفرج بعد الشدة». والثالث: كتاب ألفه القاضي أبو الحسن عمر بن محمد بن يوسف الأزدي بعنوان «الفرج بعد الشدة».

المطاعم العراقية[1] !! ثم سأله النادل الثاني عن طبقه المفضل، وما إنْ تقدم بطلبه إلا والنادل الثالث يسأله السؤال نفسه. وما هي إلا دقائق معدودات وإذا بثلاثة أطباق متشابهة يحملها النادلون الثلاثة، ولما التفت النادل الأول وإذا به يرى اثنين من زملائه يحمل كل منهما طلب الزبون العراقي نفسه، وقد يمما وجهيهما صوبه فعلا، وهنا بدأت المواجهة الأولى مع الأعراف البريطانية التقليدية التي كان «الهيتي» يجهلها، ولم يكلف أحدٌ من أصدقائه نفسه ليقدم نصيحة تذكر في هذا المجال إما حياء منه، وإما لأن جُلهم يتوقع أنه على دراية مسبقة بمثل تلك العادات، والأعراف، وربما يعود السبب إلى أن زملاءه يتهمونه بأنه أحد المثقفين. وكأنهم جهلوا حقيقة أن جزيرة الإنجليز التي فصلت بين بحر الشمال والمحيط الأطلسي جعلت فيهم طبيعة خاصة سمتها العامة المحافظة على الموروث.

وهنا قرأ الزبون الغضب لا بل الحنق في وجوه النادلين حيث تمتم واحد منهم بكلمات فهم أنها كلمات غير مهذبة قطعًا، فالهيتي يعرف أن العادة جرت في مطاعم بغداد أن الزبون يُسأل ويُخدم من قبل نادل واحد فهو المسؤول عن خدمة زبائنه الذين أووا إلى ركنه. على كل حال فقد كان هذا أول الغيث، فالأمطار قادمة، والزوابع متوالية، لكن عسى أن تكون دون برق ورعد. ولنقد هذه الحادثة – فإني أستعين بالله – زاعما أنّ إقامة الدورات التوجيهية للمبتعثين تصبح ضرورة لابد منها ولو استغرقت أسابيع عدة، تدرّس فيها شتى المواضيع، وتناقش خلالها مختلف المسائل، أما ما شهدناه في دورتنا فقد كان بمثابة دورة تلقين لمبادئ الحزب الحاكم للمبتعثين، وتزرع الخوف في نفوسهم من أن يؤسسوا الفضيلة، لا بل تشجع في أحيان أخرى على تأسيس الرذيلة، وأنها تتوعد الدارسين من المخالفة وهو أمر يدل على خوف الدولة من مواطنيها حتى المبتعثين منهم، وإني لا أرى

---

(١) حينما كان في إحدى جولاته الإشرافية لمناطق من شمال العراق، وتلك الجولة كانت نحو الموصل، وفي الطريق نزل لتناول طعام الغداء، وسأل الكاتب عامل المطعم وقتها إذا كان بالإمكان أن يأتيه بقدح من الماء! فكان جوابه خشنا شيئًا: يا أستاذ إن عليك أن تذهب بنفسك وتشرب، فذاك هو الماء، والكاتب ينقل هذه التجربة ليستخلص منها كيف أن طباع الناس تؤثر سلبا أو إيجابا على نجاح حركة السياحة.

مبررا لكل ذاك الخوف ولا سيما أنهم زرعوا عيونهم[١] في كل جامعة ومدينة هنا في بريطانيا كما هو الحال نفسه في كل دول الدنيا حيث يوجد المبتعثون، بل تعدى الأمر إلى قيام تلك العيون بزيارة المبتعثين في شققهم وبيوتهم، وأقل ما يكتب عنهم: أنهم لم يعلقوا على جدران غرف الجلوس صورة القائد، الذي بفضله تتم البعثات، وبنعمته تُملأ البطون الجائعات، وبكرمه تُكسى الأجسام العاريات.

وبعد دقائق معدودات على مغادرتي لذلك المطعم الذي تركت فيه أولى آثاري، وإذا بي في الملحقية الثقافية لجمهورية العراق في لندن التقي الملحق الثقافي، وكان على ما أذكر «الدكتورأحمد الحديثي» الذي أشار عليّ اختيار قسم التربية في جامعة «HULL» في شمال شرق بريطانيا،[٢] حيث السمعة الطيبة، والعرض المناسب، وأن اترك الخيار الآخر الذي كنت قد رتبت له، فكان لزاما عليّ أن أعيد النظر في كل تلك الترتيبات من جديد، فلا صديق أعرف في تلك الجهة، ولا عدو أحذر في الوقت نفسه، وفعلا تلمست طريقي إلى المدينة التي يممت وجهي إليها، تلك المدينة التي سقطت فيها صناعة الأسماك منذ وقت قريب، حيث كان سقوط تلك الصناعة التي يعمل بها الآلاف من البريطانيين شرطا لدخول بريطانيا في السوق الأوربية، وكان القطار الذي أركب يسابق الريح، وكان علي أن أجري تحويلة في مدينة «دونكاستر». وبعد مرور قرابة ثلاث ساعات إذا بالقطار يتوقف عند مدينة الهدف، وبعد أن غادرته كان لا بد من سيارة للأجرة على أن أشترط على سائقها البحث عن سكن ولو لليلة واحدة - بما يسمى سرير وفطور صباحي -، وقد رحبت سيدة في أن تضيفني إلى قائمة نزلائها. وما إنْ دخلت منزلها حتى قادتني إلى غرفة فيها نزيل قدّم نفسه على أنه من جمهورية إيران الإسلامية وعليّ أن أشاركه السكن. فقلت في نفسي (نحن هربنا من التواجد على حدودهم الملتهبة، وتخومهم الهائجة، فكيف لي أن

---

(١) كناية عن عيون الحزبيين حيث مهمتهم مراقبة المبتعثين.

(٢) كان الكاتب قد رتب للذهاب إلى جامعة كاردف في مقاطعة ويلز، وقد أحاط بعض الأصدقاء علما بذلك حيث حصل على قبول من تلك الجامعة، إلا أن الملحق الثقافي العراقي نصح بالذهاب إلى جامعة Hull لأنها، على ذلك العهد، كانت الأفضل.

أقضي ليلة كاملة ولا يفصل بين سريري وسريره سوى طاولة للشاي تكدست عليها أعقاب السجائر؟)، وكأنه نسي تنظيفها منذ شهر أو يزيد، ولكن لم يكن ذلك هو السبب الوحيد بل؛ لأني وجدت يده عامرة بسيكار. فاخبرت سيدة البيت عدم رغبتي في مشاركة أحد غرفة نومي. وبعد أن شعرت سيدة المنزل أني عزمت على ترك بيتها للبحث عن سكن آخر رغم أن المدينة أمست تغط في نوم عميق تحت جنح الظلام. أشارت عليّ السيدة: أن هناك غرفة صغيرة يمكنك استعمالها، وما إنْ ألقيت بجسمي الذي تتقطع أوصاله تعبا، ومعدة فارغة حيث سافرت بإغفاءة ربما لا تزيد على نصف ساعة، استيقظت بعدها لأفتح حقيبتي وأغيّر ملابسي وإذا بي أجد لوازمَ وأشياء وملابسَ وصورا تعود لفتاة، فماذا لو حرّكتُ تلك الأشياء عن أماكنها؟ ثم ما الذي حدث أو يحدث هنا بالضبط؟ هل أني سأشاركها الغرفة؟ وربما تكون مسافرة فتغير رأيها، فما الذي سيحصل؟ إذن هل أعود لأكون صديقا لذلك الإيراني؟ إنه أمر غاية في الغرابة حقا، ثم اندفعت أسأل سيدة البيت بلغة تعتمد على الإشارة منها دون اللسان، وإذا بها تقول: لا عليك أنا أعرف ذلك، فالغرفة تعود لفتاة قد سافرت إلى زميلها هذه الليلة ويمكنك استعمال غرفتها.

النصف بعد السادسة صباحا نهضت من فراشي، وقد تذكرت أن شاكرا ابن مختار محلتنا الطيب قد دفع إليّ اسم شخص نسيت اسمه في وقتها وعلي أن أفتش في حقيبتي لعلي أعثر عليه، ولا سيما أن شاكرا هذا قال لي: (في حالة عدولك عن الغرب وتوجهك للشمال فإن لدي أحد المعارف هناك، ولا أدري فيما إذا آثر البقاء في مكانه أم لا، فإنه دائم الحركة والتغيير، فاحتفظ برقم هاتفه لديك لعل في وسعه تقديم مساعدة ربما تحتاج إليها). وهنا أرى من الواجب أن أشير إلى أن عرب اليوم عامة والشرقيين خاصة تقل فيهم روح الاعتماد على النفس مقارنة بالغربيين، بل الاعتماد على الآخرين ووضع الأحمال على أكتافهم يعتبرونها مفخرة من مفاخرهم، أو على الأقل صدقة جارية تحسب في ميزان حسناتهم، مع عدم وجود ضرورة لذلك في أغلب الأحيان. وهذه المسألة ربما تحتاج إلى دليل يقدمه الكاتب للقارئ الكريم قبل أن يصار إلى تعميمها.

وبعد العثور على هاتف صديق شاكر حمدت الله، وما عليّ إلا البحث عن قطعة نقدية معدنية لاستعمال جهاز الهاتف العمومي المنصوب داخل البيت، وبعد أن وجدت قطعة أو قطعتين، ولا أدري إن كانت تناسب ذلك الهاتف أم لا فقد حاولت مرة أو مرتين بإدخال الرقم الذي لديّ، وإذا بـ«هاشم» يرد على مكالمتي، لا بل يقسم بأغلظ الأيمان أن أشارك ضيوفه فطورهم الصباحي في شقته، وسألني عن عنوان سكني المؤقت، فكان جوابي: أنا لا أدري أين. ولا أحد ممن يسكن في البيت قد استيقظ بعد لأسأله، فالتمسني هاشم أن اترك الهاتف مفتوحا وأن أخرج من البيت لأتعرف على اسم الزقاق وأن اسجل له رقم الدار، وفعلا لبيت طلبه، وحققت له مأربه، وما إنّ أخبرته حتى طار فرحا، وأخبرني أن عنوان سكني هذا لا يبعد عن عنوانه سوى عشرات الأمتار، وطلب مني انتظاره، وما هي إلا خمس دقائق وإذا بشاب يرتدي معطفا كان زيا للجيش الشعبي في العراق، والذي لا أحب أن أراه هنا على الأقل لأنه يذكرني بالكثير، فما الذي حدث؟ وهل أجبر الطلبة المبتعثون على ارتداء هذا الزي الذي كرهته منذ عرفته؟ فقد ارتديته عندما أُرسلنا عنوة إلى شمال العراق، وهل ينشط الحزب هنا وقد فررنا منه فرارنا من المجذوم؟

على كل حال لم تدل هيئة الرجل التي طالعنا بها على جوهره، فقد جاء متسللاً كأنه صيّاد يصفه لنا زهير بن أبي سلمى: «يدب ويخفي شخصه ويضائله[1]»، فثوبه – أعني معطفه العسكري – ترابي اللون قد أسدل طرفه على رأسه، وأخفى عينيه وراء نظارته الداكنة اللون، وصوت اصطدام زخّات المطر بأوراق الأشجار اليابسة التي تغطي أرض الحديقة تخفي من وقع حذائه، وانحرافه نحو شباك غرفة الجلوس ليتلصص منه، ثم ما لبث أن نقر بطرف أصابعه على زجاجات فكتورية الطراز. كل تلك المشاهد، في الحقيقة، أدخلت الريبة إلى نفسي، وزادت في اضطرابي، وعلى عجالة من أمري أخذت تراودني الظنون وأنا أحاول تبرير كل خطوة من خطوات هذا الشبح المقبل، ثم سألت نفسي:

(١) فبينا نذود الوحش جاء غلامنا يَدِبُّ ويخفي شخصه ويضائله
وهو من قصيدة لزهير معروفة، مطلعها:
صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعُرِّي أفراس الصِّبا ورواحله

وما يدريني أن هذا هو هاشم الذي اتصلت به للتو؟ ثم إذا كان هذا «هاشم» نفسه فرب وراء كل شبهة رصدتها سبب، وربما أراد أن لا يزعج أحدا مع خيوط الفجر الأولى، والناس ما زالوا رقودا، لكني للحق أقول: إن «هاشما» هذا بعد أن زاملته عرفت أنه يغرق في الشيمة والنخوة إلى أذنيه، أما الكرم فهو من السابحين في بحره، وإنّ اسمه مشتق من «هشم الثريد» ولهذا سمي هاشم الأول جد الرسول - ﷺ - بهذا الاسم، وهذه الشهادة تكفيه فخرا عندما يحملها وساما على صدره إن كان على قيد الحياة حيث انقطعت أخباره منذ عام ١٩٩٠ وإن اُتُّهمه بعضهم بالسذاجة، ويكفينا أن نشهد له بتُقى محمود ولا نزكي على الله أحدًا وهو محسود عليه، وإن زاد في تواضعه عن المساحة المألوفة شيئًا. وما إن فتحت له الباب حتى ضمّني إلى صدره، وشد على يدي، وإذا به يحاول أن يجرني للذهاب معه حيث ينزل، وبعد أن أتم واجب الضيافة كأنه في «حويجة العبيد»[1]، رجعنا بعد ذلك لنسوّي الأمر مع صاحبة المنزل. وإذا بهاشم يرفع حقيبتي التي أرهقها السفر ووضعها في سيارته، وشخص بي حيث «فنجم Fencham» مدير شؤون السكن في الجامعة الذي أنهى بدوره الموضوع بعجالة، وحصلت على مفتاح السكن. دلفنا بعدها إلى السكن الطلابي، وإذا باللذي يفتح لنا الباب شاب من العراق، حاول دون مقدمات أن يعتذر لنا لعدم وجود مكان شاغر، وهذا خلاف الواقع، لأن مدير السكن على علم بما يجري حوله، ولذا رتب عقدا بالإيجار وسلّم المفتاح، والحق أقول: إن ذلك الأخ رغم موقفه السلبي كان على صواب؛ لأنه على ما أعتقد كان أحد الخائفين. وهو كغيره من العراقيين الذين زرع الحزب في نفوسهم الخوف حتى أمسى الحزبي نفسه يخاف زوجته من صراحة عفوية قد يقدم عليها في حلم من أحلامه، فكيف به وقد قُدّمتُ إليه من قِبَل صاحب المعطف العسكري الذي أخذتني الظنون عند رؤيته لأول مرة، وتنازعتني المخاوف؟ ولكن كما هي عادتي في المصابرة وأناتي في المحاورة، وقَبِلَ ذاك الشاب العراقي أن أشاركه السكن وربما قَبِل على استحياء وأن أشغل الغرفة التي تشرف بنافذتها على المباني الجامعية، وتكاد تكون الأقرب إلى قسم التربية الذي سيكون مسرحا لأحداث المستقبل وأنا أُبحر في سفينة البحث العلمي.

---

(١) حويجة العُبيد: منطقة تقطنها عشائر قبيلة العبيد قرب مدينة كركوك حيث يسكن هاشم.

وبعد مضيّ شهر على وجودي في بريطانيا، وصلت العائلة في بداية الشهر العاشر من عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف، متذكرا ولدي خلدون وكان حينها في السادسة من عمره وهو يقضم أظافره يسأل سائق السيارة «طغرل»: يا عم، وهل تطارد قوات الجيش الشعبي الناس هنا من أجل إرسالهم إلى جبهات القتال؟ وتعجب «طغرل» من السؤال! وهو سؤال يعبِّر عن حجم الخوف الذي يلف العراقيين وأطفالهم ويلاحقهم في كل مكان، فآخر عهد «خلدون» بقوات الجيش الشعبي وهي تطارد والده وأعمامه وأخواله لإرسالهم إلى الحدود، فكانت الأوامر أنذاك قد صدرت لكل العراقيين بالمشاركة، والاعتذار أو التهاون دليل لا يخالطه شك على معاداة النظام، فلا توجد منطقة وسطى في منظور الحزب بين الجنة والنار. والأعراف[1] من المناطق التي لا يعترف بوجودها الحزب القائد[2] و«بوش»[3]. وآخر الأحداث التي حُفرت في ذاكرة خلدون احتضان أمه له ساعة الغارات التي شنتها الطائرات الإيرانية على بلداتنا، ولم تجد والدته وقتها مكانا تلوذ به غير حمام البيت ظنا منها أنها ستحميه وتهدئ من روعه. هكذا هو الخوف الذي سيطر على أطفالنا فضلا عن الكبار. وفكرّت أن أطلع القراء الكرام على الآثار النفسية الخطيرة التي طالت ولدي خلدون ومئات الآلاف من الأطفال العراقيين نتيجة لحرب الخليج الأولى، غير أني عدلت عن الفكرة خشية أن تقرّب الكاتب من الأحداث الموجعة، وستزيد من هواجسه، وستبعده عن هدفه الأساس الذي قيد به نفسه عند وضعه منهجية هذا الكتاب، والحال أسوأ عند الدخول في تحليلات المهتمين بالأمراض والإعاقات النفسية التي تعرض لها أطفال العراق من جراء حرب الخليج الثانية والثالثة التي لا يزال أوار نيرانهما مشتعلة حتى لحظات خطِّ سطور هذا الكتاب ورسم لوحاته. لكني أحاول التعقيب على أن المشكلة من الناحية

---

(١) الأعراف: تمت الإشارة إليه من قبل في المحطات السابقة، فلقد جاء في كتاب الله: ((وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون))، سورة الأعراف آية رقم (٤٦) وحتى (٤٨).

(٢) أعني حزب البعث العربي الذي كان يحكم البلاد.

(٣) الرئيس الثالث والأربعون للولايات المتحدة الأمريكية الذي أشار أن دول العالم أحد اثنين: إما مع أمريكا أو ضدها.

التربوية بدأت انعكاساتها على واقع الحياة ليجعل أهل العراق يعيشون عراقهم في العصر الوسيط.

أما أحسن هدية كنت قدمتها لعائلتي بعد وصولهم في الأسبوع الأول جولة في السيارة للتعرف على مدينتهم الجديدة وقتها كنت ألحظ «ميلاد» وقد علت وجهها ابتسامة عريضة، فيما راحت «وثال» العنود ترمي بلعبها على خلدون، أما خلدون فهو مشغول في مراقبة السيارات وعلى الأخص الرياضية منها، مهتم بإحصائها وتحديد ألوانها، وبشائر الاطمئنان أصبحت تغمر قلوب الجميع، أما أنا فكنت أشعر بانبساط قل ما مررت به منذ سنين طويلة، سارحا في الخيال وممعمًا النظر إلى الأولاد، أتخيلهم في صباح الغد وهم يذهبون إلى مدارسهم وكم من مشقة ستواجههم في يومهم الأول، تشاركني زوجتي تلك الهموم، ولم يوقظني من أحلام اليقظة هذه إلا الضربة العنيفة التي هزّتنا جراء حادث سير أقل ما يقال عنه أنه مؤسف، غير أنّي تعلمت منه كثيرًا، فقد وجدت نفسي رغم الصدمة متحليا بأعلى حالات الانضباط. فبعد أن توقفت سيارتي وقد تحطم منها مقدمتها تماما، اندفعت على الفور أتحرى صاحب السيارة المتوقفة التي أصبتها بأضرار جسيمة لأتعهد له بمسؤوليتي عن الحادث، ومرّت الحادثة سليمة العواقب إلا من صدمة نفسية كان لها الأثر الحسن على مسيرتي في هذا المحيط الجديد الذي عليّ أن أسبر أغواره، وأقدر أعماقه.

وأول دعوة عملتها لأحد المدرسين الإنجليز تلك التي قدمتها للسيد «فيرفكس»، إذ سارع في تلبية الدعوة دون تردد، وكنت قد وجدته من المهتمين بنا، ومحترما لثقافتنا، وموقِّرًا لمنزلتنا، وربما يعود ذلك إلى خبراته السابقة التي اكتسبها مع من مثّلنا خير تمثيل من الطلبة السابقين، وقدّمونا للناس في هذا البلد أحسن تقديم من خلال كرمهم الحاتمي أو خلقهم العربي الأصيل، وقد اصطحب «فيرفكس» زوجته التي كانت وقتها مسؤولة عن الطلبة في معهد اللغة، ترعى شؤونهم، وتقضي حوائجهم، وما إن حييناهم ووضعنا ما اجتهدت الزوجة من أصناف الطعام العراقي على طاولة بيضاوية تحيط بها أربعة من

الكراسي، حتى استأذنني للخروج قبل أن يبدأ تناول الطعام، رغم أني أعرف أن رائحة الطعام فعلت فعلتها في الأنوف، وأسالت اللعاب من الأفواه، وزوجته معنا ظلت تجاملنا وتتجاذب معنا أطراف الحديث حيث اجتهدت أن تتبسط في لغتها الشمالية وكأنها أعادت إلى الأذهان لغات العرب ولهجات حمير وتميم ....، وتحتضن بكل حنان أطفالنا الثلاثة تداعبهم وتلعب معهم، وما هي إلا دقائق معدودات وإذا به يعود نازلا من سيارته حاملا ثلاثة كراسٍ، وتقرأ في وجهه السرور والحبور، فسألته ما هذا يا «رون» - اسمه الأول - ؟ فأجاب: أبدا، لا شيء، كراسٍ يجلس عليها الأطفال ليشاركونا مائدة الطعام. فهل هناك أجمل من هذا الشعور! أو ألطف من تلك الروح! وانظر في سلوكهم في احترام وتقدير الأطفال، وفي زراعة الثقة في نفوسهم. والغربيون على ما تعلّمناه منهم لا يجدون غضاضة أو شيئا معيبا في سؤال المدعوين إذا ما تقدموا بدعوة عائلة من العائلات إلى بيوتهم عن عدد الأطفال الذين سيتم اصطحابهم، ليوفّروا لهم أمكنة، وربما ليحضروا لهم لعُبا أيضا، في حين تجدنا نرى في ذلك عيبًا، خوفا من أن يُساء فهمنا فَنُتَهمَ بالبخل.

وذات يوم شعرت فيه أنني أحرزت مزيدا من التقدم في مجال اللغة، حيث صار من عادتي أن أترك البيت من الساعة السابعة والنصف صباحا، لأباشر عملي في تحصيل اللغة بالمعهد، لأعود عند الساعة الخامسة مساء لأرى أولادي قد عادوا من مدارسهم ليلتقوا «ملني وليسا» فرحين، يضيفون إلى قاموس لغة الأطفال مئات الكلمات، ذلك القاموس الإنساني الذي لا يميز بين «ملني» السوداء و«ليسا» الشقراء وهما من أم واحدة إنجليزية لكن لأبوين أحدهما من جنوب السودان، والآخر من شرق أوربا، وقد اختفى الأبوان كلاهما إلى الأبد، ليتبادلوا حوار الثقافات الحقيقي مع «ميلاد» و«وثال» وهما من العراق حيث عروق النخل وآثار الحضارة القديمة، بعيدا عن نَفَس التمييز العرقي، وصراع معتنقي الأديان، وروح الفروقات الطبقية، وعقلية التناحر المذهبي، وعلى كل حال فقد فوجئت في هذه الأمسية أن «مَلَني» و أختها «ليسا» قد تغيبتا، فلم أجد عند سلة الألعاب سوى «ميلاد» و «وثال»، على غير العادة في مثل تلك الساعة التي كان الجميع يلعب بحماس، ويدندنون بأناشيد التجمع

الصباحي في المدرسة، فسألت زوجتي عن سبب ذلك فلم يكن لديها ما تفيدني به، لكنها أشارت إلى أن هذا هو اليوم الثاني لانقطاعهما، وأن «ميلاد» و«وثال» ينتظران مقدمهما بكل شوق، حيث ربطت بين قلوبهم البريئة علاقة حميمة، فأخذني الفضول لأذهب وأسأل والدتهما عن سبب الانقطاع، ورغم أني حديث عهد بهؤلاء الناس لكنّي ذهبت، وطرقت بابهم، وسكنهم لا يبعد عنا سوى بضعة أمتار، والأفكار تملأ رأسي، والهواجس تأخذني كل مأخذ، فهل كنا قد قصرنا تجاههما بشيء؟ وهل وجدوا في عاداتنا شيئا يخالف عادة من عاداتهم، أو يخرج عن تقليد من تقاليدهم؟ وإذا بأمهما «بات» تفتح الباب مرحبة، ولكن على وجهها علامات الارتباك والخجل وكأنها عرفت سبب زيارتي المفاجئة، وإن كنت لا أظنها تتوقع مثل تلك الزيارة، إذن هي قد طبخت إجابة وربما تكون مقنعة، وبعد أن حييتها، وسألت عن أحوال «ليسا» و«ملني»، فأجابت: هما على ما يرام. فجاء سؤالي مباشرة: إذن لِم لمْ أراهما في بيتنا والعادة جرت أن يلعبا مع الأصدقاء الجدد؟ فقالت: (هل لي أن أستأذنك بالتفضل بالدخول، وتُشرّفنا بالجلوس لمناقشة الموضوع؟). فقلت في نفسي: لعلي سأخوض حوارا ومناقشة في الإنجليزية ولم أهيئ نفسي لتلك المهمة كما ينبغي، ثم بدأت تشرح لي أنها تعيش مع بنتيها على الإعانة الاجتماعية، وهذا يعني أنها من ذوي الدخل المحدود جدا، ثم أردفت قائلة: وقد لاحظت عند زياراتي المتكررة لكم – والقول قولها – أن مطبخكم الشرقي عامر على الدوام بأنواع اللحوم والأسماك، وسلال الفاكهة تعج بالأصناف منها والتي يعاد تشكيلها يوميا، إضافة إلى أطباق الحلوى، وهذا قد يزرع في نفس كل من «ليسا» و«ملني» الشعور بالإحباط، وعدم المساواة؛ لأني لا أستطيع توفير كل الذي توفره أنت لأولادك. عندها أدركت السبب الذي جعلني على الأقل أشبع فضولي، وأريح نفسي من احتمال تقصير قد ابتدرناه، أو سوء في الخلق قد اجترحناه، عندها زاد احترامي لتلك الصراحة التي يتميز بها البشر هنا، ورب طاعن يطعن بأن صراحتهم تستند إلى عدم حياء، أو التفكك الأسري والاجتماعي وكأن الطاعن لم تقع عينه على حديث رسول الله ﷺ الذي وصف فيه المسلم من أنه قد يقترف ويعمل الكثير مما ينافي الشرع إلا

الكذب، وأنا لا أدعي عصمتهم أو صواب كل ما يصدر عنهم، لكنني أبرر ذلك لعدة أسباب ربّما تساعدني في الدفاع عن رأيي فيهم[١]، فخوفهم أقل من خوفنا في مواجهة السلطان الجائر، وتفانيهم في تحقيق العدل وتضحياتهم التاريخية أكبر شاهد وأقوى حجة. فالناس هنا بين شغل شاغل، ولهو طامح، وجهد متواصل، وثلة أخرى منهم منهمكة في الكشف والاختراع، فأغلبهم بلا شك يلهث وراء المادة التي هي ديدن القوم، وفي الليل يتقلبون في أودية اللهو التي تتبدد فيها الأصداء، وضوضاء الماكنة والآلة تفصل بينهم في ساعات النهار، أما أضواء الدعاية والإعلان وهم ملوكها فإنها تعمي عيون الجميع.

وبعد مرور ستة أشهر تقريبًا على دراسة اللغة، سجّلتُ للدكتورة «كيرترود» الألمانية الأصول مديرة معهد اللغة في جامعة «Hull» زيارة بناء على طلبها، فسألتها: ما الخبر؟ فأجابت: لقد عثرت على هذه الورقة على طاولة مكتبي، وأريد ترجمتها وأظنها باللغة العربية، فهل لك أيها «الهيتي» ترجمتها لي؟ فقلت لها: حسنًا سأقوم بترجمتها وإحضارها لكم يوم غد. قالت: في الواقع أنا في مسيس الحاجة إليها، وأريدك أن تخبرني عن فحواها شفاها. وبعد أن ألقيت عليها نظرة سريعة، أخبرتها بمضامين الوثيقة التي كانت على ما أذكر «وثيقة صحية» صدرت من وزارة الصحة المصرية وتعود لأحد المبتعثين. فشكرتني على جهدي، ثم أردفت قائلة: أرجوك أن تتصل بمشرفتك في قسم التربية لتبدأ دراستك العليا، فما عُدتَ بعد الآن في حاجة للبقاء في معهدنا، فقد استوفيتَ الشروط، واستكملتَ العدة، وحصلتَ على الآلة. وكأنها تأسف على مغادرتي لمعهدها، ولسان حالها يقول:

يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم[٢]

---

(١) ذكر الإمام مسلم في صحيحه أن المستورد القرشي قال عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس) فقال له عمرو أبصر ما تقول، قال أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة أمنعهم من ظلم الملوك»

(٢) البيت للمتنبي من قصيدة مطلعها:

وَاحَرّ قَلْبَاهُ ممّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ ... وَمَنْ بجِسْمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ
ما لي أُكَتِّمُ حُبّاً قَدْ بَرَى جَسَدي ... وَتَدّعي حُبّ سَيفِ الدّوْلةِ الأُمَمُ

فاكتشفت أن الذي جرى اليوم هو الاختبار النهائي الذي على ضوئه أستطيع البدء بالبحث الذي قدمت من أجله، لكن ذلك الاختبار كان بعيدا عن الروتين الذي اعتدناه، وبعيدا عن الخوف الذي ألفناه، فقد دخل السجن في بلدنا كثير بسبب السرّية والقوانين الصارمة، وعلى أثره أُزهقت أرواح، وتشردت عائلات، وحرمنا ليالي عديدة من النوم كل سنة حتى تنتهي الاختبارات العامة؛ لأني واحد ممن وقع عليهم الاختيار في وضع أسئلة بعض مواد تلك الاختبارات ولعدة سنوات، وأذكر أن صاحبي الذي كان يقاسمني ويشاركني هموم وضع أسئلة مادة من المواد كان ممن يُعاقر أم الخبائث[1]، فكان أخشى ما أخشاه أن تلعب الخمرة برأسه ويذيع سرا خطيرا يهوي برأسي بسببه قبل رأسه.

أرجع بك أيها القارئ العزيز إلى ذاك الذي عملته مديرة معهد اللغة الألمانية، إذ اتضح لي أن الذي عملته هو اختبار يكلل الجهود، ويعزز الثقة، فهو على بساطته اختبار، وعلى سهولته تقويم، ويُعدُّ فوق هذا وذاك خاتمة المطاف، ونهاية المعاناة، وقد أعجبني ذلك الأسلوب، وبهرتني الثقة الكاملة التي تميزت بها المديرة؟ وكم كان هذا الوسام رفيع المقام؟ وغالي الثمن؟ وعزيزًا في الدلالة؟ فلا أوراق ثبوتية تُطلب منها، ولا محاضر اختبارات تناثرت عليها الأختام، ولا كشوف بالدرجات - دون أي شطب أو حك - تُرصد، ولا غرفٌ أبوابها بالشمع الأحمر تُختم، في وقت صارت اهتمامات التربويين منصبة على إصدار التعليمات تلو الأخرى والتي تزيد من صعوبة الاختبارات، وتعقد من آلياتها، فصرنا نُخرّج أُمَمًا لا تقرأ كتابًا إلا من أجل الاختبار، ولا تكتب صفحة إلا في معرض الإجابة عن أسئلة امتحان، وصار واجبنا أن نُحفِّظ أولادنا الكتب، دون فهم لمضامينها، ولا تدبر لفحواها، وأصبحت مواطن العمل ومؤسساته التي تستقبلهم تستغيث من فرط أميِّتهم، وشدة جهلهم بما يحيط بهم، ثم ما لبث التربويون أن قالوا: عليكم بصعوبة الأسئلة، والتشدد في لجان الفحص، فهو الحل الأمثل، والطريق الأوفى للرُّقي، وقد فعلوا. ومع هذا فلم تتغير النتيجة بل أصبح الذين يحصلون على معدلات عالية يُعدّون بمئات الآلاف لا بل بالملايين ولكن

---

(١) أم الخبائث تعبير يطلق على الخمرة، ولسان العرب عندما يريد التعظيم والتفخيم يستعمل ذلك الأسلوب كأم المعارك وأم القرى وأم الدنيا.

الفشل لاحق معظمهم في أن يجدوا لهم في الجامعات مقاعدَ، أو في المعاهد أماكنَ، وهذا ما دفع لقبول موضة فتح بلداننا لفروع الجامعات الأمريكية والغربية، لعلها تنقذ الموقف، وتحل المشكل، حيث إنّ ثقتنا بها أصبحت للأسف أكبر، في وقت طلّقت فيه الأنظمة التربوية العالمية نظام الاختبارات البائد، وألغت الاختبارات من المرحلتين الابتدائية والمتوسطة، وحل محلهما نظام العبور، وسهّلت وعدّلت ما تبقى منها، فيم انساق كثير وراء تقليعة (موضة) الدراسات عن بُعد أو بما يُعرف أيضا بالجامعات المفتوحة، والتي تفننت في طرق استجلاب الطلبة من الجياع إلى الشهادات العليا، والتي للأسف شاركت شخصيا بالتدريس في إحداها ، وأرى من المناسب أن نشير هنا إلى مثال واحد وهو ما أشار إليه «مايكل كرولي»[١] وهو واحد من آلاف الأمثلة لبيان الحجة فهو أصدق شاهد على ما ذهبت إليه، فقد حصل «كولبي نولان» في برنامج ماجستير إدارة الأعمال على معدل ٣,٥ GPA مقابل ٣٩٩ دولارا لينال شهادة «MBA» والتي من المؤكد أنها ستجعل سيرته الذاتية دسمة، شريطة أن يمنع نفسه من المواء في حالة دعوته لمقابلات العمل، إذ أن «كولبي» هذا ليس شابا طموحا ذا مستقبل مشرق في العمل، بل هو قط منزلي أسود! يعود لمدعي عام يعمل في مكتب المسؤول القضائي في ولاية بنسلفانيا والذي كان قد استخدم اسم «كولبي» في كمين نصبه «لجامعة ترنتي ساوثيرن Trinity Southern University»، وأنا لا أُلقي باللائمة على الطلبة الراغبين في الحصول على درجات الماجستير أو الدكتوراه لكني أُلقي باللوم على المؤسسات التعليمية العربية والتي نصت في صلب أنظمتها أن الحصول على درجة الدكتوراه هي الأساس المعتمد لأعضاء هيئة التدريس الجامعية، في حين كانت شهادة الممتحن الخارجي الذي رأس لجنة اختباري لنيل شهادة الدكتوراه وهو من الأساتذة الأنجليز المعتبرين والمعروفين هي شهادة الماجستير، والأمر نفسه فيما يتعلق بالممتحن الداخلي، وكان الأخير قد نال شهادة الدكتوراه بعد أن نلتها. ولم يكن البرفسور «مَكليلاند McClelland» المشرف على دراستي ليعترض كون الممتحنين يحملان درجات علمية أقل من الدرجة التي سيشتركان في منحها.

(١) راجع مجلة Reader's Digest العدد مايو ٢٠٠٥ الكاتب Michael Crowley
(Crowley, Michael "Psst... Need a degree?" The Reader's Digest, May 2005: 27 - 30).

أما مديرة معهد اللغة التي تتقن من اللغات أربعا، فقد عبّرت من خلال النمط الذي اختارته لاختباري عن الثقة بكل معانيها، وعن السلطة بكل تواضعها، وعن البساطة بكل أشكالها، فهذه الرشاقة ذكرتني بإجازة شيوخ الأمة الأولين لطلابهم، فلا أوراق رسمية تُطلب لتثبت تخرجهم، ولا وثائق تُعد عدا الإخبار عن ملازمتهم الشيوخ، وأخذهم منهم، وأنعم بهم مصدرا صافيا نهل منه العلماء. وعلى ضوء من شهادة تلك المديرة فإن قسم الترجمة في جامعتي ضمّني إلى فريق الترجمة، لترجمة النصوص العربية إلى الإنجليزية وبالعكس.

وقبل أن أسدل الستارة على ذكرياتي في معهد اللغة أجد نفسي نازلا على حكم المروءة للقول: بأن مديرة المعهد كانت تحمل المشاعر الإنسانية الطيبة نحونا، وأذكر في حرب الخليج الأولى موقفا من مواقفها المشرِّفة لمّا أشارت عليّ بإيصال رسالة مغلقة إلى زوجتي، وبحضورها تلمّست الرسالة وإذا بها مبلغ لم أهتم بمعرفة مقداره، فقلت ما هذا؟ فقالت: «نحن نعرف ما جرى لكم من جراء حرب الخليج، من الغاء بعثة وانقطاع معاش، لذا كلنا أمل ورجاء أن لا تمانع في قبوله فإنه لا يزيد عن المبلغ الذي دفعته لنا أثناء دراستك للغة الإنجليزية، كما أننا نشعر أنكم في وضع استثنائي»، وقد رفضت استلامه، لكن تبقى لتلك المبادرة أثرها الطيب حيث تحلَت الدكتورة بأسمى معاني الإنسانية.

كانت الليلة التي سبقت يوم مقابلتي لمشرفتي «الدكتورة جاكلين لوكس J. R. Lukes» طويلة جدًا، إذ تاه بي الأرق، وبدأت الكوابيس تزحف ثقيلة على صدرى، وأمسيتُ ليلتي أراجع الملفات المطّوية التي ربما تساعدني في تقديم نفسي للمشرفة، فهذا ملف الخبرات التدريسية الذي كفّنته الهموم، وذاك ملف العمل الإداري، أورام العمل واضحة عليه، إلى جانب ملف التأليف حيث تركت إلتهابات التحديات بصماتها، فيما تناثرت الأوراق من ملف البرامج التربوية التلفزيونية وقد وشم بأوجاع الشهرة التي ضريبتها الكدر والهم والغم[1]،

(١) ذكر الدكتور عائض القرني في كتابه» لا تحزن» أن حب الشهرة تشتت القلب وتكدر صفاءه واستقراره وهدوءه، ولذلك قال أحدهم في المقابل:

من أخمل النفس أحياها وروَّحها ... ولم يبت طاويا منها على ضجر

إنَّ الرياح إذا اشتدت عواصفها ... فليس ترمي سوى العالي من الشجر

أما تلك التي في زاوية الغرفة فهي مذكرات تعود لحقبة الإشراف التربوي تُركت مبعثرة على عجل بسبب السفر، فيما أصبحت ملفات مرحلة الطفولة تلفها ضبابية بسبب بعدها الزمني وكأنها أصبحت في مفازة، ثم بدأت أسأل نفسي: هل يحتاج موعد الغد لحمل كل تلك الملفات؟ وهل تلك الإنجليزية - أعني المشرفة - تفهم تراثنا وتحترم قيمنا؟ فإذا لم تكن كذلك فهل لي أن أصبر على تحدياتها؟ ثم رجعت أسأل نفسي: لِمَ كل هذا التشبث بالتراث والتدثر بالقيم؟ وقبل أن تُغرقني الأسئلة بأمطارها، وتحركني سيولها الجارفة نحو وديان الضياع، عليّ أن أتحقق مع نفسي من خواطر كنت أحسبها من المسلّمات، أما للآخرين فهي قد لا تعدو أن تكون مواطن ظن، ومواقع شك، مع أني لم ألتق بالمشرفة التي عُينت لتقودني في رحلتي الطويلة نحو الدكتوراه، ولم أتكلف في الوقت نفسه مراجعة المكتبات للعثور على أثارة من كتاب من تأليفها أو ورقة تربوية منشورة باسمها في دورية من الدوريات، ولعل عدم الاهتمام ذلك يرجع للشغل الشاغل في تعلم الإنجليزية الذي طوقني في المدة الماضية، تلك اللغة التي ما زالت حدودها غير واضحة، وقد وضعتني عند حقيقة مفادها أن ما كسبته منها «أخف ما لمَّ من زاد أخو سفر»، حيث كان حال تدريس اللغة الإنجليزية في بلداننا على ذلك العهد بئيسا، فلا وجود للمتخصصين في المرحلة الابتدائية ولا المتوسطة، ولا أدري باعتباري أحد المشتغلين في الحقل التربوي من أين تولدت فكرة الاهتمام بالطلبة الذين هم في المرحلة الثانوية دون طلبة المرحلة الأولية، وهذا دليل آخر يقوي حجتي عندما انتقدت نظام الاختبارات في مكان آخر من هذه المذكرات، فإن هدف تدريس اللغة الإنجليزية يمكن اختصاره، فقط، بعبور الاختبار الذي ينتظرنا في المرحلة الثانوية، وليس باعتبارها لغة للحياة، أو أنها إحدى نوافذ الحياة، فمن خلال هذه الرؤية أو الخبرة السابقة في مجال اللغة كيف يتسنى لي أن أجمع بين أمرين: أمر إتقان اللغة وأمر البحث والتنقيب في وقت حفرت السنون أخاديدها الغائرة في وجهي، وضعف البصر في أنفاقها المظلمة، وانحنى الظهر حيث عجز عن حمل المزيد من الصعاب، ووهن العظم. فهل، يا تُرى، أجد نفسي بعد كل ذلك قادرا على أن أتصدى لمزيد

من المواجهات أو أتحدى الصعاب؟ وظلت أمواج بحر ليل امرؤ القيس تتغشاني، وسدولها[1] تتستر على قطارات الضجر وهي تحملني من محطة إلى أخرى، وأنا أرقب خيوط الفجر البيض وهي تغالب نقيضاتها السود، ولعل في تلك المغالبة ولادة صبح مسفر ضاحك مستبشر.

وعند الثامنة والنصف صباحا من أحد أيام شهر إبريل ١٩٨٧ وأطراف أصابعي تنقر بكل أدب باب غرفتها في الطابق الأخير من مبنى قسم التربية، وإذا بها تأذن لي بالدخول، مرحبة وقد افترّت شفتاها عن بسمة عريضة على الطريقة الإنجليزية، ورائحة الدخان تحتل المكان، والسجائر قد تركت بصمات واضحة على أناملها التي اصطبغت نهاياتها المتورمة باللون الداكن، ورسوم تخطيطية منثورة على طاولتها القديمة، وكتب صُفر – أو مصفرّة – تملأ الرفوف حتى سقف الغرفة من كل جهات الغرفة، ورزم من رسائل طلبة الجامعة تغفو على الأرض لا أحد يزعجها بالمراجعة. والآن وأنا أمام مشرفتي لا بد لي أن أختار افتتاحية أرطب بها الجو، وأعطر بها المكان، على الطريقة الإنجليزية، فسألتها: من يكون هذا الفنان الماهر الذي عبر بريشته عن فصول السنة؟ واختص بشيخ الفصول منها – أعني فصل الشتاء– ؟ فحدثتني عن عدوى فنية انتقلت إليها من والدتها الفنانة، فهي الأخرى كانت رسامة مشهورة، وكانت نيويورك محطة لعرض لوحاتها. جرى كل ذلك وأنا ما أزال واقفا أنتظر الإذن بالجلوس، ولكنها هي الأخرى ظلت واقفة، فقلت في نفسي يا سبحان الله لعل اجتماعنا لم يخصص له الوقت الكافي، أو أنه اجتماع طارئ يجري بموجب آخر التقليعات والموضات التي تبتكرها بعض الشركات الكبرى لمدراء الأقسام عندما يضطرون لمناقشة مسألة طارئة.

---

(١) أُخذ المعنى من بيت امرئ القيس في معلقته التي مطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

والبيت هو:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله ... عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

وبعد مقدمة متنوعة (كوكتيل) من المجاملات، وسؤال يفضي إلى سؤال، ومسألة تفتح أمامنا مسائل، استدركت عليها بأن تجلس، فكانت لبقة وذكية في حوارها، فقالت: وكيف لي أن أجلس وأنت واقف؟ عندها بادرت بالجلوس، وكلي آذان صاغية، أتسقط حركاتها، وأستقرئ العيون التي حمدت الله أنها كانت وراء نظارتها الطبية الشفافة النقية التي تتيح لي فرصة قراءة مراميها دون عناء ومشقة. وبعد ساعة من تلاقح الأفكار، وتعانق الرؤى، وتبادل أنخاب الخبرات شعرت كأننا وصلنا إلى اتفاق رغم الجو المشحون بحرارة شحذ الهمة، ورهافة الحس لكل كلمة تقال في أن نعقد العزم على مواصلة المشروع، فبناء الثقة بين شركاء العمل أساس في تأسيس النجاح، ووجدت فيها تصميما على استنزاف طاقتي،

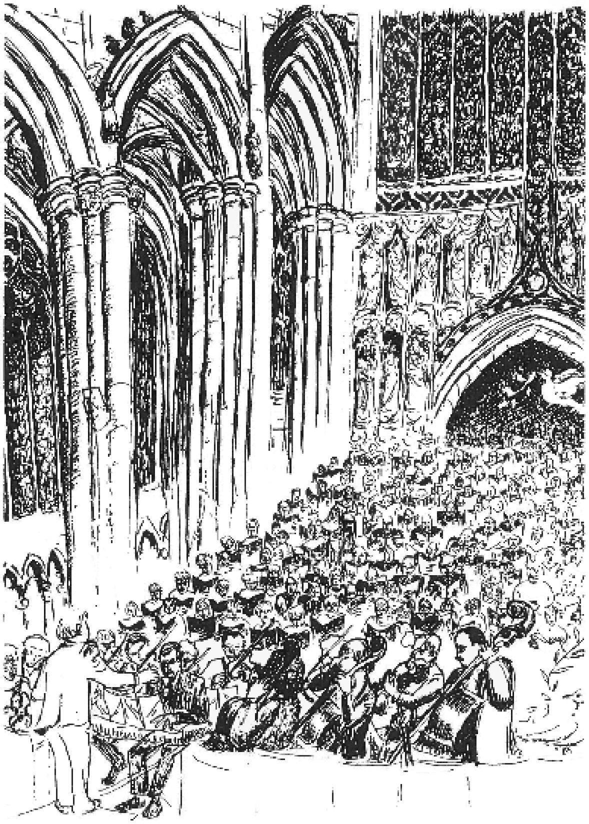

لوحة من أعمال المشرفة على دراسة الكاتب

واستثمار قدراتي، وإطلاق بنات أفكاري، لذا عليّ أن أطلّق كل شيء عدى ما تريد، وهي رؤية سريعة ربما قد أخطأت تلمس أبعادها، ومعرفة حقائقها، إذ أخبرتني أنها خريجة أكسفورد، إحدى أعرق الجامعات البريطانية، وربما تلك أحد أهم مفاخرها، لكننا اتفقنا على أساس أن يقوم كلٌّ منا بدوره. فدورها مشرفة تُسدي النصائح، وتذلل الصعاب، ودوري تسقط المعلومة، والتحقق من صدقها، ثُمَّ إصدار الأحكام بشأنها، أما التعميم فليس هنا محل نقاشها. وكنت كأني أحترب معها بلا سلاح، فالخواطر تملأ خزانة ذاكرتي، والأفكار تغمر حاضرتي، والبديهة يطفح بها فؤادي، ولكن بلسان يرفض التعبير عنها بلفظ أعجمي، فلساني في الإنجليزية ما زال طفلا لم يُفطم، وساقي لم يقو عوده، وهي تكيل المديح لي تارة، وتذكي فيّ روح الشجاعة تارة أخرى، وتثير فيِّ لواعج البحث، وأنا أعلم أو كأني أعلم في تلك اللحظات وقد لا يعبر عنها غير قول القائل:(١)

كلانا بها ذئب يحدث نفسه   بصاحبه والجَدُّ يُتعسه الجد

فالساحة ساحتها، والجمهور في الملعب جمهورها، لذا كانت تستقصي بلغتها الفصيح وغير الفصيح ،وكأن الذي تراه أمامها كان زميلا لشكسبير، وفوق ذلك عليّ أن أفسر ما أسمع من كلمات؛ لأن الكلمات أواني للمعاني، فتراني حينًا أنقّب في زوايا أفكارها عند الوقفات، في حين أتسوّر إذا علا صوتها على وديان الصمت، وقبل أن نختم لقاءنا سمعت طارقا يطرق علينا باب الغرفة لكن دون جواب منها بالسماح أو الرفض ، وقد حاول الطارق ثانية وثالثة دون جدوى، فهي غير مكترثة البتة، وأخذت تغمز لي بتجاهل الطرق والطارق، وكان هذا بمثابة أول درس عليّ أن أتعلمه وهو ألاّ أحاول طرق بابها دون موعد مسبق. وقبل

(١) البيت من قصيدة رائعة للبحتري مطلعها:

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد   أما لكم من هجر أحبابكم بد

وبعد استطراد في الوصف الجميل يقول:

يقضقض عصلا في أسرتها الردى   كقضقضة المقرور أرعده البرد

بدا لي وبي من شدة الجوع ما به   ببيداء لم تحسس بها عيشة رغد

كلانا بها ذئب يحدث نفسه   بصاحبه والجد يتعسه الجد

عوى ثم أقعى وارتجزت فهجته   فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد

توديعها حددنا جدولا زمنيا للقاءات القادمة من أجل مناقشة المشروع الذي اجتمعنا من أجله مجددا.

وبعد أن اختتمت قمة بغداد، كان الرئيس العراقي يقود السيارة الرئاسية بنفسه وضيفه أمير الكويت يجلس إلى جانبه، والرئيس يطلب من أمير الكويت مطالبَ تبدو عسيرة وصعبة التنفيذ، وعندما تردد الأمير في الإجابة، أخبر الرئيس ضيفه أنه سيقوم بزيارة الكويت زيارة خاطفة، ولا أدري إن كان الأمير قد فهم تلك الرسالة. وعند الساعة الرابعة صباحًا في توقيت لندن أيقظني جرس الهاتف حيث اتصل أحد المعارف ليخبرني أن جنود العراق دخلوا الكويت وما زال الناس نياما لا يحرسهم سوى غطيطهم المتعالي ليمهدوا لتلك الزيارة الخاطفة التي وعد بها الرئيس ضيفه، وفعلا وصل الرئيس الذي لا تفارقه الأحلام ليخرج على العالم وهو يدخل إحدى مغارات الجيش هناك، وقامت عندها الدنيا ولم تقعد، وانقلبت الموازين، وطريق الموت بين البصرة والكويت بعد أشهر من الغزو كان الفصل الأول للمسرحية، رغم أن النساء الأرامل ما زلن في عدتهن من جراء المطحنة الأولى، وأرحامهن لم تعوضّ الآلاف من الشباب الذين سقطوا فيها على ضفاف شط العرب، وعلى السفوح الشرقية لسلسلة جبال الزاجروس طوال ثماني سنوات لحرب الخليج الأولى.

ونحن الآن في يوليو ١٩٩٠ وقبل أن تقصف قوات التحالف الدولي بغداد بالطائرات والصواريخ الموجهة عبر البحار لإخراج العراقيين من الكويت، قرر «الهيتي» أن يقصف مشرفته بتقرير يوجهه إلى رئاسة قسم التربية في الجامعة، مع أن المعهود عنه كرهه كتابة التقارير وما كتب منها لا يزيد على عدد أصابع اليد الواحدة طوال حياته الوظيفية، فله موقفه الخاص من كتابة التقارير، فهو كاره لها ولمن يقع في شراك حبها، ويعتقد أن معظم المرضى المولعين بكتابة التقارير هم على العموم من المتسلقين على ظهور إخوانهم من العاملين معهم، وقد أعمت بصائرهم شهوة تبوؤ الوظائف العليا دون النظر إلى قدراتهم ومؤهلاتهم، أما الكاتب فقد عاف طعم المجد الذي تعارف الناس على حبه، والتفاني

من أجل الوصول إلى قممه إن كانت له قِمم فهي قُمم[1] فلم يبالِ «الهيتي» بوسائل المجد التي تأتي من خلال تلك الطرق الملتوية، ولم يعلق عليها أملا، بل أُتهم بالسلبية في ذاك المجال وكأنه كمن أوى إلى صومعة يرثي الصراع الدائر بين أقرانه وأترابه ممن حجب السراب الزائف عن عيونهم رؤية الحق. فهو أعني الكاتب لا يرى مبررا أخلاقيا واحدا له أو لغيره في منافسة كتلك التي نتحدث عنها مع أصحاب السبق أو مع من تربطه بهم وشائج الصداقة احتراما للصديق وللصاحب، ولذا لم يعهد عنه أنه تقدم بطلب لشغل وظيفة أعلى في مكان عمله، وهذا الباب واسع للحديث عنه، لا نجد من المناسب الخوض فيه الآن.

أما الآن فعلينا الرجوع إلى قصتنا: فبعد أن سلّم رسالة الدكتوراه لمشرفته استعدادا منه للمناقشة، ومشرفته الذكية منهمكة بإرسال مزيد من لوحاتها الفنية ومشغولة في بناء مجدها، فهي غير آبهة في تخصيص وقت لمراجعة تلك الرسالة، في وقت اشتدت فيه الأزمات، وتوالت فيه الكربات، وكثرت المصائب، وفوق ذلك كله يستلم «الهيتي» خطابا من السفارة العراقية كغيره من الطلاب العراقيين يحثه على العودة إلى العراق وترك الدراسة، وفي خلاف ذلك تكون الدولة في حل عن التزاماتها المادية والمعنوية. وأول خطوة اتخذتها هي أن ألتمس مشرفتي للإسراع في الترتيب والتقريب لساعة المناقشة النهائية، لكن المشرفة أصرّت على احترام مذكرتها السنوية مهما كانت الظروف، فلا مكان فيها للأمور الطارئة، تلك المذكرة التي لم يؤخذ رأينا فيها على الإطلاق كما ينبغي، وهي على ضوء ذلك تخطط للبدء في مراجعة الرسالة بعد ثمانية أشهر من الآن، وقد طرحت عليّ خيارات ثلاثة، وهذا كل الذي تستطيع فعله، إذن فما هي تلك الخيارات؟ وكان خيارها الأول: أن أغادر إلى العراق تاركا عملي (أعني الرسالة) معها، فإذا حان موعد الدفاع عنها أرسلت في طلبي للقدوم إلى بريطانيا؛ وقد رفضت ذلك حيث لاضمان بموافقة الدولة على عودتي إلى بريطانيا؛ لأن ذلك يعني رجوعنا إلى المربع الأول في استحصال الموافقات للسفر إلى الخارج وهي في غاية الصعوبة في وقت السلم فكيف يكون الحال في وقت الحرب؟،

(١) فالقممة بكسر الأول (القاف) أعلى الشيء، والقمة بالضم القمامة.

أما الخيار الثاني فيبدو بالنسبة للقارئ أنه خيار إنساني والذي يتلخص بشحن العائلة إلى العراق على أن أسكن معها، ومعنى هذا أن عليّ أن أودّع قلبي وأعلّق وجداني مع أنّي لم أعر طرف اهتمام لمجرد التفكير في مثل ذلك الخيار الذي يتعارض مع خلقي وسماتي، وفي حالة رفضي للخيارين فهي مضطرة لتوفير السكن لي ولعائلتي وتحشرنا في غرفة من غرفات بيتها، عندها علينا أن نتنسم الهواء ولكن بمرسوم يومي يصدر عنها، وكل ذلك بسبب دعواها أنها لا تملك الوقت الكافي لمراجعة الأطروحة حاليا.

أما من جانبي فإن الأمر يتطلب حزما في اتخاذ القرار الأصعب والذي يكمن في طلاق المشرفة طلاقا بائنا لا رجعة فيه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ فلا بد من إعمال الفكر، وشحذ الهمة، وبعد التوكل على الله اصطحبت عشرات الأعمال الفنية التي كانت قد بعثت بها إليّ خلال سنوات العمل – أعني سنوات إعداد الرسالة –. وفي ضحى اليوم التالي بعد ليلة الولادة العسيرة للقرار الصعب دخلت على المدير الإداري لقسم التربية وشرحت له إمكانية تغيير المشرف على دراستي إذا ما تم التنسيق مع رئاسة القسم، وطلبت أن يكون الموضوع في غاية السرية والكتمان. وبعد حصولي على الضوء الأخضر في إمكانية تغيير المشرف قابلت البرفسور «ماكليلاند» رئيس القسم في الجامعة، ودفعت بالتقرير الذي أجبرت على تحبيره شارحا له على الفور الصعوبات التي نواجهها من جراء دخول العراق أرض الكويت، واندلاع حرب الخليج الثانية، ثم قدمت له لوحات الفن التي اصطحبتها معي والتي كانت المشرفة قد أرسلت بها إليّ، وبعد أن تمهل في قراءة التقرير عاد يقلب اللوحات الفنية واحدة واحدة، فحدّق فيها وكأنه أضحى يحسب الزمن الذي تهدره المشرفة من وقتها وكان الأجدر بها أن تخصصه للطلاب الذين معها. حيث استعرض رئيس القسم من خلال لواحتها فصول السنة، فهذه لوحة عروس الفصول (فصل الربيع) وهذه مجموعة اللوحات الخاصة بشمس الصيف الدافئ أما القسم الثالث فكانت مخصصة لموسم الخريف أما القسم الرابع ... ... وهكذا، وهكذا تركت البرفسور يتمعن في باقي اللوحات وقد اختار واحدة من تلك اللوحات والتي كانت بعنوان «سمفونية مجموعة رايدنك الشرقية»

التي قامت المشرفة بتحديثها وإرسالها إليّ لاحقا في ربيع عام ٢٠٠٧ وإضافة إلى جمالها ودقتها فهي تبيّن الجهد والوقت المبذول ..... وبعد مدة تركت فيها «البرفسور» يفكر مليا. وبعد برهة احتل الصمت فيها المكان وحاولت تحريك ذالك السكون بسؤال واحد مفاده: إذا لم يكن لدى المشرفة وقت لمراجعة عملي فكيف تجد الوقت لعمل مثل هذه الأعمال الفنية الدقيقة؟ عندها أطرق مليا وهو يحدق في وجهي وكأنه شعر بالأسف والأسى. عندها قال: ولِمَ لم تخبرني بكل ذلك من قبل؟ وكان جوابي على الفور أني طلبت منها الموافقة على لقائك أكثر من مرة ولم تكن راغبة بذلك، ثم إني آسف أشد الأسف لزيارتكم للمرة الأولى وقد جئت بها متظلما، ثم التفت إليّ وكأني أقرأ في وجهه أنه قد استحسن مقالتي، وهزّته عبارتي وقبل عذري فقال: الحق والحق أقول: أنها كتبت عنك تقارير عدة، وقد أشادت بك كأحسن باحث مرت به خلال مسيرتها الإشرافية، ولكن هذا لا يكفي ..... ثم نهض وطلب مني أن أبقى جالسا في مكتبه، وغادر المكتب وأنا لا أدري ما نيّته؟ وأخذت أسأل نفسي: وإذا ما ذهب لمعاتبتها فما الفائدة التي سأجنيها من ذلك؟ وبعد أقل من عشر دقائق إذا به يعود وقد بدت على محياه ابتسامة عريضة، يسير نحو مكتبه واثق الخطى، وإذا به يصافحني ويخبرني وهو يشد على يدي قائلا: أهنئك وأخبرك أن الدكتورة «لوكس» لم تعد منذ هذه اللحظة مشرفة على دراستك، حيث حصلت على موافقة مجلس عمادة الجامعة «السنت» على هذا الإجراء، وأصبحتُ أنا المشرف على دراستك، وأرجو تقديم أطروحتك للجامعة ليتسنى لنا تهيئة ترتيبات تحديد الموعد النهائي للدفاع الشفهي عنها بأسرع وقت ممكن. عندها شكرت البرفسور على جهوده وعدله، ورجوته أن يراجع الرسالة التي تقع في ثمانمائة صفحة، فقبل مشكورا، وبعد شهرٍ أو أقل من ذلك استلمت منه خطا يبلغني فيها ضرورة استلام الرسالة لإجراء اللمسات الأخيرة عليها، ثم اتخاذ الخطوات القانونية في تقديمها لقسم التسجيل والاختبار، لتحديد موعد المناقشة. ولم أجد، بحمد الله، من الملاحظات التي تستحق المراجعة إلا في موضعين قدّمها البرفسور بأرق العبارات، وأصدق الكلمات، تاركا لي حرية الأخذ بها أو الرد.

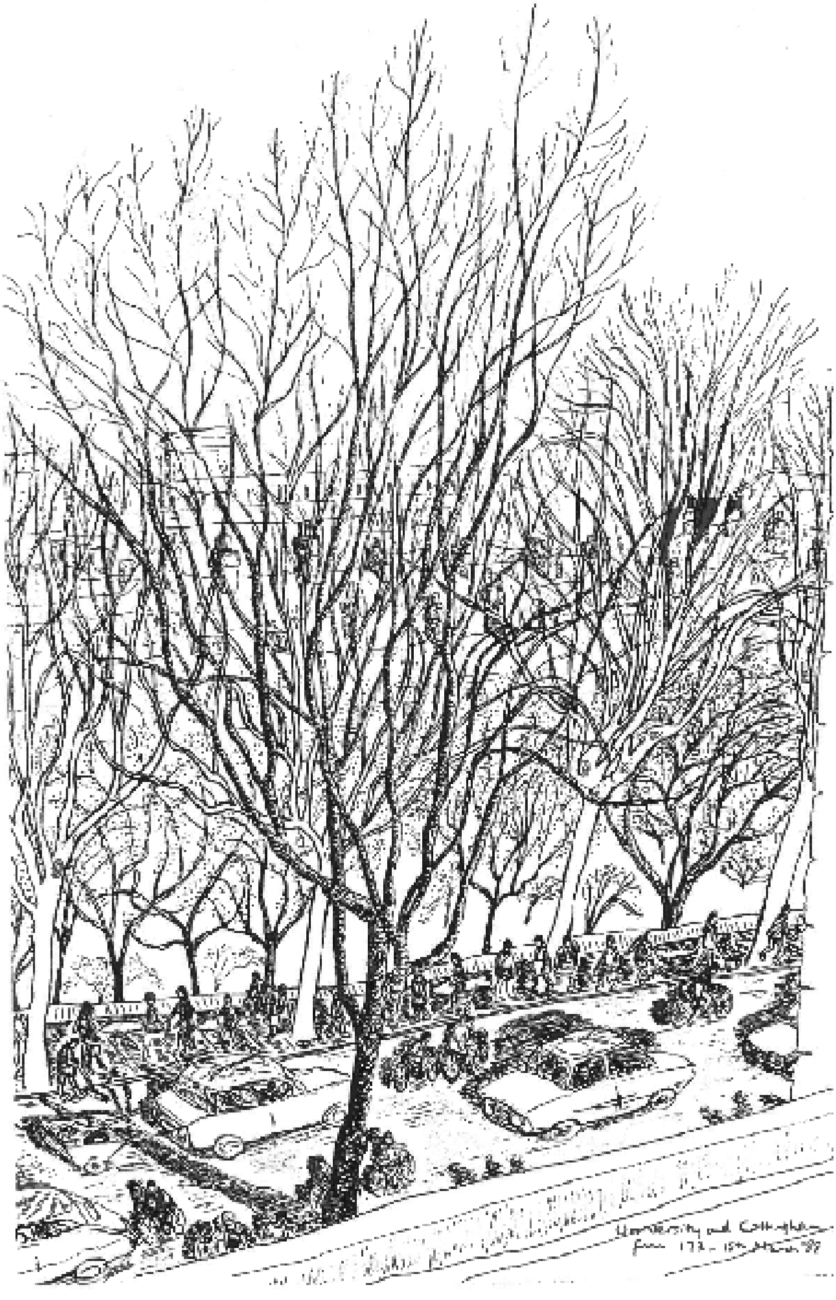

إحدى لوحات المشرفة على دراسة الكاتب

ولم تنته المعركة بعدُ على ما يبدو، إذ هاتفتني المشرفة السابقة لتعلن عن رغبتها الجامحة لحضور جلسة المناقشة التي تم تحديد موعدها بعشرين يوما من ذلك التاريخ، فهي بذلك تطالب برد اعتبارها، وقد أخذت تمنّيني وترغّبني في حضورها، وكان صعبا عليّ أن أرفض طلبها رغم أني ما كنت أحب حضورها، بل أخشى منه، فاتصلتُ على الفور بقسم التربية لمناقشة طلبها، ولأعرف حدود صلاحيتي في الرفض أو القبول، فجاء رد القسم: أن لي الحق الكامل برفض طلبها، بل إنّ حضورها مشروط بموافقتي؛ فاتخذت قرارا أن أعزل نفسي عنها، بل عن العالم، وأن أسدّ كل المنافذ التي قد تفضي إلى اللقاء أو الاتصال بي، فهرعت إلى هاتف المنزل وقطعت الحرارة عنه حتى إشعار آخر (أعني حتى وقت المناقشة) لأقطع عليها فرصة الاتصال خشية توجيه الرجاء نفسه الذي لم أكن أرى أن من المناسب تلبيته، واصطحبتني زوجتي كمشجع وحيد في طريقنا إلى الجامعة حيث مكان المناقشة.وحُق لي أن أقول: أن هذا العمل لم يكن ينجز دون صبرها عليّ وتشجيعها لي. فمشاركتها الفرحة أو مشاطرتها الهم كما اعتادت مسألة لا نقاش فيها، وقد تركنا أولادنا وهم لا يعلمون وجهتنا الحقيقة.

وأخذت الدقائق بنظام العد التنازلي حيث الهدف الساعة الواحدة ظهرا، وقت جلس «برفسور ماكليلاند» وعن يساره رجل في نهاية الخمسينيات من عمره، وقدّم لي نفسه باسم السيد «كودنك» من قسم التربية من جامعة «Durham» العريقة بصفة الممتحن الخارجي، وإلى يمينه جلس السيد «كولن بروك» بصفة الممتحن الداخلي، وهو المحرر لاثنتين من أهم الدوريات التربوية في بريطانيا ومختص بالدراسات التربوية المقارنة. أما أنا فجلست قبالتهم على مقعد واطئ لكنه، للحق، كان مريحا، وكنت قد اصطحبت رسالتي التي جعلتها هي الأخرى تأخذ قسطا من الراحة على الأرض، فهي ثقيلة إذ بلغت بعد التعديل والتصغير ما يربو على سبعمائة صفحة، ولا أشك أنها كانت دقائق هامة؛ لأنها تسبق ساعة أو ساعات السجال، وهي فضلا عن أنها تختصر مدة تربو على ثلاث سنوات

من العمل المضني، فإنها ستكون بمثابة اختبار للتأكد من جدارة «الهيتي» في قيادة نفسه أو ربما قيادة غيره في مجال البحث التربوي على الأقل.

وبدأ السجال، والكر والفر بيني وبينهما. أما البرفسور «ماكليلاند» فكان عليه الآن أن لا ينبس بكلمة؛ لأنه ليس من أعضاء لجنة المناقشة، لكنّي، من خلال لغة العيون وهزّ الرؤوس، كنت ألحظ عواطفه ومشاعره. فمعركة الدفاع عن حياض العلمية والمصداقية تعالى غبارها، وحميَ وطيسها، وفيها تهاوت السيوف على الأرض بعد أن تكسرت في أيديهم أنصلتها، فصرت في ساحة الوغى أفهم، لأول مرة، بدقة متناهية ذلك البيت من الشعر الذي طالما رددناه في عهود الصبا[1]:

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا　　　وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وأنا أتقوّى بالثقة بالله ثم بالصدق فيما قدّمت، لكني، والحقَّ أقول، أن الممتحِنَيْن كانا على خلق وأدب جمّ، إذ التزما بأصول النزال وقواعد الحرب، فلم يقلعا شجرة، ولم يقتلا شيخا ولا طفلا، بل اعترف الممتحن الخارجي أنه قد تعلم كثيرًا ولاسيما ما تعلق بالإحصاء الذي اعتمدَتْه الرسالة، وأنه مسرور للطريقة التي قُدمت بها الحقائق، وسعيد للتناغم والانسجام بين فصول الغزوات داخل الرسالة. وما هي إلا لحظات لالتقاط الأنفاس حتى بدأ الممتحن الداخلي من جديد بتأجيج نيران المناقشة بعد أن كادت تخبو، حين سألني سؤالا خِلْتُه محرجا أول وهلة، وأبدى استغرابه من أن أحد الباحثين العراقين في جامعة «ويلز» الذي حصل على شهادة الدكتوراه توًّا كان قد اقتبس من عملي الذي ما زال حتى هذه الساعة في طور المناقشة، وبعد أن ترويت قليلا، وأطرقت ألتمس الإجابة الحقة لعل التباسا قد حصل أولعبة قد حيكت خيوطها بليل، فتذكرت مصرحا: أني كنت ألّفت كتابا حول (تطور التربية في العراق) في السبعينيات من القرن الماضي، وربما كان ذلك الباحث قد اشتبه في النقل، أو أن الممتحن الداخلي لم يتحقق من الكتاب الذي أشار إليه ذلك الباحث، عندها رأيت أسارير وجه البرفسور تنبئ عن الرضا والقناعة.

(١) للشاعر بشار بن برد وهو شاعر مخضرم أدرك بني أمية وبني العباس، ولد أعمى.

وبعد ساعة ونصف توقفت رشقات السهام تماما. وللأمانة أقول: إنها كانت في معظمها تقع خارج حدود ميدان الرسالة. وما هي إلا لحظة صمت، كانت مريرة حتى أعلن الممتحن الخارجي: (الآن علينا أن نسلم راية العرفان أن عملك هذا كان مميزا، وأن سعيك كان مشكورا، وتجارتك لم تكن يوما كاسدة). وأحب أن أشير هنا إلى أنّه من الأعراف المتّبعة في لجان المناقشة أن يُطلب من الطالب الذي تتم مناقشته مغادرة المكان مؤقتًا، ثم تمضي اللجنة في أعمالها السرِّيِّة للتشاور والمداولة التي ربما تستغرق ساعة أو ساعات، أو ربما تؤجل تلك المداولة إلى يوم آخر لتعطى له النتيجة.

أما اللجنة التي خُصِصت لمناقشتي فقد عبّرت لي عن ارتياحها لما قدّمت وأعلنت النتيجة بمنحي درجة الدكتوراه في فلسفة التربية بجدارة ودون الالتزام بتلك الأعراف التقليدية المزعجة المقلقة. وشدّوا على يديّ مهنئين، ثم عقّب الممتحن الداخلي قائلا: (نُعرب لك عن خالص التهاني، كما أود إخبارك بعدم وجود ملاحظات أو إضافات على الإطلاق). وكنت أرجو أن تكون النتيجة على نحو آخر حيث ما زالت بي حاجة إلى مزيد من الوقت للبقاء في بريطانيا، إذ الأوضاع غير مستقرة في العراق، ولكي يُنهي أولادي دراستهم، وقد جاءت تلك الأمنية للضرورة، وهو خلاف ما عملته قبل سنة عندما أوفدت واحدا ممن تحترمه سفارة العراق من الطلبة بغية تقصير منحتي الدراسية سنة على الأقل لعدم حاجتي إليها، ولكن: «تجري الرياح بما لا تشتهي السَفِن[1]»، فقد دخل «صدام» الكويت، وكادت خريطة النفط أن تتغيّر، لكن صنّاع القرار من أصحاب المقص الدوليّ لم يرق لهم ذلك إذْ لهم خرائطهم الخاصة.

وأخيرا نطق «البرفسور» وسألني: أما اللجنة هذه فقد أنهت أعمالها فما هي مطالبك يا دكتور؟ وكانت هذه هي المرة الأولى التي أنادى فيها بلقب: دكتور. فكان جوابي هو رجائي أن أُمنح مدة كافية من الوقت لأضيف بعض الملاحظات الهامة واللمسات الأخيرة على

(١) هو عجز بيتٍ للمتنبي وصدره: ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه

بعض فصول الرسالة، وكان جواب اللجنة الموافقة على مقترحي رغم قناعتهم أن الرسالة كاملة ولكن الخيار يظل مفتوحا أمامي لتدعيم الرسالة وإضافة ما أراه ضروريا على أن لا أتجاوز مدة أحد عشر شهرا. ثم ما لبث الممتحن الخارجي أن قدّم النصيحة في طبع الرسالة، وكنت أرى أن مضامين أطروحتي لا تنفع المدرسين بشكل مباشر إنما تخص بالنفع المخططين للمناهج التدريبية في العراق وهم قلة، ولذا فإن نسخة أو نسختين تفيان بالحاجة.

وعودًا إلى قسم التربية، فقد وجدته أقام حفلة شاي مختصرة، ورتّب الأساتذة لدعوة زوجتي لتكون أول المهنئين بعد لجنة المناقشة، وأشار رئيس القسم إلى أن مثل هذه الحفلة تقام لأول مرة في مثل هذه المناسبة، وهي تأتي لغبطتنا ولسرورنا «بالهيتي». وأترك للقراء الكرام أن يقدّروا مدى فشلي أو نجاحي في المهمة.

المحطة السابعة

زمن الموت البطيء

أنا البحر في أحشائه الدر كامن　　　فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

(حافظ إبراهيم)

المحطة السابعة

فترة الموت البطيء

قبيلَ مغادرتي الجامعة وحين انتهت الحفلة التي أقيمت على شرف النجاح في قسم التربية، اندفعتُ مباشرة ترافقني زوجتي لزيارة مشرفتي السابقة في غرفتها لتقديم الشكر والعرفان على ما قدمته من إشراف على الأُطرحة في مراحلها الأولى، ولأثبت لها حسن نيتي وُفق قاعدة: (الضرورات تبيح المحظورات). وكان وراء طلبي حجْبَها عن الإشراف على أُطروحتي أسباب ومبررات معقولة فيما أظن، كما أني أردت، من زيارتي، التحلي بالتسامح معنى وحقيقة، مقارعا بذلك النفس الأمارة «الأنا». وعند تسلّقي سلالم قسم التربية شعرت أول مرة سرعة الخطى، وعنفوان الشباب، واندفاع الفتيان، فالحِمل قد أزيح عن كاهلي، خلاف ما كنت عليه منذ أن وضعتُ قدميَّ على طريق البحث قبل ثلاث سنوات خلت، أيام ابتدأت مشروع الدكتوراه، وقد دنوت وقتها من سنِّ الأربعين. طرقت باب غرفتها هذه المرة بطريقة غير التي اعتدت القيام بها حيث لا تردد هذه المرة ولا توجُّس. غيرأننا وللأسف، لم نجدها في غرفتها، وربما آثرتْ أن تكون بعيدة عن الجو الذي يذكّرها بالخسارة الفادحة من جراء الطلاق البائن الذي حصل بينها وبين طالبها قبل ما يزيد على خمسة أشهر. وحين عدنا إلى البيت وجدنا أولادنا[1] بعد أن صار في مقدورنا تركهم في البيت وحدهم يخبروننا عن تلقِّيهم اتصالا هاتفيا من المشرفة «جاكي لوكس» تخبرهم أن والدهم قد حصل على شهادة الدكتوراة، الأمر الذي جعلني أكثر حماسة لتقصّي أخبارها، ومعرفة ردود أفعالها الحقيقية بعد أن تخرج طالبها على يد غيرها مع أنها حرصت كل الحرص لتحظى بذلك الشرف. وأظنها محقّة في ذلك التفاني الذي يعود إلى حرصها على رفع رصيدها العلمي الذي يتقرر على ضوئه إعلاء شأنها. فهموم الأساتذة الجامعيين تكمن في شهيتهم العالية للإشراف على أكبر عدد من الطلبة، يضاف إلى ذلك استمرارهم في

(١) مما تجدر الإشارة إليه أن القوانين البريطانية لا تسمح بترك الأولاد دون سن الثانية عشرة دون رعاية أحد من الراشدين.

تقديم المزيد من المقالات والأوراق البحثية، وإلا فإن عجلة الاستغناء الجامعي ستدوسهم. وقد غمرتني نشوة من الفرح ولا أخفي ذلك على أحد لكنّي حاولت مسح آثارها عن وجهي، وهي بلا شك مكابرة ليس في محلها، وكنت حينها أتوقع أن يشاركنا الفرحة الأصدقاء القدامى، ومنّيت نفسي أني سوف أستلم عدة مكالمات منهم ومن الأهل في العراق، لكن خابت الظنون والأمنيات، ولا بد أن ألتمس لهم العذر فقد فُتنوا بلعبة الحرب التي كانت هواية الرئيس المفضلة، وربما نظلمه في ذلك الحكم، ولكن في الواقع كانت اهتمامات الأخوة والأخوات بنا هنا وهم يمثلون التنوع والتعدد وكذلك الأُلفة من معظم بلاد الشرق يضاف إلى ذلك المتابعات التي تلقيتها من المشرفة قد عوضت تجاهل الأقارب والمحبين في العراق. وأرى من المناسب هنا أن أسلط الضوء على بعض مساهمات المشرفة في التخفيف بل الاحتفال بنا بعد التخرج، إذ لعبت دورا مشرّفا رغم كل ما جرى من شرخ في العلاقة إذ قامت بدعوتي أنا وبعض معارفي ومعارفها إلى حفلة عشاء فخمة لم نعهد ذلك من أمثالها، وقد غمرتنا باستعداداتها التي إن لم تنبئ في حال عن كرم تتحلى به باعتبارها سجية من سجاياها، فإنها جاءت لتبرر ندمها على فعل فعلته - ربما دون قصد - وكنت أنا وأسرتي ندفع ثمنه غاليا، وهو من تقدير الله العزيز الرحيم الذي لا شك في خيريته للعبد الفقير.

وكان عليّ أن أرد على دعوتها بالمثل فدعوتها فَقَبِلَتْ الدعوة فورا وهذا عنى كثيرًا لي أقلّه الإيحاء بندمها، وكنت أرجو أن يكون بمثابة توبة. وكان لاصطحابها عددا من أصدقائها وصديقاتها جعلني أشعر بالطمأنينة إلى نواياها الحسنة بعد التخرج؛ لأن في ذلك معنى أنها ما زالت تفاخر بي كما عهدتها قبل الفراق، وأنها ما زالت تثق بأخلاقي، وأدارت في وقتها حوارا طويلا، شحذت فيه الهمم، وحفزت الخواطر، واستهوت النفوس، وبادرت إلى طرح الأفكار، وجرّ ذلك إلى مناقشة هادفة دللت على طول باعها، وسعة صدرها، وربما على ذكائها أيضًا، وإن كنت لم أتخلص تماما من شكوكي في أن ذلك الذكاء يعوزه معرفة ثقافة تلاميذها؛ إذ بدأتْ حورها بالسؤال التالي: (مَنْ أحكم الموجودين تحت سقف هذه الغرفة؟)، فتردد الحضور بالإجابة، وأصبح كل واحد من الحاضرين يتفرّس

في وجوه الآخرين لعل من إجابة تصدر، أو نادرة ترطب الجو المشحون، ثم شعرت أن من واجبي وأنا صاحب المجلس أن أرفع الحرج عن الآخرين، وأدفع عنهم الضرر خشية اتهامها أو اتهام غيرها لي بالعي[1] الذي يأخذ الجهلة من الناس، فكان لابد لي من مقالة أو إجابة عن سؤالها، وإن كنت أخشى أن تكون دون روية، ولا حكمة بالغة، ولا دبلوماسية ذكية، فكانت إجابتي حين كانت تنتظر الإجابة أيا كان مصدرها: (إنكِ أيتها الأستاذة أحكم الموجودين تحت سقف هذه الغرفة)، وأنا على يقين أني بتلك الإجابة كنت أقرب إلى المجاملة مني إلى الحق، لأني أجد فرقا بين الحكمة والذكاء وإن كان الذكاء أحد متطلبات الحكمة، وإذا بها على الفور تقول بدون تردد: (بل أنتَ)، وكررتها ثلاثا، ففهمت مغزاها، فهي تعني بهاتين الكلمتين (بل أنتَ) الكثير الكثير، فهي تعود بي إلى سعة الصدر التي تعتقد أني تحليّتُ بها، كما تعني الطريقة الرشيقة التي أقنعتُ بها البرفسور لإعفائها من مهمة الإشراف على دراستي من خلال جلسة قصيرة وفي أول لقاء بعد مدة من التربص والانتظار، وكأنها تتساءل من خلال كلماتها عن الحجج التي أدلى بها الهيتي؟ والوثائق تلك التي أحضرها معه؟ ونسيَتْ أن المنّة والفضل في ذلك النجاح إنما هو لله المدبر للأمر، والمسلّم للعواقب، ثم إني أظن أنها ما زالت تعتقد أن «الهيتي» رغم كل العنت الذي لقيه منها يبدو متماسكا، كتوما لمعاناته، خفيضا لزفراته، حبيسا لأناته وحسراته، بل أبدى تجلّده، بعد أن ركب دابة الصبر، وشرب كؤوس الصمت، وفوق هذا وذاك لم يهمس بكلمة تزعجها، أو تجرح كرامتها. وبقدر ما اعتقد الحضور أني قد حصلت على وسام من أوسمتها، أو هبة من هباتها، فإني شعرت وقتها بخيبة أمل، بسبب استماعي لنصيحة خاطئة من «الأنا» حيث أحسست أنّها - أي المشرفة - كانت تلعب على الأوتار الحساسة، فهي تعرف كيف تذبح ضحاياها بدون سكين، وتعزف على المواجع، وهي، إن لم أكن مخطئا، على علم كامل بمعاناتي من حساسية مفرطة على أثرها تتابعت قرح المعدة التي أصبحت مزمنة، وقد تجاهلت العلاج الأنجع الذي وصّى به الأطباء الألمان الذي يكمن في مسح الذاكرة وتعطيل الفكر، ولم أجد إلى ذلك من سبيل؟

(١) العي : هو العجز ، عيا: عَيَّ بالأمر عياً وعيٌّ وعيانٌ: والعي عيب من العيوب في المجالس.

والآن عليّ أن أعيد النظر في جراحاتي، حيث طال العهد باندمالها بعد طول معاناة، فها هي شهادة الدراسات العليا التي كان البلد قد أوفدني للحصول عليها قد اُستلمتها مع كل ما تنطوي عليه من حقوق وواجبات، لكني وأنا في ساحة الدفاع عنها أمام لجنة المناقشة أدركت أن حصولي عليها قد يزيد من الأزمة تعقيدا، ويضاعف من الآلام؛ لأن البقاء هنا في بريطانيا أصبح مطلبا صعبا بعد ما أضحى أمرا ملحا، وإن رغبت في غير ذلك فإنه يعني المغامرة بالأطفال الذين أصبح عددهم أربعة، وهو أمر في نظري ونظر من شاورت من صديق وزميل غير معقول، فنبوءات المشرفة يبدو أنها أخذت بالتحقق، تلك التنبؤات التي أخبرتني بها بداية مسيرتي الدراسية معها، فبلدي العراق، كما أخبرتني، عليه أن يرجع إلى القرون الحجرية ليعيد تجربة الكتابة المسمارية من جديد، أو لعله يكون في استطاعة بنيه إن رجعوا إلى ذلك العصر الغابر أن يفكوا للعالم ألغاز تلك المدونات ورموزها التي استعصى فكها على علماء التاريخ، وأن يستعيدوا النصوص الهامة التي ضاعت من ملحمة «جلجامش»[١] لسبب ما. أما العراق فهو مثلي أصبحت جراحاته لا تندمل، ووضعه في حالة تدهور مستمر، لا تنفع معه التمائم، ولا تفيده الرُقى، ولا تنشطه النُشُر[٢]. فالسلطة بجبروتها تأبى أن تنحني لسماع نصيحة ناصح، أو تذعن لمشورة مُشير، فقد أغلقت السلطة الآذان، وكممت الأفواه، ولم تُدرك أنها قتلت الأمل بالبقاء على قيد الحياة، ودفنت رأسها في رمال الجنوب أمام زحف العدو وهو لا يلوي على شيء.

وأجد لزاما عليّ القول أنَ آلام بلدي التي نعاني منها تؤكد للجميع – من بدو ومن حضر – أن الأمة التي يمكن لها أن تنجح ويدوم نجاحها هي الأمة التي تؤمن أن باب التربية والتعليم هو الباب الرئيس الذي يجب أن تطرقه، والإيمان بذلك نظريا وحده لا يُعَدّ كافيا، إنما المبادرة بتطبيق ذلك فعلا. فالعامل الأول والحاسم في سقوط الأمم، وأُفول الحضارات، والتعجيل بسقوطها هو أن تتصدر القيادات غير المتعلمة أو أشباه المتعلمة التي تعتمد على

(١) ملحمة جلجامش من الأساطير السومرية وقد كُتب عنها كثيرًا.

(٢) لقد جاء في الحديث «إن الرُقيّ والتمائم والتولة شرك» و «من تعلق تميمة فقد أشرك».

مشورة عصابة من الجهلة أو من أنصاف المتعلمين، الذين يدينون بالولاء المطلق لتلك القيادات، وهناك تقع الكارثة، فمن الخبرات السابقة لعالمنا العربي نجد أن معظم من ساسوا البلاد في القرن الماضي حتى هذه اللحظة التي ينصرف قلم الكاتب لتدوينها لا يروق لهم الاعتماد إلاّ على من يصفّق لهم، ويتغنى بأمجادهم، ويتمدّح ببطولاتهم إن كانت لهم أمجاد وبطولات، وأنا لست في معرض الدفاع عنهم عندما أقول إن الذنب ليس ذنبهم إنما ذنب الجرعات التربوية التي نُشّئوا عليها. وكلنا يلحظ أن الأمم المعاصرة الناجحة هي تلك التي تحاول جاهدة زيادة زمن الجرعات التربوية لبنيها، وتعيد النظر في برامجها التربوية بين مدة وأخرى، ومن ثَم ترفد بالمتعلمين ميادين العمل لمن رغب، وإلا فإن الأبواب تظل أمامهم

مُشرعة لمواصلة البحث والتحصيل في جو من الحرية التي بنتها سواعد المتعلمين وعقول المربين.

ومن باب الأمانة أقول: إنّ الحل ليس في إزالة نظام سياسي هنا أو هناك أو عزله، إنما أن تقتنع تلك الأنظمة أنّ عليها أن تعتمد في مشورتها على المتعلمين، وتحترم عقولهم، وتأخذ بنصائحهم. كما عليهم أن ينظروا إلى أن الاستثمار الأعلى يجب أن يكون في مجال التربية والتعليم. وبمقارنة بسيطة عشوائية بين التسهيلات المادية والمعنوية التي يحصل عليها المعلم في أي عاصمة أو مدينة عربية، وبين تلك التي يحوز عليها زميله في بلد من البلدان المتقدمة، نجد أنفسنا أمام نتائج واضحة تؤكد فرقا كبيرا وهوّة سحيقة، فالمعلم شئنا أم أبينا هو العنصر الأول في الدوائر المتداخلة للعملية التربوية والتعليمية، أعني المعلم والمنهج والطالب، وإن كان هناك بعض التحفظات من قبل بعض التربويين حول تلك الثلاثية.

وكنت مع كُثر ممن عرفت في الحقل التربوي نرى في توصيات الدكتور عبد الله عبد الدائم التي ضمنها كتابه «التربية في البلاد العربية: حاضرها ومشكلاتها ومستقبلها»

للنصف الثاني من القرن العشرين أنه رسم صورة قاتمة للمدة التي كتب عنها للنصف الثاني من القرن الماضي، ولكننا فوجئنا، أن توصياته كانت دقيقة، وكنّا قد جانبنا الصواب في حكمنا. والأمة لم تتقدم في المجال التربوي إلا من الناحية الكمية (أعني العددية) والتي لا تعني في الغالب شيئًا. معترفين أن عدد الطلاب قد ازداد بين عامي ١٩٦٠ وعام ١٩٨٠ بنسبة ثلاث مرات، وتضاعف التعليم الثانوي ست مرات، أما في مجال التعليم العالي فقد تضاعف ثماني مرات للمدة نفسها، وإذا أنعمنا النظر في الأرقام السابقة فإننا لسنا بسعداء؛ لأن القاعدة الأساسية للتعليم هو التعليم الابتدائي الذي كان يفترض أن تزيد وتيرة نموه لتكون أعلى من نسبة الزيادة في المستوى الجامعي.

ومع كل ذلك التقدم في مجال الكم فإن المدرسة الابتدائية حجر الزاوية في التربية والتعليم لم تكن لتغطي بخدماتها أطفال العرب جميعا، أما المدرسة المتوسطة والثانوية فحدّثْ ولا حرج، وهذا يعني أن أفواجا تعد بالملايين من أطفالنا ما زالوا في منأىً عن إمكان فك الخط كما يحلو لبعضهم أن يقول أو يصف، مع أن العالم العربي قد حقق نسبة نمو في مجال محو الأمية، حيث هبطت نسبتهم للفئة العمرية دون الخامسة عشرة من ٨٠٪ إلى ٦٩٪ خلال عشرين سنة أي بين عامي ١٩٦٠ و١٩٨٠. وحتى النمو العددي الحاصل هو ذاته يقودنا إلى التأكيد على أهمية الجانب النوعي، «فتجويد الكيف والنوع، فضلا عن قيمته في ذاته، هو السبيل إلى التغلب على مشكلات الكم»[1].

وحان الوقت للحديث عن أول الأعمال التي تسلمتها من خلال جامعة «Hull» بعد التخرج للتعليق على أحد الأفلام التجارية لشركة «روكت وكلمان» الشهيرة، وكان العمل مجزيا للغاية، رغم أن الجامعة كانت تحسم لصالحها الجزء الأكبر وهو (٦٢٪ من المبلغ الكلي). أما تدريس اللغة العربية لغير أبنائها أعني لغير الناطقين بها فقد بدأ في الوقت نفسه، وكان أول عمل قمت به لصالح الجامعة نفسها، فبدأت مع رجل إنجليزي يعمل في

(١) التربية في البلاد العربية حاضرها ومشكلاتها ومستقبلها من عام ١٩٥٠ إلى عام ٢٠٠٠ للدكتور عبد الله عبد الدائم من إصدارات دار العلم للملايين- بيروت طبعة ١٩٨٣.

قاعدة «إيروسبيس» الجوية البريطانية، وهو أحد الخبراء العاملين في لجان التحقيق حيث تخصص في أسباب حوادث الطائرات، وكان يروم من وراء تعلم العربية الذهاب إلى عُمان للقيام بتحقيقات حول الحادثات التي تقع بين الفينة والفينة في القواعد العسكرية في مناطق الشرق الأوسط، حيث رفع ذلك الرجل الإنجليزي تقريرا رفيعا للجامعة، يؤكد مدى إعجابه بمدى الفائدة التي تلقاها من خلال دروس اللغة المكثفة، مما شجعني على المضي قدما في هذا المجال.

واجتهدت أن أقوم بتدريس الراغبين في تعلم العربية. وبعد مدة قليلة انتشرت والحمد لله عدوى حب تلقي دروس اللغة العربية بين عدد كبير من الناس، واستهوتهم الفكرة، ولذا توسعت الرقعة الجغرافية التي أشرفت على تدريس الراغبين والراغبات فيها، حيث أصبحت تشمل القرى والمدن المحيطة بمدينة «Hull»، وتركت، بحمد الله، بصمات واضحة على الكبار والصغار.

ومن الملاحظات التي سجلتها في مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها من المسلمين أو بعض العرب في ديار الغرب الذين فقدوا لسانهم العربي، وتلاشت عند أبنائهم مهارات الاتصال بها : إنّ المسلم في الغالب يضع آخرَ أولوياته الإنفاقَ على تعلم اللغة العربية، ويبدو أن اللغة التي تستحق الإنفاق عليها هي التي تكون سببا للمعاش وكسب الأرزاق. ويذكّرني ذلك بما حدث للإمام أبي يوسف ، تلميذ أبي حنيفة، عندما كان حدثا رثّ الثياب يتردد على حِلَق دروس أبي حنيفة النعمان، قال له أبوه: يا بني لا تمدن رجلك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة خبزه مشوي، وأنت تحتاج إلى المعاش، ووالدتك تطعمك من مغزلها. ولو أن أبا يوسف ترك تلك الدروس كما كان والده يرى، لما تناول طعام الملوك مع هارون الرشيد فيما بعد. والفضل في ذلك يعود بعد الله لأبي حنيفة النعمان الذي تعهده بماله، والقصة معروفة[١].

---

(١) للمزيد راجع «منهج التربية النبوية» للأستاذ محمد نور بن عبد الحفيظ سويد، صفحة ٢٣٦، طبعة ١٩٨٠.

فالعربي وربما المسلم أيضا - أعني في دول المهجر - رغم حرصه على تحقيق حلمه في تعليم أولاده اللغة التي جاء بها أعز كتاب على قلبه، وهو القرآن الكريم فإنه يضع ذلك الهدف في آخر أولوياته كما فعل والد أبي يوسف. وهذا يعود للخلفية الثقافية؛ لأن التربية والتعليم في معظم البلدان العربية والإسلامية تتكفلها حكومات تلك الدول. ومعلوم أن تلك الدول رغم إنفاقها على التعليم تظل دون الوفاء بالمطالب الملقاة على كاهل قطاع التربية. فالإنفاق على قطاع التربية يأتي متخلفا مقارنة بما يتم الإغداق عليه من ميزانيات تلك الدول على السلاح والدفاع، وما علمت تلك الدول أن الدفاع الحقيقي يكمن في تربية المجتمع وتعليمه بكل فئاته العمرية، ولا أريد الخوض في الأرقام؛ لأنها غير خافية على أحد اليوم.

وثمة مسألة أخرى تصطدم بها عملية تعليم العربية، تلك التي تتلخص بعدم وجود عدد كاف من المؤهلين للمباشرة بتدريس الجيل الثاني والثالث من أبناء الجاليات العربية الذين هم في أمسّ الحاجة إليها، حيث عانينا كثيرًا في إقناع الناس بضرورة التفكير بحلول جدية للتغلب على المشكلة القائمة دون آذان صاغية، ولا أعتقد أن ضعف ذات اليد تشكل العامل الرئيس، إنما عدم الشعور بأهمية ذلك للأجيال القادمة أو أنها الهمة المتدنية. ولو تمت المقارنة بين نشاطنا ونشاط الجالية اليهودية - على سبيل المثال لا الحصر - في مجال تقديم مثل تلك الخدمات فإن الغلبة لهم ظاهرة، مع أن أعداد العرب والمسلمين أصبحت الآن تفوق أعداد اليهود في أوربا.

وثمة ظاهرة أخرى وجدناها واضحة تلك التي تتمثل في قلق العائلات المهاجرة إلى ديار الغرب حول استعداد أولادهم لتقبل اللغة الإنجليزية، فإنهم بعد أشهر فقط يستيقظون على مشكل فقدانهم اللغة الأم، وهذا في أغلب الظن يرجع إلى عقدة تقليد المغلوب للغالب، وربما يشهد لذلك الهجرة المعاكسة من الجنوب الفقير إلى الشمال الغني، بعد أن كانت من الشمال البارد إلى الجنوب الدافئ. وإذا ما رجعنا ألف سنة إلى الوراء، حين كان المهرة وأصحاب الفكر والاختصاص وكذلك العمال من العالم كافة يزحفون إلى الحواضر

العربية والإسلامية، وتلك هجرة في رأينا نحو قوة الحضارة، أما الهجرات الحالية فهي هجرات نحو حضارة القوة، وأرجو أن لا أكون خرجت عن الحياد في عرض الموضوع. وإذا ما صير إلى هذا الفهم فإن الإعجاب والافتتان بحضارة الغالب قد سبب ذوبان الشخصية العربية والمسلمة.

ويجرّني الحديث عن تعليم لغتنا العربية وأهميتها لأبناء العرب والمسلمين في مهاجرهم للحديث عن موضوع تعريب التعليم البالغ الأهمية لأبناء الشمال الأفريقي العربي، لكني وجدت أفضل مَنْ كتب في الموضوع فيما يخص مرحلة التعليم العالي هو الدكتور» سلطان الشاوي» في ورقته التي قدمها للمؤتمر الأول للوزراء والمسؤولين عن التعليم العالي في الوطن العربي عام ١٩٨٠ المنعقد في الجزائر. ولا يدري الأخ الدكتور الشاوي[١] أن العرب في الخليج أصبحوا قاب قوسين أو أدني من التشطيب في استعمال اللغة العربية كلغة أولى في مدارسهم الابتدائية والثانوية خاصة في المدارس الخاصة والأهلية، وعلى الآباء أن يجدّوا ويجتهدوا في تأمين أماكن لأبنائهم فيها. وأصبحت اللغة العربية - أعني الدارجة - هي لغة الطفل الثانية إن لم تكن لغة الحاضنات الأجنبيات في تلك الأقطار هي لغته الثانية، وعندها تصبح اللغة العربية هي لغته الثالثة ، ولا ندري ماذا نقول للغتنا التي غابت شمسها اليوم بل أصبحت المشجب الذي نعلق عليه كل أسباب تأخرنا وربما بداوتنا. أما «فاروق شوشة» فعليه أن لا يُسمعنا بَعْدُ برنامج «لغتنا العربية الجميلة» الذي فُطمنا على سماع نغاماته من حنجرته الموسيقية[٢]:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

ولأن الموضوع أصبح يؤرق الغيورين فإن أسئلة ملحاحة أصبحت مطروحة في الشارع حول ضرورة استصدار فتوى ملزمة لكل مسلم ومسلمة صغيرًا كان أم كبيرًا في وجوب تعلم

(١) لمن يريد الرجوع إلى ورقة الدكتور سلطان الشاوي عليه مراجعة الفصل الأخير من المرجع الأسبق « عبدالله عبد الدايم».

(٢) البيت للشاعر حافظ إبراهيم وهو من قصيدة طويلة ورائعة.

لغة العرب، إذ إنها لغة التشريع والأحكام، ونترك هذه المسألة لعلماء الأمة المتخصصين لإبداء الرأي فيها، إذ المسلمون والعرب ينقسمون في تأدية اللغة العربية ودرجة إجادتها على حسب مهماتهم وتخصصاتهم في المجتمع، وعلى هذا ربما تكون إجادتها واتقانها فرضًا على شريحة العلماء وأصحاب الفتوى والمفسرين ومن هم في طبقتهم ممن يحتاجون لمعرفة العام والخاص والراجح والمرجوح، لكنها ربما تكون واجبة وسنّة مؤكدة وممدوحة بحق الشرائح الأخرى حسب تقديمها للخدمات الاجتماعية، فهي مسألة متفاوتة في حق أبناء الأمة، فمنهم من يكون الإتقان في حقه فرض عين، ومنهم من يكون الإتقان في حقه دون ذلك.

وأرى أن الوقت قد حان للحديث عن القصة التي كانت وراء عنوان هذه المحاولة الكتابية أعني (تجارب ونتائج تباع بالمجان)، إذ ترددت كثيرا في إضافة تلك الفقرة التهكمية الساخرة، فالعمل على مساعدة بعض الطلبة العرب في بحوثهم استنزفت وقتا ثمينا كنت بعته بثمن بخس. وكانت بداية القصة يوم وجدت واحدًا ممن طوى خيمته في طرف الصحراء توًا، ورمى عصا الرعي، لكنه ما لبث أن اكتوى بنيران شروط الجامعات العربية ومؤهلاتها التي قذفت به على ضفاف نهر «التيمز» ليحصل على وثائق علمية تؤهله للاستمرار في أداء عمله في جامعته، وجدته ينتظرني في البيت حيث قام ولدي بتولّي أمر ضيافته، وعند وصولي البيت بعد صلاة العشاء رحبت برجل لا أعرفه من قبل، وإذا به يقدم نفسه وهو يتمتم بكلمات تشكل سؤالا خجولا، إذ أسهب في شرح حاجته، لكنه راوغ في تقديم مبرراته، وأخيرا فهمت مراده، وعلمت مقصده، حيث حط برحله في هذه الجامعة ليعمل رسالة ماجستير في علوم التربية، لكنه يشعر بالعجز في أن يضع لبنة الأساس الأولى. فقلت لنفسي: دعيني أُؤسس له تأسيسا، فسألته عن مشكلة البحث، فألفيت لسانه لا يتحرك، وشفتيه لا تنفرج عن كلمة، ولما كررت عليه السؤال قال: وهل ثمة لزوم لذلك؟ تركته برهة مع إبريق من الشاي على الطريقة الخليجية، فلما شعر بجو الود تحلى بالشجاعة، وصارحني بعدم معرفته كيف يبدأ البحث، فضلا عن جهله بفنونه، فلم يركب

من قَبْلُ سفينه، ولم يرفع مرة في حياته شراعا له، والأدهى من ذلك والأمّر أنه لا يعلم شيئًا عن احتياجات جامعته أو مؤسسته التي بعثته أصلا، فضلا عن حاجة البلد، وكل الذي فهمته أن المؤسسة التي أرسلته كانت تحسن الظن به، حيث أصبح واضحا لمعظم مراكز العمل - للأسف - أن الجامعات العربية لم تعد تخرج كوادر (عناصر) كالتي كانت تخرجها في منتصف القرن الماضي. وبعد أن خيّب ظني فيه، سألته عن المشكلة التي جاء من أجل بحثها، حيث تكلف مشاق السفر بسببها، ودفع أثمان الاغتراب من أجلها، وترك وراءه خمسة من الأطفال مع زوجتيه، فلاذ بالصمت، فهو لا يدري أن البحث يحتاج إلى مشكلة محددة، ودقيقة استعصى حلها هناك، أو أنهم يرومون طرقا أخرى للحل ربما تكون أكثر جدوى، فشعر بعد الطمأنينة بصَغار لم يكن مرّ به قبلِ أن وطئت قداماه أرض بريطانيا، وبدأت علامات الإحراج ترتسم على وجهه وعلى حركات يديه اللاشعورية، وصار لزاما عليّ أن أُخفف من الحمل، وأحاول تلطيف الأجواء، عن طريق اختراع أُحدثه، أو أسئلة عامة أوجهها عن موقع عمله في دولته، وحجم المشاكل وطبيعتها التي تعاني منها مؤسسته، محاولا تسجيل كل ذلك في ذاكرتي التي لم تعد تستوعب الكثير، فهي بلا شك متعبة، وأخذ صاحبي مسترسلا في إجاباته لكنّه أخذ في نهاية المطاف يتأوه، وكأن النعاس غالبه، أو أن التعب هدّه، فقلت: يا أخا العرب، لا عليك، فقد قررت مساعدتك في بناء مشكلة البحث لتقدّمها كمقترح لبحثك، وسأحاول جهدي بعد غد إن شاء الله أن تكون جاهزة، عندها رأيته قد طار فرحا، ووقف شاكرا، شادا على يديّ بأقصى ما يمكن. وودّعته وكأنه أصبح يسبح في بحر الأمل، ويتقلب في أحضان النجاح. وقبل الموعد الذي اتفقنا عليه وجدته على باب الدار طارقا - وهو خلاف ما اعتدناه من معظم الإخوان العرب في تأخرهم الساعة والساعتين عن الموعد المضروب فدخل وهو لا يكاد يصدق أنني سوف أقدم له عملا بهذه العُجالة. وبعد أن استقر جالسا احتسى شيئًا من القهوة العربية الشقراء، وعقّبت بسؤالي: هل لك أن تسمع ما كتبته لك في الليلة المنصرمة؟ وبدأت أتلو على مسامعه نص مشكلة البحث وقد جاءت على ما يبدو وكأنها تعبير عما كان يريد -، وهو يومئ برأسه علامة

على رضاه، ودليلا على إعجابه، وبعد أن انتهيت من قراءة مشكلة البحث عقّبت بقراءة الأهداف المقترحة ثم حدود الدراسة وفرضياتها السلبية، وما إن انتهيت حتى بدأت عليه علامات الفرح مشوبة بالخوف والشك والتردد، سألته ما بك يا صاحبي؟

قال: أبدًا، لكني أشعر كأنك كنت تعمل في مؤسستي من قبل! فهل عملت هناك مدة؟

قلت: أبدًا،

قال: إذن كيف لك، معرفة كل هذه التفاصيل؟ سلمك الله ورعاك.

قلت: يا أخا العرب، إنّ هذه المعلومات قد استُلّت من لسانك في جلسة قبل البارحة.

فأقسم غير حانث: أن الذي كتبته بالتمام والكمال متحقق في مؤسستي، لكني لم أستطع كشفه وترتيبه كالذي سطّرته بقلمك.

وتذكرني هذه الحادثة بالنادرة التي يتندر بها بعضهم، وملخصها أن متظلما جاء يوما إلى أحد كتّاب الطّلبات[1] ممن يجلسون على قارعة الطريق، وسأله أن يكتب بمظلمته طلبا لرفعه لإحدى الدوائر الحكومية. قال المتظلم: أعرف أن أجور كتابتك الطلب ثلاثة دراهم، ولكنّي سوف أعطيك ضعف ذلك إذا ما أحسنت كتابتها، وملّحتها، وصلّحتها، قال: اتفقنا. وبدأ المتظلم يسرد قصته والكاتب يسجل ملاحظاته، وبعد أن انتهى كاتب الطلبات من كتابة المظلمة، وحبّرها له، أخذ يتلوها على مسامع المتظلم، وما إن انتهى الكاتب من قراءة المظلمة حتى أجهش المتظلم بالبكاء، ثم علا نواحه، وتصعدت بالحسرات نفسه، فدموعه تتساقط، وعويله يتصاعد، فقال الكاتب: ما بك عافاك الله؟ فقاسمه المتظلم بأغلظ الأيمان: أنه لم يدرك حجم مظلمته إلا هذه الساعة، وصار يسأله هل حلّت بي كل هذه المظالم حقًا؟

---

(١) كاتب الطلبات يسمى في العراق «عارضحالجي» وهي محورة عن الكلمة التركية (آرزا حالجي)، وتعني كاتب الطلبات (العرائض)، وفي العادة يتواجد كتّاب العرائض قرب الدوائر الحكومية، ويقومون بكتابة طلبات المواطنين ومظالمهم ولا سيما أولئك الذين لا يحسنون القراءة والكتابة لقاء أجر يتم الاتفاق عليه.

وعودا على قصة الباحث الجديد الذي لا زال في بيتي مندهشا من الطريقة التي عرضت فيها مشكلة بحثه، وبوّبت أقسامه، وضمنته الخطة المقترحة لرسالة الماجستير الذي عقد الأخ العزم لنيلها مهما كانت الصعاب، وتصرّمت الحبال، وقد آن الأوان للقول: إن طريقة عرض الحقيقة يكاد يكون أهم من مجرد قولها وإن اعتقدنا أنها حقيقة جلية بذاتها، ولذا بادرت في غير هذه المناسبة مع طالب عربي آخر كلفني بمساعدته في بحثه على مستوى الدكتوراه أن أقوم بطريقة عملية في تقريب ما ذهبت إليه من مسألة أهمية الطريقة التي يتم بها عرض الحقائق. إذ تفننت في تقديم بطيخة حمراء حيث جعلت قشرتها الخضراء بتمامها على شكل سلة لتقديمها لضيفي، وعندما وضعتها أمامه اندهش للطريقة التي قُدمت بها، فأشرت بأن طريقة تقديم الحقائق التي تُبنى عليها أو تتضمنها البحوث التربوية وغير التربوية أهم بكثير من مجرد سوقك تلك الحقائق سوقًا.

وأعود - والعود أحمد - قدّم صاحبي المقترح الذي كتبته لمشرفه على عجالة وكأنه خائف أن أرجع في مقالتي وأتخلى عن تعهدي، وقد قبل الأخير (المشرف) ذلك المقترح، وأُعجب به، ولم يُوص بتعديل أو إضافة أو حذف. وهنا أجد نفسي مجبرا على إذاعة ما كنت أسميه سرًا، وذلك أن العمل الذي قمت به كان بداية طيبة له، ولم تكن كذلك بالنسبة لي، بل بداية صعبة لمستقبل كنت أجهل صعوباته، إذ كان بداية مرحلة جديدة في حياتي حيث أصبح ذلك مثابة مشروع عمل أتكسب به كما كان الشعراء يتكسبون مع فرق واحد أن معظمهم كانوا يركعون عند أقدام الخلفاء والأمراء، لكنّ زبائني كانوا يلتمسونني عند عتبة بيتي، فهو عمل قد شككت في مشروعيته، وإن كان أساسه تحسين اللغة الكتابية، وعقب قبول ذلك المقترح زادت زيارات ذلك الزبون لي وأصبح يلتمسني بعد تلك الجلسة في أن أقبل التعاون معه في حدود تزيد عن المساحة المشروعة في تقديم المساعدة، وكان بودي أن تكون عند حدود مراجعة العمل، وتقديم النصائح، وليس على النحو الذي جرت فيه الرياح في نهاية المطاف، وفي الواقع كنت تحت مرمى الإلحاح والاستعطاف من جهته، والعطف، والنخوة، والمواساة من جهتي، بعد أن أسهب في شرح حاله، وتبيان

واقعه، فهو قد ترك بلده، ونأى بنفسه عن أهله وأولاده، وأصبح من الصعوبة بمكان أن يرجع خائبا، ودون تحقيق رُغيبته، وعدم الحصول على مبتغاه فإن ذلك يعني كثيرًا له ولإمثاله في العالم الثالث، إذ سيكون حديث المجالس، وقصة المحافل، ونادرة يُتندر بها، ويُتسلى بها، فالأخوة العرب - وإن كنت لا أريد التعميم - في مثل هذه الحالة لا يؤمنون بقاعدة (كلٌّ مُيسَّرٌ لِما خُلِق له)، وأنا أتفق مع الدكتور عائض القرني حين قال: (فلماذا تُعتسف المواهب ويُلوى عُنق الصفات والقدرات ليّاً؟ إن الله إذا أراد شيئا هيأ أسبابه، وليس هناك أتعس نفسا وأنكد خاطرا من الذي يريد أن يكون غير نفسه، والذكي الأريب هو الذي يدرس نفسه، ويسد الفراغ الذي وضُع له، إن كان في الساقة كان في الساقة، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة، هذا سيبويه شيخ النحو، طلب علم الحديث فأعياه، وتبلد حسه فيه، فتعلم النحو، فمهر فيه وأتى بالعجب العجاب. يقول أحد الحكماء: الذي يريد عملا ليس من شأنه، كالذي يزرع النخل في غوطة دمشق، ويزرع الأترج في الحجاز)[١]. وعلى كل حال، فمنذ تلك اللحظة وضعت وقتي تحت تصرف الآخرين، وفتحت دكانا لبيع الخبرة، وتعليب التجارب، وتجهيز الأفكار. وهذا هو السبب الأساس في وضع ذلك العنوان الذي قد يتساءل عنه القراء الأعزاء.

ولم أتحسب خطورة ما أقدمت عليه إلا بعد أن هاتفني أحد الأساتذة ممن يرأسون قسما من أقسام التربية في إحدى الجامعات العربية، وكان قد طلب إليّ أن «أتوب» مما اقترفت - عندما التقيته أثناء تأدية مناسك العمرة - من مواصلة العمل الذي ألجأتني إليه الظروف، فسألني أن أخرج من عندي من الأهل إن كان أحد منهم موجودا، وبعد أن طمأنته بعدم وجود أحد معي، سألني بسم الله الأعظم إن كنتُ كتبتُ أو ساعدت في كتابة رسالة دكتوراه لشخص ممن تقدم للعمل في قسمه، فأجبته بأني سأجيبك لكن بشرط أن لا تسألني عن شخص آخر ما حييت، فقبل الشرط، فأجبته بأن الذي سألتني عنه أعرفه تمام المعرفة ولكنّه لم يتلق مساعدة على الإطلاق. فسألني عن آخر فقلت: المؤمنون عند

---

(١) انظر «لا تحزن» للدكتور عائض القرني، صفحة ٢٩٠، الطبعة العشرون، مكتبات العبيكان.

شروطهم. وقد ذكّرته بالواقعة بين الخليفة عمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان – رضي الله عنهما – عندما استحلف الخليفةُ حذيفةَ أمين سر رسول الله – ﷺ – إن كان اسمه مع أسماء المنافقين التي أسرّه بها رسول الله – ﷺ – واستأمنه عليها، فكان جواب حذيفة: إنك لست منهم ولا تسألني بعد ذلك.

وكما وعدت فإن هذه الخواطر يأتي تسجيلها عندما أرى صيدا مفيدا للقارئ الكريم، ولا سيما وأنه قد منحني من وقته الكثير، وترك اهتماماته الأخرى، فهو يروم الفائدة منها، وأنا على علم أن الخواطر التي يتم اصطيادها ليست بالضرورة تعجبه، وتأسر اهتمامه. فالحوادث التي أمرّ بها ربما تكون مُرّة علقما مرة، وحلوة بلسما في أخرى، وتجدها مَرّةً تصور حياتي التي هي ليست مهمة لأحد غيري، ومرة تجدها تنقل خبرة تربوية قد تقع في ضمن مجالات اهتمام القارئ، وفي أحيان أخرى قد يوفق الله الكاتب في إنتاج قطعة أدبية صغيرة ما يلبث الكاتب أن يتحول عنها لالتقاط أخرى وعرضها، فعمله في كثير من الأحايين يأتي متذبذبا بين مد وجزر. فهو مرغم في مرة، وراض في أخرى، ولذا فإن العبرة من تسجيل تلك الملاحظات أن تكون أُسّاً لإنشاء الخبرة التربوية أو لنقد سياسة من سياساتها.

وقد تبين لي من صيدي الذي عرضته، توا، أن الطلبة يبتعثون للأسف دون الاعتماد على قاعدة من الاحتياجات الحقيقية، وإذا كانت هناك قاعدة للاحتياجات فيبدو أن المسؤولين لا يصرّحون للمبتعثين بالمشكلة التي من أجلها تم إرسالهم، وكذلك لا توجد سياسة انتقاء خاصة بالمبتعثين. وكذلك تبيّن لي ضعف خريج الجامعة العربية وربما الأسيوية مقارنة بزميله خريج الجامعات في النصف الغربي من العالم، وتخلفه في الغالب يأتي في مجال التأسيس للبحوث، أخص منها التربوية، وإني أختلف وأتفق مع من جعل اللغة الأجنبية أكبر العوائق، فالاتفاق يأتي لأن الضعف في لغة البحث التي هي أداته يجعل دائرة حدود مسح الباحث ضيقة للغاية، ويجعله في معزل عن تذوق الدقة العلمية التي يجب أن تكون السمة

العامة لتلك البحوث، أما الاختلاف فإن اللغة تأتي مطواعة عندما يعمل الباحث جهده في تحديد أفكاره، ويحسن اختيار طرق بحثه.

وثمة كلمة أخيرة في موضوع تعثر طلبة الدراسات العليا في بحوثهم، فإني أُرجع السبب إلى أن ثلثي المشكلة تكمن في عدم تمكن جامعاتنا من بناء برنامج رصين يحث ويشجع الطلبة على ممارسة البحوث ذات الاختصاص، وإن جزءًا من المشكلة يكمن في مستوى أداء التعليم الثانوي الذي ما زال يعتمد على طريقة تلقين المعلومات بدلا من طريقة التحليل والاستنتاج والاستنباط، وكثيرا ما نبهّت على هذه النقطة الهامة في أثناء جولاتي الإشرافية، محذرا من قيام الكادر التدريسي بالعمل نيابة عن طلبتهم[١].

وثمة ملاحظة أخرى لا بأسَ في إضافتها ها هنا وإن جاءت حشرا، هي أن العالم العربي ولا سيما في منطقة الشرق الأوسط ما زالوا ينظرون بعين الاحتقار للقنوات المهنية التربوية، أعني مدارس التعليم المهني ومعاهده وكلياته، التي تخرّج المهرة من العمال والكوادر الوسطى، وهذا إذا لم يكن في الوقت الحاضر الذي أشك أنهم قد صرفوا تلك النظرة عن أذهانهم، ولكن على العهد الذي خرجت فيه من منطقة الشرق الأوسط على الأقل. فقد أفنيت من عمري ما يقرب من عقدين في حقل التعليم المهني، إذ بدأت خبرتي في عام ١٩٦٨ حتى سفري إلى بريطانيا عام ١٩٨٦ للتحضير للدكتوراه في موضوع يخدم التعليم المهني من خلال دراسة الاحتياجات التدريبية لمدرسي ومعلمي المدارس المهنية، مستعينا بالخبرات التي تجمعت لدي من خلال عملي في ذلك المجال حيث تقلبت في سلم الوظائف التعليمية والإدارية، بين مدرس ومعاون لمدير ومدير وخبير ومقدم للبرامج المهنية و أخيرا بصفة تربوي اختصاصي أول للإشراف على مدارس التعليم المهني حيث تستدعي الوظيفة تقديم الخبرات، وتصميم حلول للمشاكل التربوية والمهنية. تلك الحقبة

(١) ذُكر لنا أنّ أُمّاً كانت تقوم بحل واجبات ابنتها لعدة أيام عطفا وشفقة ولا سيما عندما تراها قد استغرقت في النوم قبل أداء واجباتها، وكانت عندما تسألها المعلمة عن دفتر واجباتها البيتية تجد الإجابات صحيحة ومتكاملة. وذات يوم كلّت الأم القيام بذلك فسألت ابنتها أن تقوم بكتابة واجباتها قبل النوم، وأصرت على ذلك. فأجابت البنت بكل سذاجة أو براءة أن الواجبات تُحلّ من ذاتها فلماذا تقوم بذلك.

التي تقلبت فيها بين أحضان اللجان التربوية والمؤتمرات العلمية، إذ كنت عضوا نشطا على المستوى الوطني في عدد لا أستطيع الإحاطة به إلا بالرجوع إلى السيرة الذاتية التي حاولت اختصارها ما أمكن لتكون مقبولة من قبل المراجعين لها حين يسمح بذلك وقتهم. وما إن أنهيت الدراسة العليا عام ١٩٩٠ حتى بدأت نفسي تحنُّ لقطاع التعليم المهني مجددا وتحدثني بضرورة الوفاء لذلك القطاع الذي قضيت فيه زهرة الشباب رغم الشدائد والأزمات التي جاءت هذه المذكرات على ذكر بعضها حيث اقتضت المناسبة أو إذا تذكرت ما نُسّيت منها، وإذا كانت الظروف حائلا بيني وبين خدمة ذلك القطاع بشكل مباشر لوجودي بعيدا عن كوادره، لكن هذا البعد المكاني لا يمنع أن أقدم خدمة ولو يسيرة له عن طريق مواصلة البحث والتقصي، فعقدت العزم على الاستمرار رغم الضائقة المادية، والمعوقات التي في ذكرها تتكدر الخواطر، فتقدمت للعمل في قسم التربية في الجامعة التي تخرجت فيها لإنهاء متطلبات الزمالة بعد الدكتوراه، فوجدت دعما معنويا من قبل رئيس القسم، ولذا شددت رحالي إلى منطقة الشرق الأوسط لجمع المعلومات للبحث الذي نويت خوض لجحه، من خلال استمارة مسحية عن واقع التعليم المهني في العالم العربي، وكان من الضروري أن أنتخب عينة من تلك المناطق الشرق أوسطية، وربما ذكرت في غير مكان من هذه الخواطر أن السفر إلى العراق أو إلى دول الجوار كان عسيرًا في تلك الحقبة فاضطررت لركوب البحر نحو ليبيا لتنفيذ تلك الرُغيبة، وقد أمضيت هناك سنة أكاديمية لتحقيق ذلك.

وتكللت تلك الأتعاب في نشر المقالة الأولى في عام ١٩٩٧ في الدورية العالمية للتطور التربوي في بريطانيا[1]، وتأسست تلك الدراسة - التي نشرت باللغة الإنجليزية - على الطبيعة الغربية لشكل أهرامات العمل العربية التي بدت قممها متورمة بحجم كبير من

(1) Abdul Ghafour Al Heeti and Colin Brock (1997) Vocational education and development: Key issues, with special reference to the Arab World. International Journal Educational Development, Vol.17, No.4, pp.373 - 389.

(تمت الإشارة لهذا المصدر في المحطة الأولى)

حملة الشهادات الجامعية العليا فيما بدت قواعد تلك الأهرامات واسعة تعج بالكوادر غير الماهرة، وهو خلل يقرر ضرورة دراسة تلك الظاهرة الغريبة مقارنة بما عليه أشكال وتنظيمات أهرامات العمل للدول المثالية أو المتطورة. وبمجرد النظر إلى تلك الأهرامات يشعر الباحث أن هناك خللا بيّنا في البناءات التنظيمية لهياكل العمل تلك.

المحطة الثامنة

الشمال الأفريقي

تراءت لنا هون فقلت لصاحبي   رأينا بحمد اللّه ما أسس الجدُّ

إذا ما تذكرت الجدود ومجدهم   بكيت إلى أن ضجّ من دمعي الخدُّ

(إبراهيم محمد الهوني)

المحطة الثامنة

في الشمال الأفريقي مع إدريس

بعد أن توقفت مطاحنُ الموتِ التي حرّكتها حرب الخليج الأولى، وتعبت السيوف وارتوت أرض الرافدين من الدم، ولم تعد بها حاجة إلى مطر يرويها، أُوصدت الأبوابُ خلفنا وأُغلقت الطرقُ أمامنا، وأهل العراق يصارعون آلام الحصار، حصار الدولة[1] وحصار الدول، فالأطفال يُشيَّعون بالآلاف إلى حُفرِهم بصمت رهيب، وشحّةُ الدواء تقضُّ مضاجع المرضى، والشباب تائهون لا يدرون أيَّ طريق يسلكون، أو إلى جهة يرحلون في دنيا أصبحت صغيرة في أعينهم، ووثيقة السفر العراقية أصبحت عبئًا على من يحملها، وحيتان البحار والمحيطات تقتات على أشلاء[2] أبناء العراق الغريق، وأصبح الخوف جرادا يقهر كل لون أخضر، ونفد صبرُ الدولة على إدارة آلة الحرب، وفي البيوت الخاليات من الرجال مصبياتٌ جُوّعٌ تمسي وتصبح طاوية، ولا يدري أحد عنها، وباتت المراضع عن أولادهن متجافية، في وقت نجد الحاكم الأوحد في عاصمة الرشيد منهمكًا في جمع ذهب الماجدات[3] العراقيات، لصناعة عربته الذهبية التي صمم أن تجرها الخيول العربية الأصيلة، ليتجول بها في شوارع المدينة الفارغة من المحبين، لتمر به تحت أقواس النصر المزعوم وسيوفه، فالناس بالقهر قد سكتت عن الفساد، وبالقمع رفعت الصور واللافتات، ولكنها تذرعت بالصمت تخفي ألمها وتقززها وهي ترى قبعة رعاة البقر تعلو رأس الرئيس المهزوم، وأنا لا أجد تبريرا من وجهة النظر التربوية والنفسية لأفعال الرئيس، غير أنه كان يعاني من

---

(١) قدّمت حصار الدولة على حصار الدول الكبرى، لأن الظلم إذا كان من الأجنبي فله تبريراته وتعليلاته، وهو أهون من ظلم ذوي القربى الذي هو أدهى وأمر، ولنا في بيت الشعر ما يغني عن الإطالة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

والبيت لطرفة بن العبد الفتى القتيل، وهو من قصيدة طويلة يصف فيها ظلم أعمامه، (انظر الديوان).

(٢) إشارة لعدد من الحوادث التي تعرض لها الشباب العراقي الهائم على وجهه وهم على ظهر العبارات والقوارب الغارقة في وسط البحار، وقد كتبت عدة صحف عالمية عن الموضوع في أكثر من مناسبة.

(٣) هذا مصطلح كان الرئيس العراقي يكثر من استعماله في خطبه وأحاديثه ليستميل به النساء ويشحذ هممهن للتبرع.

الحرمان والقهر في طفولته، لذلك كان لزامًا عليه أن يقهر البشر في كهولته، وظل طوال حكمه يحسد عشرين مليونا من عبيده المساكين؛ لأنهم يتنسمون هواء العراق دون موافقة منه، ولذا قرر اعتقالهم جميعا، ومصادرة قلوبهم، وأقسم عليهم أن يرقصوا في أعياد ميلاده وزواجه، وثوراته، وزياراته، ... .

ولذلك اتخذت أنا وأهلي مكرهين القرار بالبقاء خارج الأسوار خوفا من أن تطول يدُ النظام رقابَنا، مع أني للأسف لم أشارك بعدُ في تأدية الرسالة، – لكن ليست الرسالة الخالدة –، ولِمَ لا أخاف؟ فالخوف شمل حتى الأجانب، وهم في جزرهم البعيدة، فهذا زميلي جون زرته يوما بعد تأخره عن زيارته المعتادة لي، وسألته عن السبب: فأجاب بكل سذاجة: إنّه يخشى من أسلحة الدمار الشامل والغازات السامة العراقية في شوارع المدن البريطانية !! (١)، وفي الواقع ضحكت مع أني نسيت شيئا اسمه الضحك منذ أخبرتني مشرفتي الذكّية: أنه قد تقرر في مطابخ السياسة العالمية أن على بلدكم أن يعود للقرون الحجرية وشر الأمور ما يُضحك أهلها .... ثم عقبت بسخرية: وإذن لِمَ لم تخبرني بذلك لأهديك قناعا يحميك من غازات الشرق الأوسط في مناسبة عيد ميلادك!! وندمت أشد الندم لارتفاع صوتي بالقهقهة، فأين أنا مما روته كتب التاريخ لنا؟ فصلاح الدين لم يُذكر عنه أنه تبسم لعشرين سنة خجلا وحياءً من الله، وهو يُعِدّ نفسه للتحرير، حتى تحررت القدس، لكن «شرُّ البليّةِ ما يُضحك»..

وهكذا قَبِلْتُ مُكْرِها أن تفصل بيني وبين بلدي البحار والمحيطات، بعد أن اتهمنا الأخوة العرب من جهتهم: أننا نجهل مراسيم تقديم القهوة العربية، أو تسلق ظهور الجمال. إذن فلمن الفصل الأخير من أطروحتي؟ والذي خصّصّته لوطني الحبيب لتدريب الكادر التربوي والتدريسي في العالم العربي، فهو جزء من رسالتي التي فضّلت هي الأخرى أن تنام إلى جواري، في غرفة نومي، فلم يقلّبها أحد من المخططين الذين كُتبت لهم، لهذا أعلنت بيعها بالمجان لطلبة الدكتوراه، الذين أطلقوا عليها اسم القراءة الخلدونية لكثرة

(١) هذه القصة للأسف تعكس مدى تأثير الإعلام المضلل (غير المحايد) في دول الغرب.

ترددهم في زيارتها، فهي أبجدية سهلة الفهم، كالكتاب الأول الذي استعملناه في الصف الأول الابتدائي بالنسبة لطلبة الدكتوراه.

ونحن في خضم تلك الحوادث، تلقيت دعوة من أخي الفاضل الدكتور «أبو عزوم»- ندعو اللّه له بالرحمة والرضوان - عام ثلاثة وتسعين وتسعمائة وألف، وكان مساعدا لعميد كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية، التابعة لجامعة التحدي في مدينة هون، بعد انقضاء أيام عصيبة وشهور ثقيلة وسنوات عجاف فيها تحنطت عقولنا، واستعجمت ألسنتنا، وتبخرت آمالنا، وبلغ منا اليأس مبلغه، بسبب الوساوس والأوهام، رغم ما فتح اللّه علينا من نعمة اللقاء بكثير من الإخوة الأعزاء من كافة أنحاء المعمورة الذين هونّوا علينا أهوال الغربة، ومسحوا بمواساتهم غبار المحنة. وكان «أبو عزّوم» يستعجلني في دعوته القدوم إليه، وما إن أخبرت الأهل عزمي على السفر دون دراسة للجدوى الاقتصادية، حتى التهبت مشاعرهم حماسة للمضي معي، وازدادت رغبتهم في مرافقتي في السفر، حيث يكون العرب، ونخوتهم، وشمسهم، وسماؤهم، وصحراؤهم، ونقاوة قلوبهم، واستخرت اللّه في السفر وحدي أولا، للاستطلاع والاكتشاف، حيث الصحراء التي اشتكت عريها فكساها الشاعر - الأخطل الصغير -(١) زئيرا ودخانا. وكان مضمون الدعوة أن أحاضر على طلبة الكلية المذكورة في مادة اللغة العربية، وقد تكشف لي فيما بعد غير ذلك حيث الثقة أعلى والأمل أرفع.

وأول عمل قمت به استعدادا للسفر - وكنت ما أزال أحمل جواز السفر العراقي آنذاك - هو أن أفتح حسابا بالعملة الأمريكية وذلك لسببين: الأول منهما أن عملة التحويلات للأساتذة هي الدولار الأمريكي، والثاني هو تقليل «الروتين» أثناء عملية التحويل. وما كنت أحسب أني سأواجه مشكلة ليست بالسهلة ولم تكن في الحسبان؛ إذْ قامت مديرة المصرف

---

(١) إذ قال الشاعر الأخطل الصغير وهو بشارة بن عبدالله الخوري، شاعر لبناني ولد عام ١٨٩٠ وتوفي عام ١٩٦٨ في قصيدة رائعة:

ضجّت الصحراء تشكو عريها ... فكسوناها زئيرا ودخانا
شرف للموت أن نطعمه ... أنفسا جبارة تأبى الهوانا

الإنجليزي بعد سويعات قليلة على مغادرتي لها بالاتصال بي هاتفيا لتخبرني أسفها الشديد من أن مصرف لندن المركزي لا يوافق على فتح ذلك الحساب، لأني عراقي. وسهوا لم تطبق عليّ التعليمات كغيري من العراقيين في بريطانيا، ثم أردفت قائلة: (ولا تظن أيها الزبون العزيز أن هذا الإجراء القاسي خاص بك، بل شمل الطلبة والأفراد العراقيين كافة منذ عامين منصرمين، وهو أمر دولي)، وأضافت (أن الألمان طُبقت عليهم من قبلكم نفس الإجراءات منذ الحرب العالمية الثانية ولم تُرفع عنهم إلاّ منذ عهد قريب)، في حينها كنت قد أصدرت صكا لأحد الزملاء من الرياض حيث اقترضت منه مبلغا لأجل الحصول على تمديد للإقامة في بريطانيا، وكان هذا ديدننا منذ أن انتهيت من مناقشة رسالتي، ولم تعد هناك مبررات للبقاء على التراب البريطاني.

وهنا لا بد أن أقف وقفة احترام أمام شاب سعودي[١]، وسأترك لمن يقرأ هذه الخواطر تقدير شهامة هذا الشاب، وخلقه وكرمه، مع أنه استأمنني على أن لا أذيع سره أو أن أكشف أمره[٢]. إذ اتصلتُ وقلت له: تذكر أني حررت لك صكا قبل يومين أو ثلاثة؟ وهو ما اعتدنا عليه في المرات السابقات، ولكن هذه المرة جرت الرياح بما لا تشتهي السفن، وأخبرته بما جرى من تطورات مع مديرة المصرف عند محاولتي فتح الحساب الجديد، استعدادا للسفر، وأن صلاحيتي تقلصت وأني على ضوء ذلك القرار لا أستطيع تحرير شيك يزيد على أربعمائة جنيه في الشهر. ولذا فإني سأحرر لك مجموعة من الصكوك، وأرجوك سحبها خلال عدة أشهر، ولم يكترث الأخ الفاضل رغم أني عزمت على السفر خلال أيام، وكانت إجابته: هي التماسه لي أن أنسى الموضوع برمته. وبعد إلحاحي عليه بقبول فكرتي، والأخذ بحيلتي، وإذا به هو وزميل آخر يستأذناني بالزيارة، وإذا به يضع المبلغ كاملا على الطاولة التي بيننا. وقال: لقد سحبت المبلغ بأكمله من المصرف فلا وجود للمشكلة التي ذكرت، قلت: إذا كان ما تقول صحيحا فالحمد لله إذْ برئت الذمة. ويبدو أنه اصطحب صديقا ليكون عليه شاهدا ولي ناصرا. وانطلت الحيلة عليّ، ولكني اكتشفت

---

(١) وهو الدكتور عبد اللطيف النافع العتيبي – أبو حمد – والذي أنهى دراسته العليا من قسم الجغرافيا من جامعة Hull.

(٢) لكني أقسمت لاذكرّن ذلك في كل محفل، لما في ذلك من تقدير لأهل الفضل، وتشجيعا لمواقف الخير بين الأخوة.

– وأنا في ليبيا – أن المبلغ لم يُسحب من حسابي، وهذا يعني أن «أبا حمد» لم يسحب المبلغ وقد اختلق الرواية من أجل راحتي، مما اضطرني لمهاتفته من ليبيا ، فكان جوابه: وكيف عرفت؟ وهذه صورة واحدة استلها من ملف هذا الرجل الصادق في كرمه وأخوته، وهو فوق ذلك حاول جهده وحيلته التملص من استلامه المبلغ. فبيض اللّه وجهه وكل وجه مثل وجهه، وأقال من عثراته يوم القيامة. على أية حال فإن مثل هذه الصورة تجعل الإنسان يشعر أن الخير لا ينقطع في هذه الأمة، مهما ادلهمت الخطوب، وتدل أيضا على أن الأم المربية، والأب المضياف والمجلس العربي لا زالت جميعا تساهم في صناعة رجالنا.

وهنا أرى أنه من الواجب أن أنزل على حكم المروءة لأزعم أن أرحام الأمهات العربيات ما زالت تلد لنا خلائف تذكرنا بحاتم الطائي، وأن الكرم العربي حقيقة وواقع، ولذا كنت أحذّر أمهات طلبتي وآبائهم على الخطأ الفادح عندما يضطرهم الحنان أحيانا لقول: «يجب عليك أن تأكل في المدرسة ولا تعطِ أحدا من زملائك، أو كل وحدك وبسرعة قبل أن يشاركك الآخرون» فكم من نفس مريضة بنينا بيننا جرّاء هذا القول غير المدروس؟ وكم من طفل شب على مثل تلك العبارات المريضة؟ وعاقبتها أن يصبح الطفل مكروها بين زملائه متهما بالبخل. فالصور كثيرة تلك التي تمر رسومها على العيون وتكاد تخنقها جوى[1] الأهداب، وأريد أحيانا التخلص منها لأتقدم بسرعة أكبر لتغطية ما أذكر من أحداث شخصية سواء منها ما تُحقق متعة القارئ، أم تلك التي تُفيد المربي، لكن النجاح سيتحقق للكاتب في المحاولة الكتابية هذه إذا ما استحسن القارئ تلك الصور رَغُم عدم رضا الكاتب عن تلك الوقفات الطويلة عند الأحداث الصغيرة وتسليط الضوء عليها.

والآن، لا بد أن أهبط في مطار «مالطا»؛ لأن ليبيا هي الأخرى تحت طائلة الحصار الجوي، وعلى البشر أن يتوقفوا عند الدول المحيطة، إعلانا منهم أنهم جميعا رُكّعٌ سُجّدٌ، وفوق ذلك خُشّعٌ للظلم الدولي. ولأنني أحمل جواز سفر صدر في جمهورية العراق فعليّ أن

(١) جوى الأهداب: الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن (لسان العرب).

أضيف لنفسي إهانة أخرى، لأن عليَ أن أنتظر أحداً من رجال أمن المطار ليطمئن قلبه أن نيتي سليمة في المرور، وأني لن أتأخر في مطارهم لطلب اللجوء السياسي أو الإنساني أو الإذلالي ... . أو أي مسمى آخر تلك التي تكثر حاليا في القواميس الحديثة التي على البشر من غير الجنس الأبيض أن يعرفها؛ لأن به حاجة إليها بلا أدنى شك، كما عرف من قبلُ الجوعَ، وتمثّل الحرمان، وعانى من التمييز لقرون عديدة، حتى أمست هواجسها تراودههم أثناء النوم، وكوابيسها وهلوستها تؤرقهم وهم تحت تأثير المخدرات.

وعلى أي حال فقد مرَّ ممثلو الأقوام والشعوب الذين كانوا معي على متن الطائرة من خلال ممر المراقبة بسلام، ودون صعوبات تُذكر، كلٌّ إلى طريقه، تنتظر معظمهم باقاتُ الزهور، وقبلاتُ المحبين، وأحضانٌ دافئةٌ، وشفاهٌ ساخنةٌ تهمس بكلماتٍ ناعمةٍ، وأيدٍ تتصافح وقلوبٌ تتقارب، وعيونٌ تدمع، ودموعٌ تتساقط، وعطورٌ تتمازج، وصدورٌ تتنهد، ورؤوسٌ تتهاوى على أكتاف حنونة، تغطيها شعورٌ ناعمةٌ، مختلفةٌ في ألوانِها، وطرائقِ تصفيفها، وهناك ثلة من أطفالٍ يحيّون، وأمهاتٍ يدعون، وآباءٍ يفخرون، وإخوانٍ يتعانقون، وأحباءٍ يتناجَون، والأضواء المنبعثة من آلات التصوير الحديثة، تفضحُ بعضَ العيون، وتكشفُ عن ألوانِ الفساتين، وتُخبر عن روعةِ الثغورِ، وتُري بياضَ اللؤلؤِ المصفوفِ، وعقودِ الماسِ تطوّقُ المعاصمِ، وتغطي القدود، وأنت تعيشُ في الموقف ذاك لترصد اختلاف الثقافات، وتلمس تنوع البيئات، طبقا لجرعات التربية التي تناولوها والعادات التي ألفوها، و«الهيتي» يختلسُ النظرَ بعيون صقرٍ مكسور الجناح، وبنظرات محلِّلة، وعلّهُ يكون صريحا أمام القارئ الكريم كما عود أصحابه، وأراح أترابه، ليفصح لهم أن نفسه كانت إزاء ذلك الحدث محطمة، وكرامته مهشمة، تتساقط على الأرض، وتتصاعد نفسه حسرات إلى السماء، ويطلق الآهات والأنات، ويبث الزفرات، مع شيء يسير من عزة في النفس وشموخ في القيم، متعللا أن هناك عبر البحر أعزة في انتظاره، وصفوة تتسقط أخباره،

فقد سمعوا عنه كثيرًا، لكنهم لا يدرون أن الناقلين مبالغون، وأنك « أنْ تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه[١] ».

ومع أني حديث عهد بركوب بحر الكتابة، وعاشق جديد لفن التأليف، لكنّي حرٌ شريف ولا أريد أن أنشر غسيل بلادي على حبال محاولاتي الكتابية؛ لذا قررت منذ الآن أن أعتز بجواز سفري الأخضر، الذي يحمل سعفات نخيل البصرة، ومسلة القانون البابلية، وبغداد المنصور المدوّرة ومدونات الفقه، وكوفة الشعر، وبصرة النحو، ودجلة الخير أم البساتين[٢]، ولسوف أقف بهذا الميراث أمام رجل المطار، عندما يسألني أسئلةً سخيفةً اعتاد هؤلاء بحكم وظائفهم أن يصلبوا على أعوادها كثيرا من الشرفاء، وقليلا من مهربي المخدرات، ولكن مهما كانت استفزازاته، ولربما مهاتراته فلا بد لي من مقابلتها بالصدق فهي الشجاعةُ التي بها أغلب، والحق الذي به ارتفع، والهدف الذي نحوه أتجه، والاحترام الذي أكسب، والعلاقة التي أبني، والصورة التي أرسم. فالصدق في النهاية منجاة. ومرت الساعة ولحقتها ساعة أخرى وأنا على هذه الحال إلى أن شخصت بنفسي أسأل عن المسؤول، معتذرا له بأن الصبر قد نفد، والصدر قد ضاق، والوقت قد شارف على النهاية حيث تبحر العبارة من الميناء، وعليّ أن أطلب سيارة في الحال، فلما استشعر

(١) يضرب هذا المثل لمن خبره خير من مرآه، وقال المفضل: أول من قال هذا المثل المنذر بن ماء السماء وله قصة غريبة. وقد قال ذلك أيضا عبد الملك بن مروان عندما دخل عليه الشاعر» كثيّر عزة» في بداية خلافة عبد الملك فبادره يسأله: أأنت «كثيّر عزة» الذين يقولون عنه؟ فأجاب كثيّر عزة: نعم، نعم، أنا ذا كثير عزة من غير فخر، فقال عبد الملك: والله لإن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. – وقد ذُكر أن المعيدي كان دميم الخلقة– فقال كثير على البديهة مرتجلا: يا أمير المؤمنين كل انسان عند محله رحب الفناء، شامخ البناء، عالي السناء، وأنشد:

ترى الرجل النحيف فتزدريه   وفي أثوابه أسد هصور

إلى أن قال:

فما عظم الرجال لهم بزين   ولكن بفخرٍ حسن وخير

ولما انتهى من قصيدته وكان عبدالملك مطرقا، قال: ما أطول لسانك، وأبلغ بيانك، وأقنع جوابك! قال ابن خلكان: كان يقال له: «أبوالذّبان» لذباب كان يقع على شفته وكان أبخر، وكان إذا مشى يظن أنه صغير من قصره، وكان إذا دخل على عبد الملك بن مروان يقول له: طأطأ رأسك لا يؤذيك السقف، وكان يضحك إليه، وكان يفد على عبد الملك، ووفد على عمر بن عبد العزيز.

(٢) محمد مهدي الجواهري الشاعر العراقي: من قصيدة طويلة له نقتبس البيت التالي حيث ألمحنا إليه:

حَيّيتُ سفحك عن بعد فحيّيني   يا دجلةَ الخيرِ يا أُمَّ البساتينِ

الضابط صدقي في الكلمات، وأني عازم على السفر لا محال، تهللت أساريره، وانبلجت شفتاه الغليظتان عن أسنانٍ يجوع فيها السوس ويلونها الدخان بلونه القذر، وتعلو وجهه ابتسامةٌ خجولةٌ ، وجدتُه لا يحير جوابا على سوء معاملتي، وضياع كل ذلك الوقت مني، حيث انقلب المسافرون إلى رحالهم، وتعالى غطيط النائمين منهم، وراح الآخرون يتيهون في أحلامهم. وعليّ أن أستدرك أن الموظف هذا الذي رأيت، هو وجه الدولة الذي تقابل به المسافرين، كذلك السائحين، الذين يهرولون صيفًا وشتاءً وراء مطالع الشمس، وبحار الرمال، فمن خلال موظفي المطار قد تبنى الآراء، وتقيّم ثقافة البلدان، وتصنّف درجات الحضارات. وشيء آخر حاولت تناسيه ولكن دفعني إليه الفضول هو أن بعض الموظفين في بعض مطارات العالم الثالث ربما يشعرون أننا لا نستحق أن نملك في جوازات سفرنا تأشيرة للإقامة في لندن أو واشنطن، فإن ذلك يعني أننا - في نظرهم - حصلنا على ما هو أشرف من الجنة، وأعلى من الفردوس الأعلى. فهو مجرد الحسد، وللأسف من النوع المذموم(١)، أو أن عواصم الدول العملاقة قد عينتهم بصفة عيونهم الدولية يعملون عند بوابات أوربا بالنيابة عنهم لتقليل الضغط عن مجموعة العواصم الباردة. أو أن إجراءاتهم الصارمة وتصرفاتهم تلك متولدة من تعاضد كل ما ذكرنا، ونيتنا حسنة، والله أعلم.

وأخيرا فأنا، الآن، على ظهر العبّارة الليبية، وأصارحكم أني نسيت اسمها، فاتصلت بأحد الأصدقاء فأفاد أنها عبارة «غرناطة»، وقد دفعني ممن أحسن بي الظن لأتقدم صفوف المسافرين إماما لصلاة المغرب، عسى الله أن يغفر لي ما اكتسبت من ذنب واجترأت من سيئة، وبنيت على ظن، وما ظننت أن مظهري سوف يغرّر أو يضلّل الناس إلى هذه الدرجة، فلحيتي أصغر من لحى بعض القوم، وجبهتي لا تحمل بصمات العابد المتخشع، ولا شاربي قد جُزّ شعره على ضوء من السنة، كما أن ثيابي تغطي الكعبين محاولة مني لأطيل قليلا من قامتي القصيرة، وغايتي في ذلك الجمال الذي يحبه مبدع الجمال. ولم تكن هذه أول مرة أستقل سفين البحر، ولكنها أول مرة أقيم وأؤمُّ الصلاة على ظهره، وهي جميلة حقا فقد

---

(١) الحسد نوعان: حسد مذموم وحسد مباح.

استدارت بنا عدة دورات، ونحن في صلاتنا نستقبل مرة القبلة ونستدبرها أخرى، ونقابل مرة المودعين وليس من مودع لي بينهم ونستظهرهم أخرى - أي ندير لهم بالظهور -.

الشمس ودعت مالطا، وعبّارتنا هي الأخرى ودعت ميناءها، وفرش الظلام خيمته على سماء البحر المتوسط، إذْ لملمت الشمس أشرعة الضياء قبل ساعة، وراحت تبحث عن روادها وهم بانتظارها عبر البحر، أما الإنسان فقد حاول أن ينشر شباكه الضوئية. هنا وهناك على الشواطئ والجزر من شمال القارة الأفريقية التي نتوجه إليها، وكذلك من جنوب القارة الأوربية التي كنا قد غادرنا توًّا، أما داخل العبّارة فتراني لا أذكر منها تلك الليلة، غير صالتها المخصصة للطعام، والباحة الواسعة الأرجاء المخصصة لشرب الشاي الأخضر، وبعد تناولنا طعام العشاء على مقاعدها الواسعة، إذا بشباب هناك في أقصى زاوية الصالة يلوّحون بالسلام، وكعادتي التي يحسدني عليها كثير من الناس، فإني أميل إلى لغة الإشارة، والتخاطب بلغة العيون[1]، فدعوت بعضهم للاقتراب والجلوس للمسامرة، وتناول أقداح الشاي، فلبى الشباب الدعوة، وجلسوا مرحبين، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث، بعيدا بقدر الإمكان عن أحاديث السياسة، وقد أمسك كل منا من جانبه بشعرة معاوية، وتمثل بعضنا دهاء عمرو بن العاص، وافتخر بعضهم بشجاعة عنترة، فيما راح بعضهم الآخر يستشهد بما جادت به قرائح الشعراء، وقد لمس الحضور أن هناك لغة مفهومة ومشتركة بينهم وبين الكاتب، فبدأت أشرح لهم تلك الظاهرة مستشهدا بقول الشاعر:

ترى عينها عيني فتعرف وحيها   وتعرف عيني ما به الوحي يرجع

فأمسى كلهم آذانا صاغية، وقلوبا واعية، وخلجات هامسة، وأنا أُقعِّد وأُنظِّر، وأنقد وأحلل، فزاد عدد الحضور، حتى ازدحم المكان وصار بعضهم وقوفًا، ينتظرون أحدا

(١) وخير ما يعبر الكاتب عن تلك الخبرة بالبيتين التاليين:

والعين تنطق والأفواه ساكتة   حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

أو   وتعطلت لغة الكلام وخاطبت   عيني في لغة الهوى عيناك

يغادر، وخفت من الشهرة، وخشيت من الزلة، فحاولت جهدي أن أضع الكرة في مرماهم، وطلبت من يحدثنا منهم، بأي حديث ولو من صنف الضعيف، فتبادر القوم إلى الانسحاب، والتعلل بعسى وليت، فانسحب كبار السن منهم للنوم قبل الصغار، وظل ثلاثة من الشباب يتربصون الفرصة، وينتظرون النصرة، وكأني قرأت في وجوههم حاجة، وأخيرا تحلى أحدهم بالشجاعة، وسألني: هل تدخن أنت أيها الأستاذ؟ فكان الجواب: أنْ حمدت اللّه على النّعمة – كناية عن عدم التدخين – . فقال: إذن هل لي أن أسألك أن تحمل عني دزينتين من علب السجائر، وأنت مغادر للعبارة؟ فلم أجبه بالرفض ولا بالقبول، لأني أخشى أن يكون وراء الطلب مقلب، إن وافقت، وأحذر من تبرمهم إن رفضت، فحمدت اللّه أنهم لم يسألوني بعدها، وكأنهم أحسّوا ما بي من حذر، رغم أنهم وجدوا فيّ الكثير من الهذر. وعلّهم يسامحونني على ما أبديت من تحفظات، وأخذت لنفسي من احتياطات.

وعندما هبطت إلى مكان استقبال المسافرين، على ساحل البحر بطرابلس، صافحت الود، وعانقت الحب، ولمست الاحترام، فقد أحاطوني برعاية تامة، وضيافة كريمة، ذهبت بعدها لألقي بنفسي في أحضان «فندق شاطئ البحر»، وأرتمي على فراش الهدوء، وما إن أمضيت بعض الوقت، مقلّبا الصور التي شاهدت، ومتعقبا المواقف التي بها مررت، أبرّر بعضها، وأتجاهل بعضها الآخر، وربما استعصى عليّ الفهم، أو أخفقت في التحليل أو الاستيعاب، راودتني نفسي تقول: ولِمَ لا تترك الاجترار؟ وتنزل إلى ردهة الاستقبال؟ علّك تجد من تسامر، وتحظى بمن تُخالل، ولأني على بينة من فوائد السفر(1)، وما فيه من متع، وما ينطوي على خدع، وما يتضمن من فكر، فوافقتها ونزلت، لعلمي أن السفر مكان التجارب، ومجمع الخبرات. وكانت إحدى أهم توصياتي للمدارس التي كنت أزورها: الاهتمام بسفرات الطلبة لما فيها من فرص تعليمية مؤثرة، لا توفرها غرف الدرس، أو حلق العلم، وأن الرسول – ﷺ – كان يعلّم ابن عباس وهو رديفه على ظهر الدابة، لأن البيئة في

(1) راجع الفوائد التي نص عليها الإمام الشافعي حين قال:

تغرّب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرّج هَمّ واكتساب معيشة وعلم وآدابٌ وصحبة ماجد

السفر تمنح فرصا جديدة وجديرة، وتخلق حافزا عند المتلقّي، وتجدد فيه الحيوية، وترفع لديه الدافعية، وربما تغيّر فيه بعض الاتجاهات السلبيّة، ثم إنّ جوّ الصف لتكرار الحوادث فيه، واعتياد ملاقاة نفس الوجوه والأشكال، تثير فيه الضيق، وتعلي فيه الملل في أحايين كثيرة، وذلك لطول المدة، فهو - أي الصف - لا يوفر الجو المطلوب، ثم إنّ حب الفضول والاستطلاع من سمات النفس الإنسانية التي تتزايد في السفر، ولذا فإن من المهم استغلال تلك الخصلة، والأهم كيف يتم استغلال ذلك في سياق العملية التعليمية والتربوية، ثم إنّ فيه - أعني: السفر- نوعا من الترويح عن النفس، والتنفيس للكرب، لما جاء في الخبر عن سيد البشر(١). وهذا واجب من واجبات المدرسة، ومتطلب من متطلباتها، أما البيت فله التوسع في هذا المجال كل على قدر حاله من الغنى والفقر..

وحال هبوطي استراحة الضيوف في الفندق، وإذا بزبون وحيد، بدت عليه كل علامات السفر، وقد حفر الزمن في وجهه وديان التعب، ونصب على حاجبيه جبال الهموم، وقبّلت الشمس الصحراوية منه الوجه والمعصم، فصبغتهما بلونها النحاسي الداكن، وقد اعتمرت عينيه نظارة طبية سميكة للغاية، تخبر عن جسامة ما يعاني في النظر، رأيته يعاود النظر في ساعته بين لحظة وأخرى، وكأنه ضاق ذرعا من الانتظار، فحييته، فرد بأحسن منها، وإذا به يسألني التوجه إليه، لأشاركه الضجر، وأقاسمه الهموم، وفعلا فعلت، وبدأ كل منا يمطر صاحبه بسيل جارف من الأسئلة، وكأن بنا جوعا لأن يعرف كلٌّ منا صاحبه، واكتشفنا أن طريقنا واحد في رحلتنا الطويلة في عمق الصحراء، فاستبشر كلانا خيرا، ولما ظنّ أني سأكون خير رفيق، أو هكذا ربما أكون قد فهمت، صارحني برغبته الملحاحة، وهي أن أرافقه إلى الدعوة التي وُجِّهت إليه لتناول طعام العشاء مساءً، خارج مدينة طرابلس وبالضبط في قصبة ترهونة، وبعد تردد مني في تحقيق تلك الرغيبة له، وافقتُ على استحياء، وكأني أدعو نفسي لتلك الدعوة، وعذري في قبولي الدعوة في نهاية الأمر

(١) حديث المصطفى « روّحوا القلوب ساعة وساعة « وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: روحوا عن القلوب وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان. رواه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٠(١٢٩/٢)

أني اعتدت الترحيب بمن يرافق المدعويين إلى طعامي. ثم ما لبثنا والسيارة تدلف بنا نحو طريق زراعي، تغطيه عرائش كثيفة حجبت عنّا شمس الغروب، تتخللها المتسلقات الملّتفة وهي تنام على واجهات البيوت الجميلة التي تنتشر على جانبيه، ... إلى أن أشار صاحبي على السائق بالتوقف عند مسجد جميل انتصب قبالتنا، متوسطا البساتين، تعمره دعوات المصلين وهم كثر في داخله، وزرافات أخرى خارجه متجهة إليه من الشرائع المحيطة به، وقد راح جملة منهم بالترحيب بنا، وكأن وجوهنا ليست غريبة عليهم، وبعد صلاة المغرب، توجهنا برفقة الداعين، وقد أكرمنا القوم أيما إكرام. فكم تحتاج مجتمعات الغرب إلى مثل تلك القيم؟ وكم يحتاج الجيل الجديد (أولادنا) وهم يعيشون ضمن مجتمعات غربية لمثل تلك الوشائج ؟ فهل يا ترى يحصل مثل هذا التعارف هناك على الأرض الأوربية؟ وإذا حصل فهل يحصل بهذه السرعة ؟ وهل يقع بين اثنين لم يكن ليعرف أحدهما الآخر من قبلُ على الإطلاق؟

واتفقنا على أن نترك الفندق في اليوم التالي عند الساعة العاشرة صباحا، وبعد ساعة ودعنا كل شيء، فودعنا الخضرة والماء، ودخلت بنا السيارة تسبح في بحار من الرمال، باتجاه القلب منها، وسُحب الرمال حجبت السقف السماوي الأزرق ولم نعد نرى شيئا غير رائحة عطرها وهي تسد الأفق وتملأ العيون، إذْ بدأنا نفقد الرؤية تماما، فماذا سيحدث لو مرت سيارة بالقرب منا؟ ومن رحمة الله أنها على ما يبدو نادرة، ندرة الشجيرات في تلك البيد الواسعة، مما قلل احتمال وقوع حوادث اصطدام في الطريق. ولم تمض غير ثلاث ساعات على مسيرنا حتى صرت أتساءل مع نفسي، ويمنعني الحياء أن أسأل سائق السيارة ولو سؤالا واحد من بين عدة أسئلة أخذت تدور في رأسي، قد يفسرها المسافرون أنها علامة الخوف، ولكن بالرغم مما سيقال فيّ فقد اكتفيت بسؤال واحد: ماذا لو تعطلت السيارة؟ والجواب جاء على الفور وكأن السؤال كان مكررا يسأله كل المسافرين الأجانب: نحن الليبيِّن لا نغادر سيارة نراها في الطريق بها حاجة لمساعدة دون تقديم العون اللازم، وتوكلنا على اللّه، فقلت: وهو حسبنا.

وعندما شارف نصف الطريق على الانتهاء، إذا بشجرة تنتصب أمامنا قائمة، ظلها وارف، وخضرتها زاهية، وإذا بصاحبنا يتوقف على عجل، محاولا الرجوع إلى الوراء، في وقت كان جميعنا نريد له التقدم إلى الأمام ، فسألته وهل فقدت شيئا؟ فقال: لا، ولكن أنظر لتلك الشجرة! فقلت: ذات الغصون النضرة؟ أراها شجرة وقد ارتدت حلتها الزاهية، قال: ولكن عليّ أن أسقيها، فقلت: لا بأس بذلك، وكنت فخورا به إذْ يضحي بوقته، ويثقل على زبائنه من الركاب، من أجل سقي شجرة في عمق الصحراء. فقلت: ولكننا قد نحتاج نحن إلى الماء، فهل معك وفرة منه؟ قال: لكن من الصعوبة تجاوزها بدون سقي. فقلت: ولم؟ قال: ثق لو تجاوزتها ولم أسقها فلا ألومن إلا نفسي من شر يصيبني أو لعنة تلحق بي، ولن أصل سالما إلى «هون». وبدأ يهمهم بكلمات كأنه يريد الدعاء، وقد أخذني العجب مع أني أعلم أنّ العجب علامة من علامات الجاهل وظللت في حَيْرةٍ من أمر هذا الرجل إن كان جادا فيما يقول، فرجوته السير، والتوكل على الذي خلق الشجرة، وقلت له: لو حصل مقدور لسيارتك، فسوف أدفع لك ثمن التصليح بإذن الله تعالى، وبعد تردد، قرأت في وجهه عدم الرضا، ثم تحرك يقهره الخوف من شر يصيبه، أو ضر يمسه، فكنت أطمئنه، وأقص عليه القصص، وكيف أن أجداده العرب كانوا يخافون من شر مستطير، ترسله عليهم أصنامهم التي نصبوها في بيت الله الحرام، حتى هدأ روعه. فكم من أمثال سائقنا المسكين نلاقي يوميا ونخالط؟ وما واجبنا إزاء مسألة تحرير العقل العربي من سجن الخرافات؟

وبعد سبع ساعات متواصلة من المسير، أشار السائق إليّ قائلا: انظر يا دكتورنا الفاضل، تلك «هون»، وعندما نظرت إلى حيث أشار السائق، بدت هون أمامنا وكأنها تلبس جلدا من الرمل، تتخلله بقع سود، عللتها على الفور أنها واحات النخيل، وكأني بدأت أردد - سبحان الله - الذي جعل حياة في وسط هذا الوسط الميت، والموت المطبق، وذكرت الشاعر الليبي إبراهيم محمد الهوني في البيتين التاليين ويبدو أنه قالها من المسافة نفسها التي شاهدت «هون» منها:[1]

(١) الأبيات رواها الأخ كمال أبو زيد في مدونته الإلكترونية وأسندها للشاعر الليبي إبراهيم محمد الهوني.

تراءت لنا هون فقلت لصاحبي رأينا بحمد الله ما أسس الجد

إذا ما تذكرت الجدود ومجدهم بكيت إلى أن ضج من دمعي الخد

وبسبب الاستقبال الحار، من قبل إدارة الكلية، دخلت وكأني كنت سببا في تحقيق نصر لم تحققه الجيوش العربية مجتمعة منذ زمن بعيد، وهذا دليل على خلق القوم السامي مع ضيوفهم. فقبّلت السائق وقد هنأته بسلامة الوصول، وأن الشجرة لم ترسل لعناتها على السيارة أو أحد راكبيها.

ولم تقف طموحاتي، فإن الفضول في حب الاستطلاع كبير لا حدود تحده، ولا شواطئ تقف في وجهه، وقمت باستغلال الوقت الذي ما زال أمامي قبل المباشرة بالوظيفة، من خلال زيارة لجزء من الخارطة الليبية التي سمعنا عنها الكثير، حيث المسرح الحقيقي للمجاهد عمر المختار، فزرت الجهة الشرقية للبلاد - بنغازي العاصمة الليبية الثانية - ورافقني أحد الأصدقاء في تلك الزيارة، وقد تعلمت منه الكثير، وعرّجت على «مدينة البيضاء» حيث قسم التربية لجامعة «قار يونس»، وقُدم لي عرضًا للعمل في كلية التربية، في «مدينة المرج»، وهي من أجمل المدن الليبية موقعا، ومناخا، ولكني رفضت التوقيع على العقد المغري وكورقة ضغط حاولوا اللعب بها معي، قدّمني المسؤول عن إدارة الموظفين وتعينهم إلى جملة من الطلبة والطالبات في الكلية المذكورة، وسألهم عن طبيعة الاختصاص الذي يعانون من نقصه، فكان جوابهم: أصول التربية، وعلم النفس. وعندها التمس مني مُلخّصا ومُخلِصا القول: إنّ هؤلاء أولادك، وهم في حاجة إليك، مضيفا: إنك ستذهب - إن رفضت عرضنا هذا- إلى عمق الصحراء، حيث الماء المالح، والرمال الزاحفة، والمكان النائي، ولسوف يفضل أهلك هذا المكان، حيث شاطئ البحر الساحر، والجبل الأخضر، ولمست فعلا حاجتهم الماسَّة لاختصاصي ... وظل الرجل يرغّبني، ويستميلني، وأنا أعوم في بحرين، بحر الموافقة وبحرالرفض، وأم الهوى - نفسي - تحدثني بلغتها الإغرائية: المكان فعلا أجمل، والجو بالتأكيد أفضل، والمكان إلى الحياة ومتطلباتها أقرب، والجو

هنا يصقل النفس، ويطيّب الخاطر. ولكنّي على يقين من أن النفس تسأل حاجاتها، لكنّها للأسف تنسى جناياتها، وبدأ الاحتراب بين النفس، والعقل، ودخلت النفس الأمارة من جهة مع النفس اللوامة والنفس المطمئنة من جهة أخرى في الاقتتال، وأصبحت أقول: يا نفس غُرّي غيري، فلقد أعطيتُ للناس الذين أكرموني في «هون» وعدا، وأمّلتهم خيرا، فكيف لي أن أخون العهد؟ وأخلف الوعد؟ وخيانة العهد ليست من طبعي ، وخلف الوعد ليس من خلقي. وفكًّا للاشتباك تركت اتخاذ القرار للجهة الداعية في «هون». واختتمنا زيارتنا بليلة كانت شاهدا من شواهدي التي لا حصر لها على كرم القوم، وحسن فعالهم، فلقد تمت دعوتنا من قبل طلبة جامعة «قار يونس» للمبيت في بنغازي ولم يكن هناك سابق معرفة بالمضيفين، وكل ما في الأمر أنهم وجدوا الضيوف أمامهم دون بحث.

ولم يمضِ أسبوع على مباشرتي في الكلية في «هون»، حتى رتّب المسؤولون مكتبا مجاورا لمكتب العميد، كان بمثابة التكريم، حيث لبيّت دعوتهم للانضمام إلى أسرة هيئة التدريس، وعقب ذلك تمت دعوتي للقيام برئاسة مكتب شؤون البحوث والدراسات، الذي تم استحداثه في الكلية، فيما انشغل كثير منهم في تهيئة متطلبات السكن، وتلك الترتيبات على قدر ما زادت في سعادتي، ورفعت من معنوياتي، فإنها أسست لحسادي من قبل الأساتذة القدامى أسبابا للتخوف من أن البساط سيسحب من تحت أقدامهم، وأني سأحظى باحترام من قبل عمادة الكلية يتجاوز الحدود التي رسمها هؤلاء القدامى لغيرهم من الذين سبقوني في سنوات خدمتهم، وربما في اختصاصاتهم الدقيقة أيضا.

ومما تجب الإشارة إليه، أن إحدى اهتمامات الكتاب هذا الذي بين يدي القارئ الكريم هي أن ينقل خواطري التربوية، وأهم تلك الخواطر التأكيد على أهمية الدماء الجديدة التي تُضاف للمعاهد والمؤسسات التربوية، حيث بها تتواصل الأجيال، ويُتناقل التراث، وتُبنى الحضارات، إذن هم براعم لابد أن تُتَعَهد بالرعاية وتُغذّى بالمساعدة. ثم إنّ لي الحق أن أسألك أيها الأستاذ المتربع على كرسي الأستاذية: كيف وصلت إليك لو دامت لغيرك؟ ثم إننا من المؤمنين إن كل شيء حولنا يتغير، أو على الأقل في طريقه إلى التغيير، فما هو

جديد بالنسبة إليك، أصبح قديما عند غيرك، وما هو جديد عندنا أصبح عند غيرنا قديما، وهذه سُنّة الحياة، وكم جاهد الجُدد في بناء أنفسهم؟ وكم استفدنا منهم خلال عملنا معهم، وكم أضفنا إلى خبراتنا من خبراتهم؟ ولكن أمام ذلك كله كم كانت معاناتهم عند انضمامهم للعمل في المدارس والمعاهد والجامعات التي غالبا ما تفتقر إلى برامج خاصة تفيدهم في سنتهم الأولى في التربية - مدة التجربة الأولى -؟ في وقت تنوعت البرامج، وتعددت الخطط، وتغايرت الاستعدادات في الدول التي آمنت بأن التربية والتعليم أساس كل نصر في الحياة، واستطاعوا أن يزرعوا بأعلامهم على سطوح بعض الكواكب. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لنا الحق في أن نسأل: لماذا نضع أمامهم العراقيل؟ وننصب في طريقهم العقبات في وقت تحاول المدرسة استثمار طاقاتهم الشّابَّة، وتوظّف أحلامهم الطموحة؟ ولِمَ كل تلك الأنانية؟ لا شك أن علاج النفوس التي انطوت على أمراض كالتي ذكرنا تأتي به البرامج التربوية المعدة إعدادا صحيحا، فهي وحدها كفيلة باستئصالها من القلوب، واجتثاثها من العروق، لكن بشرط أن تُطبّق عليهم وهم في سن مبكرة، أي أثناء الإعداد وليس أثناء الخدمة كما يظن بعضهم، فلا فائدة تُذكر مهما نظّمنا لهم من دورات، وأقمنا من ورش[1] حين تتصلّب المفاصل وتتخشّب العقول. ونحن بلا شك متفقون على أن أظفار بعضهم ما زالت ناعمة، وخبراتهم محدودة إذن، فما هو واجب المربي الكبير؟ وكيف نفسر، ونبرر ما شاع واشتهر من: «أن طريق العلم طريق موصل للجنة؟[2]

وبعد شهر تقريبا كان لزاما عليّ أن أُجري الفحوصات اللازمة للتأكد من أني قدمتُ ولا أحمل أمراضا معدية لليبيين، وهذا يقتضي أن أُحضر عددًا من الصور الشخصية، فاصطحبني أحد الأساتذة العاملين، وفي الطريق الممتد بين مجمع الكلية وبين المدينة، توقف كثير من الأخوة وهم يعرضون خدماتهم، فمنهم من يدعونا لاستخدام سياراتهم، ومنهم من يدعونا إلى طعام وآخرون إلى شراب، ونحو ذلك، مستعملين في النداء اسمي

(١) إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا تلين إذا كانت من الخشب.

(٢) جاء في الحديث:» من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم. وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء . ...».

دون اسم صاحبي، فالتفت إليّ صاحبي قائلا: هل سبق لك يا دكتور أن زرت «هون»؟! فقلت: أبدًا، ثم قال ولكن معارفك كثير، ولم يمض على قدومك غير شهر،في وقت أنا لي من السنين سبع، ولا أعرف إلا القليل. وكان علي أن أرد بما لا يخدش كرامته، أو أزيد من همومه. وبحثت على جناح السرعة عن إجابة أقدمها على طبق من القبول، وعلى مائدة من الاستحسان، فقلت: رُبّما أني أفهم لسانهم وأنا أقرب إلى طباعهم. وفي الواقع الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف، ... والناس، هنا طيبون، أيها الأستاذ الدكتور[١]، ويحتاجون فقط لمن يفتح قلبه لهم، وهم بدورهم سيفتحون قلوبهم وأرواحهم، ويغطونه بأجنحة وجدانهم، ويوسدونه في سويداء قلوبهم، إما أن يشعرهم أن بهم حاجة إليه، وإن كان ذلك شرف له، فهو في ذات الوقت شرف لهم أن يختاروه دون غيره من الناس، ونحن في موازنة ومعادلة لابد أن نقف في المكان الذي يُبقى على ذلك التوازن، ويحافظ على تلك المعادلة، فأنت تخدمهم وهم يخدمونك، وأنت تحتاجهم ولذا أتيت إليهم، عابرا القفار، وقاطعا المسافات، تاركا الأهل والولد، وهم بحاجة لتواضعك عندما تهديهم ما تملك من علم وتدخر من تجربة، وأوردت له هذا البيت الذي طالما تغنيت به في صغري:

النـاسُ للنـاسِ من بدوٍ ومن حضرٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ

فقد نُحِت هذا البيت على جدار بالمسجد الذي كانت تطل منارته المائلة على بيتنا القديم. فإن تواضعت لهم أيها الأستاذ رفعوك، أما أنا فقد شربت الماء الحلو في صحرائهم، وشربوا المالح[٢]، وركنوا مركباتهم عند بابي، وذهبوا ماشين، وتركوا التزاماتهم وأطفالهم ورافقوني في أسفاري أياما وليالي. فماذا أريد أكثر من ذلك؟ فهذه هي السعادة الحقيقة التي يُحسد عليها الإنسان، فقد كرهت الدراهم فدثّروني بكرمهم، وتذللت لهم فرفعوني على أكتافهم، وأنْصتُّ لهم فاستمعوا إليّ. لكني في الواقع لم استطع

(١) لم أر ضرورة للتصريح باسمه احتراما وتقديرا.

(٢) إشارة لما كان يعمله الأخ إدريس علي بريني أحد الشباب الليبيين من مدينة «هون» حيث كان يوفر لنا الماء المحلاة من معمل التمور، ويشرب هو وأهله الماء المالح. ولسابق فضله فضلت أن يكون عنوان هذه المحطة «مع إدريس» بدلا عن «الشمال الإفريقي».

قراءة ردود فعل رفيقي لما تخيّرت له من أمثلة، وأوردت من نصائح، واستشهدت من أبيات، وكلي أمل أنه استوعب الدرس، وغيّر النهج. وأهم من ذلك أن تلامس القناعة شغاف قلبه، وتستجيب لها نفسه، وعسى أن يكون.

ثمّ قُدر لعمادة كلية الهندسة أن تباشر في تأسيس كلية التربية، وعلى «الهيتي» أن يسهم في المشروع، وأن يضع خبراته في تصرف إدارتها، وكذلك أن يشارك في تدريس مادتين، وفعلا رحبّتُ بالفكرة، وبحمد الله نجح المشروع. ومما أذكره عن عميدها الأول[1]، الذي ربطتني به صلة مودة واحترام، على إثر استئذانه لي بقبول طالبة متأخرة للدخول إلى قاعة المحاضرة، وكنتُ حينها على مدرج المحاضرة، فرفضت طلبه، ورددت رجاءه، حيث ارتأيت عدم قبول أي طالب بعد شروعي في المحاضرة، وتوقعت في الواقع أن سيجعلها في قلبه ولا يسامحني على رد طلبه، ولربما سببت له من الإحراج ما لم يكن يتوقع، أو يتخيل، فذهب أدراجه، وقد فشل في مهمته، وإن كنت لا أعني إلا المصلحة، وعندما التقاني بعدها بيومين، كان الفرح يملأ وجهه، والفخر يحتل محياه، فحياني بأحسن التحايا، وهنأني بأبلغ العبارات، فسألته ما الخبر؟ فذكّرني بصنيعي قبل يومين، ووصفه بأنه من الأعمال الصالحات التي يفضل، وموقف من مواقف الشجاعة التي تُستحسن وقد استغنى عنها الكثير، وهو يرغب ويتمنى لو تحلى بها كل عضو في هيئة التدريس. وذكّرني موقف العميد هذا بموقف لنظيره الدكتور أبو عزوم حين ألقى محاضرة في كلية الهندسة ألمح فيها إلى أن بعضهم يسأل: لماذا «الهيتي» هنا في كلية الهندسة وكذلك في كلية التربية؟ فأجاب بصراحة ربما استغرب منها الكثير: « أنه اُستُضيف ليربي أولادنا بعد مدة من الترهل بدت واضحة على بعض أعضاء هيئة التدريس في القيام بمهمات التربية والانضباط».

وما زلت أذكر الليلة التي قرّبتني أكثر من البيت الليبي، وجعلتني رساما ماهرا في عيون أهله، وأديبا ترتاح آذانهم إلى فنّه، تلك الليلة كانت السبب في ذلك القرب، حيث الأمسية الأولى لمكتب البحوث والدراسات الذي كنت أقف على قمة هرمه والذي تم

(١) أول عميد لكلية التربية التابعة لجامعة التحدي هو الأخ الدكتور عبد القادر أبو الخير.

تأسيسه في كلية الهندسة حديثا، وكان عليّ أن أقوم بالترتيب والإعداد للتدريب. وعندما أنهى الزميل المحاضر محاضرته التي كانت بعنوان «الرياح الطاقة البديل» انبرى بعض زملائه في القسم لتوجيه أسئلة غريبة، يُشم منها رائحة التهكم، وتُشعر بروح الانتقاد دون النقد، وتُوحي بالإحراج دون الاستفسار، ثم ما لبثت ألحظ – مثل غيري من الحضور– أن علامات الارتباك أخذت طريقها إلى المحاضر، وأن مظاهر التخاذل أصبحت واضحة، فهو أمام أحداث لم يكن يتوقع، وريح عاصفة تعاكسه لم يكن ليحسب، ومعارضة جارحة لم يكن ليتصور، مع أنه حسب علمي قد أجاد في صنعته، وقد دعّم بالحجج الدوامغ آراءه، وبالبراهين صحة استنتاجاته، والأصعب من ذلك كله أن يأتيه ذلك النوع الغريب من المداخلات من أُناس خلته قد اطمئن إليهم، ومن زملاء أودع عندهم سره، إذن، فما الذي حدث؟ وهو لا يدري ما الحسد فاعل بجرثومة العلماء!! والعاملون منهم حذّروا من ذلك الداء العضال، ولكن ما دوري الساعة؟ وما حيلتي وأنا على رأس الجلسة؟ وقد تصدّرت الحفلة، ولا سيّما أن عدد الضيوف قد فاق التوقعات، وهم يتوقعون منا الكثير، ويأملون الحصول على المفيد، وهم فوق هذا وذاك من خارج أسوار الكلية، وكلهم ينتظر أن ينهل شيئًا من هذا الينبوع، حيث يعتقدون أنهم الآن عند أعلى الصروح، ثم أن الأدهى من ذلك أن الضيوف يريدون الاطمئنان أن أبناءهم ينهلون ممن بخلقهم العلمي يتميزون، وبرحابة الصدر يتمتعون، وبأدب المناظرات يُذكّرون، وبخُلق الشيوخ في حِلق العلم يتّصفون، وبروح الأدباء يتحلّون، حيث خلت قواميس لغتهم من مصطلحات التطاحن، والتشاحن، والتناحر. إذن فما الذي يحصل، هنا، تحت سقف هذه القاعة؟ وأضواؤها الكاشفة تفضح ما يجري، وعند هذا الحد وجدت أن من واجبي أن أرفع الحرج، وأدفع الضرر، وأفك الاشتباك. فوقفت لا أدري كيف أبدأ، فالموقف أصبح خطرًا، ويحتاج إلى شاعر مفوّه، وأديب بارع، وطبيب بالقلوب والمشاعر حاذق، وخبير بالتربية عالم، وأنا قليل التجارب في مثل هذه المواقف، لكنّي استعنت بالله، فوقفت بذلة العبد، معتمدا عليه، ولا أدري في الواقع ما قلت، لكني أذكر فقط أني استفتحت على الجمهور ببيت من الشعر أو بيتين، أصف مواطن

استحسان الخلاف، وأمقت أماكن الاختلاف، وبعدها أطنبت في أمثلة أستاذ الأساتذة أبي حنيفة النعمان وهو يربّي تلامذته، وأحمضت[1] في وصف عمائمهم المتطاحنة ،في مسألة من المسائل، أو قضية من القضايا، لكننا نجدهم في نهاية المطاف وقد تصافحت قلوبهم، وتنقلها للعالَمِيْنَ علما وفقها وورعا وتسامحا أقلامهم. وقد انتهى أهل النهج من طرح الخلاف، ورفع الحرج عن كواهل الطلاب، فمنهاج العلوم لديهم مهذب ومشذب. وكنت أُقاطَع بين لحظة وأخرى بالتصفيق والترحيب، وكنت في البداية أظنهم يمزحون، إلى أن قرأت في وجوههم صدق المشاعر، فقد أخذ الحماس من القوم مأخذه، وانطلقت حناجرهم بكلمات عفوية تهتف، وقرأت الرجاء في عيونهم ، وفي رؤوسهم التي كانت تومئ بالرضا، ورغبتهم الصادقة في أنّ استمر أمامهم مهرِّجا، ولم يكن التهريج إحدى عادتي، والثرثرة إن لم تكن محرّمة عندي فهي مكروهة، فوقفت أمام الجمهور مُجبَرا، رغم أنهم استحسنوا – على ما يبدو – مقالتي، واستذوقوا عبارتي، لكن تبقى السلامة كلها في التسليم بأن خير الكلام ما قلّ ودل، ومن العقل كما يرى البعض أن لا تتكلم إلا عندما لا تشتهي الكلام، والخير كله في السكوت إلا لمّا يكون السكوت عيًّا. ولا ننسى المقالة التي تعارف الناس عليها – وإن كان لي فيها أصلا مقالة– «إذا كان الكلام من فضّة فإن السكوت من ذهب»، حيث الخوف من الزّلات في فلتات اللسان، ثم سكتُّ خوفا من الهذر، بعد أن رأيت انفضاض النزاع، وسكون الألم، وافتّرت (انفرجت) الشفاه عن بسمات الرضا، والفضل كله لله.

وعند انقضاء الفصل الأول من السنة الأكاديمية سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وألف وأربع وتسعين وتسعمائة وألف جاءت القشة التي عجلت في رحيل الكاتب، فقلبه قد خفق بالحب، بعد أن فاض وجدانه بالحنين، واحترقت جوانحه بالشوق، فقد ضجر كما ضجر الأهل البِعاد، وملّوا الفراق، وأصبح الأصدقاء على أحرَّ من الجمر للّقاء، وما عليه إلا أن

(١) الإحماض: الإفاضة في الشيء، وفي حديث ابن عباس: كان إذا أفاض من عنده في الحديث بعد القرآن والتفسير: أحْمِضُوا، وذلك لمّا خاف عليهم المَلالِ أحبّ أن يُريحَهم فأمرهم بالإحماض بالأخذ في مُلح الكلام والحكايات. انظر لسان العرب.

يصل ما انقطع من حبال، ويقوِّي ما وهن من وصال، ويجدِّد ما بلى من عهود وعقود، فقد أخذ الحنين منه مأخذه، وطوّقه الوجد من كل الجهات، مع أن طلبة الجامعة كانوا بمثابة أولاده وبناته الذين فارق، ورغم أن إخوانه من العاملين أحاطوه بكل رعاية ممكنة، وعناية مستطاعه، ويكاد يُقرأ في عيون الناس هنا أن وداعهم هو الوداع الأخير لعلمهم الكامل بما ترك الكاتب وراءه، ولِما لاقى أثناء مقامه بين ظهرانيهم من جهد وعناء، والحق معهم في ذلك التوقع؛ لأن العَجَبَ كان قد أخذ معظمهم، وحيث السؤال على ألسنة أكثرهم يتردد: كيف «للهيتي» أن يترك الجنّات والعيون؟! وبلاد العدل والقانون؟ ويأتي هذه البيد الواسعة، ورمالها الزاحفة، وماءها الغور، وشجرها الخمط[1]. لكن لا بد له من الوفاء بالعهود التي قطع، إذْ جاء مستكشفا ومستطلعا، ولأهله عينا، وعنهم نائبا، فزوَّدهم بالصور والأفلام لعلهم يجدون فيها ضالتهم، وتُشبع فضولهم، علّهم يتخذون القرار؛ لأن البحث في وقتها كان مستمرا لتوفير مكان صحي، ينشط فيه الأبناء، وجو ودي يذكّرهم بالأخوة التي في مثل أكنافها ترعرع والدهم، وفيها تنسّم الود والوفاء، وشرب كؤوس الصفا. وسوف أختصر الحديث في وصف الرحلة وأنا في طريقي إلى بريطانيا، لأنقلكم مباشرة إلى حيث الأجواء التي خيمت على نقاش مسألة الانتقال إلى ليبيا أو عدمها، وفوجئت بأن الأهل يرغبون في السفر إلى ليبيا بأنفسهم للتوثق من صحة ما نقلت، ولمطابقة ما قد صوّرت، وبعد المداولات، جاءت الموافقة الجماعية بالعزم على السفر، إلا السِّراج الذي كان صغيرا فهو خارج سن التكليف، وقد أعجبتني تلك الجلسة العائلية؛ لأنها تحلت بروح عالية من المثالية في أخلاق إدارة ذلك الحوار، وكل قد أخذ وأعطى، وساهم فأثرى، ومثّلت تلك المداولات في نظري برلمانا مصغرا، طالما افتقدناه في عالمنا العربي، من يوم ما أقفلنا باب الاجتهاد، وصادرنا الكلمات من الأفواه واغتلنا الآراء من الكتب، وقفلنا النوافذ المطلة على الحضارات، وأصبح الهواء يأتي بمرسوم من السلطان، في وقت أخذت منّا دول الصقيع المبادرة، بعد تضحيات مضنية.

(١) الخمط: ضرب من الأراك له حمل يؤكل، وقيل له شوك، وقيل الخمط في الآية شجر قاتل أو سم قاتل.

وما يهمنا أن نأخذ الدروس والعبر، ذلك أن غنيمة الدول ومشروعها الدائم هم شباب الأمة وأولاد المدارس[1]، فالمبادرة في تربية أولادنا على أسس من الحرية (الديمقراطية)، وهدي من الشورى من خلال المؤسسة العائلية التي هي الوحدة الأساس، والخلية النواة في بناء المجتمعات تُعدُّ من أهم المتطلبات، وعلى المثقفين أن يبادروا في التحلي بخُلق برلمان البيت، وتشجيع ثقافة الحوار، وقبول الآخر سواء في البيت أم في المدرسة، وعلى المدرس أن يبادر هو الآخر في صفِّه، والمدير مع رفاق العمل، وهكذا..... عندها يمكننا خلال عقد أو عقدين من تنشئة جيل يمقت روح العصبية، ويبتعد عن أدران العنصرية، ويؤمن بروح الديمقراطية ولها يصوِّت، ثم يؤسِّس، وبذلك نتجنب ويلات العنف، ونبتعد عن نَفَسِ التسلط، مع أننا جميعا ندرك أن الرحلة طويلة، لكنها تبدأ قطعا بخطوة أولى، وهي تبدأ من عندك قبل غيرك، والله وعد بالعون عندما يشرع كل منا بالنهوض، « أي الأخذ بالأسباب».

وأفضل كتاب قرأته في صغري وما زلت أنصح تلامذتي وأصحابي بقراءته للأخ جودت سعيد بعنوان «إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» حيث كان بمثابة رسالة مركزة في السَنَن العام لتغيير الأمم والأقوام. وعند انطلاق مشروع كهذا فسوف تتلاشى كل المخاوف والآلام وحتى الأوهام! فإن الخطوة نحو الحرية «الديمقراطية» التي أقترحها تبدأ من البيت، ثم في المدرسة والمسجد والمركز الاجتماعي، ثم تأخذ طريقها إلى الشارع، وخلاف ذلك فإننا نظل ندور في حلقة مفرغة، إذْ آن الأوان للاعتراف بأننا كمجتمع أو كأمة ما زلنا نعيش للأسف في الشتاء «شيخ» فصول السنة، حركتنا فيه قليلة، وخطانا بطيئة، نميل إلى الركود، وأيامه تلفنا بلحائف السكون، والتي تعطل فينا جذوة بذل جهد مطلوب للوصول إلى أهدافنا، وعلينا أن نستغل الشبيبة، فإن في حيويتهم حرارة تكفي بإذن الله لإذابة الجليد، وعندها تطلع علينا شمس الربيع، فأهلا بالربيع الذي يشجعنا على أن نفكر ونتحاور ونتأمل ونتصافح ونتبادل مع الآخر.

---

(١) وهنا أذكّر بقصيدة الشاعر العراقي معروف الرصافي والتي منها:

أأبناءُ المدارس إن نفسي　　　تؤمّل فيكم الأمل الكبيرا

ولا شك في أني ربما أحشر خبرتي التربوية هنا حشرًا مشاركا الأخ يوسف الشيراوي الرأي حين اقتبس الدكتور غازي القصيبي منه مقالته:» إن إصلاح نظام التعليم نظرا لخلفية المجتمع العربي الاجتماعية والفكرية من أصعب الأمور، ولكن لا بد من الخطوة الأولى، وتتمثل بالحوار والنقاش مع المعلمين والمربين والآباء، حتى يتم إدخال التعديلات المطلوبة بأقل قدر من ردود الفعل المعارضة. ولا بد أن يتم الإصلاح على مستويين: إشراك المستفيدين بوضع غايات نهاية البرنامج ومراقبة تطبيق ذلك، وتوجيه التعليم والتدريب إلى الإبداع والابتكار عن طريق التعديل لنوعية شهادة إتمام الدراسة الثانوية«[١].

وبعد طيران في الجو، وعبور على ظهر البحر، وسير على البر، وصلتُ هذه المرة «هون» مصطحبا العائلة، وكانت أول البشائر، أن ضُخت المياه إلى الحي الجامعي على غير المألوف، حيث يُقنن الماء لشحتها وندرتها، فأصبح مكان استضافتنا بحمد الله في ذلك المساء مكانا للتّعريس فيه منعشا، واغتسلت شوارع الحي، وتبسّمت في وجوهنا الشجيرات بعد عطش، واستبشر الناس خيرا بعد ظمأ، وخرج الأطفال على غير عادتهم في مثل ذلك الوقت يضمّون هذه المرة ولدي «السراج» إلى شلتهم صديقا جديدا، وتساءل الناس عن سبب فتح صنابير المياه على غير وقتها!! وإذا بأبي عزوم يحوّل المقالة:

جئتم وهاطلة السحاب   أيحبكم حتى المطر؟!

إلى فعل بطريقته الخاصة، وكأنه استقبل الهيتي العنزي البدوي، وليس الهيتي البريطاني المتحضر، وقرأت القيم التي كانت مرسومة على وجهه، وفهمت أنه يفهمني، ويحترم عاداتي، عفا الله عنك يا أبا عزوم من رجل، فقد كنت خير السفراء لبلدك، وخير الأخلاء الذين نحتسب دخول الجنة[٢] بمخاللتهم.

(١) «صوت من الخليج» مقالات للشاعر للدكتور غازي بن عبد الرحمن القصيبي. الطبعة الثالثة ٢٠٠٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٢) إشارة لقوله تعالى: « الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» جعلنا الله من المتقين.

أما كلية التربية فإني فوجئت، أن منصة القاعة قد امتلأت بباقات الزهور وإن كانت صناعية، وبطاقات التهنئة بسلامة العودة. وكنت أقرأ أرواح الكلمات التي حُبّرت بها السطور، وأصبحت أسبح في بحار المعاني الحقيقية التي تختفي وراء سطورها، وترجمت معاني تقديرهم لوفائي لهم بالعهد، ذلك العهد الذي قطعته على نفسي بالعودة إليهم، رغم ما عرفوا من صعوبة تنفيذه، ولا أنسى تلك الحماسة التي لمستها منهم، والتفاعل الإيجابي خلال المحاضرات، والذي مثّل عطشا للعلم، واحتراما لحملته، ونقلته، وتزاحما على حوضه، حتى صرت أحيانا ألتمس الطلبة بمغادرة القاعة عند انتهاء المحاضرة، وأغلبهم يتجاهل طلبي، مودة منهم في البقاء، مما زاد في حسّادي، وجعل سر الأمر محل جدال بين بعض أعضاء هيئة التدريس، حيث كان يعاني بعضهم صعوبة إكمال محاضرته. والسّر فيما أظن يكمن في أنني أشعر بأني أتعامل مع نفوس، ومشاعر، وأحاسيس، وهذه تحتاج إلى خفة في دم المحاضر، وكلمة منه صادقة وممتعة، وفكرة رشيقة، تتخللها دعابة ظريفة، وحكاية دافئة وهادفة، وعبارة كالسهم تخرج من الفؤاد لتأسر القلوب، وصوت يدغدغ الأحاسيس، ويناغم الحاجات، وينسجم مع المتطلبات؛ لأننا نعلم كم يحتاج العلم من طلابه من الصبر عليه، وليس كلٌ قادرًا على ذلك، وكم يحتاج من إعمال للفكر، وليس الجميع على شاكلة واحدة، وكم يتطلب من اجتهاد، وليس من اليسير أن يكون كل ذلك موجودا عند الجميع.

ومن شروط الشافعي الأخرى: البُلغةُ[١] وصحبة أستاذ وطول زمان[٢]. وكنت أتحيّن تسويق العلم للطلبة متى وجدت الجو مشجعًا لذلك:

تصبّر على مرّ الجفا من معلم فإن رسوبَ العلمِ في نفراتهِ
ومَن لم يذقْ ذلَّ التعلم ساعةً تجرّع ذلَّ الجهلِ طولَ حياتهِ

---

(١) البلغة: ما يتبلغ به من العيش.

(٢) نذكر في هذا المقام أبيات الإمام الشافعي والتي تشجع على العلم:

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة استاذ وطول زمان

حياةُ الفتى واللّهِ بالعلمِ والتُّقى | إذا لم يكونا لا اعتبار لذاتهِ
ومَن فاتهُ التعليمُ وقتَ شبابهِ | فكبِّرْ عليهِ أربعًا لوفاتهِ

لذا فإنه ليس معيبًا على جماعة المربين والمدرسين أن يتوسلوا إلى طلبتهم بالحجج، ويتذرعوا أمامهم بالصبر، ويتمثلوا أعلى درجات الحذر، ولكن عليهم في الوقت نفسه أن يتحلوا بالجرأة للتغلب على الحال الذي يفرز تشاغل المختصّين والمربين وكذلك الآباء عنه، لكن الخطورة الكبرى تكمن في جهل بعضنا بتقصيرنا، فهل يا تُرى أعددنا أنفسنا لمثل هذا العمل الخطير؟ وهل سأل واحد منا نفسه إن كان قد حقق العدل بين حقوقه وواجباته؟ وهل حُقق ذلك الإنصاف ولو لساعة تدريسية؟ وهل قرأ يوما بتمعن وتدبر قول الله تعالى ﴿**ويل للمطففين**﴾، وفهم معناها سواء في الفصل أم في المعمل؟ وهل أحضر واستحضر علوم الآلة المطلوبة لمرحلته؟

وكم منا يهرع فزعا من نومه عندما تخطر له خاطرة مهمة، أو مسألة مفيدة، أو فكرة غريبة، ثم يُسجلها وينقلها لطلابه؟ كما هو الشأن عندما تحصل له مثل تلك الفرصة عندما يتعلق الأمر ببحث يقدمه، أو باختبار عليه اجتيازه، مع أن النفع في الأخيرة نفعٌ فردي، أما الحالة الأولى فإن نفعها يشمل مجتمعًا أوسع.

وقد تعرضت في مسيرتي التربوية لاختبارات كثيرة في مجال تحقيق العدالة والواقعية في التربية والتعليم، ورغم معاناتي وأزماتي لتحقيق ذلك المبدأ، فما نكصت ولا حِدّتُ أو حيّدت نفسي عن تحقيقه، أو على الأقل محاولة تحقيقه، ولذا كنت أتحرى التغذية الراجعة[1] من أجل اكتشاف سلوكي الذي أجهل حقيقته. فكنت ألجأ أحيانا إلى طريقة المقابلات الشخصية الفردية أو أعتمد في أحايين أخرى على نوع من الاستبيانات الخاصة. وزاوجت بين العدالة والواقعية؛ لأن تحقيق المصطلح الأول على إطلاقه يُعد من المستحيلات، ولكن

(١) التغذية الراجعة هي المعلومات التي يتحصل عليها بعد تطبيق طريقة من الطرق أو مشروع من المشاريع بغية التقويم.

تحقيقها سيكون أيسر عندما نتأمل ونتمثل واقعية الحدث الذي يراد تحقيق العدالة فيه، ولذا أجد نفسي تسوّق أمثلة من مسيرتي التربوية محاولا بثّها بين فصول هذه السيرة الذاتية ومحطاتها حسب تسلسلها الزمني ما أمكن، مُدلِّلا على ما ذهبت إليه ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ولعلي أسوق مثالا واحدا من تلك الأمثلة هنا، إذ عُيّنتُ عضوا في لجنة اختبارات كلية التربية، دعوتُ على أثرها إلى عقد اجتماع لمناقشة التدابير المطلوبة، حيث طلبت استبعاد الطلبة ممن تجاوز في غيابه الحد القانوني المسموح به من المشاركة في أداء الاختبارات النهائية، ولأني أعلم علم اليقين مشقة تنفيذ مثل هذا المطلب، طالبت بتطبيق القانون على من تجاوز غيابه منهم ستين في المئة، وحين طرحت فكرتي، وأدليت بدلوي، بدأت أقرأ في وجوه الأخوة أعضاء اللجنة تحرجا شديدا لتنفيذ مقترحي الذي جاء من أجل احترام المؤسسة التعليمية في تحقيق العدل، عندها صارحت الأخوة ضرورة إعفائي من عضوية اللجنة في حال شكوكهم من إمكانية تحقيق ذلك الذي هو بعض العدل فيما أرى – والله أعلم–، ولا سيما أني أخذت بقاعدة: ما لا يدرك كله لا يترك جُلّه، وعند تلك النقطة تم الاتفاق بحمد الله على تنفيذ الحد الذي اقترحته، لكن جاءني من أعضاء اللجنة من يقول: ومن الذي يقوم بتعليق الجرس في رقبة القط؟ وفهمت تماما قصة تعليق الجرس وهي قصة رمزية[1]، وكان يريد أن يسأل: مَنْ هو يا تُرى ذلك المقدامُ الذي يوقّع القرار؟! ويذيع الإعلان؟! ومع أني لم أكن معنيا بذلك كله، لكني أدرك جسامة الأمر في جو كالذي تعيشه الكلية، حيث تحكم المجتمع أعراف وتقاليد صارمة ليس من اليسير تجاهلها، ولكني رأيت – وما زالت أرى – أن كلية كهذه التي نحن بصددها مؤسسة تربوية حديثة، وعليها أن تحترم قانونها التأسيسي، وهو نفسه تربية للمنتسبين إليها، وكذلك لتعويد طلبتها على تطبيق أبسط مفاهيم التربية، وأن ما تم الدفاع عنه هو محاولة لتحقيق للعدالة، وقطع

(١) القصة الرمزية في تعليق الجرس في رقبة القط، تتلخص في أن مجموعة من الفئران عانت أشد المعاناة من قط كان له في كل غزوة من غزواته فأر يأكله، فاجتمعت الفئران ووجدت أن أحسن خطة يمكن الوصول إليها هي أن يصار إلى تعليق جرس في رقبة ذلك القط، فالفئران على ضوء تلك الخطة سوف تسمع صوت الجرس قبل أن يقترب القط منها لتنفيذ غزواته، ولكن السؤال الذي ظل بلا إجابة: من الشجاع من بينها الذي يستطيع أن يعلق الجرس في رقبة القط؟

للتسيّب الذي سوف تشهده الكلية في مستقبلها إذا ما تساهلت أو تقاعست في إعلاء شأن ذلك. فكم من طالب عانى من جراء حضوره المستمر فوق فائدته في الملازمة، وقد ترك كل شيء وراءه من أجل الالتزام؟ كما إن النظام المتّبع في الكلية ينص على نظام الحضور الكامل، فهو ليس نظام دراسة عن بُعد. إذن كيف نحقق العدل بين الطلبة المثاليين في حضورهم وبين حضور أترابهم من الذين لم يكونوا ليكلفوا أنفسهم ولو بجهد المقل؟ وإني من المؤمنين أن العلوم التربوية لها خصوصية، حيث ملازمة الأساتذة تُعدّ من المسائل الأساسية، وبذل المهج بين أدراج المكتبات واجبة. وكنت أكنُّ الاحترام والتقدير لأولئك النفر من الطلبة الذين يتركون دراستهم قافلين إلى بلدانهم عندما يُحال بينهم وبين الأساتذة الأكفاء في موضوعات تخصصاتهم(١).

وأخيرا عُلق الجرس على رقبة القط، وأحمد الله على نجاحي ونجاح الأخوة في اللجنة المذكورة، مع أني احتسب لمن علق الجرس أعلى أنواط الجرأة والشجاعة، حيث أُحطت علما بما جرى من تظاهر لإبراز العضلات أمام مساكن المسؤولين عشية الإعلان عن الطلبة الذين لم يُسمح لهم بالمشاركة في أداء الاختبارات النهائية.

ولعلي أختم الفصل المتعلق بليبيا بكلمات مَن ودّعتْهُ الكلية إلى الأبد، وهي كلمات الدكتور أبي عزوم، إذ قال يوم رحيلنا: «والله لقد ودّعَت نفوسُنا قلوبَها، وحناجرنا أصواتها، فما بقي لنا ما نقوله». وقد أقسم أمام من جاء لتشييعنا٢ من أعضاء هيئة التدريس قائلا: «لم تحتضن هون رجلا أحبه الناس كالهيتي»، وهي شهادة اعتز بها مع أن كلماته كانت قاسية عليّ، لأنه أناب نفسه عمن تمنوا بقائي، وهم يظنون أن بإمكاني تحقيق تلك الأمنية، وودع أبو عزوم هو الآخر ليبيا حين أطبق عليه الثرى. سائلين الله الرحمات الدائمة له.

---

(١) هذه الحالة تنطبق على الدراسات الجامعية العليا.

(٢) شَيَّعَه وشايَعَه كلاهما: خرج معه عند رحيله ليُوَدِّعَه ويُبَلِّغَه منزِله. انظر لسان العرب.

المحطة التاسعة
لندن نقطة اللاعودة

«لا تحقرن صغيرًا في مخاصمةٍ إن البعوضةَ تُدمي مقلةَ الأسدِ»

(ابن الرومي)

المحطة التاسعة

نقطة اللاعودة (لندن)

ذهبَ سعيد الجزائري - صاحب إحدى مطاعم البيتزا - ليبحث عن عمل في لندن بعد أن ملّ الفرص النّادرة في الشمال[1]، وهو خريج إحدى المؤسسات الاقتصادية. كان ذلك عام سبعة وتسعين وتسعمائة وألف، وقد حاول الاتصال بي من لندن لكنه للأسف لم يجدني، فترك لي رسالة يطلب فيها أن أتصل به، وهرعت عند استلام الرسالة إلى رفع سماعة الهاتف للاتصال به وأنا أحدث نفسي قائلا: لعل الله قد فرّج عن سعيد في العثور على وظيفة، فهو في مقتبل العمر، ويروم دخلا مقبولا ليتمكن من بناء عش الزوجية، ولذا كنت أتوقع سماع خبر مفرح، لكنّ سعيدًا لم يكن سعيدًا ولا موفقًا في زيارته الاستكشافية، وكل الذي حصل عليه إعلان عن فرصة وظيفة لصديقه «الهيتي»، وجده في جريدة الحياة العربية والتي لا تصل إلى مناطقنا لعدم وجود عدد يكفي من القراء للترويج لمثل تلك الصحيفة وفي الإعلان وظيفة محاضر في اللغة العربية والعلوم الإسلامية في إحدى المؤسسات العربية التعليمية في لندن، وكأن فؤاده قد أخبره أن تلك الفرصة مناسبة لزميله.

وفعلا لم يخب ظن سعيد في ذلك الإعلان، إذ وجدته وكأن الذي أعد ذلك الإعلان قد قرأ كل مضامين سيرتي الذاتية، بل جاء متواضعًا عنها، وهو يذكّرني بتلك الأيام التي لم تكن لتعود عندما كنا ننتظر الإذاعة العراقية في نشرتها المحلية على الساعة الثالثة عند الظهر، نتسقط إعلانات الوظائف الشاغرة، حيث وجدت من خلالها الفرصة الأولى في عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف، حين تم الإعلان عن الدرجة الوظيفية التي كانت من نصيبي وكأن مصممها على علم كامل بالخريج الأول في قسم التربة واستصلاح الأراضي، وأذكر تماما عندما قابلت واحدا من زملائي الذي جاء منافسًا رغم الفارق الكبير بيننا، حيث سألته ما الذي جاء بك؟ فكان جوابه على الفور: أعرف أنك الأول على القسم، وأنك

---

(١) الشمال نعني به: مدينة Hull في مقاطعة Yorkshire البريطانية.

الوحيد الذي تنطبق عليه الشروط، لكني خلت أنك قد تتخلف عنها لسبب من الأسباب وعندها تكون فرصتي في الدرجة. لذا عليّ الرحيل من حيث أتيت، أليس كذلك؟ وكنت أقرأ في عينيه الكثير..... فكان جوابي: هذا صحيح ولكن يجب أن تبقى منافسًا، وفعلا اختفى عدنان وعلى الأرجح رجع قافلا إلى أهله حين أدرك أن لا أمل في المنافسة.

ومن طريف ما أذكر للقراء وأصبح درسًا لا يُنسى حين كنت أعاني من الروتين القاتل عندما كنت أطوف بين أروقة مجلس الخدمة العامة لأروّج لمعاملتي بين الموظفين[1]، وكان الموظف «ستار» قد أشار عليّ بأن أراجع الموظف «لطيف» الذي سيكمل الإجراءات، ولفرط المساعدة التي قدمها الموظف «ستار»، فإنني فعلا اندفعت نحو «لطيف» بكل حماس وقلت له: إن الأخ ستار يخصكم بالسلام ودفع إليك بمعاملتي لإنهائها، فرد عليّ «لطيف» بعفوية وسرعة قائلاً: إن بيني وبين «لطيف» خلافًا ولا أعتقد أنّه حمّلك أي رسالة. عندها وجدت نفسي أسبح في بحيرة من الخجل؛ لأني ما تعمدت الكذب بقدر ما أردت أن أقدم نفسي للموظف بطريقة مرنة، تدلل على معرفتي بالموظفين لكثرة ترددي على تلك الدائرة التي أصبحت أكرهها منذ تلك الساعة، وهو في الواقع الدرس الأول للفتى وهو في تلك السن.

أعود للإعلان عن الوظيفة في لندن التي تم اصطيادها لي من قبل «سعيد» صيف عام سبعة وتسعين وتسعمائة وألف، إذ استُدعيت للمقابلة التي إن صدق رئيس لجنتها القول: إن عدد المتقدمين قد زاد على المائة، وأضاف: أنه جرى انتخابكم لتكون ضمن المجموعة التي ستدعى للمقابلة في غضون أسبوع من الآن، وفعلا تركت مدينتي بعد صلاة الفجر لبعد المسافة بين مدينة السكن «Hull» ومدينة المقابلة «لندن»، وقد آثرت وقتها ركوب الحافلة لأنها وسيلة أصحاب الياقات الزرق – أعني العمال والفقراء – ومع أني حاولت قدر الإمكان أن أبكّر للمقابلة إلا أن طول المسافة ومرور الحافلة بالقرى بدون استثناء، جعلني أشعر بدوار وصداع شديدين احتسبته جهادا في سبيل العائلة التي لم يكن حالها أسوأ من حال العائلات التي بيعت في سوق النخاسة إثر اندلاع حرب الخليج الثانية، وعلى كل حال

---

(١) كانت الدرجات الوظيفية تعلن من خلال الإذاعة العراقية، ثم يتقدم الراغبون بطلباتهم إلى مجلس الخدمة العامة.

كان المطر أول المستقبلين لي في لندن، ورغم أنه ساهم في بلل ملابس المقابلة – التي تم اختيارها لتناسب المقابلة – لكنّه ذكرني ببيت الشعر:

جئتم وهاطلة السحاب   أيحبكم حتى المطر؟

وأخذت بأسلوب العرب الذين دوما يحبون التبرير، وعلى هذه الشاكلة أراد بعضهم أن يبرر كسوف الشمس حين مات إبراهيم ولد رسول الله – ﷺ –، وصحح لهم الرسول حين أخبر أصحابه أن القمر لا ينخسف، والشمس لا تنكسف لموت أحد أو حياته[1].

والآن وقد غادرت الحافلة مع أني محتفظ بتذكرة العودة، عليّ أن أتعلم كيف أستعمل خطوط القطارات تحت الأرض، إذ كرهتها يوم كنت في ألمانيا الغربية قبل ما يزيد على العقدين من ذلك التاريخ، لكن لا حيلة للمضطر إلا ركوبها، وأنا بين الرجاء في الوصول في الموعد المحدد والأمل أن تصحبني السلامة إن لم تكن على الأقل الأخيرة، إذ تركت ورائي إخوة (بأعلى الرقمتين وداريا)[2]. وبعد حذر من سفر محمول على خطر، وصعود وهبوط كأننا نلاحق جرذانا في جحورها ونسابق طيورا مذعورة تغادر أعشاشها وصلت المحطة – التي أتدارس مع أصحابي مداخلها ومخارجها منذ يومين –. وفي نهاية المطاف وصلت سالما من أي جروح أو خدوش، وسأثبت لمن تركتهم يمزحون ويتندرون على «الهيتي» طوال ليلتين كاملتين ذقت فيها ذل الجهالة ومرارة الصبر، أن النجاح كان حليفي والحمد لله أولا وآخرا.

ولأن المبنى – أعني مبنى الأكاديمية – متسع، بل مترامي الأطراف مقارنة بالمباني اللندنية التي أوشكنا أن نألف ضيقها وصغرها، فقد تغيب عني المدخل الرئيس لذلك المبنى، وقبل طلب النجدة من أحد المارة رصدت على مبعدة بابًا، وسرعان ما اقتربت منه فإذا به مغلق، وبعد أن جعلته ورائي وإذا بالباب الثاني يعترضني ولكنه للأسف وجدته

(١) حين قال:» الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموهما فصلّوا».
رواه أبو بكر والمغيرة وأبو موسى وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم.

(٢) اقتفاء بما تركه الشاعر مالك بن الريب.

كسابقه مغلقا، وكنت أستيغث ببعض الطالبات الصغيرات وهن على مبعدة مني وبيني وبينهن أسيجة حديدية وأخاطبهن بلغة الإشارة للمساعدة في إخبار أحدٍ في فتح تلك البوابة، ولا يكدْنَ يُلقينَ لي بالا، إذ كنّ شوارد وسوارح في عالم الطفولة.

وبعد أن انعطفت إلى يسار الشارع وإذا بباب موصد ثالث، فكم باب ياترى لهذه المدرسة؟ وأخذ الشك يساورني أن موعد المقابلة أصبح وشيكا، ولا بد أن أسابق الريح في هذه الدقائق القادمات، وما لبثت أن تقدمت باتجاه الغرب أكثر عمقا وإذا بباب حديدي كبير قد انفرج شقه الأيمن مقدارًا لا يسمح بدخول إنسان، عندها شعرت أني أقرب إلى هدفي هذه المرة منه في أي وقت آخر، وقد ترحمّت على الذي عمل هذه الفرجة كما ترحم جُند «مَسلمة بن عبد الملك» على الجندي الذي عمل النقب في القلعة الحصينة المحاصرة، حيث لُقّب بصاحب النقب، وخلّدته نصوص التاريخ الإسلامي؛ لأنه أحب أن يعمل عملا يقربه إلى الله ويبعده عن دنيا الشهرة، حتى أصبح وأمسى «مَسلمة» بعد تلك الحادثة يدعو اللّه أن يحشره في أخراه مع صاحب النقب الذي لم يمكّن أحدا من معرفته.

وبعد أقل من دقيقة قضيتها أمام الباب محترما حرمة المدرسة، ومتذكرا لمناقبي الحميدة في الوصول، إذْ بأحد الحراس - وقد لبس بزته الخاصة - يقترب من الباب لكنه كان يتقدم إلي بخطوتين ويتأخر خطوة أو كأني صرت أتخيل ذلك، وما إن عرف أني للمقابلة قد أتيت، وأني والحمد للّه بالموعد قد وفيّت، وإذا به يحييني، ويضع على صدري بطاقة خاصة طُرزت نهاياتها باللون الأخضر، ويقودني بين الممرات (الأسياب)، عابرا عددا من القاعات، ومتخطيا عددا من الأبواب، حتى صرت أخشى على نفسي عند الرجوع من ضياع محقق، وتصبح نادرة من النوادر التي يقضي الزملاء والطلاب فيها بعض وقتهم للتفكه في مستقبل الأيام.

والآن دخلت غرفة «المؤتمرات» والتي يجلس عند طاولتها البيضاوية الشكل ثلاثة من الرجال لم أذكر أني التقيت أحدهم في جامعة أو مؤتمر، ولا تعرفت عليهم من خلال

لقاء، ولكن يبدو من أسئلتهم أن الجد طابع هذه المقابلة، ارتسمت على وجوههم علامات الحرص، وبدا كل واحد منهم منهمكا في حصر أسئلته، ومتهيًّئًا لمقالته، وبدأت المناقشة على الفور، والحق يقال أنهم كانوا لأجوبتي يصيخون السمع، ولسكناتي وحركاتي يقلبون البصر، وربما أكون قد أحسنت الظنَّ أكثر مما ينبغي في تصوُّراتي هذه. وحسن الظن بالناس سمة المسلم، ومعلوماتي عن طبيعة المقابلات وأدبِيّاتها لم تكن دسمة، إذ أني لم أشارك في مقابلة - بصفة متقدم لمقابلة - منذ المقابلة اليتيمة والناجحة عندما تم اختياري للسفر لدراسة الدكتوراه قبل عقد من السنين. والآن بدأت تراودني بعض الأسئلة ومنها: هل الوقت الذي تجرى فيه المقابلة هو الوقت المثالي لطرفي المعادلة أعني لجنة المقابلة والمتقدم للمقابلة؟ وهل الشروط المثالية التي جاءت على ذكرها بعض أدبياتنا متوفرة في مقابلة اليوم؟ فإن لتوقيت المقابلة أثرا، وللحالة النفسية من جوع وشبع ونصب - التي قد يعاني منها أعضاء لجنة المقابلة - دورٌ مؤثرٌ في نتيجة المقابلة سلبًا أو إيجابًا، فكم من قضاء صَدَرَ، وحكم نُفّذ في وقت غضب من قاض أو عند تعب حاكم أو حال انشغال أمير جرّت الويلات وخلّفت الحسرات وصعّدت الزفرات. فتحيُّنُ الوقت الذي تجاب فيه الطلبات، وتُفرج فيه الكُربات، وتُزال فيه المظلمات، عامل مهم، فهل فكّر في ذلك أحد منا عند التأسيس لمقابلة؟ أو عند الشروع في تحقيق؟ أو عند إصدار حكم؟ ولا أجد ضرورة في التعليق على ما دار في مقابلتي؛ لأني لم أجد فيها ما يضيف للقارئ شيئا جديدًا يسره، أو غريبًا يتسقط معرفته، إذ كانت ساعة لإبراز العضلات وتبادل الشطارات، أو إن شئت فقل إنها ساعة للبيع والشراء، وهذا في الواقع ديدن مقابلات اليوم في عصر المادة، فلا يُسأل عن الخُلق بقدر ما يُبحث عن انطباق معايير معينة في المتقدم، فما قاله بعض المربين في المعلم الجاحد لم يكن ليُعتدّ به « إن أكبر ذنب نرتكبه في التربية والتعليم - والله سائل مرتكبه عنه ومجازيه به - هو أن تسلّم الولد أو البنت، وقلوبهما صفحات بيض، إلى معلم لا يخشى الله أو معلمة لا تتقيه، فينفث عليهما سطور الشكوك والعصيان بدلا من كلمات الاستقامة والإيمان».

وعلى كل حال وجدت طريقي بعدها إلى العميد حيث جرى العرف على ما يبدو أن يزوره من وُفق في المقابلة ليتبادل الخواطر ويستلم التوصيات، ووجدته – ويده تشد على يدي بحرارة – يقسم لي بأنه قرأ سيرتي الذاتية فوجدها من أعطر السير، وراجع خبراتي فألفاها أغنى التجارب، وأن سمعتي التي طرقت سمعه وسبقت قدومي كانت طيبة، وهو يرى بأنني ذاك الذي يستحق اعتلاء هذا الكرسي – الذي يعتليه – بل ويشرّفه. وإني إذ شكرت له عرفانه، وجميل كلماته توقعت أن ينعكس ذلك على النتيجة النهائية حيث أشرت قبل لحظات – للقارئ الكريم – أن المقابلة التي أجريت لم تكن سوى مساومة بين طرفين. إذ أشار من أثنى عليّ أن تأهيلي أكثر مما يطلبون، وخبراتي تتجاوز حدود ما يتمنون، لكن الأكاديمية لا تجد نفسها ملزمة لتغطية كل تلك المؤهلات، وتلك الخبرات. وبعد أن رسم لي حدود الدرجة ماليا تركني لأقرر، ورغم أني أعلم أن الأصدقاء أحد ثلاثة: صديق كالغذاء تحتاج إليه في كل وقت، وصديق كالدواء تحتاج إليه أحيانا، وصديق كالداء لا تحتاج إليه أبدا، لكني فَزِعت إلى من توسمت فيهم الخير، استنصحهم واستخبرهم، فإذا بي أمام أشباه الرجال يخافون المواجهة، ويراوغون في الإجابة، ويشركون بطريقتهم – والعياذ بالله – بمن رزقهم أصلا، وصار جوابهم لي لا جواب، وعرّفوا الماء بعد الجهد بالماء:

كأننا والماء من حولنا   قوم جلوس حولهم ماء

وأصبح أحدهم يحذر أن يراني، ويخشى أن يسألني ولو كان في السؤال مصلحته أو فيه إشباع لفضوله؛ لذا توقفت عن سؤال الباقين منهم خشية أن أتكشف منهم على ما يجعلني أزدري شجاعتَهُمّ، واسخر من رؤاهم، بل خشيت أن أتهمهم في صرف عبادتهم إلى غير خالقهم – وحاشاهم من ذلك–، فأصبح أحدهم عندما يراني – أراه – تدور عيناه كالمغشي عليه، فخشيت على نفسي من معاداتهم، وأشفقت على نفسي من استصغارهم، فرأيت أن أكون مظلوما – براتبي مهما قلّ – خيرا من أن أكون ظالما ولو كثر، فهو أدعى للنوم الهنيئ وأحفظ للقلب السليم، وأسلم للطّوية، وقد آثرت أن أكرم نفسي أن أكون سببا في دفع رفاقي للزلل اعتبارا بقاعدة «أوَ نؤجر ويأثمون؟» للإمام الحافظ التابعي الجليل إبراهيم

النخعي وكان أعور، وكان تلميذه سليمان بن مهران أعمش (ضعيف البصر)، وروى عنهما ابن الجوزي في كتابه «المنتظم»[1]: أنهما سارا في أحدى طرقات الكوفة يريدان الجامع وبينما هما يسيران في الطريق قال الإمام النخعي: يا سليمان هل لك أن تأخذ طريقا وآخذ آخر فإني أخّشى إن مررنا سويا بسفهائها ليقولون: أعور ويقود أعمش! فيغتابونا فيأثمون. فقال الأعمش: يا أبا عمران وما عليك في أن نؤجر ويأثمون! فقال إبراهيم النخعي: يا سبحان الله! بل نَسّلمُ ويسلمون خير من أن نؤجر ويأثمون.

وأخيرا جاء المدد ممن لم أكن أظن، وممن لم أكن أحسب، إذ طالعني أحد المدرسين – وهو من نيجيريا – وقد جاء بسجل راتبه الشهري قائلا: هذا هو راتبي فعليك أن لا توافق على ما قُدم لك من عرض، فهو جور في حقك، وبخس في مقامك، فصار العجب يأخذني لنجدته، والفخر يهزني لنخوته، فقد سبق العرب، ولم يبقَ لنا من الكرم غير التمجيد بحاتم في الكتب، ولا في الشجاعة غير الفخر بعنترة، وصرت أشك الآن في حاتم وعنترة إذا كانا على التحقيق من العرب، إذا كان أصحابنا أولئك من العرب!!

ودخلت أو أُدخلت في قائمة المستأنسين الذين يُؤمرون فيطيعون ويُنهون فينتهون، وصار الكبير صغيرا والصغير كبيرا، ومع هذا فإني قبلت، بل كنت خير العبيد؛ لأن الذي جرى جرى على ضوء من سنن الخلق. ولما شعرت بالجَور، وشممت رائحة الكبر فيمن كان يقود الدفة، ويتصدر الشلة، ويتمايل طربًا بالمسؤولية التي يحملها، أوقفته ذات مرة، وشرحت له قصة قارون حيث خسف الله به وبداره الأرض فلم يعتبر، ودعوته في مناسبة أخرى وسردت له قصة النمرود حيث عذّبه الله في حشرة صغيرة استقرت في أذنه فلم يرعو، وأهديته خير الكتب التي قرأت فلم يستطع أن يفهم ما بين سطوره، ولم يبق أمامي غير طريق واحد إذا سلكته فلا عودة إلى السلم بعدها، وذكّرته بأن الكِبْر ما دخل قلب امرئ شيء منه إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قلَّ أو كثر، وشرحت له أن سياستي مع سياسة من قال: أضع خدي تحت أقدام المتواضعين، ولكنّي أمرّغ أنوف المتكبرين تحت قدمي، ولم

(١) انظر المنتظم في التاريخ (٧/١٥).

ألمح ساعتها إلا حمرة غضب لا حمرة خجل في وجهه، ومع كل ذلك فلم يزدد إلا سوءا، إذ قسا قلبه، وتصعَّر بالكِبر خدّه، ومحا من قاموس لغته كل مفردات الرحمة، ونسى أنه بشر، وأنه يحتاج بين الفينة والفينة ليطرح ما تجمّع في أحشائه من جيف، ويتخلص ممّا بقي من درن، فهجوته فلم يردّ، واستغضبته فلم يغضب، فأجلسته في زاوية من الزوايا على ركبتيه على عظم حاله، وشدة بنيانه، ولقّنته درسا كان الأجدى به أن لا يراني بعدها أبدا، ولكن ما عادت فيه من رجولة، ولا في نفسه من شِيمة، فحثوت في وجهه تراب المقاطعة لأنه صار عندي في عداد الموتى.

لا تحقرن صغيرا في مخاصمةٍ إن البعوضةَ تُدمي مقلةَ الأسدِ[1]

وعندها وجدت أن عليّ أن أراجع القيم التي نُشّئتُ عليها، فإن الساحة على ما يبدو غير تلك التي تربيت على أرضها والعهد غير ذلك العهد،ولربما ضللت كما ضل طرفة بن العبد حين أشار إلى ذلك السلوك في قصيدته الطويلة:[2]

وإني لحلو للخليل وإني لمرّ لذي الأضغان أبدي له بغضي

وإنّ أخشى ما أخشاه أني بتلك المخاصمة قد فَجرْتُ[3] حيث نهى عنها الشرع، وكرهها العرف، ومن جهة أخرى فإن للعصر الذي يعيشه المرء أحكامه، والإمام علي كرّم الله وجهه قال وقد صدق في قوله: «علّموا أولادكم فإنهم خُلقوا لزمن غير زمنكم هذا»، عندها آمنت بأن المصانعة التي دعانا إليها زهير بن أبي سلمى أحيانا ليست لازمة فحسب بل واجبة:

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يُضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم[4]

(١) البيت للشاعر علي العباس الرومي، وهو أبو الحسن علي بن عباس بن جريج الشهير بابن الرومي ، مولى عبيدالله بن عيسى بن جعفر البغدادي.

(٢) انظر ديوان طرفة بن العبد.

(٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً. ومن كانت فيه خَصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتُمِنَ خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدَر، وإذا خاصم فجر» متفق عليه.

(٤) انظر ديوان زهير بن أبي سلمى.

فما عدتُ أعيش بالقرب من بادية الجزيرة التي كانت مسرحا لهروب المتنبي ثمّ رجع ليُقتل دفاعا عن شرف كلمة لم يحسب لها حسابها، إذ قالها في بلاط أو قصر، فدفع ثمنها غاليا على رمال الجزيرة الساخنة، ولاسيما وأننا الآن في ديار تلتقي عندها الحضارات، وتتعدد فيها الثقافات أساسها إن صدق بُناتها: قبول الآخر. والأخيرة من أهم المواصفات المطلوبة لمن يقبل أن يتنفس هواءها، ويشرب من مائها. فعليّ إذن وبلا جدال أن أشيّع بعض القيم القديمة إلى مدافنها، تلك القيم التي أفنيت عمري في احترامها والدفاع عنها، وإلا فعليّ أن أسّلم السيف لسيّافي ليدفنّني بدمي. ثم «إنّ العقل بعد الله مداراة الناس»، وإن علينا جميعا أن نجد في الاختلافات والفروق كل الفوائد، وأن نتمثل الحوار بدلا عن الصراع، والنصوص القرآنية تؤكد لنا من خلال تكرار لفظة «قول ومفرداتها» اثنتين وعشرين وسبعمائة وألف مرة، أن الحوار والمحاجّة مع الآخرين من أهم المهمات، ولها أخطر الأدوار، وأن نتحول عن المثالية إلى الواقعية، وأن نتجاوز محدودية التمييز بين الخير والشر إلى سعة التمييز بين خير الخيرين وشر الشرّين، كما أشار إلى ذلك داهية عصره عمرو بن العاص، وأن نتمسك بالشعرة التي كان يلاعب بها معاوية أهل الشام ولم تُقطع قط رغم الشد والإرخاء.

وعودًا إلى ما بدأت الحديث عنه - أعني أكاديمية لندن - فلم أكن الوحيد الذي توقع أن تلك الأكاديمية هي فردوس التربية والتعليم للجالية العربية والإسلامية في تلك الديار، ولم أكن الوحيد أيضا ممن تمنى أن يكون له نصيب في دخولها، كما كان الجميع يتمنون ممن لم يدخلها قط، وأمنياتهم تذكرني بأمنيات كل من اصطف أمام قصر قارون ولم يكونوا من بين المدعوين الذين انتخبهم قارون ليشاركوا حفل افتتاح قصره الذهبي، وتذكرني أيضا بالذين وقفوا على رصيف الميناء الذي أبحرت منه «التيتانك» العملاقة والتي اعتقد صنّاعها الإنجليز أن مخلوقهم الجديد يتحدى الغرق وكل منهم تمنى لنفسه أن يكون أحد ركابها أو ربابنتها، فهل كانت هناك فرصة بعد دقائق أو سويعات لاستطلاع آراء الذين دخلوا ضمن ضيوف الشرف لافتتاح قصر قارون أو الذين تهافتوا على حجز أماكنهم على ظهر «التيتانك» مهما كلّفهم من ثمن؟ يبقى لنا القول: إن الفرق بين دخولنا الأكاديمية

وبين من دخل «التيتانك» أننا لا نزال على قيد الحياة ننتظر رحمات الله، وأنهم أصبحوا خلال ساعات طعما لحيتان المحيط، أما قارون وضيوفه فقد جثم الجبل على صدورهم إلى الأبد.

وصعدت منبر الأكاديمية بعد كثير من التردد والتحفظ، لأني أرى أن الذي يتخطى رقاب الناس ليرتقي درجات المنبر، لابد أن يكون قد تميز عن زملائه على الأقل بشيء، أو اتصف بصفة من الصفات، فشروط إمامة الصلاة نافعة في تحديد شروط من يؤم الناس لصلاة الجمعة بعد هبوطه من المنبر، فحفظه لكتاب الله وعلمه بسنة رسوله الكريم - ﷺ -، وورعه إذا ما كان هناك مقياس لمقارنة ورعه بورع الحاضرين أو ثمة اتفاق بين الناس، كلها مفيدة في هذا المجال والله أعلم، وربما يحتاج التمايز في السن إلى وقفة ليس هنا محلها. ثم ما فائدة الخطيب إذا لم يكن قديرًا، له صولاته وجولاته، يزأر كالأسد الهصور عندما يتطلب الموقف، ويحبر الخطب تحبيرا، ويزوّر الكلام في صدره تزويرا، فهو ليس بصاحب إملال ولا إقلال، فالخطيب البارع كما وصفه لنا القرني[1] (يأسر القلوب أسرا، ويسري بالأرواح قسرا، وله على مستعمرات النفوس احتلال واستيلاء، ويرسم في العقول صورا من براعة التعبير، ويبني في الأفئدة خياما من جلال التصوير. فالخطيب يهدر كالسيل، يقتلع الأشجار، ويحمل الأشجار، ويقتحم الأسوار، فلا يرده سد ولا جدار، ولا تقف في طريقه دار، فالخطيب يُقبل ومعه الآية الآمرة، والموعظة الزاجرة، والقصة النادرة، والحجة الباهرة، والقافية الساحرة، تعيش معه في عالم من الصور والألوان، وفي دنيا من المشاهد والألحان). وأدعوك أن تجعل إمامك في الخطابة رسول البيان، الذي حنَّ الجذع لكلامه، وأسر قلوب أهل الفصاحة والبلاغة:

هذا الكلام الذي ما قاله أحدٌ ... ولا تلا مثلَهُ في الجمع سَحبانُ

عليه من حلل الأنوار أرديةٌ ... فكل قلبٍ من الأشواق نشوانُ

يصدِّع الصخر من زجر وموعظةٍ ... وفي البشارة روضٌ فيه ريحانُ

(١) للمزيد راجع كتاب مقامات د. عائض القرني/ مكتبة العبيكان، الطبعة الخامسة ٢٠٠٩

وفي خلاف ذلك فما وجوده على المنبر إلا كبرد الشتاء، أو وهج الصحراء، همه أن يتلو على مسامع النائمين الصحف المملة، والقصائد الفجة.

وكان موضوع: «أول ليلة في القبر» هو الموضوع الذي رأيت أن أبدأَ به خطبي إذ كان صعودي على المنبر واجبا من واجباتي، ومهمة من مهماتي وإن لم تكن من شروط العقد الذي لم يجف حبر توقيعه بعد، فحمدت الله وأثنيت عليه، وبعد صلاتي وتسليمي على معلم البشر، خضت لجة من لجاج البحر المخيف الذي لم يتعود كثير ممن يجلس أمامي على دخوله - كما كانت العرب أبعد الأمم عن خوضه[١]-، ولم يحضروا قوارب النجاة معهم، وأطنبت في وصف حشرجات الموت، وأحمضت في سَوق قصة عمرو بن العاص وهو يحتضر واصفا لابنه عبد الله شواهد الموت[٢]، وإذا بي أرمق بعض زبائني وقد فاضت عيونهم بالدموع، واخضلّت لحى بعضهم الآخر، وإذا بالطلاب - الذين عُهد عنهم الحركة والعبث - وجوم لا يتحركون، قد اشرأبت أعناقهم، وشخصت أعينهم، وخفتت أصواتهم وسكنت جوارحهم. أما الذين يجلسون في جنبات المسجد عن الميمنة والميسرة ولوّا رؤوسهم صوبي وكأنهم يشاهدون حقا وحقيقة ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ترتفع بأرواحهم حيث أعمالهم الصالحات تُبوّئهم حواصل الطير على أشجار الجنان، أو الطالحات وهي تحط بهم سبعين خريفا في جهنم. وأصبح الناس لا يشعرون بالوقت، وكأنهم دخلوا عالم البرزخ الذي ربما يصبح الزمن فيه صفرا، كيف لا والزمن من مخلوقات الله فهو كالموت الذي سيذبح كبشه الأملح أمام العباد.

(١) بعد أن ألح معاوية على عمر بعبور البحر المتوسط ورد في « الكامل في التاريخ لابن الأثير»:... فكتب عمر إلى ابن العاص: صف لي البحر. فكتب إليه عمرو بن العاص: إني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق. فلما قرأه كتب إلى معاوية: والذي بعث محمدا - ﷺ - بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا ..... فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر؟ وبالله لمسلم أحب إليّ مما حوت الروم ..... وقد وردت القصة كذلك في تاريخ الخلفاء للسيوطي وفي تاريخ الرسل والملوك للطبري وإن كانت بتعابير مماثلة.

(٢) لما حضرت وفاة عمرو بن العاص - الذي يسمى أرطبون العرب، فهو واحد من الأربعة الدهاة في زمنه لكن لا حيلة لداهية أمام الموت- وأصبح في سكرات الموت قال له ابنه الزاهد عبدالله: يا ابت صف الموت فإنك أصدق واصف! قال يابني: والله كأن جبال الدنيا على صدري، وكأني أتنفس من ثقب أبرة. وقيل أنه قال: ما مثل الموت إلا كرجل ضُرب بغصن شوك من سدر فوقعت كل شوكة في عرق فسحب الغصن فانسحب معها كل عرق في الجسم.

ولم أتوقف عن المضي في رحلتي مع الحضور إلا خشية التطفيف، ونعوذ بالله من خطره، وبعد التسليم من صلاة الجمعة، وإذا برئيس قسم اللغة العربية يفاجئني بأن بارك لي خطبتي، وأثنى على لوحاتي الغريبة التي لم يألفها الناس من قبل، والتي وصفها بأنها احتفالية كاملة للموت، ولكنه أزعجني في استرساله حين توج كلامه بأنه يتوقع لي مستقبلا زاهرا، وتقدما وشيكا لأتبوأ أعلى المناصب، وأستلم أعلى المواقع في الأكاديمية، فأجبته على الفور: لكنّي غير نهم لمصمصة العظام، أو لملمة الفضلات، فطمأنته وضربت على صدره. وقد سُجلت الخطبة وتداولها الطلاب، وأصبح بعض من أولياء الأمور يحرصون الحصول على نسخ منها، وسألني كثير منهم أن أحبّرها لهم، ولكني كنت مصرا على أن جمالية الخطبة بإلقائها وليست بالكلمات التي تألفت منها. ومع إعجاب الناس بالخطبة لكن ظل نفر يمعن بالانتقاد، ويتسقط الزلات ويسجل الهفوات، ويعدد السكنات، ويتباكى على الهمزات، وأدرك الطلاب قبل غيرهم عيوب هذا النفر رغم افتراض بعدهم عن مثل تلك المواطن، وقالوا – وصدقوا في قولهم –: إن الحسد وراءه، والغيرة مصدره، وهذا ديدن أولئك النفر، وهم والحمد لله في عددهم أقل من القليل، وإني لأعجب أشد العجب من أنك – رعاك الله – تجدهم أكثر الناس حرصا على تدريس القيم، والحديث عن المفاهيم، رغم أنهم أبعد الناس عنها منزلا، فهم لا يفقهون حديثا. فمراقبة الناس همهم، وسوء الظن بالناس معتقدهم، والخوف من أن يصيب الخير أحدا من الناس صفتهم، وأنا أسأل نفسي دوما كيف تحترمهم نساؤهم؟ فهم من المشكوك في رجولتهم، فالرجولة ليست في القدرة على الوطء، فتلك فحولة والفرق بينهما بيّن، فقد شددوا على أنفسهم وأهلهم حيث التصقوا ببخل في السماحة وببخل ذات اليمين مما زادهم دونية نعوذ بالله من تلك الآفتين.

ما أجملَ الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

وفي الواقع إن مثل تلك النماذج التي ابتليت بها مدارسنا، كان من الأفضل أن تكون بعيدة عن قاعة الدرس ورواق العلم، ولكن هل إلى ذلك من سبيل؟ وهل لكم أيها القرّاء الأعزاء

من حجة تقدمونها للمحاجّة عنهم؟ أو من سبيل تسلكونه للدفاع عنهم؟ وهل تطيقون أن يكون أحدهم موجها لأكبادكم[١] التي تمشي على الأرض؟ فكم من خطورة محققة تحيق بأولادنا؟ لكن من جانبي، فقد سامحت كل أولئك الذين وقفوا مثل تلك الوقفات التافهات.

وظل عليّ أن أقول أن «الأنا» وما أدراك ما «الأنا» تلك التي غذاؤها الألم والخوف والشك والمرض – حمانا الله منها ومن شرورها – في أولئك النفر ولربما في الكاتب نفسه عالية التأثير. فهذه «الأنا» التي توحي لنا وعلى الدوام قائلة: إن من المستحيل تجربة السعادة – التي نطمح للحصول عليها جميعا – لمدة طويلة، وتوسوس لنا أن من الأفضل أن نكون قادرين على التحول إلى الحقيقة المادية من أجل سعادة سرمدية، وفي النهاية سوف تتفكك الأشياء من أمامنا، وعلى رأي «الأنا» أن علينا البحث عن الشخص الذي نعلّق على كتفه اللوم في عدم حصولنا على تلك السعادة، فالنصيحة التي تسديها لنا «الأنا» هي أن نكون باحثين عن الخطأ، ولأننا على صواب دوما – كما تأمر«الأنا» – فإن الشخص الآخر هو المخطئ على الدوام. وفي النهاية، فإن سعادتنا أو تعاستنا تقاس بالدرجة التي نقبل بها النصيحة من «الأنا».

أما علماء السلوك فإنهم يرون أن التسامح أنجع طرق العلاج لإيقاف تأثير «الأنا» وسمّها كما أراد الله لها تلك التسمية «بالنفس الأمارة». أما التسامح فهو الطريق إلى الشعور بالسلام الداخلي والسعادة وهو متاح لنا دوما، بل يرحب بنا، وإن كنا لا نرى بوضوح لافتات الترحيب لأن «الأنا» تحجب البصائر عن الرؤية الشاملة، ومن ثم لا ندرك غضبنا وكراهيتنا للآخرين. «فالأنا» تؤمن بأن علينا أن ندافع ونناضل عن أنفسنا وبصورة مستمرة، وهي تُوحي لنا من خلال المشاعر أن علينا أن نكون حذرين من أذى قد يلحق بنا، وأن الطريقة الوحيدة لحماية ذاتنا من ذلك الأذى المحتمل هي أن نعاقب الشخص الآخر بغضبنا وكرهنا له ليشعر بوطأة ما ارتكبه. بل إنّ «الأنا» المخيفة تولد لدينا شعورا بأننا حمقى وأغبياء أو مختلون عقليا عندما ننوي مسامحة الشخص الذي آذتنا أفعاله بطريقة أو بأخرى.

(١) كناية عن الأولاد: يقول القائل: وإنما أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض

كما أن علينا أن لا ننسى أن «الأنا» في قمة الذكاء، فهي واعية وتدري كيف تختار شهودها وتبريراتها، فهي تلقننا أننا ضعاف ومتخاذلون عندما نكبح غضبنا عن عقاب الآخرين. وتخبرنا «الأنا» للأسف بأننا أضفنا على عملهم طابع المشروعية، وأن أفضل طريقة نحافظ بها على المسافة بيننا وبين الآخرين الذين كانوا سببا في إزعاجنا في عدم مسامحتهم إلى الأبد، كذلك فإن «الأنا» توحي لنا أن كبت التسامح يمنحنا قوة تفوق قوتهم، وأن التسامح مع من يؤذوننا يعد غباء مطبقًا، وهكذا تظل تقول لنا: إذا صفحتم عن ذلك الفعل المشين، فأنتم لستم بأفضل من أولئك الملومين، وقد تقول لنا: إذا سامحتم فستبتلون من الله، وهذا هو تلبيس إبليس. ... .. مع أن كثيرًا منا يدرك ما لكظم الغيظ و للعفو عند الله من درجة، فضلا عن الإحسان الذي هو أعلى درجاته، ولكنَي أشعر بالأسف إذا قلت: نحن نقرأ بدون فهم.

فالتسامح[1] الذي يُعدّ أقوى علاج على الإطلاق في هزيمة «الأنا» هو أن نصرف عن الذهن كل الأمنيات لتحسين صورة الماضي، وهو أن نرى آيات الله ومعجزاته في كل من حولنا مهما يكن سلوكهم معنا، ولكي نصبح سعداء علينا أن نتخلى عن إصدار الأحكام، ولابد أن نعرف أن العقل غير المتسامح يخفي عن وعينا حقيقة أننا نسجن أنفسنا عندما نكبت الغضب والكراهية، والقرار بعدم التسامح هو قرار بالمعاناة، أما الصفح عن الآخرين فإنه في الواقع يُعدُّ أول خطوة نحو الصفح الحقيقي عن أنفسنا، كما أن أجهزتنا المناعية يمكن أن تقوى وأن تتعزز عندما نتسامح، وهذا هو السبيل لراحة البال كهدف وحيد، والتسامح يخلق عالما نمنح فيه حبنا لأي إنسان، وقبل هذا وذاك علينا أن ندرك أن التسامح هو: أن يكون لديك الرغبة الصادقة في أن تفوض أمرك إلى الله في غضبك وكربك، وأن التسامح عملية مستمرة وليست شيئا نقوم به مرة أو مرتين.

---

(١) كما أنصح نفسي أنصح كل الأعزاء مراجعة كتاب:
Forgiveness: The Greatest Healer of All, By Gerald G Jampolsky. (1999); Beyond Words Publishing Inc.

وعودا على ما بدأنا به الحديث فقد كان عليّ وفق أول جدول للحصص أن أصعد إلى الطابق الثاني حيث قاعة الدرس لأجد طالبا يقود مجموعته المشاغبة مطالبا زملاءه – الذين استطاع أن يستحوذ على رضاهم، ويتمكن من قيادتهم، وينتحل صفة ولي أمرهم، ويتربع على عرش زعامتهم، أن يلبوا نداءه في القيام باحتجاج. ولم الاحتجاج؟ لا أدري، ولا هم يدرون حيث يعملونها على ما يبدو سفاهة، فحاولت مشاركتهم في الاحتجاج حيث وقفوا مضربين عن الجلوس، فجلست مضربا عن الوقوف، فمزقوا أوراق اختبار الرياضيات، فتظاهرت بتمزيقي أورق اختبار القدرات الذي كنت بنيته ضمن خطة الدرس، ثم جلسوا فوقفت، فصاحوا فتبسمت، ثم أدركوا فشل خطة زعيمهم في استفزازي، وخسروا الرهان في تلك الجولة، عندها قام قائدهم الذي هو سبب حركتهم وقد أنهكه السهر حيث تطالعك عيناه فصاح قائلاً: إذن ساعدوني لألقي بنفسي من النافذة، فقلت بهدوء: إذا قررت الانتحار، فعلا، فدعني أساعدك، فاستدار ذلك الشقي نحو مكانه للجلوس بعد أن ظن أنه سوف يكسب المعركة كما انتصر في سلسلة معاركه السابقات مع عدد من المدرسين ، والتي كانت سببا في الاستغناء عن أربعة منهم كانوا قد حضروا إلى المدرسة الواحد تلو الآخر خلال فصل دراسي واحد. وفي النهاية جلس معلنا إخفاق خطته، وقلة حيلته، وفشل مهمته، وقد كفانا الله شر القتال حيث أصبح بعد أسبوعين خارج أسوار المدرسة إلى الأبد، تاركا شركاءه يتامى.

والمشهد هذا الذي سقته إليكم ليس جديدًا، فإنه يتكرر على الدوام مع كثير من الزملاء المدرسين. ولا بد أن نتوقف طويلا لنضع شيئًا مفيدًا من الناحية التربوية، ونصيحتي للزملاء أن تستعين مدارسهم أولا بالمختصين في علم السلوك والأمراض النفسية لدراسة الحالات المماثلة ومعالجتها قبل أن تتطور وتصبح أزمة دائمة تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على نجاح العملية التربوية، ثم إنّ بناء جسور من العلاقة القويمة مع بيوتات الطلبة تُعدُّ وسيلة من الوسائل الهامة، إذ علمت أن أسرة ذلك الطالب كانت محطمة، فاختلاف ثقافة الأم العربية عن ثقافة الوالد الأوربية التي انتهت بالطلاق ساعدت في نمو تلك

المشكلة، كذلك على المدرسة أن تُعِدَّ النجاح في التعامل مع الطلبة هو إحدى أهم مهماتها ودليلا على نجاحها، وثمت نصيحة أخرى نسوقها هنا وهي أن على المدرسة أن تخصص أفضل مدرسيها وأكثرهم تجربة لتدريس أمثال تلك المجموعات، وإذا كان من ينتدب لتدريسهم من ذوي السلطة فهم أفضل مقارنة بالذين لا سلطة لهم عند تعادل الكفاءات التدريسية - فهم في الغالب أكثر إمكانية في اتخاذ القرار، لكن ما يجرى هو على نحو من العقلية التي غالبا ما يفكر أصحابها أنَّ مصلحة الطلبة تأتي كآخر قضية من قضايا المدرسة، وراحة جماعة المدرسين تُعدُّ من أوجب الواجبات، وإذا ما أسندت إليهم واجبات إدارية فربما تكون الفرصة أكبر لتحللهم وتنصلهم من واجباتهم الصميمة، هاربين من تقديم جهودهم لما قد تسبب لهم من أتعاب إضافية، وهذا خطأ فادح يقترفه التربويون بقصد أو دون قصد أو دون معرفة على أحسن المحامل.

وإني لو قدر الله لي أن التقي ذلك التلميذ الذي أتينا على جزء من سيرته الذاتية دون ذكر اسمه من خلال سيرتي هذه فسوف أقدم له باقة جميلة وعطرة من الشكر والتقدير، لما أسداه لي من فرصة لنجاحي وقد كان سببا في ثقتي بنفسي، وزاد من لباقتي في إدارة الفصل، إذ كان بحق أكثر الممثلين في صناعة ذلك الدور الذي أفدت منه كثيرًا، وهذا عرفان مني بجميل صنيعه، وأحسب أني سوف ألقاه، ولسوف أخبره عندها: بأن مقالتي الشجاعة يوم حاول أن يلقي بنفسه من النافذة هي التي جعلت الفرصة أكبر في أن يراجع نفسه في عدم العودة لمثلها. لكن لابد من الاعتراف أن المدرسة وأسرة الطالب قد ساهما في إصدار حكم الإعدام عليه بطرده، ولا أدري إن كنت مصيبا في ما ذهبت إليه.

وثمت قضية أخرى لا بد من إنعام النظر فيها من قبل مدراء المدارس ورؤساء الأقسام والتي تقضي بأن يضعوا خبراتهم ومهاراتهم تحت تصرف المدرسين الجدد خاصة في زمن التجربة إلى أن يشتد عضدهم ويقوى ساعدهم في الكشف عن الطرق التي تعزز من إمكانياتهم في بناء علاقة متوازنة بينهم وبين طلبتهم على أساس من الاحترام، بعيدا عن الاستبداد الذي ربما دفع كثيرا منهم إلى إرسال أعداد من طلبته كل يوم إلى سجل العقوبات

المدرسية، وباعتباري مارست عملية التفتيش، فإن أحد المعايير التي كنت أسجلها في سجل الزيارات والتوصيات هو مدى بُعد المدرس عن أن يكون زبونا دائما لسجل العقوبات الطلابية، ولربما حكمتُ بفشل المدرس الذي تملأ أسماء طلبته ذلك السجل اليومي أو الأسبوعي؛ لأن ذلك ربما يعني ضعف المدرس، أوقلة حيلته، أونقصًا في خبرته، فهو بمثل هذا السلوك يمثل ضعفا متفاقما يضطره للاستنجاد بغيره في صغير الأمور وكبيرها، غير مُنكر أنه قد يُضطر إليها في حالات محددة ومعقولة. ثم إنّ علاقة المدرس الطيبة مع الطلبة بعد أن يمد جسور المودة والاحترام إلى قلوبهم، ويمهد طرق التعاون إلى بيوتاتهم تُعدُّ من الأعمال الجيدة بل المهمة التي يسأل عنها المشرفون والتربويون.

وتتكرر مثل تلك الحادثة، فإذا كانت القصة السابقة جرت حوادثها قبل عقد كامل من السنين فإن هذه التي نحن بصددها الآن هي حادثة مماثلة وقعت أحداثها منذ زمن قريب، أثبتُ فيها أن بناء العلاقة الطيبة مع الطلاب صمام أمان. فقد اشتكى أغلب المدرسين من خشونة سلوك طالب من الطلاب، وتزايدت الرسائل المرفوعة عنه إلى المدير، ودخلوا معه في حلقات مفرغة من عناصر مراقبة ولجان تحقيق، وربما كانت تلك الاحتياطات والترتيبات سببا مباشرا دفع الطالب أخيرا للاعتداء على مدير المدرسة نفسه، في الوقت الذي أجده في فصلي من بين أفضل الطلبة، سواء في المشاركة أم في السماع. فبعد أن اخترقت قلبه سهام عطفي، وصدق مناجاتي، صار لدرسي ميّالا، ولكلماتي سمّاعا، ولطلباتي مُنفذًا ومِعوانًا، وصار يتقدم زملاءه في تنفيذ الدرس، ويحاول جهده أن يكون أقرب الطلاب إليّ مجلسا، وأحسنهم خُلقا، وألطفهم معشرًا، لكن ما الفائدة حين يكون البنّاءُ واحدا والعشرات بمعاولهم يهدمون؟ فَلِمَ يكلّفوا أنفسهم أن يقفوا على الحياد على الأقل ليتجاوز ذلك المسكين أزمته ويبتعد عن أخطاء جماعة المدرسين التي انتهت بفصله، حيث هرب من الصراع الدائر بين الوالدين في بلده ليجد نفسه بين دوامة جديدة من صراعات يكون فيها هو اللاعب الخاسر، فجاء وفي خلده أن يرى من الناس عونا، وقد طرق سمعه أخبار إخوانه من العرب والمسلمين في الغرب فشمر عن ساعديه وحزم

حقائب السفر وركب الجو بحثا عنهم، إلا إنه وجدهم بأبدانهم أما نفوسهم فقد رحلت رحلة أبدية عن قيمهم التي تربّوا عليها، فقرأت هواجسه واستمعت إلى أنينه، وظل في عينيه الكثير الكثير مما لم يتسن لي قراءته، وكان أحد الشهود على ما أزعم مدرس الفنون في المدرسة الذي كان في غير مناسبة يستأذنني في الدخول إلى قاعة الدرس عندما كان ذلك الطالب في فصلي مستغلا الجو الهادئ ليكمل أعماله الكتابية والرسمية.

وما دمنا نتحدث عن ذكريات التدريس فإني أذكر يوما وجدت فيه «بيتر» ليس على عادته هذه المرة ينتظرني عند باب قاعة التدريس، وكأنه يروم الدخول لحضور محاضرتي، فهو ليس من أفواج الطلبة بل رجل أمن تستعين به المدرسة رغم عَوَقه. وكان في مذكرتي أن أناقش في محاضرة اليوم موضوع «الفقر والغنى»، وكما توقعت فقد سألني «بيتر» إذا كان بالإمكان الحضور، ولربما تسرب إليه موضوع الدرس من الطلبة فهو رغم عمله الرسمي، لكن علاقاته كانت طيبة مع الطلبة عموما، فأذنت له، وبعد ما قدمت للمحاضرة بدأ «بيتر» يتململ وكأنه قد غُص[١] بسؤال، أو شرق[٢] بفكرة، فأشرت على «بيتر» أن يشعر بالحرية في أن يسألني فيما عنّ له إذا ما تعلق بموضوع اليوم، وفعلا همهم بسؤال وكأنه يخاف من إحراجي أمام الطلاب، فقال: كيف تصفون الله في دينكم بأنه رحيم وها هو يعذب خلقه فهذا فقير وذاك غني؟ فيُفقر بعضهم ويُغني آخرين؟ فقلت: قبل أن أبدأ بالإجابة عن هذا السؤال، أسألك: كيف وجدت الله على غير صفة الرحيم؟ قال: وجدته في مئات لا بل آلاف الملايين من الفقراء في العالم تكدح وتشقى، ليسعد بضعة آلاف من الأغنياء. عندها توجهت بخطابي للجميع: علينا أن نشترك جميعا في الإجابة عن سؤال «بيتر»، فهو مهم، ويحتل من الموضوع صلبه، ومن القضية قلبها.

والآن سؤالي «لبيتر» ولكم أيها الطلبة جميعا: من هو أغنى رجل في العالم؟ ودون انتظار طويل منهم، اتفق الجميع أن «بل كيت[٣]» هو أغنى رجل في العالم بلا منازع في زمن

---

(١) غص: العرب تقول غص بالطعام.

(٢) وشرق بالماء.

(٣) «بيل كيت» الأمريكي صاحب المايكروسوفت.

المحاضرة. فهل توافق على ذلك أنت يا «بيتر»؟ قال: نعم، بكل تأكيد. ولمجرد الافتراض تصوّروا أني أدعوكم لنذهب سوية إلى المطعم، لتناول طعام الغداء، وعلينا أن نجري اتصالا هاتفيا للحجز، لكننا فوجئنا بأن المطعم كان مغلقا، فلما سألنا عن السبب، كانت الإجابة الآلية التالية: إن مدير المطعم لم يجد عمّالا لإدارة المطعم وخدمة الزبائن، ولذا فإننا نأسف لإغلاق المطعم، إذ أصبح العمال من طبقة الأغنياء، ولذا فلا ضرورة لأن يعملوا بعد اليوم.

ثم لنحاول الذهاب إلى مطعم آخر، وبعد محاولات واتصالات عدة فشلنا في العثور على أي مطعم يسد جوعتنا، لنملأ بطوننا الخمائص١، وحلا للإشكال دعونا نذهب إلى أحد الأسواق المركزية لنشتري طعاما ونُعده بأنفسنا، وعندما ذهبنا إلى أقرب تلك الأسواق وجدناه مغلقا، ووجدنا لوحة كتبت عليها العبارة التالية: نأسف لهذا الأمر لأن سائقي الشاحنات - التي تزود سوقنا - قد تركوا أعمالهم بسبب عدم حاجتهم للعمل لغناهم، وبعد أن أردنا الرجوع من حيث أتينا، تعطلت مركبتنا حيث نفد وقودها، فهل لكم أن تدفعوا المركبة فإن هناك على بعد عشرات الأمتار محطة لنتزود منها بالوقود، وعند وصولنا محطة التعبئة وجدناها مقفلة للسبب نفسه، فعدم رجوع العمال لعملهم كان السبب، فكل واحد منهم على ما يظهر أصبح «بل كيت. أما فيما يتعلق الأمر بي فإنني قررت أن أبقى في البيت لعدم حاجتي للتدريس فأنا «بل كيت» أيضاً، وأنتم أنفسكم هل تحتاجون لكل هذه المعاناة؟ فكل واحد منكم أصبح «بل كيت». عندها قام بيتر على أثر حصوله على مكالمة من جهازه النقّال تستدعيه لمغادرتنا، قائلا: الآن أدركت الحق في حكمة الرحيم. فأجبته: إذا عُدت إلينا فسوف نتحدث عن قاعدة «كلٌ ميسرٌ لما خُلق له» والتي تساعد في فهم السنَن العام الذي يقود الإنسان، واختتمت مقالتي:

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

(١) الخمائص: مضمرات البطون من شدة الجوع والسغب والنصب إلى درجة الألم، يقول الشاعر:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم   وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وهو للشاعر الأعشى، وقالوا أنه أهجى بيت قالته العرب.

وإذا ما نقلت القارئ الكريم إلى أجواء الصف الدراسي فإن التجارب سلسلتها لا تنتهي، ومعينها لا ينضب، فعند دخولك إلى الفصل فإنك تنتقل إلى عالم الفروقات الفردية التي أعتقد أنها تشكل حجر الزاوية في نجاح المعلم أو فشله، فلا يمكن أن تجد فصلا متجانسا في قدرات طلبته واستعداداتهم، وعلى فرض وجود مثل ذلك الفصل فإن الجو التعليمي عندها يصبح ليس صحيا ولا مشجعا على الإطلاق، فالخير كله في أن ندرب مدرسينا على التعامل في تدريس الفصل الذي تتنوع فيه تلك الاستعدادات، وتختلف فيه رؤى الطلاب، وتبعا لتلك الاختلافات يجب على المعلم استعمال طرائق متنوعة ووسائل تعليم مختلفة، وفي خلاف ذلك فلا داعي لوجود عنصر تربوي أطلقنا عليه لقب «المعلم» أو «المدرس»، فموضوع الفروقات الفردية كتب عنه الكثير في الآونة الأخيرة وأطلق عليه «كولن إيفرست» وصف «الشبح الجديد في عالم التربية» في مقالته التي نشرها عام ٢٠٠٣ في الكارديان التربوية البريطانية[١]، وقد أشار إلى أنه موضوع رديف لموضوع طُرح على الساحة التربوية من قبلُ والمتمثل «بالطالب مركز (أومحور) العملية التربوية»، وسيجدني القارئ الكريم من المؤمنين بوجود الفروقات الفردية رغم عدم اهتمام مجموعات من المدرسين بأهميتها، ولكني أشاطر بعض التربويين القائلين بأن موضوع الفصل متعدد الاستعدادات هو ضغط إضافي يضاف إلى عواتق المدرسين؛ لأنه ليس من السهل تبنِّيه والاستعداد له. فمقدرة تصنيف الطلبة حسب احتياجهم ثم تشكيل خطته التدريسية، وتنويع التمارين والأنشطة وتعدد الوسائل والمواد التعليمية عمليات ليست سهلة التحقيق على أرض الواقع، فالوقت المحدود ومهمات قيادة الفصل وغيرها من المطالب والواجبات تجعلني أجدد التأكيد بأن عملية التعليم تُعدُّ تخصص بالواجبات وليس بالمناطق أو بالأنظمة. ومن الإنصاف أن لا نتعمد مبدأ حشر الطلاب مختلفي القدرات بانتقائية تؤدي إلى وجود هوة كبيرة بين أصناف الطلاب وكأنه يصبح هدفا للمسؤولين التربويين.

---

(1) Differentiation, the new monster in education, by Colin Everest, The Guardian, Tuesday 18 February 2003

وفي موضوع الانقلابات المتعددة التي كانت ساحتها الأكاديمية منذ وصولي إليها عام ١٩٩٧ حتى مغادرتي لها عام ٢٠٠٨ فإن عدم الاستقرار الإداري أدى دون شك إلى ضعف في مستوى أداء العاملين، وهجر أفضل المدرسين للأكاديمية، الأمر الذي جعل العاملين يشمون رائحة طبخات الفشل، ويستشعرون حالات الاحتضار، ويرون الهجرة الجماعية لطيورها أعني طلبتها، والمدرسة أضحت مطارا للجان التفتيش، وموطنا مرغوبا للإعلاميين، ومحطة لالتقاط الصور وتركيبها لبثّ الرعب والفزع في قلوب المجاورين، الذين انطلت عليهم الحيل، وصدّقوا أن الأوراق التي يقرؤها الطلاب في الأكاديمية تنقلب بأيديهم إلى مخلوقات خطيرة على المجتمع المتحضر.

وربما ما جرى في الأكاديمية في يوم الثلاثاء الأول من مايو ٢٠٠٧ له علاقة مباشرة بما حدث ويحدث بين أروقتها، ففي وجه النهار(١) عند الساعة الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم تم استدعائي لغرفة العميد باعتباري أحد الكوادر المتقدمة التي تقع على عاتقها أحيانا المشاركة في الاستقبال والتشريفات، ولا بأس بذلك فأنا جزء من ديكور البروتكولات الرسميه والمجاملات، يُضاف إلى ذلك الأوقات التي تحتاجني فيها الأكاديمية لأكون مهرّجا من المهرّجين البارعين لإلهاء الجمهور بين فقرات البرنامج والحفلات التي تقام فيها بين الفينة والأخرى، ولا سيما فيما يتعلق بتنصيب العمداء الجدد التي أصبحنا نأمل لها عدم التكرار، وأن تتوقف عند محطتها الأخيرة؛ لتنعم المدرسة بالاستقرار الذي لم نتذوق طعمه منذ حللنا سهلها بدلا من أن نقول صعبها، كما أن تلك الاحتفالات أصبحت لا تقتصر على ذلك فحسب بل لتوديع المدرسين الذين اُضطروا لركوب قطارات البعد والإقصاء.

وكان قد تم في هذه المرة الإعلان عن قدوم وكيل وزير التربية قبل يوم أو يومين، ولم أُحَطْ علما بأسباب تلك الزيارة رغم ما كان يُشاع عني من أنني قريب وحبيب للجميع، لكن يبقى «الهيتي» غير معنيّ بأمر من الأمور المصيرية - إن كانت مصيرية - وهي طبيعته

---

(١) وجه النهار وشباب النهار ومد النهار كلها بمعنى واحد يعني أوله..

أو اتجاهه الشخصي الذي لا يروق له في الغالب التشوف أو التطلع إلى ما هو أعلى من مهنته التدريسية، وإن كان بتلك السياسة أو ذلك التوجه قد لاقى متاعب خصوصا مع أولئك الذين لا يحلو لهم إلا التقلب بين أحضان المشاكل، لكنه كان لا يأبه بذلك بل حمل ولا زال يحمل في منقاره غصن الزيتون يقرّب بين وجهات النظر رغم اختلافاتها ويباعد بين الأطراف عندما تصير أقرب إلى التشابك والتصادم والاحتراب، ذلك عندما لا تنفع مساعي هرم بن سنان وصاحبه الحارث بن عوف في تدارك عبسٍ وذبيان،(١) مع قلة حيلتي وضيق ذات اليمين.

وكنت حتى اللحظة التي استدعيت فيها أجهل اسمه، وطبيعته، لكني رسمت له في ذهني شخصية كانت على الأقل قد مرت بمتجر «هارولدز» في لندن لإقتناء حُلة(٢) تليق بمنصبه، ومنديلٍ يناسب ربطة العنق الحريرية، ويحمل - إذا تواضع في حملها - حقيبة «السمسونايت» الفاخرة حيث اعتاد على حملها رجال الأعمال وأصحاب الصفقات البترولية، وقد عمرت يده بسيجار كالذي يحبه «فيدل كاسترو»، ثم سألت نفسي: ولِمَ ترك الضيف فندقه في هذه الساعة المبكرة؟ رغم أنه من صنف فنادق النجوم الخمسة التي تغطي عتباته سجادة حمراء حتى في حالات المطر، ينتصب على طرفيها تمثلان من البشر بملابسهما التقليدية المزكرشة، تلك الملابس التي تعكس عراقة التقاليد اللندنية وتعبّر عن أصالة الخدمة.

وأعود لأسأل نفسي لماذا ترك ضيفنا هذا فندقه في هذه الساعة الباكرة من الصباح؟ وكنا نحسب أن ضيوفا على تلك الدرجة من الرفعة عليهم أن يخلدوا رقودا على سُررهم الوثيرة ذات الكلاكل، وقد تدلّت خلفها الستائر المخملية ثقيلة الأوزان جميلة الألوان. إذ

---

(١) وقد ذكرهما زهير بن أبي سلمى في معلقته:

يمينا لنعم السيدان وُجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعد ما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن نُدرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الأمر نسلم

(٢) الحُلة: تطلق على رداء الرجل المؤلف من قطعتين. انظر الثعالبي في فقه اللغة.

أعتدنا رؤية ضيوف سابقين قد أنهكتهم سهرات الليالي الحمر، وربما جرحت شيئا من مشاعرهم فترات الانتظار لحين التأكد من أرصدتهم في البنوك لقبول دفوعاتهم، وكدّرت خواطرهم خساراتهم في الرهانات، وأجهدتهم لعب الأغنياء والرياضات الليلية، فهي فرصة للرجل العربي الغني وقد اختفت آثاره في عاصمة التسهيلات الليلية تلك العاصمة التي كان يحلو «لنزار الشاعر» تسميتها عاصمة العرب، فيما كان يحلم «براون» رئيس الوزراء البريطاني الأسبق أن تكون عاصمة للمال العربي، ولذا فإنهم في العادة غير قادرين على مغادرة فُرُشهم الوثيرة، ولاسيما أن السفر في مقصورة على الدرجة الأولى ربما أخذ منهم مأخذه من التعب والنصب.

وعند الممر المؤدي إلى صالة العميد استفزتني رائحة القهوة العربية المنعشة وكأني شممتها أكثر من مرة في بيت ذلك الدخنان أخي «العنزي»،[١] وما أن تقدمت الخطوة أو الخطوتين في صالة العميد حتى وقع بصري على رجل رِبْعَة لكنه إلى القصر أميل، بانت عليه كل علامات السفر، فشعرُ رأسه الذي سافر في أنحاء الدنيا قد لعب به المشيب، فهو يبدو في نهاية الخمسينيات من عمره، وقد لوّحت هجيرات شمس وادي الدواسر سحنته، فجعلته داكنا، تتخلل هضبات وجهه أجزاء قد أكلتها سَموم نجد، أما سنونها[٢] فقد بدأت بحفر أخاديدها، وكان حاسر الرأس، واكتفى بارتداء ثوب ارتفع قليلا عن الكعبين مبتعدا عن اللباس الوطني وهرب من ملابس الشهرة، أما جيبه فقد بان السواك منه لطوله، عندها قفزت بي المشاهد بلحاظها الخاطفة لأذكر «ربعي بن عامر»[٣] سفير «سعد بن وقاص» - رضي عنه - عندما دخل على «رستم» قائد قواد البلاط الكسروي وقد تسربل

---

(١) دخنان تطلق على الرجل الكريم لكثير دخانه وأعني به هنا أخي الأستاذ حميدي العنزي، ويقال للمرأة دخنانة إذا كانت كثيرة الكرم.

(٢) إشارة لبيت الشعر : دعاني من نجد فإن سنينه لعبن بنا شيبا وشيبننا مردا
وجاء شاهدا في النحو حيث استعمل سينينه بدلا عن سنينها وهو مقصور على السماع.

(٣) ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو، صحابي جليل، كان من أشراف العرب، أمد عمر بن الخطاب به المثنى بن حارثة. وللنجاشي الشاعر فيه مديح. وله ذكر في غزوة نهاوند، وكان ممن بنى فسطاط أمير تلك الغزوة النعمان بن مقرن، وولاه الأحنف لما فتح خراسان على طخارستان. واقرأ المزيد عن هذه الواقعة وكذلك سفارة «المغيرة بن شعبة» في البداية والنهاية لابن كثير، الجزء التاسع

سفير المسلمين بلباس «اخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم» فلم يترك ظهر فرسه، ولم يحن رأسه عند مروره تحت أطواق ورايات الجيوش الفارسية وهو في طريقه إلى «رستم»، بل ترك حوافر فرسه، وأطراف سهامه، ورماحه، لتخّرق زرابي رستم المبثوثة، وتهشم أكوابه الموضوعة، ونمارقه المصفوفة، والتي تغطي الممر المؤدي إلى مجلسه ، فاحترق قلب رستم وهو يشاهد ، ثم بدأت تأخذني الخلجات وتتقاسمني الأفكار في أن الرجل الذي جاء إنما نوى العمرة فأخطأ الطريق إلى البيت الحرام. وفي الواقع شعرت لأول مرة بأن الكاميرا أصبحت ضرورية لالتقاط الصور التذكارية لأدعم تلك المشاهد لمن أقرأ عليه صيدي هذا.

ومع أني لم استطع التخلص من الرؤى المسبقة عن الرجل، ولم أقدر على دفع تلك الوساوس والهواجس، فقد اقتربت من الرجل الذي تصدّر الجلسة، ولما لم تبق بيني وبينه إلا خطوتان بادرني الرجل بوقوفه لتحيتي، وكنت أخشى أن يظل جالسا على الطريقة التي فهم بعض الناس أن السنّة تقتضيها، بل وجدت الرجل لم يكتف – يشهد اللّه – بالمصافحة، وإنما هوى بعضنا على بعض فقبلته وقبلني، فشممت في الرجل رائحة من طلق الدنيا وأقبل على الآخرة، ثم سنحت لي الفرصة أن أجلس لجنبه متوسطا الوفد، لكن لم يفسح لنا المجال بالحديث لنكشف ما في جعبته من علم وخبرة؛ لذا قررت أن ألتمس بعض من أعرف ليرفدني باسمه الكامل لأبحر في عالم الإنترنيت ليتسنى اصطياد ما كتب الآخرون عنه، فهي اضمامة جميلة للفواصل والفوارق، وهي إضافة عبير لعبير، وسأفعل بإذن اللّه تعالى.

وعودا على البيئة التي جاءت هذه المحطة من الكتاب لتسليط الضوء عليها ثم وصفها بعد تحليلها. فإني عجبت أشد العجب من بعض النخب التي تجمعت من مختلف فجاج الأرض، وأغلبها يحمل على الأقل ناقضا من نواقض المروءة، وكأنها جاءت لتشهد مضارَّ لا منافع، وإن اختلفت أسباب هجرتهم إليها، وتغايرت دوافعهم، تلك النخب التي تستثمر

كل فرصة لإثبات حاجة الناس إليها ربما بدون أدنى حق، وتشكلت لديَّ القناعة بعد تجربة ليست بالقصيرة أنهم ومن يماثلهم مرضى أنساهم حب الاستعلاء كل فضيلة، فهم من وجهة نظرهم لا يخطئون، وهم كائنات أرقى درجة من غيرهم ممن أنضج واقع الحياة تجربتهم، ومحّص خلقهم، وتقرأ في عين أحدهم عندما ترمم له بعض الأفكار البالية، أو تصحح له بعض المفاهيم الخاطئة كأنه استوعب الدرس، ولكنك تكتشف بعد أن كان لك سمّاعا، ولحديثك نصّاتا أنه كان لك نصّابا، ولعاداته السيئة أوّابا، وفي خديعتك فنّانا، وفي عِرضك نشّابا، فالخيانة شيمته، والغدر مقصده. فهو يرى في التواضع ابتذالا، وفي الكِبر سَدادا، وفي العُجب سعادة، وفي الخيلاء سيادة، وفي الغضب قوة، وفي الحلم ضَعفا وذلة، مطيته الخداع، وأهم فنونه الرياء، متخصص في المراوغة إلى حيث يفضي به هواه، فتراه مصعّرا الخد، يحاول أن يطاول بقامته القزم هامات الجبال حينما يتمكن من زملائه من الرجال الذين انحنت جباههم تواضعا لله، أما عندما يجلس أحدهم وراء مكتبه فهو الوزير، وكل من حوله حقير، يحسن صناعة الشك، ويجيد فن حياكة الظنون، وعليهما يبني خططه، ويصمم خدعه، ويعلي مجده، ثم يبدأ في تقليب الأمور لعله يجد غفلة أو هفوة من إخوانه العاملين ليجعلها عليهم قضية تستحق الكتابة فيها لولي أمره وصاحب نعمته، ثم يذهب إلى البيت منتشيا بأنه حقق أكبر الانتصارات التي لم نذق طعمها كأمة، ووضع النقاط – ولو بشكل عشوائي – على الحروف التي لا يعرف عددها. فهو أعجمي لم يستوعب عقلة لسان العرب أصلا ولكنه على النقيض من ذلك فهو يمسح الأرض أمام سيده، ويسعى بين يديه وهو صاغر. لكنّ قلبي بعد هذه المدة وإن لم تكن مديدة يرى في نسيان ذلك فضيلة، وفي مسامحتهم سماحة، فقد زلت ببعضهم القدم، وعليّ أن أسمع وأصدع بصوت الحق:

سامح صديقك إن زلّت به قدم　　　فليس يسلم إنسان من الزللِ

لما عفوت ولم أحقد على أحدٍ　　　أرحت نفسي من هم العداواتِ

وكنت أريد أن أسدل الستار على هذه المدة الزمنية من حياتي العملية للمحطة التاسعة، وأن أغمض عيني على حدث يريح النفس وينفس الكرب، خشية أن يتبادر إلى الأذهان عند مراجعة هذه المذكرات أن الطابع العام لهذه المحطة هو معاناة الكاتب من الجو العام لنطاق العمل، وهذا، إن كان صحيحا، فإن على الكاتب أن يكون حياديا، إذن، فعليه التعرض للذكريات الجميلة والأحداث المشجِّعة التي مرت به، لذا فإن من الإنصاف والمروءة أن يعترف الكاتب أن وجوده هنا قد أغنى تجاربه وصقل أفكاره، واكتشف كنوزا لابد من عرضها، وأمثلة نفخر عندما ندعو للتمثل بها، ومعادن بشرية تستحق من الكاتب أن يقف عند ظلال أشجارها في شمس الظهيرة، وآخر تلك الذكريات المتعلقة بذلك «التميمي» الذي طوى خيمة الكرم في لندن عاصمة العرب وقفل راجعا إلى مضارب جدّه حاتم(١)، بعد أن أغرق الناس في بحر كرمه، وغشّاهم بأمواج جوده، واحتضنهم بأجنحة إحسانه، فقد قابلته أول مرة قبل بضع سنين، لكنّي قرأت في بريق عينيه الكثير، وخُيِّل إلي أنه غزال يعيش في وسط غابة تحتلّها السباع الضارية، فهو حذر كل الحذر من مخابئها، يمشي على أطراف أصابعه محترسا من الأشواك المنثورة في الطريق، وكأن أحدا أخبره أن الناس هنا كانوا قد هبطوا من كوكب آخر فلا يعلم أحد طبيعتهم، فعليه أن ينام - إن نام - بعين واحدة، فلاذ بالصمت سنة، يتفرس في وجوه القوم، ويفتش عن قلب لا مكان فيه للخديعة، فصار يستقصي عن بُعدٍ الحركات، ويستشعر عن قربٍ السكنات، عندها تململ عن يد سخية، تسابق الريح، ونفس أريحية، تعطر بشذاها الأجواء، فبنى قباب الجود، وأعلى منارات الكرم، وكانت لغة الإشارة لغته، وكان وحي العيون لسانه، وأخيرا مدّ الجسور بعد انقطاع، وفتح القلوب بعد أن عبر كل التحصينات، وهو بالذي فعله جعلني أصدّق قول من قال: إن الخير في هذه الأمة لا يُعدم، والتاريخ يقدم لنا بين الفينة والأخرى

---

(١) قال ابن الأعرابي: كان حاتم من شعراء العرب وكان جوادا يشبه شعره جوده ويصدق قوله فعله وكان حيثما نزل عُرف منزله، وكان مظفرا إذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سُئل وهب، وإذا ضرب بالقداح فاز، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان يقسم بالله أن لا يقتل واحد أمِّه، وكان إذا أهل الشهر الأصم (شهر رجب) الذي كانت مُضر تعظمه في الجاهلية ينحر في كل يوم عشرا من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه، فكان ممن يأتيه من الشعراء الحطيئة وبشر بن أبي خازم. (انظر: ديوان حاتم الطائي للدكتور حنا نصر الحتي، صفحة ٢٦ دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧).

رمزا لا يلبث أن يضاف إلى نجومه المتلألئة، فهو من مواليد بلاد الجبلين «أجأ وسلمى». وحكاياته ليست غريبة عن حكايا جده حاتم، إذ حُكي عن جده أنه قصد النعمان يوما فوهبه ناقتين محملتين بالذهب والهدايا وعند رجوعه لأهله أقبل عليه الناس وسألوه أن يعطيهم مما أعطاه النعمان فلم يتركوا له دينارا واحدا، حتى صاحت به جاريته «طريفة» وقالت: اتقِ اللّه فينا وأبقِ لنفسك شيئا، فأنشأ شعرا يقول فيه:[١]

قالت طُريفةُ ما تَبقى دراهِمُنا ... وما بنا سَرَفٌ فيها ولا خُرُقُ

إن يَفنَ ما عندنا فاللّه يرزقُنا ... مِمّن سوانا، ولَسنا نحن نَرتَزِقُ

ما يألف الدرهمُ المضروبُ خِرقَتَنا ... إلا يمرُّ عليها ثم ينطلقُ

إنّا إذا اجتمعتْ يوما دراهمُنا ... ظلتْ إلى سُبل المعروفِ تستبقُ

وهو القائل:[٢]

فلا الجود يُفني المال قبل فنائه ... ولا البخل في مال الشحيح يزيدُ

فلا تلتمس رزقا بعيشٍ مقترٍ ... لكل غد رزقٌ يعود جديد

ألم تر أن الرزقَ غادٍ ورائحٌ ... وأن الذي أعطاك سوف يعيدُ

وإني أشهد اللّه أنه مذ رافقني أو رافقته سواء في حل أم في ترحال لم أره في موقف إلا وهو خادم للأصحاب، يترفق بالكبير وبالصغير، خافضا جناحه للأحبة، فالترفق

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٣٥

(٢) جاء في العقد الفريد لابن عبد ربّه، ج ٣ ص ١٣٩، ١٣٨ «قيل ولما بلغ حاتما قول المتلمس:

وأعلم علم صدقٍ غير ظنٍ ... لتقوى اللّه من خيرَ العتاد

وحفظ المال أيسرُ من بُغاهٍ ... وسَيْرٍ في البلاد بغير زاد

وإصلاح القليل يزيد فيه ولا يبقى الكثير مع الفساد

قال حاتم: قطع اللّه لسانه! يحمل الناس على البخل، ألا قال: وقال الآبيات أعلاه (انظر ديوان حاتم الطائي للدكتور حنا نصر الحتي، صفحة ١٠٦ دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧).

والتواضع من أهم مهماته، وخدمة غيره من ثوابت سلوكه، يجلس في كل المجالس – وإن كان مدعوا – وكأنه الداعي، يبادر لخدمة من حضر من أضياف أو أصحاب مجلس. وبدون أدنى شك فإن الرشيد[1] لكثرة كرمه قد وضع المعروف في أهله وفي غير أهله مخالفا في ذلك قول زهير :

ومَنْ يجعل المعروف في غير أهله   يكن حمده ذما عليه ويندم

ولا أحسب أني أُجانب الصواب حين أزعم أن الذي فعله لم يك عيبا على الإطلاق، فقد ألفّ قلوب أولئك الذين وصفناهم أنهم من فئة «غير أهله» واستأنس وحشتهم. أما «حكاية معشي الذيب» المشهورة التي يتناقلها الناس في كل نواحي جزيرة العرب شاهد آخر على الاهتمامات العائلية لصاحبنا حيث أصرّ خاله على الزواج من إحدى بنات «معشي الذيب» طلبا لانتقال عادة الكرم باعتبارها قيمة وراثية تنتقل إلى الأبناء. وكنا نظن من قبل أن شموع الكرم قد انطفأت إلى الأبد على الأقل هنا في بريطانيا عندما ودّع أخي الأريحي الدكتور صالح محمد العريني مدن الوسط البريطاني قافلا إلى الرياض عام ١٩٩٧ ونشهد اللّه أنه أسس للكرم قواعده، وفتّح لنا نوافذه وأعلى أبوابه، وكنا نحسده حسد غبطة على المحبة التي حظي بها هناك، وكان جوادا رغم أنه ليس من الأغنياء ولا من أقاربهم ولكنه غنيّ النفس، فهو كما قال القائل ليس إنسانا فحسب بل الأنسانية تسكن فيه، وقد ذكّرني كرمه بكرم الفتى اليتيم الذي أكرم حاتم الطائي. حين قيل لحاتم هل غلبك أحد في الكرم؟ فكان جوابه: لقد غلبني ذلك اليتيم الذي نزلت بساحته ذات يوم وكان كل مايملك عشرة أرؤس من الغنم، فعمد إلى إحداها فذبحه وأصلحه وقدمه إليّ وكان فيما قدم الدماغ، فقلت له هذا طيب، فخرج من بين يدي وجعل يذبح رأسا بعد آخر ليقدم الدماغ إليّ وأنا لا أعلم بالذي حصل، ولما حان وقت رحيلي وجدت دما عظيما حول بيته فإذا به قد ذبح الغنم بأسرها فقلت لم فعلت ذلك كله؟ قال يا سبحان اللّه أراك تستطيب شيئا أملكه وأبخل به عليك، إن ذلك لسبة على العرب ما أقبحها.

(١) هو الأخ د. رشيد راشد الشبرومي التميمي والذي قضى معنا في لندن أربع سنوات (٢٠٠٣ – ٢٠٠٧).

ويذكر التنوخي في المستجاد[1] أن حاتما سُئل: وبمَ عوضته؟ قال: أهديته ثلاثمائة ناقة حمراء، وبخمسمائة من الغنم. فقيل: إذن أنت أكرم منه، فقال حاتم: هيهات، بل هو والله أكرم مني، لأنه جاد بكل ما ملك، وأنا جدت بقليل من كثير. وبهذا نكون قد اختصرنا الأمثلة الطيبة الأخرى، التي قد تقترب أو تبتعد عن المثالين اللذين أوردنا، وعسانا بهذا قد أنصفنا الآخرين وهم كثر والحمد لله. على أن لي وقفة هنا مع ابن جدعان فهو الآخر من الأجواد المشاهير[2] في العصر الجاهلي، ومن طريف ما يُذكر عنه أنّه كانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره، وحدث أن وقع فيها صغير فغرق، ولضخامتها فإن ابن قتيبة ذكر أن رسول الله ﷺ قال: «لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان ...» أي وقت الظهيرة. وذكروا أن ابن جدعان كان يُطعم التمر والسويق ويُسقي اللبن حتى سمع قول أمية بن أبي الصلت:

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم   فرأيت أكرمهم بني الديان

البُرّ يُلْبَكُ بالشِّهاد طعامهم   لا ما يعللنا بنو جدعان

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفي بعير وعادت تحمل البُر والشَهد والسمن ثم ما لبث أن جعل مناديًا ينادى كل ليلة على ظهر الكعبة أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان، وفي ذلك قال أمية:

له داع بمكة مشمعل   وآخر فوق كعبتها ينادي

إلى روح من الشيزى ملاءٍ   لُبابُ البُرّ يُلْبَكُ بالشِّهاد

والعرب تلك سجيتهم في حب الكرم حتى سَمَّوا الكلب مشيد الذكر وداعي الضمير، ومتمم النعم؛ لما يجلب من الأضياف بنباحه، وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح ولم تشب

---

(١) انظر المستجاد من فعلات الأجواد لأبي علي محسن التنوخي/ تحقيق محمد كرد علي/ طبع بدمشق ١٩٤٦.

(٢) قال أبو عبيدة: أجواد العرب ثلاثة: كعب بن أمامة، وحاتم الطائي، وهرم بن سنان (الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ٢٢٩ أنظر ديوان حاتم الطائي للدكتور حنا نصر الحتي، صفحة ١٨ دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧).

النيران فَرّقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العتمة لتستوحش فتنبح فتهدى الضُلاّل وتأتى الأضياف صوب نباحها.

إن أمثلتي التي أسوقها في الكرم لمن يعاصرني، وتضْمِيني لهم في كُتيبي هذا تجيء استدراكا على ما ذكره أستاذنا الشاعر غازي القصيبي بعد أن عرّج في مقالته على «محمد الحمد الشبلي» الذي وصفه بالأسطورة من أن ذلك - أصبح أقاصيص من الفلكلور السعودي، ذلك الرجل «أبو سليمان» الذي كان يقود سيارته في شوارع بغداد ولا يعود إلى المنزل إلا ومعه ضيف، فهو صيده الثمين، وإذا لم يكن في مقدوره التجوال فإنه يُطلق سائقه في شوارع كوالامبور ويطلب منه ألا يعود إلا بضيف، وأن «أبا سليمان» من عاداته المفضلة مطاردة ضيفه من لحظة الهبوط إلى لحظة الإقلاع، حتى أن القصيبي كان يتحاشى زيارة العواصم التي فيها «أبو سليمان» سفيرا لبلده خشية أن يقع في مصيدة كرمه، مع أن القصيبي نفسه ما زال كثيرٌ من الناس يتمدحون كرمه. وبعد سوق تلك الشواهد هل لنا أن نسأل أنفسنا كم من أغنيائنا استطاعوا أن يجددوا لنا جفنة عبد الله بن جدعان أويذبحوا لنا فرس حاتم الطائي؟

ولعل من طريف ما أذكره قبل أن نكمل إسدال الستار عن هذه المدة لترطيب الجفاف الذي قد يستشعره القارىء ولبيان اهتمام الغربيين في مجال إكرام الحيوان، فقد أُبلغنا ذات ليلة باردة أن علينا أن نحضُر غدا جنازة «روبنسن»، وينبغي أن نسافر باكرين لقطع مسافة تزيد على أربعمائة كيلا، إذ اتصل بنا «جون» ليبلّغنا الحدث الجلل، وأن زوجته «كاترين» في حالة يُرثى لها، وهو أعني «جون» يلتمسنا أن نُحسن مواساتها بفقيدها الغالي، وحسبك أن الفقيد كان مدللا إلى درجة أن زوجها «جون» كان يغار منه ويتمنى أنه لو كان « روبنسن» ولو ليوم واحد. فقد عاش «روبنسن» طيلة السنوات السبع وهي كل حياته في نعمة ورفاهية قلّ من يعيشهما. وكنت، ليلتها، أسأل زوجتي وأولادي، وبالأخص أولادي؛ لأنهم أصبحوا أقرب إلى نمط الحياة الغربية منّي: هل علينا ارتداء حُلَلنا السود؟ ثم كيف علينا أن نتقدم بتعازينا الحارة، ومواساتنا القلبية؟ لكن «جون» أكْرِمْ به من رجل شهم أفتانا في

ذلك كله من خلال مكالمته الهاتفية الدافئة، وبيّن لنا أن مجلس العائلة في مدينة «Hull» قرر أن يعمل قدّاسا خاصا يقتصر على العائلة، أما الحديقة الخلفية ذات الثمانية أفدنة والتي تغطيها أشجار الغابات المجاورة فستكون مدفنا «لروبنسن»، وأن عائلة «الهيتيين» هي العائلة الوحيدة دون غيرها التي يسمح لها بالمشاركة في إلقاء نظرة أخيرة على «روبنسن» قبل أن يوارى الثرى. أما «كاترين» فسوف يكون عزاؤها إطلالتها اليومية من نافذة مخدعها على الحديقة الخلفية حيث سيرقد «روبنسن» في مثواه أو كلّما آلمها فراقه، وأرّقها رحيله.

أما شقيقتي، لا أدري لسوء الحظ أو لحسنه فكانت معنا في زيارتها الطبية حيث استعصى علاجها في العراق بسبب شحة الدواء وظروف الحصار، والتي كانت لا تُحسن إلا كلمة واحدة أو اثنتين في الإنجليزية، وكانت بفضولها تريد تسقّط الخبر، ومعرفة ما يجري حولها في البيت، لأننا مضطرون لاصطحابها معنا مع الخيوط الأولى لفجر يوم غدٍ؛ لذا علينا إخبارها بكل ما يجري شئنا أم أبينا، وهي لا تكاد تفهم الحكاية بكاملها، لكنّها لاحظت أن «الهيتي» عندما استلم المكالمة من «جون» قبل ساعة كانت لهجته تدل على تأثره البالغ من خلال تهدج صوته، لكنه بعدما رمى الهاتف وتكلم مع أهل بيته كان يبدو ساخرا شيئا ما، على كل حال فهي تحسب وإلى تلك اللحظة أن الفقيد فتى تخطّفته يد الردى وهو في عمر الزهور، وكانت تسأل إذا ما كان بالإمكان أن نُريها صورة من صوره، وفعلا ذهب بعضنا لأحضار آلبوم الصور التذكارية، وقد وجدت «ميلاد» واحدة، وهي الأحدث بين صوره، وكان مكانها الباحة الخلفية للمنزل وفي آخر مناسبة عائلية، ويظهر «روبنسن» في الصورة على عادته في حضن «كاترين» فهو قلما يغادره حين تعود من رئاستها لأحد الأقسام المهمة في الجامعة وقد غط في نوم عميق، حيث اجتمع له الدفئ والحنان. وما إن وقع بصر شقيقتي على الصورة حتى أخذها العجب وانتابها الذهول فسألتني: هل أنتم تمزحون؟ فهي لا ترى في الصورة سوى قط أليف. فأجبتها: «نعم»، هذا هو الفقيد الذي قضى نحبه بدون سبب معروف حيث أدلى المستوصف البيطري بتقريره بسبب الوفاة، وتأكد أن موتته كانت بالسكتة القلبية ليس إلا.

والآن علينا أن نقنع شقيقتي بأخذ الموضوع على محمل الجد إذا كانت تنوي الذهاب معنا لتقديم العزاء، فإن عليها هي الأخرى أن تحمل باقة من الورد بلون يناسب المناسبة، وأن تطبع قبلة عزاء حارة على خد «كاترين»، وبخلاف ذلك فإن علينا أن نجدّ ونجتهد في التماس العذر المناسب لشقيقتي الذي حدى بها إلى التخلف عن أداء مثل ذلك الواجب، أما نحن فعزمنا على الشخوص لأداءه. وبالتأكيد فإن شقيقتي سيعذرها على عجبها كل من يعيش تحت وقع صواريخ الفقر، والدمارالتي لم ترحم صغيرا ولا كبيرا ولا رجلا ولا امرأة في بلد كالذي تعيش فيه والملايين من أبناء وبنات كنتونات العالم الرابع وليس الثالث. والتمست لها العذر في ذلك العَجَب مع أني أشاركها الرأي أن في المسألة مبالغة حيث أصبح بعض الغربيين ينحون هذا المنحى.

ولي كلمة هنا، أشعر أن من الواجب الإدلاء بها أمام القراء وهي: أن بعضنا إن لم أقل معظمنا - أعني العرب والمسلمين - أصبح يجهل ما جاء به ديننا من حثٍّ على رعاية الحيوان والرأفة به. ومن يرجع إلى مقالة الشيخ الألباني - رحمه الله - [1] بعد أن أورد بعض الآثار التي وُفق للوقوف عليها أنها جميعا «تدلُّ على مبلغ تأثُّر المسلمين الأوَّلين بتوجيهاتِ النبيِّ - ﷺ - في الرفق بالحيوان، وهي في الحقيقة قُلٌّ مِن جُلٍّ، ونقطةٌ من بَحر، وفي ذلك بيانٌ واضحٌ أن الإسلام هو الذي وضع للناس مبدأ الرفق بالحيوان؛ خلافا لما يظنُّه بعضُ الجهّال بالإسلام أنه من وضْعِ ... الأوروبيين، بل ذلك من الآداب التي تلقَّوها عن المسلمين الأوّلين، لكن الأوربيين توسّعوا فيها، ونظّموها تنظيمًا دقيقا، وتبنَّتها دولُهم، حتى صار الرفقُ بالحيوان من مزاياهم اليوم، بل توهَّم الجُهّال أنه من خصوصياتِهم! وغرَّهم في ذلك أنه لا يكاد يُرى هذا النظام مطبَّقا في دولةٍ من دولِ الإسلام، وكانوا هم أحقَّ بِها وأهلَها» بل يحق لمن رجع إلى العصر الأول للإسلام أن يرى أعجب من ذلك حين أُسست أول البيوت لأيواء الحيوانات الضّالة لإطعامها ولرعايتها لحين العثور على أصحابها، وإلى عهد متأخر كان إيواء الحيوانات المريضة والسائبة يشكّل بابا واسعا من أبواب الأوقاف الإسلامية كما هو الشأن في «المرج الأخضر» في دمشق.

---

(١) السلسلة الصحيحة، ج١ / ق١ ص: (٥٨-٧٠).

المحطة العاشرة

مع زرياب في قطر

«ذهب الذين يُعاش في أكنافهم   وبقيت في خلْفٍ كجلد الأجربِ»

(لبيد بن ربيعة)

المحطة العاشرة

قطر

تجربة أخيرة نسجل أحداثها على أرض دولة قطر، وربّما تكون خاتمة لهذه الخواطر، وربما ستكون صورها أكثر وضوحا من سابقاتها؛ وذلك لأن تسجيل أحداثها جاء مواكبًا لكتابة هذه الخواطر أو على الأقل قريبة جدا من وقت التقاطها، لكن العيب الوحيد في العملية الكتابية هو اضطرار الكاتب أحيانا ولأسباب عدّة إلى أن يفرش نسيج حروفها مباشرة في وقت ربّما لم تبلغ الدرجة التي يطمح الكاتب أو القارئ أو كلاهما أن تكون. فالكاتب الناجح هو الذي يستطيع أن يغزل من حروفه حضارة، أو أن يحفر بأظافره وديان الحضارة، ليضعها بين يدي قرائِه أو محبّيه حيث تستهوي أذواقهم وتطرب لها نفوسهم. لكنّ «الهيتي» قرر أن يختتم عمله الكتابي هذا في وقت أبكر مما كان يتوقع، حيث نفد صبر أحبائه في تنفيذ وعده، رغم أنه اعترف غير مرة لأصحابه وبنيه أنه لم يكتب حرفا واحدا منذ أن أحرق سفنه التي أوصلته إلى سواحل المملكة المتحدة البريطانية، حين كتب لزملائه في لندن وعلى التحديد في السابع والعشرين من يونيه عام ألفين وثمانية وهو آخر يوم في العمل هناك ما نصه (الأخوة الأفاضل والأخوات الفاضلات: لعل كثيرًا منكم يعتقد أنني أحرقت السفن التي عبرتُ بها المحيط، لكنّي أعتقد أن سفنًا أخرى وراء المحيط ما زالت في انتظاري، والشكر موصول لكم دوما في أن تكرموا أعينكم عن زلاتي ... الهيتي) فجاءني الرد التالي من بين عدة ردود ودودة (سيفتقدك الكرام أمثالك من طلاب ومعلمين وموظفين وأجيال، .... كان الله في عون محبيك، ... ولعلي - والقول ما زال لصاحب الرد[1] - أتمثل هنا قول الشاعر:[2]

(١) أعني الزميل النبيل ياسر نصيف وهو من المملكة العربية السعودية.

(٢) البيت للشاعر لبيد بن ربيعة، وهو من المعمّرين. وفي المسألة - لعلماء العربية - خلاف، ففي تاج العروس الخَلَفُ بِالتَّحْرِيكِ: الْوَلَدُ الصَّالِحُ يَبْقَى بعدَ أَبِيه فَإِذَا كَانَ الوَلَدُ فَاسداً أُسْكِنَتْ اللَّامُ وأَنْشَدَ الجَوْهَرِيُّ للرَّاجِزِ :

إِنَّا وَجَدْنَا خَلَفاً بِئْسَ الْخَلَف   عَبْداً إِذَا مَا نَاءَ بِالْحِمْلِ خَضَفْ

ورُبَّمَا اسْتُعْمِلَ كُلٌّ مِنْهُمَا مَكَانَ الآخَرِ يُقَالُ : هو خَلَفُ صِدْقٍ مِنْ أَبِيه إِذَا قَامَ مَقَامَهُ وكذا خَلْفُ سَوْءٍ من أَبِيهِ بِالتَّحْرِيكِ فيهما وقال ابنُ الأَثِيرِ : الخَلَفُ بالتَحْرِيكِ والسُّكُون : كُلُّ مَن يَجِيءُ بعدَ مَنْ مَضَى إِلاّ أَنَّه بِالتَّحْرِيكِ في

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلْفٍ كجلد الأجرب

والكاتب، بلا شك، استلم ما يماثل تلك الرسائل لكن من بعض عدو، نحن في غنى عن عرضها؛ لأنها جاءت على غير ما في قلوب أصحابها كما نعلم والله أعلم، وليس من عادتنا أن نُذكّر الآخرين بشيء قد يثني بعضهم في الصفح والنسيان وفي خلاف ذلك قطع لسبيل المعروف. ثم إن موضوع حرق سفني – وإن كان معنويا – أهون بالتأكيد من موضوع حرق سفن لنقل الجنود(١)، ومسألة حرق السفن، هذه، ربّما تذكّرنا بما درسنا في كتب المدارس بالقصة التي أُشيعت عن طارق بن زياد. وتجدني في أطروحتي حيال تلك القصة مع الذين يقفون إلى جانب الكتّاب المتأخرين الذين لم يثبت لديهم أن طارقا فعلها، فعلى رأيهم: أن قائدا مثل طارق بن زياد لا ينبغي له أن يقْدِم على مثل ذلك الصنيع، ففي ذلك الصنيع قطع لوسيلة النجاة التي على القادة العباقرة أن يؤمّنوها لجنودهم حال العودة، ثم إنّ الدلائل تشير إلى أن طارقا قد أرسل إلى قائده في القيروان يطلب منه مدّه بالعون، وفعلا حصل له ذلك عندما أمدّه موسى بن نصير بخمسة آلاف مقاتل، فلا بد من وجود وسيلة للمساعدة في نقلهم، كما ثبت أن السفن إن لم يكن جميعها فمعظمها تابعة «ليوليان» حاكم سبته، والدليلان يؤكدان أنه لا مبرر لطارق من أن يقدم على حرق ما لا يملك. وعلى افتراض أن السفن تابعة للدولة الإسلامية فكيف له أن يفرّط بأموال المسلمين؟ والقصة على ما يبدو لم ترد إلا من خلال كتاب الاكتفاء لابن الكردبوس، وكتاب نزهة المشتاق للشريف الإدريسي، وكتاب الروض المعطار للحميري، وليس كل شائع صحيح. لكن عليّ أن أذكر للقارئ الكريم أن هناك كثيرا ممن سبق طارقا أو ممن جاء بعده اعتمدوا سياسة حرق السفن. فهذا «أرياط» الحبشي عبر البحر إلى اليمن وأحرق سفنه عند وصوله شواطئ

الخَيرِ وبِالتَّسْكِينِ في الشَّرِّ يُقَال : خَلَفُ صِدْق وخَلْفُ سَوْء ومَعْنَاهما جَميعاً : القَرْنُ من النَّاس قال : والمُرَادُ في هذا الحديث المَفْتُوحُ ومن بالسُّكُون الحَديثُ : « سَيَكُونُ بَعْدَ ستِّينَ سَنَةً خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ « وفي حديث ابنِ مَسْعُودٍ : « ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ « هي جَمْعُ خَلْف. قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة﴾ مريم ٥٩، وقال تعالى ((فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب﴾ الأعراف ١٦٩

(١) للمزيد من المراجعة التاريخية لم يثبت أن طارق بن زياد قد أحرق السفن عند مضيق جبل طارق وللمزيد يرجى مراجعة راغب السرجاني.

الكاتب في قطر

اليمن، وكذلك القائد الفارسي «وهرز» الذي بعثه كسرى مع «سيف بن ذي يزن» إلى اليمن لتحريرها من الأحباش، والحال نفسها مع فاتح جزيرة صقلية أسد بن الفرات الذي أراد حرق سفنه ولكنه لم يفعل، وعلى التحقيق فإن لكل واحد منهم الأسباب والدواعي التي تستدعي تلك الأفعال.

وخاتمة القول في قراري بالانتقال إلى قطر أقول: إنَّ اتخاذ القرار يحتاج إلى قدر من الشجاعة من صاحبه، وأنا على إيمان كامل أن الذين يتخذون قراراتهم ببطء هم الأكثر فشلا، على خلاف الذين يتخذون قراراتهم دون تردد وتلكؤ فهم الأكثر نجاحا وتوفيقا. وسأظل من المؤمنين بأن الموانئ أكثر الأماكن أمنا للسفن، لكنها لم تصنع لتبقى فيها بل لمغادرتها. وفي ذلك السّياق كنت أنصح رفاقي العاملين معي في دائرة الإشراف التربوي يوم كنت مفتشا تربويا في العراق أن يوجهوا مدراء المدارس ومدراء المناطق التعليمية وصانعي القرار التربوي مراجعة أنفسهم في التريث الزائد عن الحدود عندما يكونون بصدد اتخاذ قرار أو إصدار تعليمات حيث أرى أن في ذلك التريث عجزا عن استنباط القرار، واتخاذ القرار أولا وأخيرا لا يتعدى أن يكون اجتهادا من صانع القرار التربوي، ففي حال إخلاصه فالأجر حاصل له إن أخطأ وإن أصاب، فإن كان مجانبا للصواب في قراره فله أجر واحد، وإن أصاب الحق فيه فله أجران.

ومن المفيد هنا أن أذكر أهمية التوجه لتحقيق الأهداف الكبيرة؛ لأن في ذلك قضاء على المشكلات الصغيرة، فالغاية النبيلة تسحق تفاهات الأيام وترهاتها، وهذا يعني أن الحزم مطلوب، وعظائم الأمور تتغلب على دناءة الهمة وصغر الطموح ومشاكل الحياة العادية، وفي ذلك يقول المتنبي[1]:

وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

فبقدر الطموح يهب الله القوة والقدرة والإرادة، لذا فإني كنت مَعْنِيًّا في أن ينجز المسؤول التربوي (المهام الصعبة أولا، أما السهل منها فسوف يتم تحقيقه من تلقاء

(١) انظر ديوان للمتنبي.

نفسه ....)[١] ولا ننسى التاريخ فهو الأب الصالح الذي يقودنا بقصصه إلى الطريق لنتذكر ما فعله القائد صلاح الدين الأيوبي وغيره من قادة التاريخ العظام أخذا منهم بالقاعدة أعلاه. فهذا محمد الفاتح نراه بعد تولّيه الخلافة رغم الضعف والانحسار الذي حدث في عهد والده، ورغم محاولات المرجفين تهويل المشاكل التي كانت تعاني منها دولته، استطاع أن يصنع النصر؛ لأنه قرر حل المشكلات الكبرى أولا.

وعودا على ما ابتدأت به، فقد تأكد لي أن بعض من زاملت في العمل في لندن يعتقد أن الفرص في اصطياد وظيفة بتخصصي - ربما بعمري الذي شارف وقتها على الستين - تكاد تكون أندر من نادرة، وإن الإقدام على عمل كالذي أُقدم عليه في الاستقالة[٢] تصرُّفٌ يكاد يكون جنونا. واعتقدت أن نَفَسا من الخنوع يرافقه شيء من الخوف ربّما يكون سِمةً من سمات معظم أولئك الرفاق، مع أني أشعر أنني بتلك التوجهات ربّما أضعهم في موضع الاتهام، لكني أصبحت لا أشك أن ما ذهبت إليه تجاههم قد يكون الصورة الأقرب إلى حالهم، والأدق في تلمّس أفكارهم، مع أني أخاف التعميم لما فيه من خطر، أو على الأقل من زلل. إذ حمّلت نفسي في قرار حرق السفن التي أوصلتني إلى جزر الإنجليز كشواطئ للسلامة يومها[٣] - أعني الاستقالة ومغادرة بريطانيا - لوم اللائمين من الأصدقاء الخلّص، في وقت نفّست كرب المكروبين بسبب عدائهم الذي لم أستطع أن أبرره يوما إلا بذلك الحسد الذي أكل منهم القلوب، وفطر فيهم الأفئدة. وأنا لا أبالي بالأعداء كثيرا، ومهما كثُر عددهم؛ لأن في ذلك دليلا على نجاحي، وما كثرة الحجارة التي تُرمى بها شجرة من الأشجار إلاّ دليل على جودة ثمارها وكثرتها. تلك المقدمة تقودني للإشارة إلى مسألة التوكل الحقيقي على الله سبحانه وتعالى التي هي من أهم لوازم الإيمان المطلق بأن الرازق هو الله، وهو - أي ذلك الإيمان - بكل تأكيد يمنح الإنسان شحنة قوية من الشجاعة، وما استعمال القران للفعلين «خلق ورزق» بصيغة الماضي «خَلَقَكم ورَزَقَكم» بدلا عن «خَلَقَكم

(١) ديل كارنيجي، كتاب أفكار صغيرة لحياة كبيرة كريم الشاذلي (اقتباس بتصرف).

(٢) أعني من وظيفة دائمة (دائمة في عُرف سياسة التوظيف) ولا يوجد شيء دائم بمعنى الديمومة خلا الله سبحانه.

(٣) كان ذلك عام ١٩٨٦ عندما سافرت للدراسة في بريطانيا

ويرزُقكم» إلا دليل على أن الرزق قد تم تقديره، ولا بد أنه تحصيل حاصل، والصيغة الزمنية هذه تُفيد وتُشعر بالأمن الذي يحتاج الإنسان إليه ليتحرر من الوهم الذي يجعل الإنسان بدرجة من الدرجات عبدا لغير الله، ويعيقه عن الحركة المثمرة، فضلا عن عدم القدرة على التحدي التي يحتاج إليها الإنسان ليكون فاعلا في محيطه. وقد يعتقد بعضهم أن تلك الصيغة - أعني صيغة الفعل الماضي للآية - ربما تجعل الإنسان كسِلا متواكلا وليس متوكلا. أقول: الفرق بين التوكّل والتواكل معروف لكل أريب عاقل، وما حديث ذلك الأعرابي - إن صحَّ - الذي ترك دابته طليقة وقدم إلى الرسول الكريم - ﷺ - لخير دليل لما ذهبت إليه، حيث أوصاه بأن يعقل الدّابة ويتوكل على الله. ودليل آخر من السنة النبوية ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾[١]. وهذا يجرنا للحديث عن أولئك الذين يخافون إظهار النعمة عليهم خوفا من العين والحسد، وربّما يصل بهم الخوف إلى درجة الوهم، وهذا الوهم ثمرة لتربية خاطئة، حتى تصبح المبالغة فيه لدى بعضهم خروجا عن جادة الشرع. وربما يُلجِؤُهم ذلك إلى عمل التمائم، ويدفعهم للركض وراء السّحرة والمشعوذين. فيما يجعل بعضهم الآخر من العين والحسد شماعة تُعلّق عليها كل أسباب فشلهم وإخفاقاتهم. والناس في موضوع العين طرفان ووسط، فالطرف الأول: الغلاة في الخوف منها، والطرف الثاني: المفرّطون وهم على نقيض الطرف الأول، فهم منكرون للعين وحسدها أصلا. أما الوسط فهم من اعتقد بوجود العين وتأثيرها لكنهم متوكلون حق التوكل فهم في حرز أمين، ومكان مكين.

وأود الإشارة هنا إلى أن هذه الهجرة ليست هي الأولى، فقد غادرت العراق عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف، وبمغادرتي تركت ورائي حفيدة ملكة «شبعاد» السومرية يوم كانت حاجبتي (سكرتيرتي) قبل ثلاثة عقود، وأذكر أنها كانت تعاني من كَلَفٍ في وجهها المدور، حيث أبت الشمس وريح السَموم إلا أن يتركا ببصماتهما كمَعْلَمة من معالم جدتها،

---

(١) رواه البخاري.

تلك التي كان مدرس التاريخ في المرحلة الابتدائية يتخيل على الأصح أنها كانت لمياء[١] الشفتين، لوزية العينين، معتدلة القامة، درماء[٢] الكعبين، خميصة[٣] الخصرين، ضامرة الكشحين[٤]، مصقولة المتنين[٥]. لكن ثمة فروق بسيطة بين الجدة «شَبعاد» والحفيدة «ابتسام» ذلك أن «شبعاد» كانت تنام على لحن أوتار قيثارتها السومرية، ويطوِّق جيدها الأسمر طقم من الحُلّي يتجول الآن بين متاحف العالم الحديث، ويزين رأسها تاج سومري سرقه الأمريكان أثناء غزو العراق عام الفين وثلاثة، في حين اعتادت «ابتسام» أن تنام على ضجيج وقع (هطول) الصواريخ، أما مصوغتها الذهبية الوحيدة التي ورثتها بعد وفاة والدتها إذ تبرّعت بها كارهة لصناعة العربة الذهبية «لقائد الضرورة»، ولتكون في حرز أمين. وقد ماتت «شبعاد» وكذلك «ابتسام» لكن ماتت الجدة بين وصيفاتها وخدمها، وقد أسس جيلها لأول لغة مسمارية تعارف البشر فيما بينهم من خلالها، ودوّن الإنسان الأول بها تاريخه، بينما ماتت الحفيدة وقد احتضنها سقف دارها الذي سقط عليها بسبب القصف الجوي، وهي وسط جيل تسبب في ضياع لغة البلاغة، وبيعت الكتب النادرة بميزان البقّالين على أرصفة الشوارع، وقد اكتفى ذلك الجيل بتعليق شجرة الأنساب في البيوت وليثبتوا لبعضهم – كما قال الدكتور عائض القرني – أنهم (من أسرة آل مفلس من قبيلة الجهلة [٦].

أما الآن وبعد تلك العقود الثلاثة كان لزاما عليّ أن أجري مقابلة لحفيدة «أومييت»[٧] تلك الجدة التي عشقها «نبوخذ نصر»[٨] الملك البابلي زوجة له. فقد دخلت الحفيدة مكتبي في الموعد المحدد، بيد أنه لم يتسن لها، على ما استقرأت، تسريح شعرها الكستنائي

(١) لمياء: سمراء الشفتين.

(٢) درماء: ليس لرؤوس عظامها حجم.

(٣) خميصة الخصرين: دقيقة الخصرين (ضامرة الخصرين).

(٤) الكشحين: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، وهو من السرّةإلى المتن.

(٥) المتنين: جنبتا الظهر، وجمعهما متون ومُتن.

(٦) انظر مقالة د. عائض القرني بعنوان «الضحك على الذقون».

(٧) اختلف المؤرخون في الاسم الحقيقي لها، فقد قيل أن اسمها «أومييهيا»، وقيل أنها «سمير أميس» المشهورة.

(٨) «نبوخذنصر» هو الملك البابلي الأكدي من سلالة حمورابي صاحب أول مدونة قانونية في التاريخ الانساني«مسلّة حمورابي».

الذي تتضوع منه رائحة البلاك أكس أس، وقد جمعته بذكاء ليكون خصلة واحدة أنيقة تلتف حول جيدها الغزالي الممشوق، وترمي بما بقي لينام على ظهرها. ويبدو أن ذلك يعود لعدم اكتراثها بتلك المقابلة، فهي أي تلك المقابلة واحدة من مقابلات أجرتها ولم تتوفق في الحصول على فرصة وظيفية، وإن وُفِّقتْ في الحصول على فرصة واحدة من قبلُ، إلا أنه تم تسريحها منها بعد مدة وجيزة، إذ إنها مصنفة على أنها من بنات العرب رغم زرقة عينيها. ثم إن الموعد، وإن لم يكن باكرا من جهتي، لكنّه على ما يبدو كان كذلك من جهتها؛ لأنها أصبحت من فريق بنات نؤوم الضحى[١] من يوم توديعها لآخر وظيفة تركتها وهي كارهة. ولا أشك أنها - وإن أنكرت - قد عملت مسحا للمنطقة في يوم سابق لتتعرف على مكان المقابلة حيث كانت في مكان منزوي شيئا ما، ولا ينبغي لي أن أنكر أنني قرأت سر النجاح في عينيها رغم سحابات من الحزن أو قل من الحذر، إن لم نقل من الخوف، التي كانت تُظلّلهما. واكتشفت على الفور أنها كانت تكابر بثقتها العالية بالنفس. أما أنا فلا أُخفي سرا إذا ما قلت: إن الخوف منها أصبح يطاردني عندما تذكرت «سمير أميس» وهي إحدى جدّاتها، تلك الحمامة الأسطورية الأليفة الطيبة النقية الصالحة، والتي طلبت من زوجها يوما بعد ليلة ممتعة أن يسلّمها سلطة الحكم في البلاد ثلاثة أيام، فلبّى المسكين طلبها، وجلست في اليوم التالي على كرسي العرش، وكان أول أوامرها أن ألقت القبض على زوجها الملك وأعدمته، عندها أصبحت في رأي كثير من الناس ذئبة ضارية مثّلت الجبروت الأنثوي بعد أن كانت تتهم زوجها أن القسوة قد استحوذت على قلبه، ناسية أنها قد فرّغته من كل حب إلا من حُبِّه لها، ذلك الذي كان إلى حد الوله[٢]. وما هي إلا مدة ليست بالمديدة وإذا بها تصحو على مؤامرة يدبّرها ابنها «ميناس» فقدت على أثرها صوابها، وشُلّ فكرها،

---

(١) نؤم الضحى مصطلح يطلق على بنات العرب الأغنياء اللواتي استغنين عن العمل لوجود من يخدمهنّ، وأول من استعمله امرؤ القيس.

وتُضحي فتيتُ المسكِ فوق فراشِها　　　نؤومُ الضُحى لم َتنْتطِقْ عن تفضُّلِ

(٢) أول مراتب الحب الهوى، ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب، ثم الكلف وهو شدة الحب، ثم العشق، ثم الشغف وهو إحراق القلب مع لذة يجدها، ثم الجوى وهو الهوى الباطن، ثم التيّم وهو أن يستعبده الحب، ثم التّبّل وهو أن يسقمه الهوى، ثم التدلية وهو ذهاب العقل من شدة الهوى، ثم الهيوم وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه ومنه رجل هائم.

ثم ما لبثت أن انهارت أعصابها متنازلة عن عرشها له، وتختم الأساطير أنها خرجت ذات يوم تحت جُنح الظلام هائمة على وجهها نحو البادية، تاركة وراءها ذلك الماضي كله، وباتت كسيرة الخاطر، معذبة النفس، حتى فارقت الحياة على رمال الصحراء، بعيدا عن المجد والإرث.

عفوا فقد سرح بي الخيال، وقادتني على الأرجح وساوس الشيطان إلى كل ذلك، فقد عشت ساعة المقابلة - تلك التي ما زلت أصف للقارئ وقائعها - تتجاذبني الأساطير تارة، وتارة أخرى، مضامين المقابلة، ونفسي تحدثني أن الفتاة التي أمامي والتي اقترنت بإرث جدّاتها، ربما تضيف همّا إلى همومي، في وقت لم يبق مكان للمزيد، فقد غَرِقْتُ في بحار الصدود، وتهاويتُ في وديان النسيان، وانهالت عليّ سهام الحاسدين، وآلمني فرح الشامتين، وبرّحني بُعد الإخوان وفقدان الأحبة والخلان، بعد أن تسللت إلى قلبي وساوس الوهن، وغزت شيبةُ الخطيئة مرافقي، وأصبحت الهموم حبيسة ودفينة تحت صدر تغلي مراجله، وتتصاعد أنّاته وحسراته. وأنني ما زلت آمل أن الفتاة هذه ربما تجتاز المقابلة بنجاح، عندها سوف تدوّن حركاتي وسكناتي وإن كانت في آخر محطات حياتي، تلك الحركات والسكنات التي كنت ذكرت أسفي على عدم تدوينها في بداية كتابي هذا. وها تجدونني أجدد التماس العذر ممن يقرأ هذه السطور في أن الرغبة قد غمرتني للإحاطة بالظروف التاريخية المحيطة بجدّات الفتاة جعلتني بعيدا عن جو المقابلة نفسها شيئًا ما، وهي - لا بأس من الاعتراف - عادة سيئة إذا لم يُحسن الكاتب استعمالها بحبكة الخبير.

وعلى كل حال، تركت الفتاة فور دخولها، وقد سحقت سهام نظراتها تلك التي كانت تنطلق من عينين واسعتين كل دواعي الفشل، وتزرع شجيرات الأمل، تركتها أمام جهاز الحاسب الآلي لتقوم بالردود مباشرة على ما تجمع من رسائل في بريدي الإلكتروني، وإن لم يكن تجمع منه كثير حتى تلك اللحظة لأننا ما زلنا في أول النهار. ومن خلال رسالة رد طلبت منها أن تكتبها بالإنجليزية، - تلك اللغة التي غلبت لغتنا وأصبح بعضنا للأسف

يفاخر بمن يتقنها وإن نسي لسانه الأصل-، سوف أتحقق من مهاراتها وخبراتها اللغوية، فالتعبير في اللغة أعلى خبرة لغوية حيث تأتي كل آلات اللغة الأخرى، كالإملاء، والنحو، والصرف، وعلم العروض .... لخدمتها. أما هي – أعني الفتاة التي تقدّمت للاختبار – فربّما تركتها تعيش مع مفاجأة لم تحسب حسابها، فقلما سمعت عن طريقة كهذه، ولكنها على الأرجح شعرت أن «الهيتي» هذا: إما رجل جاد في عمله ولا يوجد لديه من الوقت ليتيه بين شفتيها وهي ترسل بأمواج خفيفة من نواعم الكلام، أو قل إن شئت ليحلل الجيم وقد عطشتها أو لينعم النظر في عينيها اللتين تعكسان نضارة أشجار الأرز، وزرقة البحر، وبياض الثلج، وتلك صور لا شك أنها تذكرك بأسباب ضجر جدّتها «أوميت» عندما لم تستطع يومها النوم على بطاح وادي الرافدين، وقد تجرد ذلك الوادي من كل جبل، ونأى بنفسه عن كل بحر مما حدا بزوجها «نبوخذ نصر» ليسبي اليهود عبيدا ليبنوا لها جنائن العراق المعلقة[1] إن صحت الروايات أنه فعل ذلك.

وعلى كل حال فقد تفاجأت السكرتيرة، فهي لم تكن تسمع بمثل هذه الطريقه من قبل، فمثل تلك الطريقة لم يكترث بها كثير ممن أجروا مئات المقابلات، وهم لا يملون اجترار نفس الأسئلة التي تدل على عدم الحصافة على أقل تقدير. أما «الهيتي» فقد كره طريقة توجيه الأسئلة التي أصبح من السهل بضغطة واحدة على أحد أزرار لوحة جهاز الحاسب الآلي الحصول على مئات الأمتار منها، وللأسف ففي العادة يتم بعد ذلك حصر أصعبها وأعقدها، وكأن الموضوع عندهم يُختصر في إجادة فن التعقيد أمام من قرأ، متحصنًا مرات عدة بـ (اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحَزنَ إذا شئت سهلاً)[2] وذلك قبل أن تطأ أقدامهم عتبات دوائر التوظيف وغرفها التي خُصّصت في العادة لمثل هذه المهمة، وقد تناسى أصحاب تلك الطرق ذلك اليوم الذي كانوا هم أنفسهم يشعرون فيه شدة الموقف، وصعوبة المقام. وربما تجدونني نازلا على حكم المروءة في الاعتراف بأن

(١) قصة الجنائن المعلّقة إحدى عجائب الدنيا السبعة.

(٢) دعاء مأثور.

الفتاة التي أنا بصدد مقابلتها أجادت فن اللعبة - أعني فن الإجابة العملية -، مع علمي أن ذلك وحده لا يكفي لتقديم صورة واضحة وكاملة عنها؛ لأن شروطا عديدة يجب توافرها لأداء مثل ذلك العمل، ونحتاج إلى آليات أخرى للكشف عنها. ولا بد لي الآن أن أذكر للقراء أنها - ولأسباب تتعلق بالتزاماتها العائلية - تركتنا نتذكر ورعها وتقواها والذكر الحميد الطيب.

وثمة قضية أخرى لابد أن أبدأ بمناقشتها قبل أن يسألني سائل عنها، تلك، هي قضية الدوافع الحقيقية وراء هذه الانتقالة من مجاورة مدينة الضباب[١] إلى الرقعة من الجزيرة العربية التي كانت وطن الشاعر قطري بن الفجاءة[٢]. وهي انتقالة لم أكن لأندم عليها؛ لأن العبد الفقير إلى الله - «الهيتي» - يراها قدرا من الله، فقد التمس أن تكون نعمة وليست نقمة، وأنعمه تعالى عليه كثيرة فهي لا تُعدّ ولا تُحصى. وهو يشعر أن التحدث بتلك النعم من الأمور الممدوحة إن لم تكن واجبة، وقد أُمرنا بها، شريطة أن لا تكون من باب الزهو، ففي أثر لرسول الله - ﷺ - أنه قال: «**إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته**». وقد ذهبت طائفة من سلف هذه الأمة في تفسير قوله تعالى ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾ هو إظهار الإنسان نِعَم الله عليه، فهو تحدّث عملي، رغم أن طائفة أخرى ترى أن تلك الآية خاصة بالرسول الكريم - ﷺ - بمعنى: كما كنت عائلا فقيرا فاغناك الله فحدث بنعمه عليك. فيما ذهب مجاهد إلى أنها: النبوة التي أعطيت لرسول الله - ﷺ -. لكنّي لست مع أولئك القائلين بإخفاء النعمة، فهم خائفون، ولأيديهم قابضون، ولجيوبهم مالؤون، وفي بنوكهم معتكفون، ولأرصدتهم دوما مراقبون. وإذا ذهب بعضهم للتساؤل: إذن وما حديث (اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم)؟ نقول: إنّ هذا الحديث أولا قد ضُعّف، ولا يثبت رفعه للنبي الكريم، ولا تعارض بين الحديث - حتى إذا صحَّ رفعه - وبين الآية ﴿ **وأما**

---

(١) المقصود بها لندن.

(٢) قطري بن الفجاءة: المولود سنة ٧٨هجرية- ٦٩٧ م، هو جعونه بن مازن بن مالك بن عمر بن تميم، لُقّب أبو نعامة في الحرب، وأبو محمد في السِّلم، شاعر الخوارج وخطيبهم المفوّة، سُلّم عليه بالخلافة مدة تقارب العشرين عاما. انظر العقد الفريد، وذكره ابن حزم والذهبي وابن خلكان وغيرهم كثير.

بنعمة ربك فحدّث﴾، فالحديث قد يكون موجها لأناس جعلوا سيرتهم وحياتهم مجرد ترف وإسراف[١]. ولذا فإن من واجبي رغم تلك الرحلة الشاقة التي جعلتُ القارئ الكريم يمشيها معي طوال الفصول السابقة محطةً محطة، صعوبة وسهولة، قوة وضعفا، جزالة وركاكة أن أُفضي له أنّي صرت بفضل الله أتقلب بين أحضان أنعمه سبحانه، وإن خشيت في كثير من الأحايين أن تكون هذه النعمة - التي هي في آخر مرحلة من مراحل حياتي - استدراجا[٢] منه سبحانه مستعيذا به من ذلك.

ومحطتي القطرية هذه ربما تبدأ مع نهايات عام الفين وثمانية، حين بدأت العمل كمدير لأكاديمية قطر للموسيقى التي لم يتم تأسيسها حتى ذلك الوقت، وقد لاحظت أنني كلما وصلت إلى محطة من المحطات التي سبقت هذه المحطة أحسب أنها المحطة الأخيرة التي سيتوقف عندها قطاري. ولا بد من الاعتراف أنني تجاهلت كثيرا من الأحداث الهامة في المحطات السابقة وأرى صعوبة في الرجوع إليها لأن قطاري يسير باتجاه واحد. كما لاحظت أيضا عند مراجعتي السريعة لتلك المحطات التي خلت أني لم أستفد كثيرا من تجاربي الشخصية، فقد وجدت نفسي تجترح السيئات نفسها، وتقترف الأخطاء عينها التي كان لزاما عليّ اجتنابها على الأقل في زمن المحطات التالية تداركا. كما أخشى أنني لم أُوفق في التركيز لتغطية الحواث التربوية تلك التي ربما يستفيد منها رفاقي في المجال التربوي، أو على الأقل أن تكون لهم فرصة الاطلاع عليها حتى وإن لم تكن هامة أو ناجحة لأشاركهم بما مررت به من تجارب قد تكون مشابهة لتجاربهم، فإن كان كذلك فسوف تكون بمثابة مواساة لهم وتعزية، أو إن شئت تسلية، وفي حال فشلي تقديم خبرة جديدة فستظل تلك المحاولة مفيدة، حيث تواضع الباحثون في أصول البحث العلمي على تقرير ذلك،

---

(١) انظر طريق الإسلام، موسوعة الفتاوى، ناصر سليمان العمر.

(٢) فقد أخرج الإمام أحمد في «مسنده» بإسناد حسن عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبدَ من الدنيا على معاصيه على ما يحب فإنما هو استدراجٌ، ثم قرأ قوله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٤، ٤٥)».

فالاتفاق واقع بين جُلّهم في أن البحث وإن لم يأتِ بنتائج جديدة فإنه يبقى دليلا علميا إضافيا مفيدا للباحثين الآخرين شريطة أن يسلك الباحث في بحثه كل السبل المعتبرة، ويتوسل بكل الوسائل المشروعة، ويثبّت عواملَ دون أخرى، ويفترض لبحثه فرضيات سلبية[1] (صفرية)، أو إيجابية. وعندما لا يثبت لديه ما يغاير الأولى فيصبح نفي النفي إثبات. ومهما كانت نتائج البحث في رأيي فهي مؤسِسَة لبحوث أخرى، فإذا أعيدت من قبل باحثين عدة ولعدة مرات، وبطرق شتى، عندها يُصار إلى ما يسمى بتعميم النتائج وعند ذاك يتم إذاعتها. وبعد ذلك يُعدُّ الاستمرار في إعادة تلك التجارب عبثا، إلا إذا غُيّرت الفرضيات أو عُدّلت. لذا على الباحثين أن يعملوا مسحا ميدانيا شاملا للبحوث التي أُقيمت من قبلُ في ذلك المجال قبل الشروع بالجديد منها. أما البديهات أو المسلّمات مثل إن نقول: إن أي لحظة يقضيها المربي أو المدرس في صفّه، أومدير المدرسة أمام مكتبه، أو المحاضر على مدرج جامعته فإنه يصنع خبرة ويشارك في وضع تجربة[2]، فهذا النوع من التعميم لا يحتاج إلى إجراء تجربة.

وبسبب الوظيفة التي تم تقليدي أو تقييدي بها فإني خِلت أني سألتقي في المحطة القطرية هذه، بأحد خلفاء «معبد بن وهب»[3] الجد الأول للمغنين الذي كان أحسنهم غناءً وأجودهم صنعة، وأحسنهم خلقا، وهو فحل المغنين وإمامهم في المدينة على ما يرى ابن اسحاق حتى قالوا فيه:

أجاد طُويس والسُّرَيجي بعده وما قصبات السبق إلا لمعبدِ

---

(١) يفترض الباحثون لبحوثهم فرضيّات وعليهم إثباتها من خلال بحوثهم. فيفترض الباحث مثلا: «لا توجد علاقة بين أعمار المتدربين وإنجازاتهم» وتسمى هذه الفرضية فرضية سالبة أو صفرية، وإذا افترض قائلا: «توجد علاقة ذات مغزى إحصائي بين أعمار المتدربين وإنجازاتهم» فتسمى هذه فرضية موجبة.

(٢) لكن يفوت على كثير منهم تسجيلها أوتوثيقها إما لعدم إدراك منهم أو لكسل يعتريهم.

(٣) هو معبد بن وهب وقيل ابن قطنّي، وقيل أنه خِلاسيّا (وخِلاسيّا بالكسر يطلق على الولد بين أبوين أبيض وأسود) وكان مديد القامة، أَحول. انظر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، لبنان.

وللتدليل على كفاءة معبد، وعلوّ كعبه في ذلك الفن روى الرواة أن هارون الرشيد أمر أن يختاروا له من بين الأصوات الشائعة أحسن مائة، ففعلوا وكان أولها لحن «معبد» في شعر أبي قطيفة، ثم أمرهم أن يختاروا له من بين تلك المائة أفضل عشرة ففعلوا، ثم طلب منهم أن يختاروا ثلاثة فكان: لحن ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة، ولحن ابن محرز في شعر نُصَيب، ولحن إبراهيم الموصلّي في شعر العرجي. ثم أمر أن يختاروا له أندى صوت غُني فيه فاختاروا له لحن ابن محرز في شعر نُصيب:

أهاج هواك المنزل المتقادمُ؟ نَعمْ، وبه ممن شجاك معالِمُ

وكنت أقدِّم رِجْلا وأُؤخر أخرى في تلبية تلك الدعوة، ولقبول تلك الوظيفة، كما كنت صريحا وواضحا مع من انتدبني[1] في شرح أسباب ذلك التردد، حيث خشيت أنّي سأكون أحد النكرات في مجلس يجمع بين معبد وإبراهيم الموصلي وزرياب، وهم الأرباب السابقون للغناء والموسيقى، والأربابِ المعاصرين لعالم السمفونيات، والعمل الأوركسترالي، ونجوم الغناء، وملوك الألحان.

وحُقّ للقارئ الكريم وأخته القارئة الكريمة أن يعجبا لتنقل «الهيتي» بين مختلف الموضوعات، فمرة يضع كتابا في علوم الزراعة ويطل أسبوعيا من نافذة القناة التلفزيونية الثانية في نهاية السبعينيات يتحدث عن ملوحة الأرض وخصوبتها، وفي أخرى تراه يتسقط أخبار سيبويه، ويعلي من شأن مالك بن الريب والسيّاب، ويدلي بدلوه في مراكز اللغة ونوادي الشعر، وتارة يكتب في التربية وإعداد المدرسين وتدريبهم، ويُشرف على رسائل جامعية في ذلك التخصص، ففي هذه الثلاثة ربّما يكون معذورا لأنه تخرج في تلك التخصصات، وقد تقلّد كثيرا من الوظائف والمهام. فهو متنوع التخصصات ومختلف المشارب، فما بالنا نراه الآن يتوسط الفنانين، ويحاكي الملحنين، ويكتب عن أرباب صناعة الموسيقى؟ فهل أُطروحته هي محاولة في أن يأتي في كل محطة من محطاته بنتفٍ تشاكل خبراته التربوية؟

(١) أعني الدكتور سيف الحجري، نائب رئيس مجلس إدارة مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع التي ترأسها سمو الشيخة موزة بنت ناصر المسند.

أو يورد بلُمعٍ تليق بمقاصده، وفِقَرات تجعل قُرّاءَه يتنقلون بها من فائدة إلى مثلها، ويسير بهم بين جِدٍ وهزل، وآثار وسِيَرٍ؟

وحيال الوسط الموسيقي الذي أصبح بإرادته أو بعدمها مديرا لأكاديميتها الوليدة فإن «الهيتي» ومهما حاول أن يخرج من دائرة عصره لن يكون أكثر تحفظا من «ابن خلدون» الذي قال في الموسيقى: (وإذ ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران إذا توافر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجيّ ثم إلى الكمالي، وتفننوا فيه، فتحدث هذه الصناعة؛ لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفننا في مذاهب الملذوذات)[١]. و«أبو خلدون[٢] الهيتي» ينقل عن «ابن خلدون[٣] الإفريقي إنكاره أنّ الموسيقى من صنعة العرب، فهم غير ملة العجم الذين أولعوا بتلك الصنعة، أما العرب فقد برعوا وتفننوا في أساليب الشعر (وجعلوه دون غيره ديوانا لأخبارهم، وحِكَمِهِم وشرفهم، ومحكا لقرائحهم في إصابة المعاني وإجادة الأساليب)[٤].

«والهيتي» في الوقت نفسه لا يريد ترك موضوع الموسيقى دون محاولة منه للتأصيل فيه، لذا فإنه لا يجد بُدّا من سَوق القرائن والآراء المختلفة، وقد يبدأ بجرأة الشيخ «عبدالله الجديع» وهو - والله أعلم - من طائفة مَن همّهم الوصول إلى الحق، فقد خلص في بحثه الموسّع إلى أن (الغناء والموسيقى لهوٌ، والأصل أن يؤخذ منه ما يحقق مصلحة معتبرة، كإظهار الفرح المشروع، أو دفع السّآمةِ والملل، فإن كَثُرَ صدّ عن راجح الخير بحسبه، والمباح رُفِع فيه الحَرَجُ ما لم يَغْلِبْ واجبا أو مندوبا، أو يُوقِعْ في محرّمٍ أو مكروه، فإذا صار

(١) انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.

(٢) كنية الفقير إلى رحمة ربه كاتب هذه الصفحات.

(٣) هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (كنيته أبو زيد)، المولود في تونس سنة ١٣٣٢ صاحب كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، يعتبر مؤسس علم الاجتماع.

(٤) انظر المصدر السابق.

إلى ذلك انتقل عن الإباحة إلى حرمة أو كراهة).[1] وقد حقق الشيخ «الجديع» (انتفاء وجود إجماع على حكم الموسيقى والغناء اجتماعا وافتراقا، وانتفاء وجود نصٍّ من القرآن الكريم تكلم عنهما، وعدم وجود نصٍّ ثابت من السنة قاطع بمنع الموسيقى أو الغناء)[2]. أما من يرون حرمة الغناء فهم أحد اثنين: الأول من يرى التحريم آخذا بقاعدة سد الذرائع المفضية إلى مفاسد حتى وإن كانت محتملة الوقوع، وأما الثاني، فحرمتها عنده اعتماده على النصوص التي غلّب صحتها على ضعفها في السنّة المطهرة.

وقد جرى التمهيد من قبل للعمل في قطر منذ الدعوة الكريمة التي وجِّهت لي من قِبل آل ثاني لأداء فريضة الحج في عام ألفين وأربعة، حيث قطعنا الصحراء الممتدة من الدوحة إلى بيت الله الحرام. وصاحبني المطر في أول ليلة من ليلتين قضيتهما في الدوحة الذي أغرق البيوت، وقطع الطرق، وكان لزاما عليّ أن استعمل كل حيلة لأصل إلى باب الفيلا التي سكنتها في تلك الليلتين، وهذا جعلني أخلص أنه لا عهد لأهل الدوحة بالمطر. فخبراتهم قليلة بالضيف العزيز الذي من أجله صلوا صلاة الاستسقاء طوال السنوات التي خلت، ورغم ما ترك المطر من آثار لكنّ الجميع استبشروا خيرا. وفعلا انعكس الخير كله على الصحراء حيث تشكّلت الغدران وطرّزت ألوان الجِمال رمال الجزيرة، وزحف الخزامى[3] بساطا أخضر فيما راح الحوذان[4] كعيون سحر وجمال أما البروق[5] فنزل هابطا يملأ الوديان بوروده. فأنا لست غريبا عن قطر إذ شهدتُ من قَبْلُ مجالس قطر، وشربتُ قهوتها، وحلّقت في جوّها، وجمعت الكمأة من صحرائها، وأكلت مما صادت شباكها.

---

(١) الموسيقى والغناء في ميزان الإسلام للشيخ عبدالله بن يوسف الجديع، مؤسسة الزيات، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧، صفحة ٦٠٠. والشيخ عبدالله علم بارع مشهود له بطول باع في البحث والتأصيل، وهو عضو مجلس الإفتاء الأوربي.

(٢) المرجع السابق، صفحة ٥٩٧.

(٣) نبات صحراوي طيب الرائحة جميل، وهو نبات واسع الانتشار بألوان أزهاره البنفسجية أو الحمراء رائحته ذكية جدا، وتغنّى كثير من الشعراء به.

(٤) الحوذان نبات صحراوي كثير الزهر، وهو نبات ربيعي متفرش، تؤكل أوراقه.

(٥) البروق: نبات صحراوي، نبات ربيعي أزهاره صغيرة.

ومن طريف ما أنقل للقارئ الكريم في هذه المحطة الإعلان عن أن المايسترو العالمي «مازيل» رفض القدوم من نيويورك إلى الدوحة حتى يتم توفير طائرة خاصة لنقله، محتجا بكثرة مشاغله، وضيق وقته، حيث تم تحديد يوم التاسع والعشرين من شهر نوفمبر عام ألفين وثمانية لتدشين (افتتاح) أوركسترا قطر الفُلهارمونية، لكنّي رأيت أن السبب وراء ذلك الطلب هو شهرته، وما تقتضيه بروتوكلاته الشخصية، حيث يرى مقامه عاليا، وقدمه سابقة. وكانت مساعي رفيقي العميد الأسبق لأكاديمية قطر للموسيقى حميدة، فقد تكللت بالنجاح في رفض مثل ذلك الطلب الذي اعتبرته مثالا لابتزاز أموال الدولة. على أية حال فقد حسم «مازيل» المسألة وجاء بطائرة قيل لي أنها خاصة به - أعني أنه استأجرها لحسابه - وربما جاء ذلك كرد عملي ومباشر على رفضنا الطلب، ولم أكن وقتها إلى جنب «مازيل» في الطائرة لكي أصفه لمن يقرأ وقت كان متصرّما وهو قابع على ما يزيد على العشر ساعات في تلك الطائرة التي تكاد تخلو من المسافرين سواه، لكن يظل «مازيل» مهما وصفنا أحد أرباب الموسيقى المعاصرة.

أمّا الآن وبعد أن وصل موكبه إلى مسرح قطر الوطني فإني أحاول جاهدا أن أنقل لكم المشاهد حية على الهواء. ولا أخفي على أحد أنّي لم أكن متشوقا للقيام بهذا العمل ولا متحمسا للقائه، وهو الآخر على ما أعتقد غير مكترث بلقاء من هو مثلي. على أيّة حال، أُشاهد الآن مجموعة من الناس وهي تجود بالمهج في ساحة الاستقبال تندفع باتجاه «مازيل»، وأفراد تلك المجموعة أراهم في منافسة شديدة في الحصول على لقطة تذكارية من قبل المصورين الذين تسابقوا ليكونوا في مواجهة المايسترو. فـ (يد) «مازيل» التي حملت عصا قيادة أوركسترا نيويورك لمدة طويلة يدٌ كريمة ليست كأيدي الباقين، ويَشّرُف من يحالفه الحظ بمسّها، وصاحب الحظوة من يكون له السبق في ذلك. أراه وقد حالت نظّارة شديدة السواد - غطّت نصف وجهه - بيننا وبين عينيه، فحرمنا الرجل من رؤيته التي هي حق من حقوقنا المشروعة، وأراه الآن يصعد السلالم حيث الطابق الأول غير مكترث بمن يحيط به من الناس، متوجها إلى صالة غُصّت بأمةٍ من الناس تنتظره، وكل

منهم يتشوف إلى أن يكون الأقرب منه، وقد تخيل كل واحد منهم مكان تلك الصورة تلك التي سيلتقطها المصورون وهم والحمد لله كُثر، فهي عندهم أهم صورة سيتم تعليقها في البيت، أو يُتحفون بها مكاتبهم ليفخروا بها أمام زائريهم، وهي عندهم بكل تأكيد أغلى من شجرة الأنساب، وأثمن من مخطط الأحساب. أما هنا، حيث وقف أصحاب الشأن في مجال الموسيقى صفّا كأنهم بنيان مرصوص جنبا إلى جنب مع مراسلي الصحف، والمترجمين وكأن على رؤوسهم الطير، كلٌّ قد ارتدى أغلى الحلل وأحلاها، وتعطر بأجود العطور، لكنني أقرأ في عيون بعضهم حسدا[1] لا أظنه من النوع المحمود - أعني حسد الغبطة - لأن نجوميته أعلى من نجوميتهم، لكن أحلاما وردية تراودهم أنهم ليسوا على مبعدة من ذلك اليوم الذي سيكونون فيه بالمكانة نفسها، وكأني بهم يرددون ما ردده صاحب الأغاني «أبو فرج الأصفهاني» من قبلُ[2]:

فإذا رأيت فتى بأعلى رتبة ... في شامخ من عزّة المترفعِ
قالت لي النفس العزوف بفضلها ... ما كان أولاني بذاك الموضعِ

فمصافحتهم له ستكون آخر السطور التي ستُكتب في صحائف أعمالهم - أعني في السّير الذاتية لهم - كما اعتاد على فعل ذلك كثيرٌ منهم، فقد لاحظت بعد اطلاعي على العشرات بل المئات من سيرهم الذاتية أنهم مولعون في جمع قصاصات من الصحف والجرائد والمجلات وقد ظهروا فيها خلف أعوادهم وآلاتهم الموسيقية في حفلات أعياد الميلاد، أو الزفاف، أو الوفاة، أو.... ، وهي حسب ظنهم أرقى من أشرف الأوسمة، وأرفع من أعلى الدرجات، وأعلى من أهم الشهادات.

---

(١) اكتشفت بين الموسيقيين حسدا لا مثيل له إلا ما أعرفه بين بعض علماء الدين من قبل. والقصة بين الموصلي وتلميذه زرياب التي سوف تأتي خير شاهد.

(٢) الأبيات لأبي الفرج الأصفهاني. انظر «جولة في كتابي (الأغاني) و(السيف اليماني فنحر الأصفهاني)»، مقالة بقلم الشيخ محمد المجذوب.

أما أنا فما زلت أُحدّث نفسي بعد أن رأيت نفسي وقد نأت وابتعدت عن مركز الحدث، وصرت أرقب الناس أكثر مما أرقب صاحب الحدث. ولا أدري كيف صرت أعمل مقارنة بين «مازيل» وبين ملايين الأطفال من الحاملين كتاب الله في صدورهم، وقد حفظوا عن ظهر قلب كل سكناته، وحركاته، ووقفاته، وهمساته، وغننه، ومدوده، دون عنعنة[1] قيس وتميم، أو شنشنة[2] اليمن، أو عجعجة[3] قضاعة، أوفحفحة[4] هذيل، أو كشكشة[5] ربيعة ومضر، أو طمطمانية[6] حمير وطي والأزد، أو لخلخانية[7] أعراب الشحر وعُمان، وكذلك دون تأتأة، أو تلكؤ، أو تردد، لا بل ذهبت طائفة منهم لحفظه بقراءاته السبع، وأخرى برواياته العشر، وما وقف أحدٌ من هؤلاء الذين أمامي ولو مرة إجلالا أو إكبارا لواحد منهم، فضلا عن أنهم لم يفكروا في التقاط صورة واحدة مع أحدهم، وربما كثرة الحفّاظ أبعدتهم عن ميزة الندرة. مع أنني لا أريد بذلك غمط حق «مازيل»، فهي صنعتة وقد أجادها، لكنّي أراها أقل خطرا وأهمية من حفظ كتاب تزيد عدد آيه على ستة آلآف ومائتين وثلاثين وستة، وتربو صفحاته على ستمائة صفحة.

ولمتابعة الموقف تراني ما زلت انتظر من المايسترو أن يخلع نظارته ولو لساعة اللقاء، فهي بالنسبة لي كاللثام وعليه إماطته، وعلينا معاملتة بالمثل، فقومه طلبوا إماطة الحجاب عن رؤوس فتياتنا. وكأن نظارة الرجل أصبحت قضية ملّحة بالنسبة لي، لذا فإن الفضول دفعني لأسأل مَنْ كان إلى جانبي، وهو حسب علمي، أعرف بالرجل منّي، فقد درس حياته، واحتفظ بأعماله، وتبارك بشهرته، فأجاب إجابة الخبير، واعتبر مجرد سؤالي له إحدى

---

(١) العنعنة: وهي قلب الهمزة عينا في لغة قيس وتميم وأسد، ومثالها «أشهد عنّك رسول» ويعني أشهد أنك رسول.

(٢) الشنشنة: في لغة اليمن حيث يجعلون الكاف شينا، فيقولون: «لبيّش اللهم لبّيش» أي لبيّك اللهم لبيّك.

(٣) العجعجة: حيث يجعلون الياء المشددة جيما، يقولون في تميمي: تميمج، ويقولون: «المطعمون اللحم بالعشجّ»، ويعنون بالعشيّ.

(٤) الفحفحة في لغة هُذيل يجعلون الحاء عينا، فيقولون في حتى حين: «عتى حين».

(٥) الكشكشة: جعل الكاف شينا فيقولون «فعيناشِ عيناها وجيدشِ جيدها ...» أي فعيناكِ عيناها وجيدكِ جيدها...

(٦) الطمطمانية: «كقولهم طاب امهواء» أي الهواء، حيث يجعلون الألف واللام ميما.

(٧) اللخلخانية في اللغة كقولهم مشاالله، يريدون ما شاء الله كان.

مناقبه الحميدة، فقال قولة الواثق: إن «مازيل» متعب، ومنهك ويضاف إلى ذلك كله أنه يعاني من تورم في أجفان عينيه. وأضاف حالفا ربما غير حانث: أنه لا يريد أن يُري مُريديه من المستقبلين إلا ما استحسنه لنفسه ورضيه لشخصه.

وأخيرا اعتلى «مازيل» في الليلة التي تلت خشبات المسرح الوطني، وبكل شهامة وإن كانت بدون وسامة إذ تجاوز عمره السبعين وقاد «مازيل»الفرقة المؤلفة من مائة عضو وقد تحدّروا من فجاج ثمان وثلاثين دولة أجنبية، ولم يكن بينهم قطريٌ واحدٌ حتى لحظة كتابة هذه الخواطر. وها نحن بانتظار ما سيقدمه «مازيل»، ثم نحاول أن نعقد مقارنة بينه وبين ما قدمه «زرياب»(١) ذلك الفتى البغدادي الذي أضاف وترا خامسا لآلة العود، وهو أول من وضع القواعد لتعليم الغناء للمبتدئين، وأدخل على الموسيقى مقامات كثيرة لم تكن معروفة قبله، وجعل مضراب العود من قوادم ريش النسر بدلا من الخشب، وافتتح الغناء بالنشيد قبل البدء بالنقر. وقد تعدى صاحبنا البغدادي عندما رحل إلى الأندلس فكان «كريستيان ديور» عصره في نقل حضارة الشرق إلى الغرب، فمزيلات العرق، ومعاجين الأسنان، والعطور الفاخرة، والعجائن العطرية أتى بها من بغداد الرشيد إلى قرطبة عبد الرحمن الثاني.

أما أطروحاته في مناديل موائد الطعام فقد جعل قسما منها خاصا بالنساء وآخر بالرجال، وقسّمها إلى مناديل للشفاه وأخرى لليدين وثالثة لتجفيف الجباه والخدود، ولا يجد أحد صعوبة في معرفتها، فألوانها واختلاف أحجامها وطبيعة نسيجها تدل على أنواعها. أما طريقة كلامه فكانت من أعاجيب فنونه، فقد ذُكر أن حديثه يمثّل قمة الرشاقة، وغاية الأناقة أذهل بها جلساءه واقتفى به زوّاره وعوّاده وأخذها عنه الكبير والصغير، إذ ارتقى بالذوق العام للأندلسيين، على خلاف «مازيل» الذي كان منكفئا على عصاه، مُؤثرا السكوت على الكلام أخذا بقاعدة «إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب».

---

(١) زرياب: هو أبو الحسن علي بن نافع مولى المهدي الخليفة العباسي، المولود في الموصل عام ٧٧٧م، وزرياب لقبه، وزرياب في اللغة اسم طائر أسود اللون عذب الصوت، نشأ في بغداد وكان تلميذا لأبي إسحاق الموصلي. وقد أشتعل في قلب أستاذه حسدا فهدده بالاغتيال أو مغادرة بغداد دون رجعة إليها.

إذن لم يذهب «زرياب» إلى الأندلس ليحمل عوده فقط كما فعل «مازيل» بل ضرب على أوتار قلوب الناس ونقلهم إلى واقع ثقافي غير الذي كان. فهل أجاد «مازيل» صنعته كما أجادها «زرياب»؟ وقد ابتكر صاحبنا طرقا لتفخيم الصوت للذين يعانون من ضعف أصواتهم وينصحهم أن يلفّوا بطونهم بلفافة ضخمة من القماش لتحصر الصوت وتقوّيه، أما أولئك الذين يعانون من عيوب تقارب الفكين مما يمنع امتداد الصوت عندهم فكان يوصيهم بوضع قطعة خشبية بمواصفات خاصة بين الفكين عند النوم لمدة معلومة حتى يتجاوزوا ذلك العيب.

وأستميح القرّاء عذرا إن فهموا خطأ أنني قد تحاملت على «مازيل» بما لا يستحق أو لا يناسب من القول فإن كل ما طرحته لن ينال منه شيئا وهو بلا ريب لم يصل إلى هذه المكانة إلا بجدّ واجتهاد - فليس التجريح هدفي، ولا مطلبي، ولا غايتي، بل كل الذي يهمّني أن أنقل للقراء عدم سعادتي بمستوى المبالغة في ذلك الاستقبال، والزيادة في الحفاوة إلى درجة التقديس الذي نُهينا عنه. «والهيتي» تعامل بالمثل عندما طلب من جماهير كان قد دعاهم لمنزله قرب لندن عندما زاره الشيخ الدكتور «سعود بن إبراهيم الشريم» إمام الحرم المكي عام ألفين وواحد، والشيخ كما هو معلوم للقاصي والداني يؤم قرابة ثلاثة ملايين معتمر وحاج في وقت واحد، وقد عَمُر صدره بحفظ كتاب الله، إذ أذعت بينهم عند دعوتهم أن الشيخ لا يحب هذه المظاهر، ويكتفي منكم بالسلام عليه. لكنّ بعضهم إن لم يكن جُلّهم كان قد تجاوز حدود المألوف، وأذكر إنهم دفعوا أثناء زحفهم نحوه كل آثاث المجلس لتجدهم عند قدميه، عندها، قلت لهم: يا سبحان الله، إذن ولِمَ تنكرون على أصحاب الطرق الصوفية عندما يبالغون في إجلال شيوخهم وتقديسهم، وتعتقدون أنهم بذلك قد خرجوا عن جادّة الشرع؟ ثم إنّه من الخطأ أن أفخر - إن كنت أفخر - «بزرياب» لأني فخرت بالماضي وليس لي دور فيه (ليس الفتى من قال كان أبي)، في حين «مازيل» إن فخر فإن له ذلك لأنه يفخر بنفسه (إن الفتى من قال ها أنا ذا).

كما أجدها فرصة سانحة لبث ما أريد بثه حيال موضوع المبالغة والتي تجّر إلى التقديس في أحيان كثيرة، فإني أجد أن هناك من أصحاب العلم والمعرفة والمخترعين والمبدعين من هم أجدر بالاحترام والتقدير، لكن الذي أعتقده ربما يقع خارج اهتمامات الآخرين حيث أصبح لاعب كرة في نظر البعض يساوي العالم كله لا بل أصبح بعض الرؤساء أو الملوك يتفاخرون في استقباله وإكرامه، متوددين له أينما حل أو رحل، لا بل غالى بعض الشباب في الصلاة أمام مجسماته أو صوره والتي أقيمت في بيوتهم ونداءبهم، ولقد نهى الشرع عن المبالغة حتى في العبادة. ويخطأ من يقول أن هذه المبالغة من سنن الحياة، فسنن الحياة ماتقوم به الحياة وتكتمل. فكم هي الأقوام التي كفرت حتى أُدرجو تحت طائفة المشركين بسبب مبالغاتهم في حب نبي أو رسول أو حتى ما دونهم من الناس حيث جنح بهم ذلك الحب والولاء ليعتقدوا بألوهيتهم. فالاتزان مطلوب في الحب وفي سواه، كما هو مطلوب في بقية شؤون الحياة وحتى في بناء حضارات الأمم والدول.

ولعل في نقلي صورة سريعة عن الاستقبال الرسمي في قرطبة الذي جرى لزرياب عام ٨٢٢ م يجعل القرّاء يلتمسون العذر «لمازيل» من أنّ استقباله كان دون استقبال «زرياب»، وأجدني غير آبه بذلك؛ لأن المهم لديّ نقل الحقيقة وإن كان اعترافي بذلك شاهدا عليّ، وللقرّاء بعد ذلك أن يحكموا. فقد كان موكب وصول زرياب إلى قرطبة مهيبا، ولم يكن للخليفة الحكم بن هشام الذي دعاه نصيب في ذلك الاستقبال حيث وافته المنية قبل وصول «زرياب»، لكن الخليفة عبدالرحمن الثاني الملقّب بالأوسط هو الذي استقبله وأحسن وفادته. وقد يتساءل من يقرأ هذه الصفحات: لِمَ حمل «الهيتي» كل تلك النظرة السلبية حيال الاستقبال الحافل الذي حصل عليه «مازيل» في وقت نرى «الهيتي» سواء بإرادته أو بعدمها يدير مؤسسة تُعنى بالموسيقى وكان الأجدر به أن يقف على الحياد على أقل تقدير إذا لم يكن ليقف بجانب «مازيل» رجل الموسيقى، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على مصداقية الدكتور «علي الوردي»[1] الذي وصف المجتمع العراقي بتميّزه بثلاث سمات

(١) انظر كتاب لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، د. علي الوردي، الجزء الأول، الناشر: انتشارات الشريف الرضي،ص ٢٩٧

أساسية وهي: ازدواجية الشخصية لأفراده، وصراع بين البداوة والحضارة، والتناشز الاجتماعي. «والهيتي» قد ولد من رحم ذلك المجتمع. لكن هنا «للهيتي» وقفة فهو ربما يتفق مع «الوردي» في بعض تلك السمات لكنّه يختلف معه إذا عنى بذلك التعميم. فليس كل العراقيين تحتويهم دائرة فرضياته الثلاث. و«الهيتي» كذلك لا يتفق معه على سبيل المثال لا الحصر في نزعة «الغزو» و «الفرهود» التي يراها أقوى عند الفرد العراقي من نزعة العمل والانتاجية تلك التي علّلها «الوردي» باهتمام العراقيين بالربح العاجل الذي يأتيه عن طريق الغلبة (الشطارة) أكثر من اهتمامهم بالربح الآجل الذي يأتيهم عن طريق التأني حيث يقتضي ذلك وقتا لبناء السمعة. أما «الهيتي» فلا يشهد بذلك لعدم وجود دليل على أن أحدا اشتكى مرة من اتجاهات العراقيين نحو العمل، أو شكك بجدّهم وبمثابرتهم على ما يعلم. ثم إنّه يُشهد التاريخ أن الأطفال فضلا عن الكبار كانوا أبّان حرب الخليج الثانية يرفضون شراء بعض المواد خوفا من الله واحتسابا له لأنها مواد قد سُرقت من الكويت حين دخلتها القوات العراقية، فالجنود مهما كانوا «إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة» وإذا استثنينا فالاستثناء لجيوش الراشدين فقد نشرت الحق والعدل وشهدت بذلك شعوب دخلت الإسلام دون سيف.

أما ما ذهب إليه «الوردي» من أن الفرد العراقي يعيش حالة الازدواج بين عالم (المُثل العليا) حيث ينادي بها في كتاباته وخطبه وبين (عالم الواقع) حيث يعيش بالمفاخرات والمنابزات فإن ذلك ليس من ميراث العراقي وحده على حد علمي بل يتميز به أغلب الناس أينما وُجدوا، وحيثما كانوا، فهم يحاولون المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم ويريدون أن يلحقوا بركب الحضارة المادية. لكنني من المؤيدين للدكتور «الوردي» حين عمم قائلا: (الواقع أننا أكثر الأمم ولعا بالشعر وانهماكا فيه)، ولكن، «علي الوردي» وصف ذلك (بالعيب الاجتماعي). فهو يرى أننا نريد أن نسير في مضمار الحضارة الحديثة مع إصرارنا على المحافظة على تراثنا الشعري، وهو يعتقد استحالة ذلك حيث التناقض بينهما واضح. وأنا

لا أرى غضاضة في المحافظة على ذلك التراث والسير في ركب الحضارة في نفس الوقت. لكنّه عقب وكان موفقا في عرض مطلبه وأمله في ضرورة التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في نفوس أفراد الأمة[١].

وعلى العموم فإن «الوردي» قد (افترض بناء عراقيا جديدا لم يبرهن على صحته، ولم يجعله حتما منهجيا)[٢] وإن تلك الفرضيات على الأرجح (ليست من بنات أفكاره، وإنما اقتبسها من علماء غربيين وعرب)[٣]، أما «سليم»[٤] فيعتقد أن الدكتور علي الوردي (قد تأثر بالنزعة الاستشراقية بطريقة شخصية، حيث كانت أقوى عنده من النزعة العلمية الموضوعية .... فهو سجين المفاهيم الغربية التي حاولت أن تلوي معاني المفاهيم بما يتلاءم مع رؤاها العرقية العنصرية). لكنّي ما زلت أرى سواء اختلفت أم اتفقت مع نظرية علي الوردي كما يرى «د. سيّار الجميل»: (أن الدكتور علي الوردي يُعد واحدا من السبّاقين الأوائل في الكشف عن واحد من المجتمعات العربية المعقدة والمركبة والصعبة)[٥].

ولأني مازلت أتجاذب أطراف الحديث معكم في خصوصية المحطة الأخيرة وعموميتها فلي كلمة أخيرة أرجو أن تكون آخر مقالتي، أذيّل بها هذه المحطة، وأناقش فيها فلسفة إنشاء مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع التي انتدبتني للعمل فيها، فقد أُسست أُسُسَا لإرساء قواعد تنمية سليمة لبناء الإنسان والاستثمار فيه. فلمست مع رفاقنا في العمل عندما عقدنا بعض المقارنات بين مؤسسة قطر التربوية ومعظم المؤسسات في دول

(١) نفس المصدر السابق، د. علي الوردي، ص ٣١٨.

(٢) د. منى محمود العين جي، ١٩٩٨ في ضوء فرضية الدكتور علي الوردي في الانتقال من البداوة إلى الحضارة، رسالة دكتوراة/ كلية الآداب/ قسم علم الاجتماع، جامعة بغداد.

(٣) د. معن خليل عمر «رواد علم الاجتماع في العراق» ط١، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠.

(٤) مطر سليم، النزعة الاستشراقية العنصرية في فكر الحداثة: «علي الوردي وبداوة المجتمع العراقي». جنيف ١٩٩٩، انظر د. لاهاي عبدالحسين: موقع الإنثروبولوجيين والاجتماعيين العرب.

(٥) أ. د. سيار الجميل، ٢٠١٠، علي الوردي ظاهرة المجتمع العراقي/ مركز علي الوردي للدراسات والبحوث، (Facebook).

العالم الثالث أن هناك فروقا جوهرية بين مؤسسة قطر التي نحن بصدد الحديث عنها وبين المؤسسات المماثلة في معظم دول العالم النامي والتي أدّت إلى ذلك السبق وحققت ذلك النجاح لأنها أعطت: هامشا من الحرية أكبر، وثقة أعلى بالكوادر المهاجرة إليها، وتدخلا في سياسة المعاهد والأقسام أقل، وتخصيصات مالية أعظم. يضاف إلى ذلك ما تميزت به دولة قطر من أمن مكين، واستقرار وطيد، وربما حسن تعامل أهلها مع ضيوفهم عموما. ونرى أن المؤسسة إذا ما استمرت في تدعيم تلك التوجهات والسياسات فإنها ستحقق أهدافها في تسليم الراية لجيل مؤهل من القطريين لا محالة في ذلك. وفي حالة تعجّل القطريين في تسليم تلك الراية قبل النضج اللازم فإنهم سيخفقون في ذلك، فجيل المهاجرين من العلماء وأرباب الصناعة بمختلف التخصصات من مختلف فجاج العالم عندما جاؤوا إلى قطر أعجبوا أولا بمساحة الحرية الممنوحة، ومدى الثقة المعطاة، وحجم التخصيصات المالية المتاحة. فالخلفيات العلمية للذين تقاطروا على المؤسسة غالية وعالية، فقد نجحت دولهم بعد عناء وإنفاق في إعداده كعلماء وباحثين، فهم خبرة جاهزة ومتراكمة. فخبرات بعضهم قاربت نصف قرن. وقد نضجت اتجاهاتهم وأينعت ثمار علومهم، وتنوعت اختصاصاتهم، ونزلت في المجلات العالمية العلمية الشهيرة مقالاتهم، وانتشرت مبتكراتهم، وملأت كتبهم رفوف المكتبات، وشهدت لمعظمهم المحافل العلمية بالفضل والسَّبق، فهم قطعا بسبب عوامل الجذب الإيجابية تركوا الجنّات والعيون، والمقام الكريم، وأحيانا الولد والحفيد. فكم بذلوا من وقت، وكم عانوا من نكد، وكم صبروا على ضيم، فعملوا في وقت راحتهم، وواصلوا العمل ليل نهار ليغطي بعضهم نفقات دراسته. فالعلم لا تنبت شجرته إلا في تربة الحرية، ولا تعلو إلا في جو الاحترام، ولا تثمر إلا تحت شمس الأمن والاستقرار، ويبدو لي أن دولة قطر تحاول توفير تلك المتطلبات.

على أن نجاح قطر في مشروعها الوطني في بناء الإنسان سيكون بين مد وجزر أعني أنها كلما اقتربت من توفير الشروط أعلاه تقدمت، وكلما ابتعدت في إلزام نفسها بها لسبب

ما كالاعتماد على الكوادر الوطنية قبل نضجها بسبب الوطنية أو الاستشارة غير الواعية فإن قصورًا في التعجيل سوف يحدث لا محالة.

في الختام أرجو أن يعلم القراء الكرام أني ما زلت أحمل كاميرتي لتصوير ما أجده مفيدًا لإكمال هذه المحطة لأنها تستحق المزيد.

مضامين الكتاب

المحتـــوى	رقم الصفحة
تمهيد	١٥
لِمَ ركب الكاتب بحر الكتابة بعد أن تجاوز الستين؟	
المحطة الأولى	٢٣
المراحلُ المبكرةُ في نقل الخبرة	
المحطة الثانية	٤١
عند مدافن« شبعاد» و«سمير أميس»	
المحطة الثالثة	٥٩
تجربتي الأولى في التربية والتعليم	
المحطة الرابعة	٨٩
غرب العراق	
المحطة الخامسة	١٢١
لا بدَّ أن تكون مديرًا	
المحطة السادسة	١٤٩
الفشل أو النجاح	
المحطة السابعة	١٨١
الموت البطيء	
المحطة الثامنة	٢٠١
في الشمال الأفريقي مع إدريس	
المحطة التاسعة	٢٣١
«لندن» نقطة اللاعودة	
المحطة العاشرة	٢٦٥
المحطة القطرية «زرياب»	

إصدارات وزارة الثقافة والفنون والتراث

إدارة البحوث والدراسات الثقافية

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١	البدء من جديد	حصة العوضي	٢٠٠٠
٢	بداية أخرى	فاطمة الكواري	٢٠٠٠
٣	أصوات من القصة القصيرة في قطر	د. حسن رشيد	٢٠٠٠
٤	دنيانا .... مهرجان الأيام والليالي	دلال خليفة	٢٠٠٠
٥	قالت ستأتي	جاسم صفر	٢٠٠٠
٦	غنج الأميرة النائمة	فاروق يوسف	٢٠٠١
٧	وريثة الصحراء	سعاد الكواري	٢٠٠١
٨	ويخضر غصن الأمل	أحمد الصديقي	٢٠٠١
٩	بستان الشعر	حمد محسن النعيمي	٢٠٠١
١٠	رومانوف وجوليت	ترجمة/ النور عثمان	٢٠٠١
١١	الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة	د. حسام الخطيب	٢٠٠١
١٢	الحضن البارد	د. حسن رشيد	٢٠٠١
١٣	سحابة صيف شتوية	خالد عبيدان	٢٠٠١
١٤	سيرة الوجع	أمير تاج السر	٢٠٠١
١٥	وجوه خلف أشرعة الزمن	حصة العوضي	٢٠٠١
١٦	حافة الموسيقى	غازي الذيبة	٢٠٠١
١٧	قصص أطفال	د. هيا الكواري	٢٠٠١
١٨	أوراق نسائية	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠١
١٩	الفريج	إسماعيل ثامر	٢٠٠١

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٢٠	الأعمال الشعرية الكاملة ج١ - ج٢	د. أحمد الدوسري	٢٠٠٢
٢١	علمني كيف أحبك	معروف رفيق	٢٠٠٢
٢٢	قصص وحكايات شعبية	خليفة السيد	٢٠٠٢
٢٣	رحلة أيامي	صدى الحرمان	٢٠٠٢
٢٤	جرح وملح	عبد الرحيم الصديقي	٢٠٠٢
٢٥	خلف كل طلاق حكاية	وداد الكواري	٢٠٠٢
٢٦	دراسات في الإعلام والثقافة والتربية	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠٢
٢٧	النثر العربي القديم	د. عبد الله إبراهيم	٢٠٠٢
٢٨	كأن الأشياء لم تكن	جاسم صفر	٢٠٠٢
٢٩	نعاس المغني	عبد السلام جاد الله	٢٠٠٢
٣٠	مدى	د. زكية مال الله	٢٠٠٢
٣١	قال المعنى	خليل الفزيع	٢٠٠٢
٣٢	المسرح الألماني المعاصر	د. عوني كرومي	٢٠٠٢
٣٣	المسرح في بريطانيا	محمد رياض عصمت	٢٠٠٢
٣٤	إبراهيم ناجي - الأعمال الشعرية المختارة	حسن توفيق	٢٠٠٢
٣٥	مسرح الصورة بين النظرية والتطبيق	د. صلاح القصب	٢٠٠٣
٣٦	النوافذ السبع	صيتة العذبة	٢٠٠٣
٣٧	الرحيل والميلاد	جمال فايز	٢٠٠٣
٣٨	أوراق ثقافية	د. كلثم جبر	٢٠٠٣
٣٩	بدائع الشعر الشعبي القطري	علي الفياض/ علي المناعي	٢٠٠٣
٤٠	شبابيك المدينة	ظافر الهاجري	٢٠٠٣

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٤١	حضارة العصر الحديث	د. شعاع اليوسف	٢٠٠٣
٤٢	المتراشقون «مسرحية»	غانم السليطي	٢٠٠٣
٤٣	معاناة الداء والعذاب في أشعار السياب	د. حجر أحمد حجر	٢٠٠٣
٤٤	سحائب الروح	سنان المسلماني	٢٠٠٣
٤٥	أصوات قطرية في القصة القصيرة	د. عبد الله إبراهيم	٢٠٠٣
٤٦	ذاكرة الإنسان والمكان	خالد البغدادي	٢٠٠٣
٤٧	إبراهيم العريض شاعراً	عبد الله فرج المرزوقي	٢٠٠٣
٤٨	الصحافة العربية في قطر	إبراهيم إسماعيل	٢٠٠٤
٤٩	أم الفواجع	علي ميرزا	٢٠٠٤
٥٠	صباح الخير أيها الحب	وداد عبداللطيف الكواري	٢٠٠٤
٥١	الصحافة العربية في قطر «مترجم إلى الإنجليزية»	إبراهيم إسماعيل ترجمة / النور عثمان	٢٠٠٤
٥٢	لآلئ قطرية	علي عبد الله الفياض	٢٠٠٥
٥٣	الأعمال الشعرية الكاملة	مبارك بن سيف آل ثاني	٢٠٠٥
٥٤	التفاحة تصرخ.. الخبز يتعرى	دلال خليفة	٢٠٠٥
٥٥	إدارة التغيير	عبد العزيز العسيري	٢٠٠٥
٥٦	الشعر الحديث في قطر	د. عبد الله فرج المرزوقي	٢٠٠٥
٥٧	الشرح المختصر في أمثال قطر	خليفة السيد	٢٠٠٥
٥٨	لؤلؤ الخليج ذاكرة القرن العشرين	خالد زيارة	٢٠٠٥
٥٩	على رمل الخليج	محمد إبراهيم السادة	٢٠٠٥
٦٠	إبداعات خليجية	(مسابقة القصة القصيرة لدول مجلس التعاون)	٢٠٠٥

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٦١	الأدب المقارن وصبوة العالمية	د. حسام الخطيب	٢٠٠٥
٦٢	مهارات الإرشاد النفسي وتطبيقاته	د. موزة المالكي	٢٠٠٥
٦٣	تجريبية عبد الرحمن منيف في مدن الملح	نورة محمد آل سعد	٢٠٠٥
٦٤	المعري يعود بصيراً	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠٥
٦٥	وردة الإشراق	حسن توفيق	٢٠٠٥
٦٦	مجاديفي	حصة العوضي	٢٠٠٥
٦٧	الأعمال الشعرية الكاملة ج١	د. زكية مال الله	٢٠٠٥
٦٨	أسباب للانتماء	رانجيت هوسكوتي ترجمة: ظبية خميس	٢٠٠٥
٦٩	تباريح النوارس	بشرى ناصر	٢٠٠٥
٧٠	المرأة في المسرح الخليجي	د. حسن رشيد	٢٠٠٥
٧١	أبو حيان .. ورقة حب منسية	حمد الرميحي	٢٠٠٥
٧٢	تطور التأليف في علمي العروض والقوافي	د. أنور أبو سويلم د. مريم النعيمي	٢٠٠٥
٧٣	أحزان كبيرة	أمير تاج السر	٢٠٠٥
٧٤	الديوان الشعبي	عيد بن صلهام الكبيسي	٢٠٠٥
٧٥	ذاكرة الذخيرة	علي بن خميس المهندي	٢٠٠٦
٧٦	تجليات القص «مع دراسة تطبيقية في القصة القطرية»	باسم عبود الياسري	٢٠٠٦
٧٧	سمط الدهر «قراءة في ضوء نظرية النظم»	د. أحمد سعد	٢٠٠٦
٧٨	كان يا ما كان	خولة المناعي	٢٠٠٦
٧٩	الظل والهجير «نصوص مسرحية»	د. حسن رشيد	٢٠٠٦

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٨٠	الرواية والتاريخ	مجموعة مؤلفين	٢٠٠٦
٨١	وجوه متشابهة «قصص قصيرة»	خليفة عبد الله الهزاع	٢٠٠٦
٨٢	المسرح والمدينة	د. يونس لوليدي	٢٠٠٦
٨٣	الأعمال الشعرية الكاملة ج٢	د. زكية مال الله	٢٠٠٦
٨٤	الدفتر الملون الأوراق	حصة العوضي	٢٠٠٦
٨٥	الظل وأنا	نسرين قفة	٢٠٠٦
٨٦	حقيبة سفر	صفاء العبد	٢٠٠٦
٨٧	مسرحيات قطرية (أمجاد يا عرب - هلو Gulf)	غانم السليطي	٢٠٠٦
٨٨	العالم وتحولاته (التاريخ - الهوية - العولمة)	د. إسماعيل الربيعي	٢٠٠٦
٨٩	موال الفرح والحزن والفيلة «نصان مسرحيان»	حمد الرميحي	٢٠٠٦
٩٠	حكاية جدتي	مريم النعيمي	٢٠٠٦
٩١	صورة المرأة في مسرح عبدالرحمن المناعي	إمام مصطفى	٢٠٠٦
٩٢	ديوان ابن فرحان	حسن حمد الفرحان	٢٠٠٧
٩٣	موال الفرح والحزن والفيلة «مترجم إلى الفرنسية»	حمد الرميحي	٢٠٠٧
٩٤	الفن التشكيلي القطري.. تتابع الأجيال	خالد البغدادي	٢٠٠٧
٩٥	دراسة في الشعر النبطي	حمد الفرحان النعيمي	٢٠٠٧
٩٦	بداية أخرى «مترجم إلى الإنجليزية»	فاطمة الكواري	٢٠٠٧
٩٧	وجع امرأة عربية «مترجم إلى الإنجليزية»	د. كلثم جبر	٢٠٠٧
٩٨	الخيل.. رياضة الآباء والأجداد	صلاح الجيدة	٢٠٠٧
٩٩	النقد بين الفن والأخلاق، حتى نهاية القرن الرابع الهجري	د. مريم النعيمي	٢٠٠٨

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١٠٠	وداع العشاق	حسين أبو بكر المحضار	٢٠٠٨
١٠١	الوزة الكسولة	د. لطيفة السليطي	٢٠٠٨
١٠٢	المهن والحرف والصناعات الشعبية في قطر	خليفة السيد محمد المالكي	٢٠٠٨
١٠٣	العشر الأوائل.. رائدات الفن التشكيلي في قطر	خولة المناعي	٢٠٠٨
١٠٤	الرواية العربية.. رحلة بحث عن المعنى	عماد البليك	٢٠٠٨
١٠٥	دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر	د. عبد القادر حمود القحطاني	٢٠٠٨
١٠٦	السلاحف البحرية في دولة قطر	د. جاسم عبد الله الخياط د. محسن عبد الله العنسي	٢٠٠٨
١٠٧	تجليات اللون في الشعر العربي الحديث في النصف الثاني من القرن العشرين	د. ماجد فارس قاروط	٢٠٠٨
١٠٨	الموسوعة الصيدلانية	د. زكية مال الله	٢٠٠٩
١٠٩	المدارس المسرحية منذ عصر الإغريق حتى العصر الحاضر	أ. د. جمعة أحمد قاجة	٢٠٠٩
١١٠	من أفواه الرواة	علي عبد الله الفياض	٢٠٠٩
١١١	صورة الأسرة العربية في الدراما التلفزيونية	د. إبراهيم إسماعيل	٢٠٠٩
١١٢	دور الدراما القطرية في معالجة مشكلات المجتمع	د. ربيعة الكواري د. سمية متولي عرفات	٢٠٠٩
١١٣	ديوان الغربة	إسماعيل تامر	٢٠٠٩
١١٤	الحب والعبودية في مسرح حمد الرميحي	خالد سالم الكلباني	٢٠٠٩
١١٥	قصة حب طبل وطارة «مترجم إلى الإنجليزية»	حمد الرميحي	٢٠١٠
١١٦	التراث والسرد	د. حسن المخلف	٢٠١٠

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١١٧	ديوان الأعشى (جزآن)	تحقيق: د. محمود الرضواني	٢٠١٠
١١٨	توظيف التراث في شعر سميح القاسم	لولوة حسن العبدالله	٢٠١٠
١١٩	إساءة الوالدين إلى الأبناء وفاعلية برنامج إرشادي لعلاجها	أمل المسلماني	٢٠١٠
١٢٠	شحنات المكان	ياسين النصير	٢٠١٠
١٢١	من أدب الزنوج الأمريكان	عبدالكريم قاسم حرب	٢٠١٠
١٢٢	أزهار ذابلة وقصائد مجهولة للسياب	حسن توفيق	٢٠١٠
١٢٣	وضاح اليمن دراسة في موروثه الشعري	د. باسم عبود الياسري	٢٠١٠
١٢٤	قطر الندى	ندى لطفي الحاج حسين	٢٠١١
١٢٥	الوحي الثائر «سلسلة شعراء من السودان»	فضل الحاج علي	٢٠١١
١٢٦	شيء من التقوى «سلسلة شعراء من السودان»	الجيلي صلاح الدين	٢٠١١
١٢٧	في مرايا الحقول «سلسلة شعراء من السودان»	محمد عثمان كجراي	٢٠١١
١٢٨	المغاني «سلسلة شعراء من السودان»	مصطفى طيب الأسماء	٢٠١١
١٢٩	على شاطئ السراب «سلسلة شعراء من السودان»	أبو القاسم عثمان	٢٠١١
١٣٠	ديوان أم القرى «سلسلة شعراء من السودان»	الشيخ عثمان محمد أونسة	٢٠١١
١٣١	في ميزان قيم الرجال «سلسلة شعراء من السودان»	محمد عثمان عبدالرحيم	٢٠١١
١٣٢	من وادي عبقر «سلسلة شعراء من السودان»	د. سعد الدين فوزي	٢٠١١
١٣٣	شبّابتي «سلسلة شعراء من السودان»	حسين محمد حمدنا الله	٢٠١١
١٣٤	غارة وغروب «سلسلة شعراء من السودان»	محمد المهدي المجذوب	٢٠١١
١٣٥	من التراب «سلسلة شعراء من السودان»	د. محيي الدين صابر	٢٠١١

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١٣٦	المجموعة الشعرية الكاملة «سلسلة شعراء من السودان»	محمد محمد علي	٢٠١١
١٣٧	النظام الدستوري في دولة قطر	أ.د. رعد ناجي الجده	٢٠١٢
١٣٨	الفريج (رواية) - الطبعة الثانية	إسماعيل تامر	٢٠١٢
١٣٩	السردية الشفاهية	محمد إبراهيم السادة	٢٠١٣
١٤٠	حادي العيس	خليل الفزيع	٢٠١٣
١٤١	هموم في الإدارة	د. هند المفتاح	٢٠١٣
١٤٢	هالشكل يا زعفران (مسرحيتان باللهجة العامية)	عبدالرحمن المناعي	٢٠١٣
١٤٣	مقامات ابن بحر	عبدالرحمن المناعي	٢٠١٣
١٤٤	القدس في عيون الشعراء	محمد قجة	٢٠١٣
١٤٥	المصورون في قطر	حسين الجابر	٢٠١٣
١٤٦	عناكب الروح	بشرى ناصر	٢٠١٣
١٤٧	الخليج العربي دراسات في الأصول التاريخية والتطور السياسي	د. مصطفى عقيل الخطيب	٢٠١٣
١٤٨	فنّ الرسم عند الأطفال: جماليّاته ومراحل تطوره	سوسن عصفور	٢٠١٣
١٤٩	واحات وظلال	أحمد محمد الصديق	٢٠١٣
١٥٠	حلم يتفتح في صخر	حسن توفيق	٢٠١٤
١٥١	اناشيد البلابل	محمد ابراهيم السادة	٢٠١٤
١٥٢	عيوب الشعر	عبد الله السالم	٢٠١٤
١٥٣	المشكلات العملية في المناقصات والمزايدات	أحمد منصور محمد علي	٢٠١٤

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١٥٤	الخليج حضارة وتاريخ	أحمد بن يوسف الخليفي	٢٠١٤
١٥٥	الحماية القانونية للمأثورات الشعبية القطرية	أ.د. حسن حسين البراوي	٢٠١٤
١٥٦	الإعلام المعاصر وسائله، مهاراته، تأثيراته، أخلاقياته	د. إبراهيم اسماعيل	٢٠١٤
١٥٧	الإصدارات الثقافية لوزارو الثقافة والفنون والتراث من ١٩٧٦ - ٢٠١٣	محمد الكواري شيخة الكواري	٢٠١٤
١٥٨	«سحر الطبيعة في قطر The Magic of Qatar landscape »	أحمد بن يوسف الخليفي	٢٠١٤
١٥٩	سميح القاسم في ظل الغياب	د. يحيى زكريا الأغا	٢٠١٤
١٦٠	الأرنب خرنوق	لولوة البنعلي	٢٠١٤
١٦١	لمسات معمارية	خالد المسلماني	٢٠١٥
١٦٢	البنية النحوية في شعر مبارك بن سيف آل ثاني (دراسة نحوية دلالية)	د. علي الطوالبة	٢٠١٥
١٦٣	قاريء الشرفات	بسام علواني	٢٠١٥